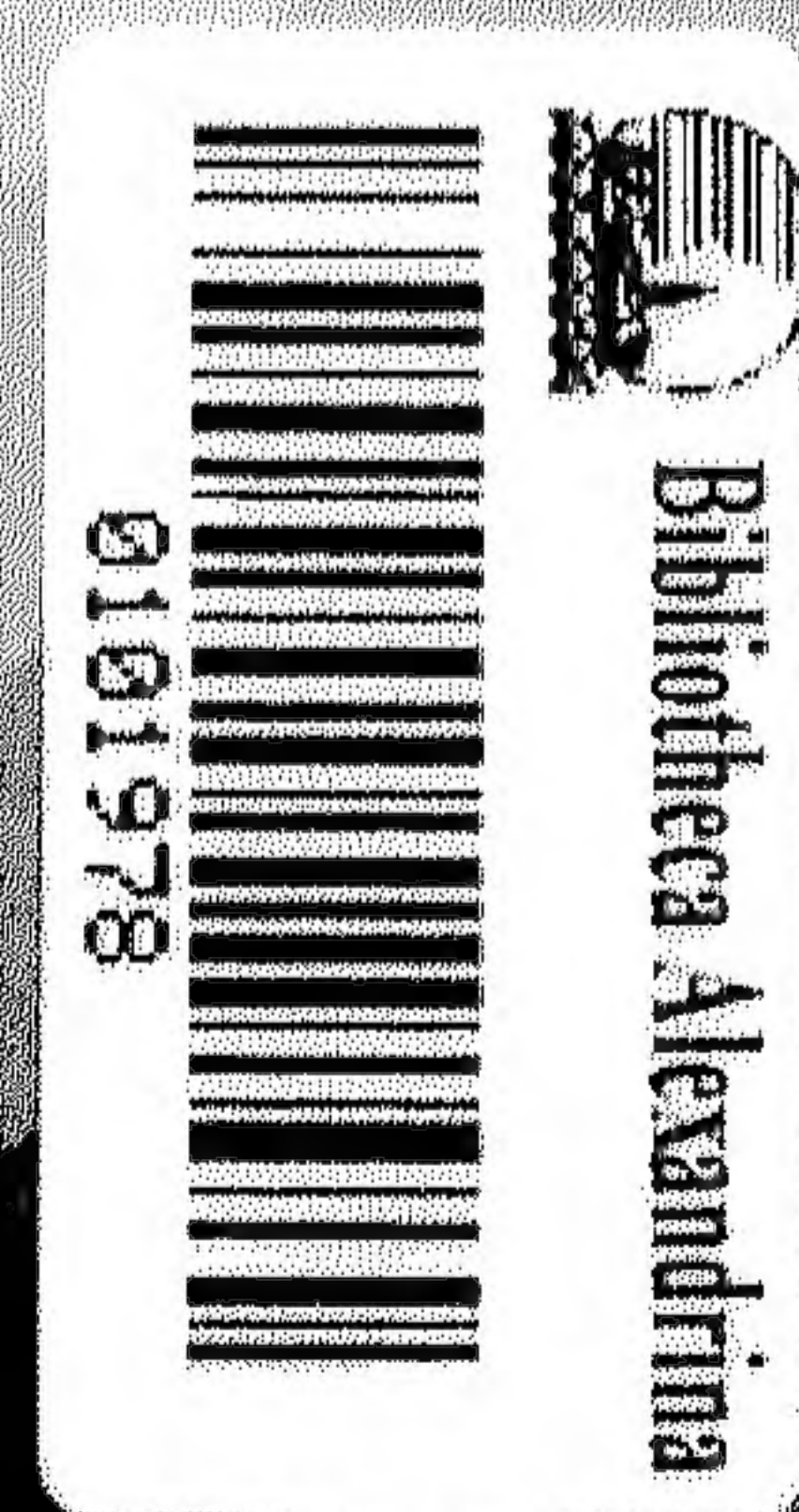


الثقافة
الكتاب
٢٧٨

فخري ابو السعود
في الأدب المقارن
ومقالات أخرى

إعداد: جيهان عرفه
تقديم: د/ محمود علي مكي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

فِي الْأَدَبِ الْمَقَارِنِ وَمَقَالَاتُ أُخَرَى

الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

الإشراف العام
الأستاذ / سمير سرخان
مجلس الإدارة

مجلس التحرير
محمد صليحة

مجلس التحرير
عبد العزيز

الإدارة الفنية والفلاحة
مياء محمد

في الأدب المقارن

ومقالات أخرى

تأليف

فخري أبو السعود

إعداد

جيهان عرفنة

تقديم

د محمود علي مكي

الهيئة العامة للكتاب
رقم التوثيق
809
رقم الاسترجاع
٢٢٦٤٥



الهيئة العامة للكتاب

١٩٩٧

ليتني شتى شخوص أغتدي
سالكا في العيش أشتات الجهات
لى هنا هم ونصبى ها هنا
غرض أسعى له فى غدواتى
أجتبى فنا وفنا ذانتنا
من فنون العيش شتى المتعات
عالما طورا وطورا كاتبنا
وصناع الكف موفور الأداء
عائشا فى كل قوم رائدا
كل جذب قارعا كل صفاة
نائلا من كل أمر ليه
حائزا شتى السجايا والصفات

فخرى أبو السموود

العدد (٨٣)

مجلة الثقافة ١٩٤٠

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٩	مدخل
١١	تقديم
٢٧	أولا : مقالات فى الأدب المقارن
٢٩	على ذكر رواية خسرو شيرين
٣٣	التصوير فى الشعر العربى
٣٧	الأثر اليونانى فى الأدب العربى
٤١	القصة فى الأدب العربى
	ظواهر متماثلة
٤٤	فى تاريخى الأدبين العربى والانجليزى
	الترعة العلمية
٤٨	فى الأدبين العربى والانجليزى
	الأثر الأجنبى
٥٢	فى الأدبين العربى والانجليزى
	طور الثقافة
٥٧	فى الأدبين العربى والانجليزى
	الفكاهة
٦١	فى الأدبين العربى والانجليزى
	اسباب التباهة والخمول
٦٧	فى الأدبين العربى والانجليزى
	الطبيعة
٧٢	فى الأدبين العربى والانجليزى
	أثر الدين فى الأديين
٧٩	العربى والانجليزى

الموضوع	الصفحة
الخرافة	
في الأدبين العربي والانجليزي	٨٤
أثر الفنون	
في الأدبين العربي والانجليزي	٩١
شخصيات الأدياء	
في الأدبين العربي والانجليزي	٩٨
أثر البيئة	
في الأدبين العربي والانجليزي	١٠٤
النقد	
في الأدبين العربي والانجليزي	١١٢
أثر نظام الحكم	
في الأدبين العربي والانجليزي	١١٩
غرض الأدب	
في الأدبين العربي والانجليزي	١٢٧
أثر الترف	
في الأدبين العربي والانجليزي	١٣٤
أشكال الأدب	
في الأدبين العربي والانجليزي	١٤١
الأدب العامي	
في الأدبين العربي والانجليزي	١٤٨
الإنسان	
في الأدبين العربي والانجليزي	١٥٥
التفاؤل والتشاؤم	
في الأدبين العربي والانجليزي	١٦٤
البطولة	
في الأدبين العربي والانجليزي	١٧٢
موضوعات الأدب	
في الأدبين العربي والانجليزي	١٨٠

الصفحة	الموضوع
	الرومانسية والكلاسيكية
١٨٩	في الأدبين العربي والانجليزي
	الحرب
١٩٦	في الادبين العربي والانجليزي
	الطيران والحيوان
٢٠٤	في الأدبين العربي والانجليزي
	الذاتي والموضوعي
٢١٢	في الأدبين العربي والانجليزي
	الشعر والنثر
٢٢٠	في الأدبين العربي والانجليزي
	الطور الفني
٢٢٨	في الأدبين العربي والانجليزي
	القصص
٢٣٥	في الأدبين العربي والانجليزي
	أثر المجتمع
٢٤٢	في الأدبين العربي والانجليزي
	الوصف
٢٥١	في الأدبين العربي والانجليزي
	الخيال
٢٥٩	في الأدبين العربي والانجليزي
	التاريخ
٢٦٦	في الادبين العربي والانجليزي
	بيئات الأدباء
٢٧٢	في الأدبين العربي والانجليزي
	المعنى والأسلوب
٢٧٩	في الأدبين العربي والانجليزي
	أثر الأخلاق
٢٨٧	في الأدبين العربي والانجليزي

الصفحة	الموضوع
	الحكمة
٢٩٥	في الأدبين العربي والانجليزي
	التشابه والاختلاف
٣٠٣	في الأدبين العربي والانجليزي
٣٠٩	ثانيا مقالات أخرى
	تشيسترتون
٣١١	زعيم الرجعية في عصر التطور
٣١٨	الفن يعيد نفسه
٣٢٤	السياسة في الأدب العربي
٣٣٣	فن الحياة
٣٤٠	الأجناس والقوميات
٣٤٩	علم السياسة عند العرب
٣٥٧	قصة المرأة في المجتمع
٣٦٥	الجناة يحاكمون الأبرياء
٣٧٨	تطور فكرة السلام العالمي
٣٨٥	روسيا واتحاد الدول الأوربية
٣٨٨	المثل الأعلى للدولة الحديثة
٣٩٦	الديمقراطية ضمان الرقي الانساني
٤٠٣	ثالثا : مقالات عن فخرى أبو السعود
	أديب مات
٤٠٥	بقلم الأستاذ زكي نجيب محفوظ
	فخرى أبو السعود
٤١٠	للأستاذ أحمد فتحي مرسى
	شعر التصوير والعاطفة
٤١٥	بقلم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٤٢١	ملحق بأسماء وتوازيخ وأماكن نشر المقالات

مدخل

هناك الكثير من الشخصيات انشأ أثرت الحياة الفكرية والأدبية في النصف الأول من القرن العشرين ، وكانت لها اسهامات كبيرة في تشكيل عقل ووجدان القارئ المصري ، ومع ذلك لم تحظ بشهرة واسعة في حياتها ، وسرعان ما طواها النسيان بعد موتها . ومن بين هؤلاء كان الشاعر والناقد « فخرى أبو السعود » . والحق أن أول من جذب اهتمامي كان مقالا للكاتب الكبير رجاء النقاش في أهرام ١٠/٢/١٩٩٥ بعنوان « شاعر ينتحز » ، وفيه طالب رجاء النقاش بجمع مقالات فخرى أبو السعود في الأدب المقارن والتي نشرها في مجلة الرسالة منذ عام ١٩٣٤ وحتى عام ١٩٣٧ . ولقد تحمست كثيرا لهذه الفكرة ولم أكتف بالبحث عن تلك المقالات بل رحمت أقلب في كثير من المجلات الثقافية التي كانت تصدر في تلك الفترة مثل الهلال وأبوللو والثقافة والمقتطف وذلك للتعرف على مدى تلك المقالات لدى أدباء جيله ، ولكن لم أعثر على مقالة واحدة أو حتى رأى في بريد القراء يشتبك مع مقالاته مع أن تلك الفترة كانت تموج بمعارك أدبية حقيقية حيناً ومختلفة أحيانا ، ولكن الصمت التام كان نصيب تلك المقالات . وتساءلت هل يرجع ذلك لشخصية فخرى أبو السعود حيث كان حاد الطباع لا يطيق النقد كما وصفه صديقه الأستاذ أحمد فتحي مرسى في مقالة عنوانها « فخرى أبو السعود » نشرها في مجلة الرسالة بعد وفاته بأسابيع قليلة . أم لأنه كان يطرق مجالا جديدا في الأدب العربي عرف بعد ذلك باسم الأدب المقارن ويرجع له اشاعة مصطلح « الأدب المقارن » في المقارنة بين أدبين بمقالاته التي تزيد عن الأربعين مقالة والتي طرحت العديد من الاشكاليات في تفسير الأدب العربي عند مقارنته بالأدب الانجليزى مما ينم عن معرفة واسعة لمبدع ومفكر كبير ، وقد ساعد على أن تمتد مساحات الصمت بعد وفاته ، أن مدرسة دار العلوم حينما قررت تدريس هذا الفرع من الأدب أرسلت البعثات الى فرنسا وبذلك طغى المنهج الفرنسى في الأدب المقارن ، وهو منهج يقوم على مبدأ التأثير والتأثر الذى يفترض الاتصال التاريخي بين الأدبين ، وليس على مقارنة الجماليات ،

كما كان يقارن « فخرى أبو السعود » ، وبذلك أغلق الباب تماما على مقالاته .

وقد قررت مدرسة دار العلوم تدريس مادة « الأدب المقارن » فى عام ١٩٣٨ أى بعد أن أتم فخرى أبو السعود مقالاته فى مجلة الرسالة بعام واحد وأظن أن تلك المقالات كانت الباعث والدافع لأن يصبح « الأدب المقارن » قسما ضمن أقسام مدرسة دار العلوم والذي كان يرأسه « مهدي علام » آنذاك والغريب أن فخرى أبو السعود لم ينتدب بالتدريس فى هذا القسم ودرس به أحمد خاكي الذي تبع فخرى أبو السعود فى استخدامه لمصطلح « الأدب المقارن » فى مقالات نشرها فى مجلة الثقافة فى نفس الفترة . وربما يكون فى نشر هذه المقالات اليوم مما يثير حولها المناقشات والآراء التى حرمت منها آنذاك وخاصة أن كثيرا من قضاياها لا يزال حيا وفعالا حتى يومنا هذا .

وقد رأيت أن أخصص قسما من الكتاب للمقالات التى كتبها فخرى أبو السعود فى قضايا مختلفة والتى نشرها فى مجلتى الثقافة والهلل منذ عام ١٩٣٩ وحتى ١٩٤٠ بحيث يكون هذا الكتاب جامعا لكل الآثار الأدبية المتبقية من فخرى أبو السعود ، عدا أشعاره التى أشار رجاء النقاش إليها وأنها قد جمعت فى كتاب نشره د . على شلش رحمه الله . كما أضفت تلك المقالات القليلة التى كتبها أصدقاؤه بعد حادثة انتحاره ، وهى الضوء الوحيد الخافت الذى يكشف لنا جانبا من حياة هذا الأديب الكبير وشخصيته التى لا تزال جوانب كثيرة منها غامضة . وقد أضفت بيانا كاملا بكل تلك المقالات وتواريخها وأماكن نشرها فى المجلات المختلفة حتى يعود إليها القارئ المهتم .

وقد راعيت فى إعداد هذه المقالات أن أضيف فى هوامشها معانى الكلمات التى يحتاج إليها القارئ غير المتخصص وطالب الجامعة ليتواصل معها . وفى النهاية ، أشكر الأستاذ د . محمود على مكى على قبوله متحمسا تقديم هذه المقالات .

جيهان عرفة

تقديم

كانت حياته كالشهاب الخاطف ، لم يكده يومض حتى انطفأ ولفه الظلام . . . ولم تكده مخايل نبوغه تلمع مبشرة بطلوع نجم فى فلك الأدب والنقد حتى اختضر الموت عوده وهو فى نضارة الشباب . . . وكان الرزء فيه كبيرا لو أنه قضى نحبه مثل سائر البشر لأجل مكتوب لا مرد له ولا مفر منه . . . ولكن الفاجعة فيه كانت أكبر وأوقع ، حينما اختار الموت بمحض ارادته ، فأنتهى حياته بيده .

كان هذا هو المصير المأساوى الذى اختطه لنفسه فخري. أبو السعود وهو يستقبل أولى سننى العقد الرابع من عمره . . . فاذا أردنا أن نترجم له لم نجد الا بضعة سطور لا تتسع لأكثر منها حياته التى اختصرها بنفسه فلم يجاوز بها الثلاثين من عمره الا بعام واحد .

كان شاعرنا الجاهلى زهير بن أبى سلمى يقول وهو يتحدث عن ملله طول العمر :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين عاما لا أبالك يسأم

ويقال ان فخري أبو السعود كتب وهو يستدعى ملك الموت طائعا مختارا :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثلاثين عاما لا أبالك يسأم

(١)

ولد فخري أبو السعود فى بنها سنة ١٩٠٩ وتخرج فى مدرسة المعلمين بالقاهرة سنة ١٩٣١ ، وكان تفوقه فى دراسته هو الذى حمل وزارة التعليم على ايفاده فى بعثة الى انجلترا ، فبقى هناك سنتين (١٩٣٣ و ١٩٣٤) عاد بعدهما الى أرض الوطن ومعه زوجة بريطانية ،

واشتغل بالتدريس في المعاهد الثانوية ، وأنجبت له زوجته ولدا ، فعاش سعيدا في الاسكندرية مع هذه الأسرة الصغيرة التي ملأت عليه حياته .
ومضت سنوات نعم فيها بهذه الحياة الهادئة المستقرة الى أن نشبت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ فسافرت زوجته ومعها ولدها لزيارة أهلها .
وحالت الحرب دون عودتهما ، ثم علم ب وفاة ابنه غريقا ، وانقطعت عنه أخبار الزوجة ، فاذا بالحياة تظلم في عينيه ، ويستبد به اليأس ، وتضطرب أعصابه ، فيقدم على الانتحار مطلقا النار على رأسه من مسدسه في حديقة داره كان ذلك في صبيحة يوم خريفى فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٤٠ .

وهكذا مضت حياة هذا الأديب في غضاضة الشباب على حين كانته الأوساط الأدبية تتوسم فيه مستقبلا واعدا بجلال الأعمال ، وكان خليل مطران كان يومئذ اليه وهو يرثى أديبا مثله ساقه اليأس الى الانتحار :

شبابه الناضر فى لحدّه	فى ذمة الله وفى عهدّه
به وفاض الحزن عن حده	لهفى عليه يوم جاش الأسى
كالورق الساقط عن ورده	واكتسح الآمال منتورة
يقدر فى حال على رده	باغته اليأس وأى امرئ
مفتقد الآداب فى فقدّه	واها لمبكى على فضله
يا خيبة الدنيا ولم تفده	مات مرجى فى اقتبال الصبا

ومع قصر هذه الحياة التى عاشها فخرى أبو السعود فقد استطاع أن يقدم خلال سنواتها القليلة انتاجا فكريا وفنيا يروع بغزارته وجودته ، فقد كان شاعرا مرهف الحساسية ، غير أن الشعر لم يصرفه عن البحث العلمى الذى جمع فيه بين الاستيعاب العميق للتراث الأدبى العربى والاطلاع الواسع على الآداب الأجنبية ولا سيما الأدب الانجليزى ، وهو ما تكشف عنه سلسلة المقالات التى تقدم لها بهذه السطور ، وترجماته التى نذكر منها نقله لرواية « تس سليلة دوبرفيل » ، Tess of the D'Ubervilles وهى تعد أحسن ما كتبه الروائى الانجليزى توماس هاردى Thomas Hardy (١٨٤٠ - ١٩٢٨) ، وفيها يقص علينا حكاية تلك الفتاة الطيبة الشجاعة التى تنتهى بها المواضع الاجتماعية وقواعد السلوك الصارمة بطغيانها الغاشم الى الموت . وله بجانب ذلك كتاب ألفه عن « الثورة العربية » ونشر سنة ١٩٣٤ ، وثلاثة كتب أخرى لا تزال

مخطوطة أحدها عن الخلافة السياسية والثاني عن الشاعر محمود سامي البارودي ، والثالثة في التربية والتعليم .

- ٢ -

حينما نتأمل مسيرة ثقافتنا المصرية وعلاقتها بالثقافة الغربية خلال العصر المعروف باسم « الاحياء » أى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن العشرين فاننا نلاحظ أن توجه المثقفين المصريين كان فى البداية الى فرنسا . وكان ذلك أمرا طبيعيا فقد كانت فرنسا منذ القرن الثامن عشر هى مركز الاشعاع فى القارة الأوروبية . وأضيف الى ذلك عامل سياسى كان له تأثيره الفعال ، فقد كان التنافس على أشده بين فرنسا وبريطانيا العظمى وهما القوتان الأوربيتان الكبريان اللتان كانتا تتنازعان السيطرة على العالم . ومنذ أن ابتليت مصر بالاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ وبدأ الشعب المصرى كفاحه فى سبيل الاستقلال - اتخذت فرنسا موقفا مؤيدا لهذا الكفاح متعاطفا مع زعمائه . ولم يكن هذا الموقف راجعا الى حرص أيديولوجى على مبادئ حقوق الشعوب فى الحرية والاستقلال ، اذ كانت أطماع فرنسا الاستعمارية لا تقل ضراوة عن أطماع إنجلترا ، وانما كان موقفا أملا ذلك التنافس على حكم البلاد المستضعفة . ومع ذلك فلم يكن أمام زعماء الحركة الوطنية خيار ، فرأيئاهم يطعمون فى أن تعيينهم فرنسا فى كفاحهم ، وهكذا ظلوا يتوافدون على فرنسا متخذين منها منطلقا لدعوتهم ومركزا لمنشوراتهم . كان هذا هو ما قام به جمال الدين الأفغانى وتلميذه محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد .

ولم يختلف موقف الأدباء عن موقف زعماء السياسة ، فقد كانت فرنسا هى محط أنظارهم يفدون عليها فيتعلمون لغتها ويعملون على استيعاب أدبها . فهذا هو شوقى يقضى مدة بعثته فى فرنسا بإشارة من مؤفده الخديو محمد توفيق الذى يوصيه « بأن يقتبس من الآداب الفرنساوية قبسا تستضىء به الآداب العربية » ، ويعود شوقى الى مصر فيصرح بشغفه بثلاثة من شعراء الرومانسية الفرنسية كاد « يفنى فيهم » ، وهم : ألفريد دى موسيه (ت ١٨٥٧) ولامارتين (١٨٦٩) وفيكتور هوجو (١٨٨٥) . وحافظ إبراهيم على الرغم من قلة حظه من الثقافة الفرنسية يترجم - بقدر ما وسعت له معرفته - رواية « البؤساء » لفكتور هوجو ، وخليل مطران ثالث شعراء الاحياء يتقن الفرنسية فى لبنان ، ويدرس الآداب الفرنسية فى باريس قبل أن يعود الى مصر ، فيترجم عددا من روايات شيكسبير ، ولكن لا عن الانجليزية وانما عن ترجمة وسيطة

فرنسية . واسماعيل صبرى يستكمل دراسته للحقوق في فرنسا . والذي نقوله عن الشعراء ينسحب أيضا على الناترين فمحمد المويلحي يلحق بجمال الدين الأفغاني في باريس ، وهناك يتقن الفرنسية ويصادق بعض الأدباء الفرنسيين مثل أليكساندر ديماس (الابن) (ت ١٨٩٥) . ومصطفى لطفى المنفلوطى يعرب عن الفرنسية على الرغم من معرفته المحدودة بها روايات لبرناردان دي سان بيير (ت ١٨١٤) وأليكساندر ديماس (١٨٩٥) وادمون رويستان (١٩١٨) .

على أن الأمر يختلف بعد ذلك منذ أوائل القرن العشرين ، فقد ظلت إنجلترا حتى ذلك الوقت ، وعلى الرغم من احتلالها لمصر على مدى السنوات العشرين الماضية ، لا تتدخل بشكل مباشر في نظام التعليم المصرى ، على أنها بعد ذلك غيرت سياستها فشرعت في فرض اللغة الانجليزية على المدارس المصرية وشيئا فشيئا أصبحت مواد الدراسة أو معظمها تدرس بهذه اللغة على حين تضاعف دور اللغة العربية وانكمش الى حد بعيد . وكان سياسة الاستعمار البريطانى قد فطنوا الى أن اللغة العربية هي قوام الوطنية المصرية ، فحاولوا اضعافها بشتى الوسائل : بدءوا بالدعوة الى احلال العامية المصرية محلها في أواخر القرن الماضى . وكان المبشرون بهذه الدعوة ويلهم سببها والمهندس ويلكوكس وكارل فولرز . ولم تجد الدعوة الى العامية قبولا ، فاستبدل الاستعمار بها دعوة أكثر مباشرة وأشد صرامة وعنفًا ، وهى جعل الانجليزية لغة التعليم . ولعل كثيرا من المصريين الذين لا يشك في وطنيتهم لم يروا بأسا في ذلك ، عملا بالمقولة الماثورة : « تعلموا لغة قوم تأمنوا مكرهم » واعتقادا بأن تعلم لغة المستعمرين وتعرفا لثقافتهم وأوضاعهم يجعلهم أقدر على محاربتهم بمثل سلاحهم .

وكان للعامل السياسى أيضا دوره في ذلك التحول الى الثقافة الانجليزية ، فقد خاب أمل الوطنيين المصريين في فرنسا ، وفقدوا ثقتهم فيما كانوا يعلقون عليه الآمال في تأييدهم لقضيتهم منذ أن عقدت مع بريطانيا « الاتفاق الودى » (سنة ١٩٠٤) الذى أنهى التنافس بين الدولتين بعد أن اتفقتا على تقسيم العالم العربى بينهما ، فانفردت كل منهما بمجموعة من الأقطار تصبح منطقة نفوذ لها .

وهكذا رأينا الجيل الذى تلا الرعيل الأول من رواد النهضة يقبل على الثقافة الانجليزية ، وتتحول البعثات الى إنجلترا وان لم يكن ذلك انقطاعا لتأثير الثقافة الفرنسية التى ظل لها حضور مائل في تكوين شباب المثقفين ، إلا أنه تقلص بعض الشيء بحكم مزاحمة الثقافة الانجليزية .

ولحسن الحظ لم تغلغ سياسة الانجليز التعليمية فى اقضاء اللغة العربية عن وجدان المصريين ، فقد كان الربع الأول من القرن العشرين هو الذى تصاعد فيه مد الحركة الوطنية المتمسكة بلغتها وثقافتها ، كما رافق ذلك حركة واسعة لنشر التراث العربى والعناية به .

ومن هنا برز جيل جديد استطاع أن يحذق الانجليزية ويحسن الاطلاع على ثقافتها وأدبها ، ولكن بغير أن يدير ظهره لثقافته العربية الأصيلة ، بل جمع بين الثقافتين على نحو جدير بالاعجاب ، وكان تعمق هذا الجيل لآداب الانجليز خيرا وبركة على أدبنا العربى ، اذ غذاه بروافد اثرته ووسعت من آفاقه ، وأفسحت الفرصة له لكى يستفيد مما احتوته هذه الثقافة من تجارب فكرية ونقدية . وكان أبرز أعلام هذا الجيل الجديد هم : عباس العقاد و ابراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى ، وهم الذين نألت منهم الجماعة المعروفة باسم « مدرسة الديوان » . أما العقاد فقد كان رجلا عصاميا استطاع أن يستوعب الثقافة الانجليزية معلما نفسه بنفسه ، وأما صاحبا فقد تخرج كلاهما من مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٠٩ ، واشتغل كلاهما بالتدريس فى المعاهد الثانوية ، وكان شكرى قد اوفد فى بعثة الى انجلترا ، فازدادت صلته بالأدب الانجليزى ، ولم يقيض ذلك للمازنى وان لم يقل عن صاحبه اطلاعا على هذا الأدب وتمكنا منه . والطريف أن هؤلاء الثلاثة كانوا من أكثر أدباء عصرهم اقبالا على تراث الأدب العربى وأعمقهم دراسة له ، حتى انهم أصبحوا أول رواد لتجديد الشعر العربى بعد جيل الاحياءيين ، وكانوا يجمعون بين الابداع فى مجال الشعر والنثر والنهوض بأقوى حركة نقدية فى مطلع هذا القرن ، ولعلمهم خير نموذج يبرز فضل الجمع بين الثقافة العربية والثقافة الأجنبية ، ويبين أن التعمق فى آداب الغير لا يعنى التكر للتراث ولا القطيعة مع أدب الأسلاف .

وقد أشرنا الى أن اثنين من هؤلاء الرواد تخرجوا فى مدرسة المعلمين العليا ، وقد كانت من المعاهد التى قصد بها المهيمنون الانجليز على سياسة التعليم المصرى أن ينسلخ المتخرجون فيها عن ثقافتهم العربية ، فقد كانت المواد فيها تدرس بالانجليزية ، وكانت تعنى عناية خاصة بتدريس الأدب الانجليزى وتقديم لطلابها خير نماذج هذا الأدب ، غير أن المفارقة الطريفة كانت فى أن كثيرا من خريجي هذا المعهد ممن قدر لهم أن يضطلعوا بالتعليم فى المدارس الثانوية ، أصبحوا من أقوم الناس على ثقافتهم العربية وأحرصهم على النهوض بها ، والعمل على تجديدها بفضل ما استفادوه من تجارب فكرية ونقدية وفنية زودهم بها اطلاعهم على الأدب الانجليزى وغيره من آداب الغرب .

- ٣ -

الى الجيل التالى من هذه المدرسة ينتمى فخرى أبو السعود ، فقد ولد كما رأينا فى ذات السنة التى تخرج فيها فى مدرسة المعلمين العليا ابراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى (١٩٠٩) ، وكان تخرجه فى هذه المدرسة فى سنة ١٩٣١ وانخرط مثلها فى سلك التعليم بالمدارس الثانوية ، وأوفد فى بعثة الى انجلترا حيث قضى نحو ثلاث سنوات استطاع خلالها أن يستوعب تاريخ الأمة الانجليزية وتاريخ أدبها ومذاهبها الأدبية والنقدية على نحو جدير بالاعجاب .

وشرع فخرى أبو السعود منذ عودته الى أرض الوطن فى مباشرة نشاطه فى الكتابة ، وكان من أول ذلك مقالاته التى نشرها فى مجلة « الرسالة » منذ يناير ١٩٣٤ حتى يونية ١٩٣٧ .

وأول ما نلاحظه على هذه المجموعة من المقالات هو أنه يمكن تصنيفها فى قسمين رئيسيين : القسم الأول يضم المقالات الست الأولى التى نشرت خلال السنتين ١٩٣٤ و ١٩٣٥ . وفيها يعرض فخرى أبو السعود عددا من الملاحظات العامة حول الأدب العربى وتاريخه وقيمه الفنية ، وآراؤه فيها مجملية ليس فيها تفصيل المقالات التالية ، ولكننا نحس منذ المقالة الأولى وهى عن « الأدب العربى والأدب الغربى » أن الهدف من عمله هو المقارنة بين الأدبين ، مصدرا منذ البداية حكما قاسيا على الأدب العربى ، اد يصفه بأنه مقصر دون الأدب الغربى فى كثير من النواحي ، فقد سار دائما على نمط يكاد يكون واحدا ، ثم « كبا بعد العصر العباسى كبوة لم يقل منها الى اليوم ، وكان من عهدنا الى العصر الحديث فى حكم العدم اذا قيس بأداب الأمم الرفيعة » .

وقد كانت هذه المقالة الأولى بمناسبة رواية خسرو وشيرين التى كان قد نشرها على صفحات « الرسالة » الأديب محمد فريد أبو حديد ، وقد كان هذا العمل وما أتبعه به أبو حديد من قصص من أمثال « الملك الضليل » و « سهراب ورستم » وغيرها جديرا بأن يثير اهتمام الأدباء والنقاد ، فهو يعد من أول من استخدم فى هذه القصص شعر التفعيلة غير الملتزم بالقافية ، وهو يعد بذلك من رواد هذا الشعر الجديد الذى شاع بعد ذلك استخدامه منذ منتصف هذا القرن ، والذى يعد أكبر ثورة فى تاريخ الشعر العربى بعد ابتكار الأندلسيين للموشحة فى أواخر القرن التاسع الميلادى . ومع ذلك ، فمن الغريب أن ما قام به أبو حديد (١٨٩٣ - ١٩٦٧) من النظم على هذه الطريقة الجديدة لم يفجر - كما كان يتوقع - حركة

نقدية قوية . ولعل فخري أبو السعود كان من القليلين الذين لفت نظرهم هذا الصوت الجديد المؤذن بثورة شعرية حقيقية . فاستحقت هذه المحاولة التي أطلق عليها اسم « الشعر المرسل » ثناء عريضا ، ومما يستحق التنويه في تعليق أبو السعود على هذا الابتكار أنه تنبأ في ذلك التاريخ المبكر بتسعين : الأول – ما سيقدر لذلك الشعر المرسل من « مستقبل باهر في العربية إذا عالجته الأيدي القديرة » والثاني – ما حذر منه من أنه « يجب أن ينصدي لتجديد الشعر العربي كبار الشعراء الذين عالجوا القريض سنين طوالا ومارسوا اللغة واستوعبوا ثروتها . . . أما أن يتصدي لذلك الناشئون المتحمسون للتجديد على غير بصيرة فلن يأتوا إلا بكل غث لا يؤدي أغراض الشعر العربي ولا يبقى على جمال هذا الشعر » . وكان فخري أبو السعود كان ينظر من حجاب الغيب الى مستقبل شعر التفعيلة، فقد استطاع أن يؤتي ثمراته الطيبة على أيدي كبار الشعراء المقتدرين من أمثال صلاح عبد الصبور ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب ونزار قباني وأحمد عبد المعطي حجازي وعبد الوهاب البياتي وقلة غيرهم ، ثم أتت بعد ذلك أجيال من المتسورين على الأدب أورثهم الجهل والافتقار الى الوهبة جرأة ضارية ، فولفوا في شعر التفعيلة ، آتين فيه بكل غث من القول ليس بينه وبين الشعر أدنى سبب ، وكان هذا هو ما حذر منه أبو السعود قبل أن يحدث بسنوات طوال .

ويتناول كاتبنا في المقالات الثلاث التالية جوانب من الأدب العربي: التصوير في الشعر ، والأثر اليوناني في الأدب ، والقصة ، ويصدر أحكاما على الأدب العربي فيها كثير من القسوة ، فهو يتهم الشعر العربي بالتقصير في التصوير وان كان يستثنى بعض النماذج مثل بعض أوصاف امرئ القيس والمنتبى ، وينعى على الأدب العربي قلة ما استفاده من الاحتكاك بالأدب اليوناني ، الأمر الذي جعله يخلو من الأنواع الأدبية كالملمحة والفن المسرحي والأدب القصصي ، وكلامه عن السلبيات يتسم بالتعميم ، فمقالاته هذه لا تبدو دراسات متعمقة ، وإنما هي خواطر أرسلها رسالا ، وكأنه كان يعد العدة في هذه الأثناء لجمع مادة نقدية وفيرة هي التي كان يستعد لنشرها بعد ذلك في دراسات أكثر تفصيلا .

وفي المقالتين الباقيتين من هذا القسم ، وهما كل ما نشره خلال سنة ١٩٣٥ ، يبدأ فخري أبو السعود في عقد مقارنة شاملة بين الأدبين العربي والانجليزى بحسبة خاصة . فيخصص المقالة الأولى لعدد من الظواهر المتماثلة في الأدبين وقد حددتها فيما يلي :

- العصر الجاهلي شبيه بعصر ما قبل اليزابث (من القرن العاشر حتى السادس عشر) وفيهما كان الأدبان جافين ساذجين المعاني بعيدين عن الصنعة الفنية .
- نهضة العرب بظهور الاسلام تشبه نهضة انجلترا في عصر اليزابث. حينما خرج الشعبان من عزلتهما وكونا امبراطوريتين عظيمتين. فارتقى أدبهما ارتقاء عظيما .
- انتشار اللغة العربية بحكم هذا الاتساع الكبير يشبه انتشار اللغة الانجليزية حتى أصبحت كلتاها لغة عالمية للثقافة .
- انسلاخ من كل من الأمتين شعب مستقل سياسيا لا ثقافيا : الأندلس عن الخلافة العباسية والولايات المتحدة عن انجلترا ، ولكن الزعامة الأدبية بقيت للأمة الأصلية .
- تأثر الأديان بالدين : فالقرآن الكريم أثرى اللغة العربية وأدبها ، وترجمة الأناجيل ثبتت مفردات الانجليزية وأدخلت اليها ثروة لغوية جديدة .
- على أنه يسجل بعد ذلك أن أوجه التباين بين الأدبين أكثر بكثير من وجوه التماثل .

وفي المقالة التالية من هذا القسم يعرض المؤلف مدى وجود النزعة العملية في الأدبين ، وهو يعنى بهذه النزعة اتصالهما بالحياة اليومية الاجتماعية والسياسية فيلاحظ أن هذا الاتصال يسود الأدب الانجليزي على حين يكاد ينعدم في الأدب العربي الذي كان فنا يكاد يكون منقطعا عن الحياة وذلك لأن المشتغلين به كانوا خدما للأمراء وأصحاب السلطان ، الأمر الذي أدى الى غلبة المديح على الشعر في ظل ملكيات استبدادية لا مجال فيها لحرية الأديب أو المفكر ، وعلى عكس ذلك كانت الحياة الديمقراطية في انجلترا هي العامل الأول في اتسام الأدب بالنزعة العملية ، وكان العامل الثاني هو الطباعة التي جعلت الأدباء دائما على اتصال قوى بالمجتمع .

- ٤ -

والقسم الثاني هو الذي يضم مقالات فخرى أبو السعود الست والثلاثين التي نشرتها «الرسالة» فيما بين سبتمبر ١٩٣٦ ويونية ١٩٣٧ . ومن الواضح أنه استعد لكتابة هذه المجموعة خلال السنتين السابقتين. بقراءات أكثر استفاضة ومحاولات للتحليل أعمق غورا ، وإن كانت نظريته لا تختلف في جوهرها عما أجمله في المقالات السابقة .

وفى هذه المقالات عرض المؤلف لكثير من الموضوعات أبرز فيها وجوه الاختلاف بين الأدبين . وهو فى كل هذه الموازنات يلح دائما على ما فى أدبنا من سلبيات ووجوه نقص ، فالأدب الانجليزى هو الذى ترجح كفته دائما على حين تشيل كفة أدبنا العربى ، حتى انه يبلغ فى ذلك مبلغا لا يصل اليه بعض غلاة المستشرقين ممن كانوا ينعون على أدبنا ما ينسبونه اليه من فقر فى الفكر وضيق فى الخيال واهتمام ببهرج الألفاظ نات بهم عن العناية بالمعانى والأخيلة . ولسنا فى حاجة الى التمثل بشواهد على هذه الحملة التى شنّها على كثير من خصائص الشعر العربى التى كان يراها دون ما احتوت عليه أشعار الغربيين سواء منهم القدماء (الاغريق والرومان) أو المحدثون والانجليز على وجه الخصوص . وهو يرد هذا القصور فى الأدب العربى الى أسباب عديدة منها اختلاف الأصول العرقية . وفى المقالة الحادية والأربعين عن التشابه والاختلاف بين الأدبين يشير الى كون العرب أمة سامية ترعرع أدبها تحت سماء الصحراء ، والانجليز أمة آرية شاركت فى تراث الاغريق والرومان . وهى مقولة طالما ردها المستشرقون الغربيون من منطلق أيديولوجية عنصرية استعمارية . وفى المقالة السابعة والثلاثين وهى حول الوراثة وأثرها فى إنتاج الأديب يقول : « للوراثة أثرها الواضح فى أدب ابن الرومى الذى جاء لانتمائه الى الروم ، مخالفا أدب غيره من فحول العربية فى النظرة الى الحياة والطبيعة وفى استقصاء المعانى وتوليدها » . فهو يرد تميز ابن الرومى فى تصوير الطبيعة والتعبير عن متع الحياة الى أصله الاغريقى .

وبعد ، فهل لنا أن نتهم فخري أبو السعود صاحب هذه الأحكام القاسية على الأدب العربى وما تطرق اليه من ادانة للنظام السياسى والاجتماعى للدولة العربية بعد صدر الاسلام بالتبعية للمستشرقين فى مطالعتهم على الأدب العربى الذى كان مرآة لحياة الأمة الاجتماعية والسياسية ؟

ان الانصاف يقتضى منا ألا نتسرع بالحكم ، اذ علينا أن نقوم آراء هذا الكاتب فى سياق الظروف السياسية والفكرية التى كانت تسود المجتمع المصرى فى الوقت الذى كتب فيه أبو السعود تلك المقالات . أما من الناحية السياسية فقد كانت البلاد تمر خلال أوائل الثلاثينيات بأزمة طاحنة ، فقد أعقب إلغاء دستور سنة ١٩٢٣ أن تتابعت على الحكم وزارات من أحزاب الأقلية فرضت على البلاد من القيود على الحريات ما أدى الى غليان شعبى متزايد . وكانت البداية هى وزارة اسماعيل صدقى التى دمغها القضاء ووصمها بالطغيان والارهاب . وزاد الأحوال سوءا عشر المفاوضات مع الحكومة البريطانية بسبب مماطلتها فى تحقيق مطالب

الشعب بالاستقلال وجلاء قوات الاحتلال البريطانية . وكانت السلطة الاستعمارية لا تكف عن التدخل في شئون البلاد متواطئة في ذلك مع القصر الملكي الذي كان يسعى الى فرض حكمه المطلق . وأخيرا استطاعت حكومة الوفد أن تعقد مع انجلترا معاهدة ١٩٣٦ التي كانت على الرغم من عيوبها خطوة في طريق الاستقلال .

ومع هذا الصراع السياسي كان هناك صراع اجتماعي وفكري بين التيار التقدمي الذي يسعى لتحرير الفكر وبين معادل الرجعية والتخلف . لم يكن العهد بعيدا بمعركتي الفكر التنويري اللتين نشبتا في أواخر العقد السابق حول كتاب « الاسلام وأصول الحكم » لعلي عبد الرازق ، وكتاب « الشعر الجاهلي » لطله حسين ، واستمر هذا الصراع خلال السنوات الأولى من العقد الثالث . وكان من مظاهر سطوة الفكر الرجعي أن وزارة التعليم التي كانت تسمى « المعارف » قد أسندت ما بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣٤ الى محمد حلمي عيسى أحد عتاة التزمت ، فكان مما قام به اغلاق معهد التمثيل ، ومعارضة تعليم المرأة وايقاف كل نشاط فني بحجة الحفاظ على التقاليد .

ازاء هذه الهجمة الرجعية كان على المفكرين المتحررين أن يشحذوا أسلحتهم وينعموا النظر لا في حاضر أمثهم فحسب ، بل في ماضيها أيضا لتعرف جذور التخلف الذي كنا نعاني منه في كل مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية . ومن هنا ظهرت حركة هي ضرب من « النقد الذاتي » الذي يرى أن أول خطي الاصلاح هو تشخيص ظواهر المرض وتحليل أسباب التخلف مهما كان ذلك مؤلما وموجعا . أما الطنطنة بأمجاد الماضي ورفع شعارات قومية غوغائية فانه لا يزيدنا الا ارتكاسا في المحنة . واغماضا للعيون عما يجب علينا علاجه من الأدواء .

وتجلت مظاهر هذا التيار التنويري في عدد من الكتب والدراسات عمل فيها رواد التجديد الفكري على طرح مشكلات الحاضر في صراحة لا تعرف الهوادة ، واعادة النظر في ماضيها كله بروح نقدية صارمة ، وتناولت هذه المراجعات كل جوانب الحياة ، وأخذ المفكرون والأدباء في فحص تراثنا القديم وتحليله مبينين ما يحتوي عليه من قيم ايجابية يجدر بنا أن نستبقها ، ومن نواقص سلبية يجب أن نميط عنها اللثام اذا أردنا أن نمضي في طريق الاصلاح . ونذكر من هذه الكتب النقدية - على سبيل المثال « ثورة الأدب » لمحمد حسين هيكل ، و « مستقبل الثقافة في مصر » الذي طرح فيه طه حسين مشروعا متكاملا للنهضة الثقافية والتعليمية والتجديد الفكر والأدب حتى يمكن أن نلحق بالدول الراقية المتقدمة . وفي

كل هذه الدراسات نجد الحاحا على ابراز ما كان مجتمعا يعاني منه من تخلف وجمود .

من هنا ينبغي ألا نستغرب تلك الأحكام التي أصدرها فخرى أبو السعود على التراث الأدبي العربي والتي تبدو لقسوتها جارحة مستفزة، فهي لا تعدو أن تكون من نوع ذلك التقد الذاتى الذى جرى على أقلام شيوخه من رواد التنوير الذين كان هدفهم الإصلاح والتجديد . وإذا كان قد اتهم الأدب العربى بقلّة نصيبه من الخيال فإنه لم يكن الناقد العربى الوحيد الذى قال بذلك ، بل شارك فى هذا الحكم نقادا ومبدعين تبوءوا مكانة رفيعة فى تاريخنا الأدبى الحديث ، مثل أحمد أمين الذى تابع فى كتابه « فجر الاسلام » المستشرق الانجليزى أوليرى على رأيه فى أن نصيب العرب من الخيال ضئيل ، وإن كان قد خفف من مغالاة هذا المستشرق . ونادى بهذا رأى أيضا توفيق الحكيم الذى عزا الى ضيق الخيال العربى خلو أدبنا من الملحمة والفن المسرحى . ولم تقتصر هذه المقولات على أدباء مصر ونقادهم ، بل رأينا شاعرا عربيا مبدعا هو أبو القاسم الشاذلى يفرّد للخيال الشعرى عند العرب كتابا كاملا كان فيه أشد نكيرا على تراثنا من أحمد أمين وتوفيق الحكيم ، اذ وصف الخيال العربى بالبساطة والسذاجة، وكان قد عقد مقارنة بين عدد من النصوص الشعرية العربية فى وصف الطبيعة ونصين من الأدب العربى : أحدهما للألماني جوته والآخر للفرنسى لامارتين وانتهى بعد المقارنة الى نتيجة هي أن « الخيال منشؤه الاحساس الملتهب والشعور العميق ، وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق فى قلب الطبيعة ، الا احساسا بسيطا ساذجا خاليا من يقظة الحس ونشوة الخيال » . وهو حكم يشبه حكم فخرى أبو السعود حينما قارن بين نصيب الخيال من شعر سبنسر وتنيسون وكولردج من ناحية وشعر أبى العلاء المعرى ونثر مقامات بديع الزمان من ناحية أخرى - وهما أوسع أدباء العربية خيالا فى نظره - ، فانتهى الى أن الخيال عند أديبينا الكبيرين محدود ، فهو « شبيه بطيران الدجاجة الخفيف مقيسا بتحليق البازى الكاسر فى الأدب الانجليزى » .

ويرى فخرى أبو السعود فى المقالة الحادية عشرة التى يقارن فيها بين الأدبين فى وصف الطبيعة أن الشعر الانجليزى أغنى من الشعر العربى، اذ أن هذا الوصف يأتى غالبا عرضا فى ثنايا المديح ويمتلئ بالتشبيهات المكرورة الفاترة ، غير أنه يستثنى ابن الرومى من هذا الحكم ، فقد حفل شعره بوصف الطبيعة لذاتها ، ويعلل لهذه الظاهرة فى المقالة السابعة والثلاثين وهى حول بيئات الأدباء فيقول : « للوراثة أثرها الواضح فى أدب ابن الرومى الذى جاء ، لانتمائه الى الروم ، مخالفا أدب غيره من فحول

العربية فى النظرة الى الحياة والطبيعة وفى استقصاء المعانى وتوليدها .
 وهو حكم يوافق ما قاله العقاد فى كتابه عن ابن الرومى حينما وصف
 عبقرية ابن الرومى بأنها « عبقرية يونانية » وجعل من قرائن ذلك أنه
 كان مخبأ للحياة فى خفة وطفولة وأريحية دائمة كالحب الذى عهدناه
 فى جملة الفنون اليونانية . على أن العقاد يخفف الوطء فلا يقطع بأنه
 كان من سلالة اليونان « فذلك قول لا نجزم به ولا نجزم بنفيه » .

وهكذا نرى أن اصدار هذه الأحكام الصريحة على أدبنا العربى وقيمه
 مهما كان فيها من خشونة موجعة كان من سمات النقد خلال هذه السنوات ،
 ففخرى أبو السعود لم يكن بدعا فيما كتبه عن الأدب العربى خلال مقارنته
 بالأدب الانجليزى .

- ٥ -

الأمر الآخر الذى يستوقف النظر فى مقالات فخرى أبو السعود هو
 أنه اتخذ لها منذ المقالة السابعة عنوانا فرعيا يضم شتات كل المقالات
 ويكون بمثابة عنوانها العام وهو « فى الأدب المقارن » . ويشير ذلك مسألة
 بداية هذا الفرع من فروع الدرس الأدبى فى عالمنا العربى .

الذى يتفق عليه الدارسون على الأقل فى مصر - أن بداية البحث
 الأدبى المقارن على أساس علمى منهجى كانت بكتاب الدكتور محمد غنيمى
 هلال - رحمه الله - الصادر فى سنة ١٩٥٣ بعنوان « الأدب المقارن » .
 وكان هلال قد عاد فى السنة السابقة من بعثته الى باريس وتولى منذ مطلع
 عام ٥٣ تدريس الأدب المقارن فى كلية دار العلوم . وكانت هذه أول
 خطوة فى سبيل استقلال هذا الفرع من فروع الدراسات الأدبية واسناد
 تدريسه لمتخصص فى التعليم الجامعى بمصر ، صحيح أن بعض الأساتذة
 الجامعيين قد سبقوا محمد هلال غنيمى الى تأليف كتب تحمل عنوان
 « الأدب المقارن » وتعرضوا فى تدريسه لبعض قضايا هذا العلم ، ومنهم
 عبد الرازق حميدة والدكتور ابراهيم سلامة ، غير أن تلك المحاولات كانت
 تقوم على اجتهادات فردية لا تستند الى أساس علمى منهجى ولا تقوم على
 ادراك واضح لمفهوم الأدب المقارن ومناهج دراسته . وحول ذلك يقول
 الدكتور على عشرين زايد فى الكتاب التذكارى الذى صدر بمناسبة مرور
 خمس وعشرين سنة على وفاة غنيمى هلال :

« من هنا نستطيع أن ندرك خطورة الدور الذى قام به الدكتور محمد
 غنيمى هلال رائد الدراسات الأدبية المقارنة فى العالم العربى ، والريادة

لا تعنى - من وجهة نظر هذا البحث - مجرد السبق الزمنى الى الاهتمام بهذه القضية أو تلك من قضايا العلم ، فذلك لا يعنى فى النهاية شيئا ما لم يقترن بوضع أسس علمية صارمة وبلورة مفهوم علمى محدد يلتف حوله التلاميذ والمريدون ، ووضع مناهج علمية دقيقة لمعالجة قضايا العلم وظواهره ، وهذا هو التحديد ما قام به الدكتور هلال سواء فى مجال تدريس الأدب المقارن فى جامعات مصر ومعاهدها ، أو فى مجال تأليف الكتب والأبحاث النظرية والتطبيقية التى تحدد مفهوم هذا العلم وتبلور ملامحه ومناهجه ومجالات البحث فيه على أساس علمى متين » .

وكان محمد غنيمى هلال خلال سنوات بعثته فى باريس قد تشرب المبادئ النظرية للمدرسة الفرنسية فى الأدب المقارن ، وكانت هى المهيمنة على هذا الميدان آنذاك . وظل هلال وفيما لمبادئ هذه المدرسة فى كل كتاباته ، وذلك بحكم تلمذته على فان تيجم ثم على فرانسوا جويار ، وهما صاحبا كتابين رئيسيين يحملان عنوان « الأدب المقارن » صدر أولهما فى سنة ١٩٤٦ وترجمه الى العربية سامى الدروبي ، وصدر الثانى فى سنة ١٩٥١ وترجمه الى العربية محمد غلاب . فالواقع أن كتاب غنيمى هلال لا يعدو أن يكون نقلا لمادة هذين الكتابين فى تنظيرهما للأدب المقارن وان كان هلال قد أثرى كتابه بكثير من الدراسات التطبيقية المقارنة بين الأدب العربى وغيره من الآداب .

ومن أول ما يلفت نظرنا فى تحديد مجال الدراسات الأدبية المقارنة حسب مفهوم المدرسة الفرنسية التى التزم هلال بمبادئها هو أن مصطلح « المقارن » يجب أن يؤخذ بمعناه التاريخى اللغوى ، أى تناول العلاقات التاريخية للأدب القومى وغيره من الآداب خارج نطاق اللغة القومية التى كتب بها ، وأن هذه العلاقات تقتصر على التأثير والتأثر ، ولهذا فان هلال فى شرحه لمفهوم الأدب المقارن يحكم فى صرامة قاطعة بأنه يجب أن يستبعد من مجال هذا البحث « ما يعقد من مقارنات بين آداب ليست بينها صلة تاريخية » .

على أن المدرسة الفرنسية لم تعد منذ الخمسينيات من هذا القرن هى الوحيدة التى تفرض مفاهيمها على الأدب المقارن ، فقد ظهرت مدارس أخرى تختلف معها فى التنظير لهذا الأدب لعل أهمها المدرسة الأمريكية التى أعلن شيخها رينيه ويلك « تمرده » على المدرسة الفرنسية ، ورفضه النظر الى العلاقات بين الآداب القومية بمنطق الحسابات التجارية المتبادلة بينها « أخذا وعطاء ، تأثرا وتأثيرا » . ومن هنا وسع دائرة الأدب المقارن

بحيث يدخل فيها رسدا لأوجه التشابه بين أدبين - أو أكثر - وإن لم يثبت من الناحية التاريخية تأثير أحدهما فى الآخر .

وأود بهذه المناسبة أن أنوه بالدراسة النقدية الجادة التى قام بها الدكتور مجدى يوسف للمبادئ النظرية التى قامت عليها المدرستان الفرنسية والأمريكية فى كتابه « التداخل الحضارى والاستقلال الفكرى » (القاهرة ١٩٩٣) . ففى بحثه « نحو مدرسة عربية أصيلة فى الأدب المقارن » أعلن اعتراضه على كلتا المدرستين ، أما الفرنسية فلما لها من نزعة قومية واضحة كانت موضع رفض من قبل رينيه ويلك الذى رأى أن يستبدل بها وحدة « الانسانية » فى الأدب . غير أن « انسانية » ويلك - كما أوضح مجدى يوسف - لا تتكشف الا فى الأدب الغربى الأوروبى الأصل . ومن هنا كانت دعوة باحثنا المصرى الى التخلص من نفوذ تلك المفاهيم الغربية سواء أكانت فرنسية أم أمريكية ، فهى على الرغم من اختلافها الظاهرى تتفق فى جوهرها ، والأخذ بها بحذافيرها لا يعنى الا استدامة لهيمنة الثقافة الغربية على ثقافتنا .

- ٦ -

ونعود الى مقالات فخرى أبو السعود ، فنرى أنها بمنطق المدرسة الفرنسية تخرج عن مجال الأدب المقارن ، اذ أنها ليست الا رسدا لأوجه الشبه والخلاف بين الأدبين العربى والانجليزى . ولندكر أن التشابه لا يبرز الا بمقابلته بالاختلاف . وقد كان أبو السعود أكثر عناية بوجوه الاختلاف منه بوجوه التشابه . وقد كان حريصا على أن يبين أنه لم تقم بين الأدبين أية علاقة تاريخية بوجه من الوجوه .

على أننا اذا أخذنا بمنطق المدرسة الأمريكية القائلة بانسانية الأدب وعالميته - بمفهوم انسانى حقيقى لا على النحو الذى طرحه ويلك - فإن دراسة فخرى أبو السعود تكتسب مشروعية كاملة فى انتمائها الى الأدب المقارن ، والطريف فى الأمر أن كاتبنا المصرى كان على وعى كامل بهذا المفهوم قبل أن يبلغ العقد الثالث من عمره وقبل أن ينادى ويلك بنظريته بأكثر من عشرين سنة ، وذلك حينما اتخذ عنوانا شاملا لمقالاته هو « الأدب المقارن » .

وقد يقال حول أسبقية استخدام هذا المصطلح ان أول منعمل له كان خليل منداوى الذى نشر فى مجلة « الرسالة » بحثا على أربع حلقات خلال شهر يونية ١٩٣٦ (فى الأعداد ١٥٣ - ١٥٦) وكان عنوان هذه

البحث « ضوء جديد على ناحية من الأدب العربى : اشتغال العرب بالادب المقارن » ، ثم يفسر هذا المصطلح الأخير بقوله أو ما يدعوه الفرنجة. *Littérature Comparée* . ويدور البحث حول تلخيص الفيلسوف العربى أبى الوليد ابن رشد لكتاب أرسطو فى الشعر . وبمقارنة التواريخ ترى أن خليل هنداوى قد سبق أبا السعد حقا باستخدام المصطلح ، غير أن هذا السابق كان ضئيلا للغاية ، فهو لا يتجاوز شهرين ، اذ بدأ أبو السعد فى جعله عنوانا لمقالاته منذ شهر سبتمبر من السنة ذاتها. (١٩٣٦) . ثم ان مقالات هنداوى وهى تتجاوز أربعا تتناول موضوعا مطروقا معروفا هو ترجمة فيلسوف عربى لأثر من آثار الثقافة الاغريقية ، ولا مجال للموازنة بين جهد هذا الباحث وما اضطلع به فخرى أبو السعد فى مقالاته الاثنتين والأربعين التى قدم لنا فيها مقارنات ضافية بين الأدب العربى وأدب الانجليز .

وبعد ، فاننا اذ نقدم هذه الباقية من مقالات فخرى أبى السعد مجموعة بين دفتى كتاب واحد فانما نستحيى بذلك أثرا رائعا من تراث ادبنا النقدي استطاع صاحبه أن يتبوأ منزلة الريادة فى ميدان جديد من ميادين الدرس الأدبى وهو لم يناهز بعد الثلاثين من عمره ، وكان جديرا بأن يثرى الحياة الادبية والنقدية بمزيد من الدراسات لولا يد الموت القاسية. التى قضت شبابه وهو فى عمر الزهور .

مصر الجديدة فى ١٥ سبتمبر ١٩٩٦ .

د . محمود على مكى

أستاذ الأدب الأندلسى والمغربى (المتفرغ)،
بكلية الآداب - جامعة القاهرة
وعضو مجمع اللغة العربية

، التمهيد

أولا : في الأدب المقارن

على ذكر رواية خسرو وشيرين

لا ريب في أن الأدب العربي مقصر دون الأدب الغربي في كثير من النواحي . برغم ما له من الميزات الخاصة وبرغم عراقته وحدائه الأدب الغربي بالنسبة إليه . فقد سار الأدب بخطى واسعة وتطور في عصوره . على حين سار الأدب العربي دائما على نمط يكاد يكون واحدا . وكبا (١) بعد العصر العباسي الزاهي كبوة لم يقلل منها الا اليوم . وكان من عهدتها الى العصر الحديث في حكم العدم اذا قيس بأداب الأمم الرفيعة .

ولا ريب في أن الأدب العربي يكسب كثيرا - وقد كسب بالفعل كثيرا - بلقائه بالأدب الغربي ، وهذا اللقاح يتأتى عن طرائق ثلاثة : الأول اطلاق أدباء العربية على الأدب الغربي . فان لذلك أكبر الأثر في نفوسهم وفي كتاباتهم وان لم يشعروا ولم يتعمدوا ادخال ما قرءوا فيما يكتبون . والثاني ترجمة الآثار الغربية المشهورة من نثر وشعر الى لغة الضاد . فان ذلك يؤثر في أبناء العربية الذين لم يطلعوا على آداب غيرها تأثيرا يكاد يدنيهم ممن اطلعوا عليها . والثالث ادخال الأشكال والمواضيع الشعرية الغربية في الأدب العربي اذا كانت غير موجودة فيه . فان ذلك يزيد اللغة ثروة وقوة ، ويقدر الأدب العربي على مجاراة آداب الغرب .

والشعر العربي خاصة خلو من كثير من الأشكال والمواضيع التي يتناولها الشعر الغربي كالدراما والملحمة والشعر المرسل والقافية المتنوعة والأوزان المتداخلة في القصيدة الواحدة . فالشعر العربي فضلا عن كون مواضيعه محدودة قوامه الوحدة في الوزن والقافية ، والاحكام في القواعد، والصنعة والرصانة في الأسلوب ، وعلى المعنى أن يخضع لكل هذا فلا يخرج الا مصقولا في قالبه . بينما الشعر الغربي أكثر مرونة وأقل قواعد وأسهل في يد الناظم وأقدر على التحول والتنوع وزنا وقافية اتباعا لمعاني القصيدة المتتابعة ، ومن ثم استطاع الشاعر الغربي أن يودع شعره من دقيق المعاني وعميق الأفكار وخاصها وجزئها ما يشق على الشاعر العربي الذي لا طاقة

(١) كبا : انكب على وجهه (تعثر) .

له بغير ذكر العام والكل ، فكلما جاد الشعر العربى راع أسلوبه وأحكمت ديباجته وراقت موسيقاه ، وكلما جاد الشعر الأوربى دقت معانيه ولطفت أخيلته وتجسم وصفه وتصويره وعبر عن الخوالج النفسية البعيدة الغور . وبالجمله كانت نتيجة الوحدة فى العروض والقافية فى الشعر العربى أن كان شعر أسلوب ، ونتيجة التنوع والمرونة فى عروض الشعر الغربى وقافيته أن كان شعر معنى .

واذا كان شعراء العربية الأقدمون قد قنعوا بذلك الضرب المقيد الموحد من الشعر وأدوا به معانيهم وأغراضهم العامة ، فلن يقنع به عصرنا ، هذا اذا كنا نريد للشعر العربى مجازاة الشعر الأوربى ، ونريد أن يؤدي من لطيف الأوصاف للمشاهد الطبيعية والحالات النفسية ما يؤديه ذلك الشعر ، ولا بد لنا - كما اقتبسنا من الغرب القصه القصيرة والطويلة والرواية التمثيلية والمقالة فى عالم النثر - أن نقتبس فى عالم الشعر الأوضاع والأشكال التى توسع أفق شعرنا العربى وتزيده قوة وخصبا .

والواقع أن القافية الموحدة التى ننتظم القصيدة من أولها الى آخرها غير معروفة فى الشعر الغربى ، وقد قال ملتون فى مقدمته للمحمته المشهورة «الفردوس المفقود» انه عول (٢) على نظمها شعرا مرسلا وعلى نبد القافية نبدا تاما لأنها اثر من آثار الهمجية ، وكثيرا ما عاقت الشعراء عن تسجيل سامى المعانى ، وبرغم مغسالة ملتون فى قوله هذا - اذ للقافية روعتها ولزومها فى كثير من ضروب الشعر - فلا شك فى أن القافية كثيرا ما تقف عقبه فى سبيل نظم دقيق المعانى وجليدها .

لابد من رياضة الوزن العربى والقافية العربية على المرونة والسهولة والتنوع فى القصيدة الواحدة تبعا للمعانى ، كى يساعد الناظم البارع على بيان أغراضه ، فلا يعتمد الاعتماد كله على المعانى والتشبيهات ونحوها ، بل يعتمد أيضا على جرس الألفاظ وموسيقى الوزن ووقع القوافى وتجاوبها واختلافها لإبراز أوصافه وأحياء صورته التى يريد فى خلد القارىء ، فقد برع الشعر الغربى فى هذا الضرب من الملاءمة بين المعنى واللفظ والوزن ولا سيما فى أشعار الوصف فبد (٣) بتصويره ريشات المصورين فى كثير من الأحيان .

لابد من التخلّى عن بعض القيود والقواعد وإدخال بعض السهولة والحرية واقتباس ما يمكن اقتباسه من الأوضاع والأشكال الشعرية.

(٢) عول : اعتمد .

(٣) نبد : فاق .

الغربية ، على أننا يجب أن نذكر أولا أن ما سنقتبسه لن يلغى القافية الموحدة والوزن الموحد من العربية الغاء ، بل تظل هذه الطريقة العربية الخالصة قائمة ، لها ميزاتها من الرصانة والفخامة ، ولها مناسباتها التي تستعمل فيها فتؤدى غرضها أحسن الأداء ، لن نهجر طريقتنا الى طريقة غيرنا . بل نأخذ مما عند غيرنا ما يزيد لغتنا وشعرنا سعة وثروة ، ويجب أن نذكر ثانيا أن الناظم العربى انما يستخدم تلك الحرية والمرونة فى شعره ليؤدى بها أغراضا خاصة : تجسيم وصف ، أو تمثيل حركة ، أو تقليد صوت ، أو اسلاس قصص ، فيجب ألا نهجر القافية والوزن الموحدين الا أن يؤدى تنويع الوزن والقافية مثل تلك الأغراض ، والا كان الأمر مجرد تسهيل للنظم يغض من قيمة الشعر الفنية ويورث الناظم الكسل . وقلة التعب فى معالجة القصيد .

وأكبر اعتراض يقام أمام ادخال هذه الأساليب الشعرية الغربية . نبوها (٤) على السمع الذى اعتاد الوحدة فى الوزن والقافية العربيين . وهو اعتراض وجيه غاية الوجيهة : فان اقتباس تلك الأساليب ان أدى الى فساد موسيقى الشعر العربى التى هى قوامه كان وبالا وكان علينا أن نقبح عنه مهما كان له من فوائد ، ولكن هذه العقبة يمكن تذليلها بوسيلتين :

الاولى التدرج فى التحرر من قيود الوزن والقافية تحررا يسير بطيئا مع الزمن ولا يفاجئ الأذان كبير مفاجأة ، فان التطور دون الطفرة جدير بتعويد الأذن على اختلافات العروض والقوافى فى القصيدة الواحدة ، حتى تستطيع تلك الاختلافات وتلتذذها وتصير لها فيها متعة كالمتعة التى نجدها فى النظم الموحد ، وقدما اخترعت الموشحات والأبيات المختلف شطراها طولا فكانت خرقا فى الطريقة السائدة وكانت بلا ريب نابية على الأسماع فى أول الأمر ، ولكنها بمرور الزمن صارت مألوفا ولم يعد أحد من كبار الشعراء يتخرج من اللجوء اليها فى بعض أغراضه .

والوسيلة الثانية هى أن يتصدى لادخال هذه الأساليب فى شعرنا العربى كبار الشعراء الذين عالجوا القريض سنين طوالا ، ومارسوا اللغة واستوعبوا ثروتها واستبطنوا أسرارها وحذقوا عروضها ، فهم وحدهم بخبرتهم ودربتهم وتمكنهم قادرون على أن يدخلوا فى اللغة ما يلائمها وينبذوا ما عداه ، ويصقلوا ما يدخلون بصقالها حتى يصير جزءا منها

(٤) نبوها : خروجها عن الحدود المعتادة ومنها (لفظة نابية) .

ويثبت فيها وينمو ويشمر ، أما أن يتصدى لذلك الناشئون المتحمسون للتجديد على غير بصيرة ، فلن يأتوا الا بكل غث لا يؤدي أغراض الشعر العربى ولا يبقى على جمال الشعر العربى ولا يكتب له بقاء .

والقافية اشد من الوزن قبولا للتلقيح بالأساليب الغربية ، والشعر المرسل خاصة يكون ذا مستقبل باهر فى العربية اذا عالجتة الأيدى القديرة ، وقد مارسه الأستاذ فريد أبو حديد غير مرة ونجح فيه نجاحا غير قليل ، ونشر فى «الرسالة» ترجمة لفقرات من «عطيل» امتازت بالسلاسة ولم ينقص من قدرها فى نظرى سوى أن الأستاذ اختار لها بحر الرمل ، وليس هذا ولا الخفيف المنظومة فيه رواية خسرو وشيرين بأليق البحور لبدء معالجة الشعر المرسل . بل أكثر البحور العربية استعدادا لذلك البحر الطويل الذى هو بطوله وفخامة موسيقاه واتشادها (٥) أقدر على الاستغناء عن القافية وأحق بأن يترجم اليه الشعر المرسل الغربى المعروف « بالبلانك فيرس » وأن يحل عندنا محل ذلك الضرب الذى يختص عند الغربيين بشعر الدرامات والملاحم، ولا ريب فى أن ترجمة روايات شكسبير وأمثالها اليه أولى من ترجمتها نشرًا .

ولقد كان شوقى فى أواخر أيامه أقدر الناس على ولوج هذه الأبواب لى أراد ، لولا شديد اعتداده بالوزن والقافية الموحدين ، فانه كان قد مارس قرض الشعر نحو نصف قرن حتى حذق صناعته ، وكانت له موهبة فى الأسلوب عالية ، فبلغ فى النهاية غاية الجزالة والسلاسة . وكان له من الوقت متسع للتجريب والمحاولة ، ولو عمل على إخصاب اللغة ببدء هذه الأساليب الغربية فيها لخدمها خدمة أجل كثيرا من خدمته اياها بمعالجة النظم التمثيلية فى أخريات أيامه ، ورواياته التمثيلية ذاتها شاهدة بذلك : فان ميزتها الكبرى والوحيدة براعة الديباجة ، أما اذا قيست بمقياس التأليف التمثيلى وقوبلت بالمؤلفات الغربية التى كان يقلدها ويترسمها فلن تكون شيئا مذكورا .

على أنه اذا كانت العربية قد فقدت شوقيا وحافظا اللذين عالجاها حصبة وتمكنا منها ، فما يزال لها من كبار الشعراء المجربين من هم قادرون على توسيع أفقها ومضاعفة ثروتها بطرق هذا الباب من الاقتباس والابتكار، فدلهم يتقدمون ، ولعل مجهودات الأستاذ فريد أبى حديد تكون الخطوة الأولى فى هذا السبيل .

(٢) اتشادها : تمهلتها .

التصوير في الشعر العربي

الوصف من أهم أغراض الشعر وأخص فنونه . وكما كثر في شعر اللغة وآثار شاعر ، دل على رقيهما الفني ، إذ أن مناظر الطبيعة خاصة ، وروائع المشاهدات عامة ، من أشد العوامل تأثيرا في النفس الشاعرة وتحريكا لعاطفتها وبعثا لها الى القول . والوصف في الشعر العربي غزير يتناول شتى الموضوعات ، ويبلغ في يد كبار شعراء العربية غاية الاجادة . فكتيرا ما تخلص شعراؤنا من قيود المدح والثناء والنسيب الاستهلاكي — مهما كان تقيدهم بهذه الأغلال الثقيلة التي كبلت الشعر العربي — وعرجوا على وصف أثر من آثار الطبيعة أو المدنية ، فأبدعوا وأرضوا الفن ، أشعاف ما أرضوه بمبالغات المدح والثناء والنسيب المدعى .

ولكن الذي أريد الإشارة اليه في هذه الكلمة ، أن اعتماد الوصف في الشعر العربي كان دائما على المعنى دون اللفظ ، على التشبيه والاستعارة والمجاز دون جرس الألفاظ وتتابع التراكيب ووقع الأوزان والقوافي . بينما الشعر الوصفي الغربي اعتمد على هذه الأشياء الأخيرة اعتمادا كبيرا . فبلغ الغاية في المطابقة بين المعنى واللفظ مطابقة تملأ الوصف حياة وجلاء . وتوفر بعض الشعراء على هذا الضرب من التصوير ، ومنهم ملتون وتنيسون ، ولا سيما الثاني الذي بلغ في القدرة على تذليل اللفظ للمعنى واستخدامه في تصوير ما يشاء حدا منقطع النظير . وأضحت آثار أولئك الشعراء مهبط وحى لكبار المصورين يستلهمونها ما حوت من روائع الأوصاف ومحكمات الصور ويسجلون ذلك على لوحاتهم .

إذا كان في المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد استخدم الشاعر الغربي بحرا من بحور الشعر يلائم تلك الحركة ويحكيها . وإذا كان به صوت أو أصوات مختلطة كهدير أمواج البحر أو قصف المدافع في الحرب اختار من الألفاظ تلك التي تحتوى على حروف خشنة قوية . وإذا كان يصف منظرا ساكنا وادعا لم يذكر ذلك في القصيدة ذكرا ، وإنما استعمل الألفاظ ذات الحروف اللينة كالسين مثلا ، وهناك عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاءمة بين الصيغة والمعنى يفتن فيها

الشاعر الوصاف ما شاء له اقتداره : كثرة العطف وتكرار الحروف والكلمات والتراكيب والأبيات الكاملة .

ولقد وقع شيء من ذلك في بعض أشعار الوصف العربي ، ولكنه كان الهاما محضا أو اتفاقا عارضا ساقط الشاعر اليه المصادفة السعيدة أو السايقة المجيدة ، دون أن يتعمده أو يتكلف في صوغه عناء ، ويقرؤه القارئ العربي فيستطيعه ويعزو موقعه من نفسه الى مجرد معانيه وحسن تشبيهاته . ويجمل ذكر شيء من هذا للتمثيل والبيان :

ففى معلقته يصف امرؤ القيس الليل فى بيته المشهور :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف اعجازا وناء بكل كل

وفضلا عن جودة المعنى وحسن التشبيه فى هذا البيت يزيد الوزن والتركيب الوصف المراد ظهورا : فالبحر الطويل ذو الحركة الوثيدة وتكرار العطف بالواو يمثلان بقاء مسير الليل ولجاجة فى الإقامة وتماديه فى الطول خير تمثيل ، وفى بيته الآخر حيث يصف جواده بقوله :

مكر مفر مقبل مدبر مسا كجلمود صخر حطه السيل من عل

نرى تنابع الصفات بلا فاصل فى الشطر الأول ، واستعمال الألفاظ الضخمة المشنة فى الشطر الثانى يمثلان توثب الجواد وسرعة انطلاقه وارتداده ومفاجآت حركاته تمثيلا جيدا بصرف النظر عن تشبيهه بانحطاط الصخر من شاهق . وفى قول المتنبى :

أتوك يجرون الحديد كأنما

سروا بجياد مالهن قوائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفى أذن الجوزاء منه زمام

نرى وصفا رائعا لجيش كثيف وثيد الزحف لكثافته ، وليس فى البيتين معنى كبير ، وليس فيهما سوى مبالغة غير معقولة ، ولكنه البحر الطويل يمثل هذه الحركة البطيئة أتم تمثيل ، هذا فضلا عن فخامة الألفاظ التى تخيرها الشاعر ، ونرى البحر الطويل يؤدى مثل هذا الغرض ويرسم صورة أخرى رائعة فى قول جميل :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

فهنا حركة الابل البطيئة واضحة ماثلة ، وقد كان جميل ملهما حيث ذكر كلمة أعناق في البيت الثاني فانها وحدها ترسم الصورة التي أراد : فان ذكر الجزء الأهم من الصورة ، كثيرا ما يبعث الى المخيلة باقى الأجزاء ويبرز الصورة جلية كاملة ، ويترك البحر الطويل مثل هذا الأثر أيضا فى قول البارودى الذى أشار اليه الدكتور صبرى فى كتابه عن الشاعر :

— ونبهنا وقع الندى فى خميلة —

فاذا قرىء هذا الشطر بتأن وجدنا الوزن يمثل تساقط قطرات الندى متتابعة ، أما الحركة السريعة فيمثلها البحر الكامل ، ومن ذلك قول المتنبي :

أقبلت تبسم والجياد عوابس يخبين بالخلق المضاعف والقنا
عقدت سنانكها عليها عثرا لو تبتغى عنقا عليه لأمكنا

ففى البيت الثانى نرى مبالغة أخرى من مبالغات المتنبي ، وهى وحدها لا تكاد تؤدى معنى ، ولكن البحر الذى صيغت فيه القصيدة يؤدى خبيب (١) الجياد خير أداء ، حتى ليكاد يريك توثب الفرسان فوق ظهورها، ولو حاول الشاعر وصف الخبيب فى البحر الطويل لما استقامت صورته .

ولتكرار الألفاظ أو التعبيرات أحيانا أثر بليغ فى إبراز الصور وبعث الأخيلة . ففى قول ابن هانئ الأندلسى :

وفوارس لا الهضب يوم مغارها هضب ولا الوعر الحزون حزون

يوحى تكرار كلمتى هضب (٢) وحزون (٣) الى المخيلة تتابع الهضاب والرعى أثناء عدو الفرس ، فكأنه يعرض أمام العين شريطا سينمائيا متحركا ، أضف الى ذلك صوغ البيت فى البحر الكامل واختيار الكلمات الفخمة ، وفى قول الأستاذ المازنى :

لغط اليم اذا اليم طمسا والتقت فيه هضاب بهضاب

ترى صورة رائعة لجيشان اليم ، ولا يرجع هذا الى معنى البيت .

(١) خبيب الجياد : هو عدوها السريع ، وفى المعجم الوسيط : خب الفرس أى نقل
إياعته وإياسره جميعا فى العدو .
(٢) هضب : جمع هضبة .
(٣) حزون : جمع حزن (بفتح فـ مكرون) وهو ما خلط من الأرض .

وحده ، ولكن الى وزنه وألفاظه كذلك : فبحر الرمل يمثل الحركة المتضاربة أدق تمثيل : وتكرار كلمتى اليم وهضاب يوحى الى المخيلة تتابع اللجج ، وتكرار حرف الهاء ثلاث مرات فى الشطر الثانى يزيد الحركة تصويرا وبروزا .

كان ذلك فى الغالب كما ذكرت محض اتفاق أو الهام ، ولم يقيم فى العربية فرد أو مدرسة تتوفر على هذا الضرب من النظم والتصوير وانما حين اتجه نظر الشعراء الى اللفظ صادف ذلك عصر انحلال الأدب فلم يسخروا اللفظ لإبراز المعنى ، بل صرفوا كل همهم الى اللفظ دون المعنى ، وولعوا بالألاعيب اللفظية التى سموها محسنات ، وأوغلوا هذه الغثائث على أجل فنون الشعر خطرا كالرثاء والنسيب فأسفت وانعدم فيها الحس والشعور ، فرأينا شاعرا ينسب فيقول :

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعانى أمت بما أودعانى
وآخر يتوجع فيقول :

لى مهجة فى النازعات وعبرة فى المرسلات وفكرة فى هل أتى
وثالث يمدح فيقول :

وان أقر على رق أنامله أقر بالرق كتاب الأنام له

وليس فى كل هذا تعبير عن شعور أو أداء غرض ، وما هو الا عبث بالألفاظ واقتناص للجناس والطباق والسجع والتورية ، وانما أكثرت من هذه الأمثلة الغثة لأوضح كم كان الشعر العربى يربح لو أن المجهودات التى صرفت فى مثل هذا التحايل العقيم وجهت الى تسخير اللفظ للمعنى والاستعانة بهما معا على إبراز الوصف المقصود كما يصنع شعراء الغرب .

وليس فى طبيعة اللغة العربية قصور يحول بينها وبين مجازاة اللغات الأخرى فى هذا الباب ، بل لها من الميزات ما يقدمها على غيرها : فهى كثيرة البحور التى يؤدى كل منها غرضا مختلفا ، غزيرة الألفاظ الوعرة الضخمة والرقيقة اللطيفة التى توحى بخشونتها أو رقتها مختلف الصفات ، غنية بالحروف السلسلة اللينة والحروف الخشنة الجافية التى تطلويع الناظم القدير . ليس يعوز العربية شئ من ذلك وانما يعوزها الحرارة من الناظمين بها والعزم والجلد .

الأثر اليونانى فى الأدب العربى

كانت الثقافة اليونانية خلاصة ثقافات البحر الأبيض القديمة : لأنها الى جانب ما استوعبته من الحضارات الشرقية تمثل نتاج العقل اليونانى الذى كان أخصب عقل ظهر فى العصر القديم . فلما مضى ذلك العصر ودالت دولة اليونان وكان العصر الوسيط كان العرب هم السابقين الى التعرف بالثقافة اليونانية فأخذوا من علوم اليونان وفلسفتهم ، ثم تعرف الأوروبيون بعدهم بتلك الثقافة فى عهد النهضة ، وأوسعوا علوم اليونان وفنونهم دراسة ونقلًا ومحاكاة . فأغنوا بذلك علومهم وفنونهم الناشئة . وشادوا على ثقافة اليونان صرح حضارتهم الحديثة .

بيد ان الذى يسترعى النظر ان العرب حين اتصلوا بثقافة اليونان . اقتصرُوا على اقتباس بعض علومهم وفلسفتهم دون الآداب والفنون ، فدرسوا أرسطو وأفلاطون ، وعرفوا أبقراط وفيثاغورس ، ولكنهم أهملوا هوميروس وسوفوكليس ويوريديس ، على حين لم يفرق الأوروبيون بين ناحية من نواحي الحضارة اليونانية وناحية أخرى ، بل أكبوا على دراسة الجميع ، وبينما تقدمت علومهم على مر العصور عن علوم اليونان أشواطاً بعيدة واستغنت عن معينها ظلت الآداب والفنون اليونانية مرجعاً دائماً للآداب والفنون الأوروبية ومهبط وحى لا يفنى ، ولم ينفك كتاب الغرب . وشعراؤه الى اليوم عن تمجيد الثقافة اليونانية والبحث على الرجوع اليها . دائماً ، فما السر فى اختلاف موقف العرب عن موقف الأوروبيين حيال تراث اليونان ؟

السر راجع الى سلبية العرب المطبوعة على البيان ، المفطورة على فصاحة اللسان ، فان العرب نظروا لبيئتهم البدوية وحياتهم المتنقلة لم يكن لهم سوى اللسان أداة للتعبير عن شعورهم الفياض ، فلم يكن التصوير ولا النحت ولا غيرهما من الفنون ليزكو (١) فى بيئتهم تلك ، ومن ثم تأصلت فى العرب سجية البلاغة وارتقت بينهم مرتبة البلغاء وتوطدت .

(١) ليزكو : ليزمر .

لغتهم ونضج أدبهم وهم على بداوتهم وقلة حظهم من الحضارة ، وكان لهم بعصبيتهم ولغتهم اعتداد شديد ، فلما نهضت دولتهم بظهور الاسلام ودخلت الأمم في طاعتهم ودينهم أفواجا ازدادوا اعتدادا بعربييتهم ولغتهم وشعرهم وقرآنهم المبين ، فلم يكن في نفوسهم حافز على الاطلاع على آداب غيرهم ولا لديهم رغبة في التتلمذ لسواهم ، بل كانوا يرون أنفسهم هم الأجدر أن يحبذوا ويؤخذ عنهم ، ولقد أخذ كثير من الأمم المفتوحة لغتهم واصطنعوا أدبهم بالفعل ، وأصبح الناشئون في الأدب من أبناء الأجيال التالية لا يرون أن شيئا يوصل الى نيل الفصاحة والحكمة وحذق الأدب وراء دراسة القرآن واستيعاب شعر فحول المتقدمين ، وإنما كان العرب أميل الى الاعتراف بالقصور واظهار الرغبة في الأمور التي لم يكن لهم فيها الى ذلك الوقت باع ولا يد كالعلوم والفلسفة ، فلم يروا ضيرا في أخذها على أساتذة اليونان .

ولم يقتصر أثر اعتداد العرب بأدبهم وشعرهم على ذود (٢) الأدب اليوناني عنهم ، بل زاد عنهم غير الأدب من الفنون : فلقد اطلعوا في أطراف دولتهم وبلاد جيرانهم على ما كان لدى اليونان والرومان والفرس والمصريين من تصوير ونحت ، فما خطر لهم أن يحاكوا شيئا من ذلك ، وكان كل ما يساور شاعرهم حين يشاهد أثرا من هاتيك الآثار أن يتمثل بطش الدهر وحلول الفناء وسقوط الجبابرة فيقول :

أين الذي الهرمان من بنيانه ؟ ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع

وما ذاك الا لانصراف كل قوى العرب الفنية الى ضرب واحد من الفنون هو الأدب واستغراقها فيه . فهي لا تحاول وسيلة أخرى سواء للتعبير عن نفسها ، ومن ثم ظل العرب طوال عصورهم لا يعرفون من الفنون سوى الأدب والموسيقى المعتمدة عليه المرتبطة به ارتباطا وثيقا ، فلا تصوير ولا نحت ولا تمثيل ، اللهم الا ذلك الضرب الوحيد من الزخرفة ذات الأغراض العملية المحضة ، ومن الخطأ نسبة انعدام تلك الفنون بين العرب الى الدين : ففضلا عن أن الدين لا ينافي شيئا منها فإنه لم يحل ذون استمتاع العرب بالموسيقى وغيرها حين أرادوا .

فالعرب اذن اتصلوا بالثقافة اليونانية في غير الوقت الملائم : في وقت متأخر ، كان أدبهم فيه قد نضج وقوى ، وصار له من الاعتداد بنفسه

(٢) ذود . الذود هو الدفع والطرد .

ما يثنيه عن التتلمذ لغيره ، أما الآداب الغربية فعرفت تلك الثقافة في عهد طفولتها ونشأتها ، وهى لما نزل عاجزة تعترف بعجزها وتتلهم الى المعرفة حيث وجدتتها ، فلم تتردد فى الانتفاع بتراث اليونان الى أبعد حد ، فأثرت أيما اثرء بما أخذت عن اليونان من المواضيع والأشكال الأدبية ، ومد الأدب اليونانى أمامها آفاق التفكير الواسعة وآماد المثل العليا وصور الجمال المختلفة ، ووجدت فى تاريخ اليونان وأدبهم وأساطيرهم ومنتجات فنونهم من صور وتمائيل وآثار منادح (٣) للكتابة والدرس والنظم ومنسابع للوحى لا تنضب .

فلا غرو أن طمرت تلك الآداب الغربية التى لم تكده فى عهد النهضة تكون شيئاً مذكوراً ، والتى كانت لغاتها ذاتها ما تزال فى طور التكوين ، فإذا هى بعد قرون ثلاثة أو أربعة تسبق الأدب العربى وهو أعرق منها محتداً وتفوقه اتساع آفاق وتعدد مواضيع ، لأن الأدب العربى الذى لم يكده يستفيد بأدب أمة أخرى ظل فى مكانه جامداً يكرر نفسه ويعيد على نفسه الأبواب عينها التى جال فيها المتقدمون من فخر ورتاء ومدح وهجاء ، حتى إذا كان العصر الحديث إذا هو يقف من الآداب الغربية موقف التتلمذ والتلقن .

ان تمكن ملكة البيان من العرب — مما جعلهم لا يدينون الا لنبي يأنبهم بكتاب معجز ، وجعل خلفاءهم يتخذون وزراءهم من أئمة البيان — واعتدادهم بأدبهم واستغراق مجهودهم الفنى فيه وحده ، هذا كله فى مجموعه كان عاملاً شاملاً الأثر بعيداً فى تاريخهم وأدبهم ، ولقد كان أثره فيما يتعلق بالتراث اليونانى بليغ الضرر ، فخسر العرب خسارة كبيرة باغفال الأدب اليونانى المحى على توالى العصور ، الشديداً الإيحاء القوى التأثير ، الذى كان بلا ريب أغنى من أدبهم . ولو لقيح به الأدب العربى لاتسعت جوانبه وانصرف عن تلك الأغراض العلمية التى احتبس فيها الى عوالم الفن الخالص وتغير مجرى تاريخه وأفاد العرب بذلك أضعاف ما أفادتهم دراسة الفلسفة اليونانية .

ونحن اليوم بدراسة الآداب الغربية والأخذ عنها بطريق غير مباشرة عن تلك الثقافة اليونانية ، ندخل فى أدبنا ذلك العنصر اليونانى الذى لا بد منه لكل أدب يريد له مكاناً بين الآداب العالية ، وإذا وقف شاعرنا العصرى أمام الأهرام فلم ينصرف ذهنه الى بطش الدهر بالجبارين الذين

(٣) منادح : جمع مندوحة وهى الأرض الواسعة .

أعلوها ولم يتنبأ لها باللاحق بهم ، بل حيا فيها الفن وعظم قدرة الانسان،
وقال :

أهرامهم تلك حى الفن متخذاً من الصخور بروجاً فوق كيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ما يأخذ النمل من أركان هيلان
فما ذلك الا لأننا قد تأثرنا بتلك الروح اليونانية التى تعظم الفن،
انخالص فى مختلف صوره وتمجد قدرة الانسان فى مصارعته للفناء ،
تلك الروح التى كان أغفلها أجدادنا العرب .

القصة فى الأدب العربى

حب تتبع الحوادث وحكايتها مركب فى الطبع الانسانى ، ولكن القصة كانت آخر صور الأدب ظهورا ، فلم تعرفها الآداب القديمة ولم تظهر فى الآداب الأوروبية الحديثة الا أخيرا ، ولذلك أسباب منها الوهم الذى وقر فى نفوس الأدباء المتقدمين وان يكن يبدو لنا اليوم غلطه واضحا : أعنى توهم أن القصة ان هى الا أحبولة أكاذيب لا يليق بالأديب الراقى أن يلهو بحوكها ، وأن القصص مرتبة من التأليف سهلة يستطيعها كل من رامها فلا يجهل بالأديب القدير أن يتدلى اليها .

ومن ثم كان العرب يؤثرون الأخبار التاريخية والأدبية ويخصونها بالحفظ والرواية مهما خالطها التحريف ، لاعتبار أنها حقيقة لا اختلاق ، وكثرت بينهم كتب التواريخ والسير دون كتب القصص ، ومن ثم أيضا لم يسلك سبيل القصص من الأدباء المجيدين الا من كان له غرض آخر دون القصص يؤهم قراءه أو يؤهم نفسه أنه الغاية التى اليها يقصد : اما باعطاء القصص مغزى وعظيا كما فى كتاب كليله ودمنة ، أو بالبأسه ثوبا قشيبا من الصناعة البلاغية كما فى مقامات الهمداني والحريري ، بينما تركت الأقاصيص المجردة للعامة الذين يفشو بينهم القصص فى كل العصور نتيجة لذلك الميل الطبعي فى الانسان ، وتداول (بضم التاء) بينهم أساطير المردة والسحرة ووقائع الأبطال الغازين ومخاطرات التجار والملاحين ونوادر الظرفاء والمعتوهين .

بيد أن القصة ان انعدمت من الآداب اليونانية والرومانية القديمة ومن الآداب الأوروبية الحديثة الى عهد قريب ، فقد قامت مقامها عند تلك الأمم الرواية التمثيلية التى تؤثر فى النفوس لا من طريق الميل الطبعي الى القصص وحده ، بل من طريق أخرى هى الميل الى محاكاة الأشخاص وتقليد الحركات ، ومن طريق ثالثة هى الثوب الخيالى الشعري الذى أسبغ على تلك الروايات التمثيلية ثم التفتت رويدا رويدا الى أحوال المجتمع فتناولت وصف شئونه وتصوير أخلاق أفراده ، أما العرب فلم تقم لديهم لا القصة المقروءة ولا الرواية التمثيلية ، فالام يعزى ذلك ؟

يعزى الى امرين : أولهما ايجابى هو موقف أدباء العربية من مجتمعهم ،
وثانيهما سلبى هو مكانة الشعر لدى العرب .

فكتاب العربية وشعراؤها عاشوا دائما بنجوة عن مجتمعهم لا يشتركون فى تقلباته السياسية والاجتماعية ، ولا يعبرون عن شعوره وحاجاته ، ومن ثم ندر الأدب الوطنى فى العربية وان كثر الأدب العصبى ، وندر الشعر الاجتماعى ، وكان جل شعر الشعراء فرديا يعبر عن عواطفهم وحاجاتهم الشخصية ويفيض بدم منافسيهم وأعدائهم الشخصيين ومدح أولياء نعمتهم من الكبراء والأمراء الذين يعتمدون عليهم دون الشعب ويبتغون رضاهم قبل رضا الشعب ، فلم يكن هناك تواصل وتجاوب بين الأدباء ومجتمعهم ولا رغبة لدى الأدباء فى معالجة شئون المجتمع وتحليلها ومحاولة اصلاح فاسدها عن طريق أدبهم ، فلم يقم فى العربية أمثال أديسون وستيل ودكنز وجالزورذى من الأدباء الانجليز الذين جعلوا اصلاح الأخلاق أو ترقية المرأة أو انهاض العامل نصب أعينهم ، ولا ريب فى أن هذا التواصل والتجاوب بين الأدباء والمجتمع واعتماد الأدباء على جمهور القراء دون هبات النبلاء أساس نمو القصة التى تصف المجتمع وتحلل الأخلاق ، ولم تنشأ القصة الحديثة فى أوروبا فى القرن الثامن عشر الا بقيام ذلك التواصل والتجاوب بين الأدب والمجتمع ، وكانت الطباعة التى سهلت انتشار الكتابات مساعدة لذلك ولا ريب .

وأما مكانة الشعر الممتازة لدى العرب – والتى لعله لم ينلها لدى أمة أخرى – فانها ثبتت (١) ما عدا الشعر من صور الأدب . فقد كان الشعر لدى العرب هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة ، فصرفهم شديد اعتدادهم به وتوفيرهم عليه عما عداه ، وأودعوه عواطفهم وأخبارهم وقصصهم ، فلو أن الشعر ترك مجالا لغيره لاحتمل أن يلجأ أديب كآبى نواس الى القصص يودعه أنباء لهوه ووقائع غرامه ويشرح فيه ما سبر من غور العواطف وبلا من سريرة المرأة سادلا على شخصيته ستارا رق أو كثف (٢) ، ولربما كان منه فى العربية نظير لموباسان فى الفرنسية، ولكن الشعر كان كما تقدم هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة ، فلم يتردد أبو نواس فى سلوك السبيل التى سلكها ابن أبى ربيعة من قبله ، سبيل الشعر القصصى أو القصص المنظوم شعرا .

ان الناظر فى أدب العرب وتاريخهم لا يسعه الا أن يرى هذه الحقيقة بارزة : حقيقة أن الشعر نال من المنزلة عندهم ما لم يبلغ عند سواهم

(١) ثبت : ضعف .

(٢) كثف : غلظ .

حتى طغى على ما دونه من ضروب الأدب ، وأن الأدب على إطلاقه بلغ لديهم مكانة طغى بها على ما عداه من الفنون وصبغ ثقافتهم بصبغته - برغم بعده عن معالجة الحالة السياسية والاجتماعية فكان كاتبهم فى التاريخ وتقويم البلدان وغيرهما من العلوم يتحدث عن الأدباء ويرجع الى محفوظه من الأدب ، وكم من أعلام للشعر العربى لو كان التصوير والنحت رائجين لدى العرب رواج الأدب والشعر لانصرفوا اليهما دونه أو لمارسوهما معه .

ولقد كتب الأستاذ الفاضل محمود خيرت فى «الرسالة» أخيرا يشهد بوجود التصوير لدى العرب فلم يعد أن أثبت أنه كان فى حالة أولية لا يفتخر بها ولا يغتبط : فان الفن الذى لا ترى له باقية ولا يمكث له أثر فى أدب اللغة وكتبها ، ولا يتوصل الى اثبات وجوده الا بشذرة شاردة فى صحيفة من كتاب ، لا يكون فنا قد نال حظا من الرقى وخالط نفوس الأمة واستدعى اهتمام مثقفىها ، والحكاية التى رواها الأستاذ عن المقرئ تشهد بذلك ، حكاية المصورين اللذين رسما صورتين احدهما كأنها داخلية فى الحائط والأخرى كأنها خارجة منه : فان تفاخر الرجلين بهذا العمل الضئيل ودهش الوزير له واسباغه عليهما المنن من أجله ووقع القصة من نفس المؤرخ حتى أثبتتها فى كتابه ، كل ذلك لا يدل على ارتقاء الفن فى ذلك العصر بل يدل على كونه فى حالة بدئية ، وعلى ندرة المصورين المجيدين بل المتوسطى الحظ من الاجادة ، وكلام المؤرخ كله يدل على أن التصوير الذى عرف لذلك العهد لم يتعد الصناعة ذات الغرض العملى التى يزاولها الصناع كما يزاولون النقش والطلاء ، ولم يرق الى مرتبة الفن الخالص المنزه عن الأغراض العملية .

ان صور المدارس الايطالية والهولندية وغيرها منتشرة فى الأقطار تملأ المتاحف وتحدث عن نفسها وعن رقى الفن عند أهلها قبل أن تحدثنا عن ذلك مئات الكتب التى ألقت فيها ، فأين آثار مصورى العرب التى تحدثنا عن مثل ذلك ؟ بل أين الكتب المؤلفة فيها ؟ بل أين الصور العربية التى كانت وحيا لشعراء العربية كما كانت الصور الأوربية وحيا لوردزورث وتينيسون وغيرهما ، أو كما كانت صور الأطلال الفارسية وحيا لسينية البهترى ؟

لن نظفر بشيء من ذلك اذا طلبناه ، ولن يسعنا الا الاقرار بالحقيقة التى تطالع قارئ تاريخ العرب وأدبهم : وهى أن العرب كادوا أن يكونوا أمة ذات فن واحد هو الأدب وبخاصة الشعر الذى استوعب ملكات جل نوابغهم واحتوى دراسات جل مثقفهم ، ذلك بأن العرب كانوا منذ جاهليتهم أمة لسان وبيان .

ظواهر متماثلة

فى تاريخى الأدبين العربى والانجليزى

لا يكاد يكون بين الأدبين العربى والانجليزى من وجوه التشابه الا الامور العامة التى يتفق فيها كل أدبين يعبران عن نوازع النفس الانسانية ، وهما فيما عدا ذلك مختلفان جدا الاختلاف ، وهذا راجع الى امرين : أولهما اختلاف الأمتين فى الجبل (١) والبيئة : فهذه أمة شرقية سامية خرجت من جزيرة صحراوية وورثت الدول الشرقية القديمة ، وتلك أمة غربية آرية خرجت من جزيرة شمالية وشاركت فى تراث الدولة الرومانية ، وثانى الأمرين اختلاف قسطى الأدبين من التأثير بالثقافة اليونانية : فبينما كان تأثير الأدب العربى بها غير مباشر كان تأثيرها فى الأدب الانجليزى شاملا غامرا للأصول والفروع ، فاكسب ذلك الأدب صبغة اغريقية ظل الأدب العربى بعيدا عنها .

ولكن هناك ظواهر فى تاريخ الأمتين والأدبين متماثلة أدى اليها تماثل وقتى فى الظروف وأدت الى نتائج متماثلة : فعصر الجاهلية فى تاريخ الأدب العربى شبيه بعصر ما قبل اليزابث فى التاريخ والأدب الانجليزىين : ففي ذينك العصر كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته فى عزلة كبيرة عن العالم على حال شبيهة بعصر الأبطال فى بلاد اليونان الذى أنتج ملاحم هوميروس ، وكان الأدبان تبعاً لذلك جافيين ، وعزى الأسلوب واللفظ ، ساذجى المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكانا أقل رقىا من الأدب الذى جاء فى العصر التالى . والواقع أن الشبه هنا بين الجاهلية العربية وعصر الأبطال اليونانى كبير : ففي الجاهلية كان العرب منقسمين قبائل وعشائر متناحرة كما كانت البلدان والعشائر اليونانية ، وإن كانت تحس بقوميتها العربية العامة متمثلة فى لغتها وفى مجامعها السنوية فى الأسواق وفى الحج الى مكة ، كما كان اليونان يجتمعون فى المواسم الأولمبية ويحججون الى دلفى ، وفى تميزها على الأمم الأخرى التى كان العرب يسمونهم عجماء كما كان اليونان يعتبرون من عداهم برابرة ، وإن يكن العصر الجاهلى لم ينتج ملاحم كبارا كالإلياذة

(١) الجبل : الطبيعة والخلقة .

والاوديسا فى اليونان أو كملحمة « بيولف » فى انجلترا ، فان قصائده على قصرها هى من هذا الضرب . ولعل العصر الجاهلى لو طال قليلا لائلقت تلك القصائد الصغيرة التى تمجد كل منها قبيلة واحدة ، فكونت ملحمة كبرى تتغنى بفروسية الأمة العربية قاطبة .

ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز فى عصر اليزابث بوصول النهضة الأوروبية الى انجلترا واتجاه نظر الانجليز الى ما وراء البحر ، ففى كلا العصرين بدأت كل من الأمتين تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها وتتصل بالعالم وتصطنع حضارته وتبنى لنفسها امبراطورية مترامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتقاء عظيما ورقى ديباجته ، وان يكن الرقى الأدبى فى صدر الاسلام قد تمثل فى النثر بينما تمثل فى العصر اليزابثى فى الشعر ولا سيما الشعر الجاهلى .

وبانبعث هذه النهضة وقيام هذه الدولة انتشرت كلتا اللغتين فى بقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيرا من الأمم ، فاللسان العربى الذى لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة فى الجاهلية يتكلم (بضم التاء) من حدود الصين الى المحيط الأطلسى ، وأثر فى اللغات وأزال غيرها وحل محلها ، وأصبح اليوم لسان شعوب كثيرة فى آسيا وأفريقية . واللغة الانجليزية التى لم يكن يتكلمها الا ملايين تعد على الأصابع فى عهد شكسبير أصبحت تتكلم وتدرس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالميا كما كان أدب العرب عالميا على عهد عظمتهم .

ولم تكد كل من الأمتين توطد أركان امبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلا حتى طاولها فى النفوذ والسلطان ، وداناهما فى ازدهار الآداب والعلوم ، فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية استقلت الولايات المتحدة الأمريكية عن الامبراطورية البريطانية ، بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول المدى فلم تنجب الأندلس من الأدباء من بذوا فحول العباسيين ، ولا ظهر فى أمريكا ولا غيرها من أنحاء الامبراطورية البريطانية من داني شكسبير وملتون .

وباتصال كل من الأمتين بالأمم المتحضرة سرت اليها موجة عدوى من دواعى الترف وبدا أثر ذلك فى أدبها : فاختلط العرب بالفرس أدخل الترف والعبث فى البلاط العباسى وأثر فى جيل أبى نواس من الشعراء ،

واتصال الانجليز بفرنسا في ظل ملكها المترف لويس الرابع عشر أفسد بلاطهم على عهد شارل الثاني وظهر أثر ذلك في الأدب ولا سيما في الرواية التمثيلية .

وكلا الأدبين تأثر الى حد بعيد بالكتاب السماوى الذى تدين به أمته ، فأثر القرآن فى المجتمع العربى وتاريخ اللغة العربية وأصولها وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم بين الجسامة ، فقد كان منذ جاء مثلا أعلى وثقافة قائمة بذاتها ، والانجيل منذ ترجم الى الانجليزية فى عهد الإصلاح الدينى كانت له اليد الطولى فى تثبيت الأسلوب النثرى الانجليزى ، وتثبيت مفردات اللغة ، وادخال مفردات جديدة واشتقاق غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت الى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائما قدوة للأدباء يحتذونها فى اسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلى فى كتابين من ذخائر الأدب الانجليزى : أحدهما « رحلة الحاج » البنيان والثانى « الفردوس المفقود » للمتون : ففى كليهما كان أساس القصة ما ورد فى الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل ان دراسة الانجيل كانت هى الثقافة الوحيدة التى نالها (بنيان) الذى كان قسا ضئيل الحظ من المثقف ، ومع ذلك فأسلوبه المبني على أسلوب الانجيل يعد فى الذروة فى أدب اللغة .

وهناك التأثير بالتراث اليونانى الذى كان حتما على كل شعب أتى بعد اليونان أن يتسأثر به : فاغترف أدباء الانجليزية من مناهل الأدب اليونانى اغترافا واستوعبوه دراسة فجاء أثره شاملا عاما لا يقتصر على فرع دون فرع ولا يمتاز به جيل أو أدباء أو أديب دون أديب ، على حين كان التأثير اليونانى فى الأدب العربى كما تقدم ضئيلا غير مباشر آتيا عن طريق دراسة فلسفة اليونان لا أدبهم مما بدا أثره فى حكم المتبنى والمعرب وأضرابهما .

لم يأخذ العرب عن اليونان ولا عن غيرهم أخذا بالجملة كما صنع الانجليز ، بل ظلوا فى زمانهم شامخين بأدبهم ينظرون من عليائه الى من حولهم من أمم وما لها من آداب ، أما عهد الأخذ بالجملة فى تاريخ الأدب العربى فهو عصرنا الحاضر الذى يوسع فيه أدباؤنا اللغات الغربية دراسة ونقلا ومحاكاة ، فيغنون (يثرون) أدبنا أى اغناء ، ويخصبونه بالعنصر الأجنبى الذى كان يعوزه .

هذه ظواهر يتقارب فيها تاريخا الأدبين لتقارب فى ظروف الأمتين فى شتى العهود ، أما ظواهر التباين فلا تكاد تعد ، ويجب حين نقابل

بين التاريخين أن نذكر أن دولة العرب أقدم عهدا وأدبهم أعرق محتدا(٢)،
وأن دولتهم وأدبهم قد غبر (٣) الفصل الأول من قصتهما ، وهما اليوم.
في طور بعث جديد ، أما الدولة والأدب الانجليزيان فما يزالان في.
الفصل الأول •

(٢) محتدا . (الحيد) وهو ما نشأ من نواحي الشيء •

(٣) غبر : مضى •

النزعة العملية

فى الأدبى العربى والانجلىزى

من الطرىف والمفلىء معا ألا نزال نوازن بىن الأدب العربى والأدب الانجلىزى فى شتى النواحى ، فان هذىن الأدبىن لاختلاف ظروفهما ىختلفان كثيرا وقلما ىتفقان ، والموازنة بىن وجوه اختلافهما العىدة - ووجوه اتفاقهما ان كانت - تلقى ضوءا على مختلف الظواهر فى كللها ، وتبرز شتى الأسباب والمسببات فى تاريخهما ، وقد قىل : وبضدهما تتمىز الأشياء .

وأعنى بالنزعة العملية فى الأدبىن اتصالهما بالحياة اللىومية والاجتماعىة والسىاسىة والوطنىة ومساهمة أقطابهما فى تلك الشئون ، والأدبان هنا أىضا على طرفى نقىض : فالنزعة العملية تسود الأدب الانجلىزى من أقدم أىامه ، وهى تزىاد باطراد عصرا بعد عصر ، بىنما هى تكاد تنعدم فى الأدب العربى ، وما كان منها فى صدر تاريخه قد تضاعف بكر العصور .

فالانجلىز بطلبىعتهم العملية لم ىترددوا فى زج الأدب فى غمار (١) الحياة العملية والاستعانة به فى شئونها ، وأدباؤهم لم ىحجموا عن الأخذ بحظهم من أشغال الدنيا ومخاطراتها ، أما العرب فعلى عظم منزلة الأدب لدهم وشدة احتفائهم به ، كان أدبهم دائما بواد والحياة العملية بواد ، وكان فنا نظرىا محضا من توفر علىه انقطع عن غىره وعاش فى عالم من الحفظ والرواية والتارىخ والتصنىف .

فكان من أدباء الانجلىز من ضربوا بسهم فى الفن والعلم واللىن والحرب والكشف الجغرافى وكبار وظائف الدولة ، ولهم مع ذلك مؤلفاتهم الشعرىة والنثرىة المعبرة عن خوالجهم النفسىة ونفتراتهم فى شئون الحياة مستقلة تمام الاستقلال عن وظائفهم فى الحياة العملية أو متأثرة بها ، ومن أولئك سبنسر وبرىلى وبنىان وسدنى سمىث وذرراىلى .

(١) غمار . جمىع (غمرة) وهى الشدة .

ومنهم من شاركوا في الثقلبات السياسية فكانوا دائما في صف الحرية وفي جانب الشعب ، ولم يستظل منهم الا القليل بلواء الملكية ابتغاء السلامة والغنيمة . ومن ضربوا بسهم في هذا الباب توماس مور مؤلف « اليوتوبيا » الذي قطعت اليزابث يده لدفاعه عن حرية الشعب الدينية ، ويقال انه بعد قطع يده رفعها هاتفا بحياة الملكة لأنه كان يحب ملكته الباسلة ، ولكنه كان أكثر حبا للحرية والشعب . ومنهم ملتون الذي أيد الجمهورية في ظل كرومويل وعمى بصره في الدفاع عنها أمام أنصار الملكية .

ومنهم من اضطلعوا بعقب الإصلاح الاجتماعي الأخلاقي عقب الفساد الذي تركته الملكية العائدة من فرنسا بعد موت كرومويل ، واديسون ، وستيل بطلا هذا الإصلاح الناجع الفريد في بابه . ومنهم من كرس أعماله لإصلاح حال العمال عقب التطور الصناعي وزعيمهم دكنز ، أو لإصلاح القانون الجنائي ومعاملة المسجونين تمشيا مع عصر النور والحرية ، ومن أولئك جالزوردي . ومن الأدباء الفكتوريين من صرف همه إلى ترقية الجمهور والذوق العام بالمحاضرة عن الفن والأدب ، وكبير هؤلاء ، رسكن . وزادت هذه النزعة الاجتماعية الإصلاحية بتشعب نواحي الحياة حتى ظلت في عصرنا الحاضر .

بل كان من أولئك الفكتوريين جماعة خاضوا ميدان الصناعة والتجارة ، فأنشأوا شركة لصنع الأثاث ، وكانوا يرسمون تطريز الأثاث بأنفسهم ، إذ ساءت لهم الطرازات الشائعة في عهدهم ، وأنشأ أحدهم وهو الشاعر المصور ولیم موريس مطبعة ومعملا للحبر لكي يطبع كتبه على النمط الذي يختاره وبالحبر الذي يفضله .

بل كان من أدباء الانجليز من عاف الاجتماع الانساني قاطبة ونقم على أنظمة الملكية والكنيسة ، وحاول انشاء مجمع جديد تسود فيه البساطة والمساواة والاخاء ، ومن هؤلاء شعراء عهد الثورة الفرنسية ، فالكتاب الفرنسية الذين مهدوا لتلك الثورة أمثال روسو وفولتير اكتفوا بالعمل النظري وتركوا التنفيذ لغيرهم ، أما معاصروهم ومن جاء بعدهم من الأدباء الانجليز فحاول كثيرون منهم تنفيذ العمل بأنفسهم . وقد انتقل شيلي إلى أيرلندا ثم إلى أوروبا لإنشاء مدينته الفاضلة ، وإن يكن قد منى بالفشل في الحاليتين ، وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لماداتها بمبادئها المعروفة حتى نقم على دولته إعلانها الحرب على فرنسا الثائرة ، وكاد ينتظم في أحد أحزاب الثورة ، ويركب تيارها الخطر .

أولئك بعض رجال العمل من أعلام الأدب الانجليزى المساهمين فى الحياة الاجتماعية بفكرهم ومجهودهم ، وما نخالنا واجدين مماثلهم بين أعلام أدبنا : فقد كان من يتوفر على الأدب من أبناء العربية ينصرف كما تقدم عما عدا الأدب ، ويقصر أدبه على التعبير عن خوالجه الفردية وذكر مآربه وحبه وسرابه وغضبه ورضاه ونعيمه وشقائه ، ويكاد لتوفره على الأدب لا يجد قوت يومه ان لم يكن له مورد سهل ، ويضطر الى التقرب الى مولى يمتدحه ويفوز بأعطيته ، وقد كان هذا من دواعى استئطالة هذه الظاهرة فى الأدب العربى : ظاهرة المدح التى سرعان ما تلاشت من الأدب الانجليزى .

والقليلون من أعلام الادب العربى الذين شاركوا فى الحياة العملية اما صنعوا ذلك جريا وراء مطامعهم الشخصية لا دفاعا عن مصالح اقوامهم ، ولذا كان أقصى همهم أن يستوزروا للحكام ، ولم يدر بخلد هم مناقشة سياسة أولئك الحكام ، وانما ظلوا أبواقا لهم وكثبة مجيدين ، ومن ثم كان ما يتحصل بالسياسة من ذخائر الادب العربى هو الرسائل الديوانية التى دبحها أولئك المنشغون على لسان أمرائهم .

والمجيدون من أعلام الأدب العربى الذين ساهموا فى حياة العمل بمناهضة السلطة القائمة كقطرى بن الفجاءة مثلا قلائل ، وكان جلهم فى صدر الاسلام ، ومن لم يفعل ذلك منهم طلبا لغاية شخصية فعله لعقيدته الدينية حين كانت العقائد الدينية مضطربة فى الصدور .

لقد كان الشعر والخطابة فى الجاهلية أدانين من أدوات الحياة العملية والسياسية فى ذلك المجتمع البدوى ، فلما جاء الاسلام كان فى أصوله شوريا يخول الرعية مشاورة راعيها ، ولكن دولته قامت على بقايا الملكيات المستبدة القديمة ، فقامت الخلافة العربية على غرار تلك الملكيات التى تجمع الأمر كله بيدها ، ولم يعد الخليفة يشاور اذا هو شاور رعا لحق الرعية عليه بل التماسا للرأى ان أعوزه ، ولا هو كان ملزما باتباع مشورة غيره ، وصار من المسلم به ان الحكم للأمير لا دخل للرعية فيه . وبدهى أن الأدب الذى ينمو فى مثل هذه الظروف يظل مكفوبا عن شئون السياسة كما كانت بقية الرعية مكفوفة ، فهذا سبب انعزال الأدب العربى عن السياسة .

فالأدباء ممثلو أمهم : ففى انجلترا حيث كان الدستور والحياة النيابية هما العقيدة التى يدين بها الشعب شارك الأدباء كما شارك غيرهم من أفراد الشعب فى الحياة السياسية وتوطيد أركان الحرية ، وفى الاقطار

العربية حيث كانت الملكية المطلقة هي القاعدة أحجم الأدباء عن خوض غمار السياسة كما كان بقية الشعب محجما .

ولقد خفف من وطأة الحكومة المطلقة على الأدب أن أكثر الخلفاء والأمراء كانوا أدباء أو عشاقا للأدب ، وكانوا جميعا يقربون رجال الأدب ويغدقون عليهم ، على أن هذه الحالة كانت لها مساوئها بجانب مزاياها : إذ زخر أدبنا دون غيره من الآداب العالية بأشعار المديح والتهنئة والاستجداء ، وشتان بين أدب ينمو في ظلال الحرية والاستقلال ، وآخر بين قيود الرعاية والحماية والمنحة .

كان الدستور محور السياسة في إنجلترا ، وكان الدين محورها . في الاقطار العربية ، فعليه انقسمت الأمة أحزابا في أول الأمر ، ومنه انبعثت الفتن والثورات وقامت الأسر الحاكمة وتقسمت الامبراطورية العربية دولا ودويلات ، وبحافز منه جاهد المسلمون الروم ثم الفرنجة . كان الدين في كل هذه الأطوار مبعث النشاط السياسي وزناد الروح الوطنية والقومية ، ولا ترى الشعر العربي يحفل بالحماسة وروح القومية الا في عصور الجهاد تلك .

فالحياة الديمقراطية في إنجلترا كانت العامل الأول في اتسام الادب الانجليزي بالنزعة العملية ومساهمته في الحركات السياسية والاجتماعية ، واختراع الطباعة كان عاملا آخر ساعد اتصال الأدباء بالحياة الاجتماعية واعتمادهم على جمهور القراء بدل الاعتماد على منح الأمراء ، ونتج من توثق هذا الاتصال نشوء الصحف الدورية فكانت عاملا جديدا في هذا الميدان أعقبه تعميم التعليم .

فعاملا امتلاء الأدب الانجليزي بالنزعة العملية هما الحياة الديمقراطية أولا وانتشار المطبوعات ثانيا ، وقد كان كلا العاملين يعوزان الأدب العربي ، ومن ثم يزخر الأدب الانجليزي بالشئون الاجتماعية والسياسية والوطنية بينما يقتصر الأدب العربي على وصف المشاعر الانسانية العامة وتصوير حالات النفس وأطوار الفرد .

الأثر الأجنبي (★)

فى الأدبين العربى والانجليزى

تتفق اللغتان العربية والانجليزية فى خروجهما من جزيرة منعزلة ، وانتشارهما فى امبراطوريتين متراميتين ، وفى تأثر أدبيهما بهذا التوسع العظيم وبالاختلاط بالأمم الأخرى وآدابها ، ولكنهما يختلفان فى كيفية هذا التأثير ونواحيه ومداه ، لاختلاف الظروف التى اكتنفت قيام الامبراطوريتين .

فقد صاحبت قيام الدولة الاسلامية ظروف أربعة كان لها أبعد الأثر فى تاريخها السياسى وفى تاريخ أدبها : فهى أولا قد قامت على أساس دعوة دينية تنتظم الأمم ، وتسوى بين الناس ، وتعد المؤمنين بها من مختلف الأجناس اخوانا . وهى ثانيا جاءت مبكرة غاية التبكير ، ولم ينقض على تأسيس الدولة العربية الأصلية فى الوطن الأصلى – جزيرة العرب – غير سنوات قليلة . وثالثا تم تأسيسها بسرعة نادرة المثال فى التاريخ نتيجة نجاح العرب الحربى الباهر ، وأخيرا انبسط سلطانها على أمم تفوق العرب الفاتحين نسي وحضارة وثقافة .

هذه العوامل الأربعة – بما انطوت عليه من خير وشر – كانت حاسمة فى مستقبل الدولة العربية . فمساواة الاسلام بين الناس – مساواته بين العرب الفاتحين وبين الأعاجم المغلوبين – هيات لهؤلاء أن ينافسوا العرب فى الحكم والرياسة وكافة أسباب الحياة . وقيام الامبراطورية مبكرة قبل أن تتوطد الدولة فى وطنها الأصلى من جهة جعل فبضة الوطن الأول على ممتلكاته واهية سرعان ما انحلت ، وانفصلت جزيرة العرب أو كادت عن بقية الامبراطورية وعادت الى ركودها الأول ، وخرجت منها عاصمة الحكم ، ومن جهة أخرى جعل الحكم الفردى المطلق هو النظام الوحيد القادر على إدارة تلك الأضيق المترامية ، فأهملت الضرورى التى حض عليها الاسلام ، والتى كانت مرعية قبل أن تمتد اطراف الدولة وتخرج العاصمة من الجزيرة . وسرعة تأسيس الامبراطورية

(★) بدءا من هذه المقالة استخدم فخرى أبو السعود مصطلح (الأدب المقارن) كعنوان لمقالاته .

عمر الفاتحين بطوفان من الثروة نشر الترف والفساد نشر يزرى (١) بكل ما عرفتة روما عقب فتوحها شرقا وغربا . وامتداد سلطان العرب على أهم تفوقهم حضارة وثقافة جعل من الحتم استعانتهم بأبناء تلك الأمم فى الادارات والصناعات التي لم يكن لهم بها عهد من قبل .

وقد استفاد العرب من سياسة المساواة والتسامح والعدل التي جروا عليها فى ادارة امبراطوريتهم أن انتشر دينهم ولغتهم فمحقا الأديان واللغات السابقة فى معظم أملاكهم وحلا محلها . ولكن دولتهم جاءت - من جراء أربعة العوامل آنفة الذكر - شعوبية لا عربية صميمة ، مستبعدة الحكومة ، مترفة المجتمع ، متنافرة العناصر ، منطوية على عناصر كثيرة من عناصر الانحلال .



كانت الظروف التي لا بست قيام الامبراطورية الانجليزية وانتشار اللغة والأدب الانجليزيين عكس هذه تماما : فقد توطدت الدولة الانجليزية فى وطنها الأول توطدا تاما مدى قرون قبل أن تتجه الى التوسع الخارجى ، واقتبس الانجليز حضارة جيرانهم وثقافتهم حتى صاروا فى مقدمة الأمم . فلما راحوا ينشرون سلطانهم لم يخضعوا أمما تفوقهم مدنية كما كانت حالة العرب مع الفرس ، أو حالة الرومان مع الاغريق ، وتكامل بناء امبراطوريتهم تدريجيا مع سير الزمن وتطور الحوادث ، فلم يبتلوا (بضم الياء) بسيل مفاجئ من الثروة والترف يزعزع دعائم مجتمعهم ويوهن متانة أخلاقهم ، ولم يكونوا بسبيل دعوة دينية أو انسانية تسوى بين القاهرة والمقهور ، بل كانوا وما زالوا يعتبرون رسالتهم اخضاع الآخرين وحكمهم لا مساواتهم بأنفسهم ، ومن ثم ظلوا متعاليين عن الأمم المغلوبة مستأثرين بالكلمة العليا دونها متحاجزين عن أفرادها فى المجتمع لا يخالطونهم ولا يزاوجونهم الا فيما ندر .

لذلك كله قامت دولتهم انجليزية صميمة ، واتسق للنظام الديمقراطي أن يزداد تمكنا مع ازدياد اتساع الدولة ، بعكس ما كان فى حالتى العرب والرومان ، وظل الوطن الأول فى الامبراطورية الانجليزية المقام الأول ، وبقيت به حاضرة الحكم التي تجمع سلطتها الأطراف وتؤثر فى غيرها من أجزاء الامبراطورية أضعاف ما تتأثر بالغير .



(١) يزرى : يعيب ويعاتب عليه .

تلك الظروف التي صاحبت امتداد الامبراطوريتين واختلاط الأمنين بالعناصر الأجنبية كان لها جميعا أعظم أثر في تاريخ أدبيهما كما كان لها أثر في تاريخها السياسى ، وهو أثر مزدوج يشمل معالجة أبناء الأمم المفتوحة لأدب الأمة الغالبة ، كما يشمل اطلاع أبناء هذه الأخيرة على آداب الأمم المقهورة ، وهنا أيضا يتباين الأدبان العربى والانجليزى .

فالعرب قد سمحوا للمسلم من أية أمة أن يباريهم فى معاناة أدبيهم كما باراهم فى شئون الحرب والحكم ، فما لبث الأجانب الداخلون فى العربية أن بذوا العرب فى هذا الباب بحكم قديم ثقافتهم وتليد (٢) حضارتهم كما بذوهم فى غيره ، وما لبثوا أن صار منهم أئمة الأدب العربى ، واستأثروا أو كادوا بكتابة الدواوين ووزارة الخلفاء وصلات الأمراء .

ولم يكن من الخير فى شئ للأدب العربى أن يتسلط عليه أولئك الغرباء الواغلون ، وكانت لهم فيه آثار سيئة : فهم مهما تكن ثقافتهم ومهما بلغ انكبابهم على دراسة العربية غرباء بطبعهم عن الأدب واللغة والذوق الأدبى العربى وتقاليده ومراميه ، فلم يكتبوا أو ينظموا على السجعية بل كانوا دائما مقلدين متعلمين : قلدوا متقدمى العرب تظاهرا باندماجهم فى العربية ، فكانوا عنصر تقليد ومحافظة ، لا عنصر ابتداع وتجديد فى الأدب ، وتعملوا فى اللفظ تظاهرا بتفقههم فى اللغة ، فأدخلوا الصنعة والبهرج والزيغ فى الأدب بدل أن يوسعوا أغراضه ويسموا بمعانيه .

فسريان العنصر الأجنبى الأعجمى فى الأدب هو مرجع تغلب الصنعة على الطبع فى كثير منه ، ومرجع تغلب نزعة التقليد على نزعة التجديد فى كل عصوره . وكفى بهذين داعيا الى جمود الأدب ثم تدهوره . ولا شك فى أنه لو بقى الأدب وقفا على العرب الصميمين ، وظلت الكلمة العليا للعرب فى الدولة ، وظلت هذه الدولة مسندودة المساحة لا تتجاوز كثيرا حدودها الطبيعية ، لجاأ الأدب أقرب الى الطبع وأحفل بمظاهر الفن وأوسع مدى وأسمى أفقا وأطول عمرا ، ولكان له تاريخ غير الذى كان .

أما الأدب الانجليزى – وسنن الانجليز التى جروا عليها فى توسعهم واتصالهم بالأمم الأخرى هى ما قدمنا – فكان أقطابه بعد قيام الامبراطورية – كما كانوا قبلها – انجليزا أقحاحا (٣) يعبرون عن الطبع الانجليزى

(٢) تليد : قديم وأصيل .

(٣) أقحاحا : (قح) : أى خلا من الشوائب الغريبة .

والبيئة الانجليزية ، ويفقهون روح لغتهم وتراث أدبهم ، ويصدرون عن تقاليدهم المجيدة ، فلا غرو أن جاء الأدب الانجليزي طبيعيا فنيا صادقا التعبير سامي المقصد بعيدا عن التكلف ثوارا على الجمود .

فهذا فرق ما بين الأمتين في الاتصال بالأجانب . وهناك فرق بينهما في الاتصال بآداب أولئك الأجانب لا يقل خطورة عن سابقه . فالعرب الذين قبلوا الأعاجم أندادا في دينهم ولغتهم وأدبهم ترفعوا عن آداب ملك الأمم ، ولم يروا بأنفسهم - وهم معادن البلاغة وفحول الخطابة ، واختتم لغة الدين والدولة والقرآن - حاجة الى الاطلاع على آداب غيرهم ، فنظروا الى الأدبين الفارسي واليوناني وغيرهما شذرا ، وخسروا بذلك كثيرا وضائق أفق أدبهم كثيرا لاعتزاله غيره .

على حين أن الانجليز الذين ضنوا بقوميتهم وترفعوا عن سواهم من الأمم في الحكم وفي المجتمع لم يترفعوا عن آداب تلك الأمم الجديرة بالدرس ، فانتفعوا قبل توسعهم وبعده بالآداب الايطالية والفرنسية والألمانية ، بله (٤) آداب الأمم البائدة من اغريق ورومان ، اوسعوا الى ذلك درسا واطلاعا ونقلا ، فأخصبوا أدبهم أي اخصاب ، ووسعوا أطراف لغتهم ذاتها . وعلى هذا النحو استفاد الانجليز بخير ما في الآداب الأجنبية دون أن يفقدوا شخصيتهم في غمار تلك الآداب ، أو يسمحوا للأثر الأجنبي أن يفسد ملكتهم الاصلية وطبعهم الخاص .

فالظروف التي أحاطت بانصاف العرب بغيرهم ، وتأثر أدبهم بالآداب الأجنبية ، والسنن التي استتتها العرب في معاملة الأجانب ، لم تكن خير ما يساعد الأدب العربي على النمو الصحيح والازدهار الطويل . واللغة العربية المحكمة البناء ، البارة التعبير ، الغنية الجوانب ، التي أينعت تحت سماء البادية لم يتح لها في أرض الحضارة من يوجهون بليغ أساليبها أحسن التوجيه الى دراسة النفس الانسانية ووصف المجتمع البشري ، وكان رقيها العلمي في ظل الامبراطورية الاسلامية أعظم بكثير من رقيها الأدبي .

(١٢) بله : ناعم رخى .

طور الثقافة

فى الأدبين العربى والانجليزى

يمر أدب كل أمة بثلاثة أطوار كبرى تتبع فى عهود رقى الجماعة :
 فطور الهمجية يليه طور البداوة ويل هذا طور الحضارة ، وفى الطور
 الأول لا يكون للأدب وجود مستقل بنفسه ، بل يكون الشعر تعبيرا ساذجا
 عن بسيط العواطف ممتزجا بالغناء والرقص ، ويكون النثر سذورا من
 الخرافات والمعتقدات المتوارثة عن الآلهة والجان وقوى الطبيعة . ويأتى
 الطور الثانى بارتقاء عقلية الجماعة بممارستها أعمالا أرقى وأدق واختلاطها
 بالأمم الراقية ، وفى هذا الطور يتميز الشعر ويستقل عن غيره من الفنون
 وتتنوع جوانب النثر ، ولكن يظل الشعب على رغم ارتقائه العقلى فطريا
 متبديا ، حتى اذا عبر هذا الطور الى طور الحضارة ازداد ترفا فى الحياة
 ومارس العلوم المنظمة وعرف الكتابة . فظهر فى أدبه أثر الثقافة والفن
 والصناعة .

وقد مر الأدب العربى بالطور الثانى من هذه الأطوار فى عهد
 الجاهلية وصدر من الاسلام : وفى ذلك العهد كان العرب على جانب يعتد
 به من الرقى العقلى لمزاوتهم التجارة ووقوفهم على حضارة الفرس والروم ،
 وفى ذلك العهد نضجت اللغة العربية نضجا عظيما وبلغ الشعر من الرقى
 شأوا (١) بعيدا ، بيد أن الأدب ظل فطريا بعيدا عن أثر الثقافة والدراسة
 والتدوين والصناعة ، ثم نهض العرب نهضتين علميتين فى مدى قرنين :
 أولاها بظهور الاسلام ونزول القرآن وفتح الأقطار ، والثانية بترجمة
 علوم الأقدمين ، وبذلك انتقل الأدب العربى الى الطور الثالث من أطوار
 رقيه : طور الحضارة والثقافة .

وقد انتقل الأدب الانجليزى الى هذا الطور أيضا بنهضتين متواليتين:
 الأولى فى القرن السادس عشر بوصول حركة احياء علوم الأقدمين - اليونان
 والرومان - من أوروبا الى انجلترا ، والثانية فى القرن التاسع عشر عقب
 التقدم الصناعى العلمى الذى كانت انجلترا رائدته وكان من أبنائها كثير
 من أئمة النهضة العلمية الحديثة فى علوم الفلك والحياة والطب والنفس
 وغيرها .

(١) شأوا : (الشأوا) أى الامد والغاية .

ويلاحظ أن هناك اختلافاً في توالي النهضتين في الامتين : فقد كانت نهضة العرب العلمية الأولى داخلية وليدة الدين الذي نشأ بين أظهرهم ، وكانت الثانية خارجية آتية من نقل علوم الأمم الأخرى ، بينما في إنجلترا جاء هذا النقل عن الأقدمين أولاً ثم كانت النهضة التالية داخلية نتيجة لتحسين أبناء البلاد بما نقلوه من علوم غيرهم .

وقد أوفى العرب على الغاية في الشغف بالعلوم والجهد في نحصيلها ، وأظهر أمراؤهم من التقدير للعلم وأهله والرغبة في خدمته والبذل في سبيله ما لم يظهره ملوك دولة في التاريخ ، وكانت رعايتهم للمعلماء - بعكس ما كان تقرييبهم للشعراء - جليل النفع بعيد الأثر .

وكان للعرب من اللغة العربية الرحبة الجوانب ، الطيبة الأسلوب ، الغنية بطرائق الاشتقاق ، خير معاون في جدهم في درس العلوم ، وامتلات جوانب اللغة بضروب الدراسات والثقافات ، وكان رقيها العلمي في عهد الدول الإسلامية يفوق كثيراً رقيها الأدبي : فبينما ظل أدباء الجاهلية دائماً أساتذة للمتأخرين يحتذونهم في الأدب ، أمعن علماء الإسلام وفلاسفته في مذاهب من التفكير والبحث لم يسمع بها الجاهليون ولا خطرت لهم على بال .

ولم يقصر أدباء العربية عن غيرهم في تلك الحلة العلمية المحتدمة ، ولم يكونوا دون سواهم شغفاً بالعلم وطلباً لشوارده ، بل كان أكثرهم مثقفين ثقافة علمية وأدبية عالية ، وقد تلقوا علومهم على طريقة عهدهم : فمن نشأ في يسار أحضر له المؤدبون ، ومن ترعرع في بيت علم وفضل قام أبوه بتأديبه ، ومن قصر به جده عن هذا وذاك تنقل بين الأدباء واختلف إلى العلماء حيث كانوا يجلسون للدرس ، أما المدارس والجامعات فلم تنشأ إلا متأخرة ، قبيل بدء عهد الركود الفكري ، ولم يكد يتخرج فيها علم من أعلام الأدب .

وكان من خصائص الثقافة الإسلامية ترامي أطرافها واختلاف أجناس الخائضين غمارها وشمولها شتى العلوم والمذاهب والعقائد من متفرق الأمم وامتزاج العلم بالأدب والدين بالفلسفة فيها ، وقد ظهر أثر كل هذا في المؤمنين وفي مؤلفاتهم : كانوا طموحين في طلبهم العلم يبتغون نمثل كل ما في عصرهم من مناحي التفكير ، وكانوا كذلك طموحين في مؤلفاتهم يحبون أن يودعوها كل فن . ولو أردنا أن نشير إلى الأدباء الذين نالوا حظاً عظيماً من الثقافة لأحصينا أكثر أدباء العصر العباسي الزاهي بين

القرنين الثاني والخامس الهجرى • ويكفى أن نذكر من الشعراء المعرى الحكيم المعنى بشئون الكون والفلك والحياة الاجتماعية ، ومن الكتاب الجاحظ العالم الكلف (٢) بدراسة الحيوان وتذوق كل قديم وجديد وقريب وبعيد فى الحياة والكتب ، والذي كان - كما قيل - يستأجر المكتبات ليلا ليبيت فيها يستوعب محتوياتها •

تماثل الكتاب والشعراء فى الأخذ من الثقافة بنصيب ، ولكن كان الكتاب على العموم أوفر حظا من الثقافة عامة ومن العلوم خاصة ، واقتصر بعض الشعراء على الدراسة الأدبية ، لأن الكتاب كانوا يترشحون للوزارة وكتابة الدواوين والولاية وتاديب أبناء الأمراء ، ولابد لتلك المناصب من دراية واسعة والمأم شامل ، لأن كثيرا من الشعراء لم يكن للشعر عندهم غاية وراء استدرار الصلات والجوائز ، ولم تكن وظيفته عندهم تسجيل الآراء والخوارج النفسية ، فلم يكن بهم كبير حاجة الى دراسة العلوم التى تهذب الفكر ، بل كان حسبهم أن يقفوا على مذاهب القول التى سلكها المتقدمون من الشعراء المداحين ، والبعثرى أبرز أولئك الشعراء الذين عاشوا فى صميم عهد الثقافة (٣) بنجوة عنها ، فقد كان حريصا على استبقاء السذاجة البدوية ، وجاء أكثر ديوانه الضخم مدحا لمن يرجو عندهم العطاء ، وهجوا لمن خيخوا منه ذلك الرجاء •

كان أعلام الأدب الانجليزى كذلك على جانب عظيم من الثقافة - وقد حصلوا - عدا من قعدت بهم ظروف غير مواتية كشكسبير وجونسون - علومهم فى الجامعات التى أخذ نظامها عن العرب وأصبحت مواطن العلم والدرس ، ونبه صيت بعضهم وهم ما يزالون طلابا بها ، وتشترك ثقافتهم مع ثقافة أدباء العربية فى الاشتغال على الفلسفة اليونانية ، ولكن بينما كانت دراسة الأدب العربى القديم تتم البساقى من ثقافة الأديب العربى ، كانت دراسة الأدب اليونانى تكمل ذلك الجانب من ثقافة الأديب الانجليزى • ومن ثم كان معظم الأدباء الانجليز ملمين باللغتين اليونانية واللاتينية ، ولمعرفة اللغات أثرها العظيم فى تكوين الأديب وتوسيع أغراض القول ، ويكثر الالماع الى اليونان والرومان : تاريخهم وأساطيرهم ومشهورى رجالهم فى الأدب الانجليزى ، كما تكثر الإشارة الى الجاهلية والجاهليين فى الأدب العربى •

(٢) الكلف : المحب المولم •

(٣) بنجوة عنها : بعيد عنها •

ويتشابه رجال الأدباء في الرحلة عن الوطن في نشدان العلم : فقد كان أدباء العربية يطوفون في البلاد في طلب أئمة العلوم يلزمونهم ، وفي طلب نوادر الكتب يستنسخونها ، وربما أضافوا الى ذلك حج البيت الحرام . وكذلك جرت سنة الأدباء والمتعلمين عامة من ذوي اليسار الانجليز على الارتحال بعد نيل درجاتهم العلمية الى أوروبا وخاصة الى إيطاليا مبعث النهضة الأوروبية ، وربما أضافوا الى ذلك الحج الى آثار بلاد الإغريق مهد العلوم والآداب والفنون القديمة . ولهذه الرحلة عن الوطن - فضلا عن كسب العلم ومصاحبة العلماء - أعظم الأثر في تكوين نفس الأديب وتوسيع أفق حياته .

وكان لانتشار الثقافة في الأمتين آثاره المشابهة في الأدبين : فارتقيا خيالا وأسلوبا وأغراضا ومعاني ، واتسعت جوانبهما ، وظهر فيهما التفنن والصنعة المقصودة . وظهرت لغة علمية دقيقة التعبير بجانب لغة أدبية أنيقة التعبير (٤) ، وظهرت روح النقد وتجلت نزعة الشك من جراء اصطدام العلوم المستحدثة بالعقائد الموروثة ، واشتدت المنازعات الأدبية، واحتدمت المشادات بين أنصار القديم وأتباع الجديد ، وظهرت آثار المذاهب الفلسفية واصطلاحات النظريات العلمية في رسائل الكتاب وفصائل الشعراء ، ونسخ من المثقفين من يجمعون بين صناعتى العلم والأدب .

ولا ريب في أن هذا الطور الثالث من أطوار رقى الأدب التي أسير اليها في صدر هذه الكلمة - طور الحضارة والثقافة - هو أرقى ما يصل اليه الأدب وفيه ينال ما قدر له من أسباب الكمال . وفيه أنتج الأدب العربي خير نتاجه ، فالأدب لا يبلغ غايته الا في حضارة تحيط به ، وثقافة تغذيه ، وروح نقد تستعنه . وقد دام هذا الطور الأدبي في العربية زهاء ثلاثة قرون حافلة ، تخلف لنا منها تراث زاخر يشهد بشغف العرب بالعلم ولوعهم بالأدب ، ثم عملت عوامل الفساد السياسية والاجتماعية عمالها ، فاضطرب المجتمع ، وجمدت الأفكار ، ودخل الأدب في طور تدهوره الطويل .

(٤) التعبير : (حبر الشيء) أى رينه ونمقه .

الفكاهة

فى الأدبين العربى والانجليزى

إذا انطوت الفكاهة على صادق حكمة أو نافذ نظرة ، وأودعت العبارة المحكمة اللائقة بها ، كانت فى الفرد دليل صفاء الذهن ولطافة الحس ، وفى الأدب مظهر الرقى والحيوية ، وفى الأمة عنوان التحضر ورقة الطبع . والفكاهة عند ذلك لا تقل مكانة عن أرزن الجد ، بل ربما بذته وكانت مرآة لميول الفرد والمجتمع أصدق تصويراً من مرآة الجد الخالص ، والأدبان العربى والانجليزى حافلان بضروب الفكاهة وأوضاعها ، يتفقان فى بعضها ويفترقان فى بعض آخر ، تبعاً للأحوال الاجتماعية .

وإذا كانت الفكاهة كما تقدم دليل التحضر ورقة الحاشية ، قلت آثارها فى الأدب العربى حين كان أقرب الى البداوة زمن الجاهلية ومستهل الاسلام . وفى أدب ذلك العهد نرى آثار اللسن (١) وحضور البديهة وقوة العارضة (٢) ، ونخطىء مظاهر الدعابة الدمثة والعبت الرقيق . وما نحسب الا أن الرسول (ﷺ) الذى كان يمزح ولا يقول الا حقاً كان بامتاز من معاصريه — فى جملة ما امتاز — بلطف الروح وعذوبة الدعابة ، فقد أثرت عن صحابته المقربين وخلفائه الراشدين أخبار تنبىء عن متانة الخلق وحرارة الايمان وقوة الجلد والكفاح ، ولم يؤثر عن كثير منهم براعة الدعابة ولا الميل الى الفكاهة .

فلما استوطن العرب الأمصار ، واصطنعوا حياة الدعة والاستقرار ، وتذوقوا الحضارة والترف ، ظهرت نتائج كل ذلك فى أدبهم ، وكثرت الفكاهة فى الشعر والنثر ، بل ظهرت طوائف من المجان المتطرفين الذين يصطنعون خفة الروح ويتهكمون بالجد والجادين من رجال العلم والدين ، جاعلين شعارهم قول أحدهم ابن هانىء :

دع عنك ما جدوا به وتبطل وإذا لقيت أخا الحقيقة فاهزل

(١) اللسن : الفصاحة والبلاغة .

(٢) العارضة : قدرة على الكلام .

ومن أظهر مواضيع الفكاهة في العربية التبرم بالثقل ، والنيل من البخل ، ووصف الأكلين والمطفلين ، والتهكم بمدعى العربية من الموالي ، وعبث المجان بالمتخشين المتورعين ، والسخرية بالمنهزمين من القواد والمقاتلين ، وكل هذه أبواب من القول منتزعة من حياة العرب في ذلك العهد ، وكلها صفات مضادة لما كان الرجل ذو المروءة الحريص على حسن الأحداث يتحلى به أو يحب أن يعرف عنه .

وتفنن المتهكمون بالبخل ، فتحدثوا عن وعودهم الممتلئة ، وحجابهم الغلاظ ، وهباتهم الضئيلة : كالطيالس (٣) التي تتجنى الذنوب على الرياح ، وتعرف الطريق الى الرفاء ، من كثرة ترددها عليه صباح مساء .

ومن بارع التهكم بأدعياء النسبة العربية قول بشار :

أرفق بعمرى إذا حركت نسبته فانه عربى من قوارير
ما زال في كير حداد يردده حتى غدا عربيا مظلم النور

ويشترك الأدبان العربى والانجليزى في أبواب من الفكاهة خاصة ، لعلها تستثير روح العبث في النفس الانسانية على اختلاف الأجيال والأمم ، كالتحذلقين من أهل الفنون من شعراء وممثلين ومغنين والمدعين لتلك الفنون وأشباهاها . فالتحذلق والادعاء سببان خالدان من أسباب ولوع الناس بالمتصفين بهما ، وما يزال المرء بخير حتى يدعى ما ليس له ويتكلف الاغراب ، والنفس الانسانية بطيئة متثاقلة الى الاعتراف بفضل الأغيار ، دح عنك الاعتراف بالفضل لمن يدعيه وليس من ذويه ، هناك تثور النفوس وتلجأ الى أقسى أسلحتها وهو التهكم .

فشكسبير يسخر على لسان «هاملت» من متحذلقى الممثلين في عصره ، ويجعل الشائرين المطالبين بدم قيصر ينصرفون هنيهة عن وجهتهم الى مهاجمة شاعر لغثاة شعره ، والجاحظ يقول في صاحب له متحذلق متعالم : « يعد أسماء الكتب ولا يفهم مغانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس في يده من جميع الآداب الا الانتحال لاسم الأدب » ، وابن الرومى أوسع من لم يحمد من المغنين والمغنيات تهكما ، وصور أحدهم أقبح صورة في قوله :

وتحسب العين فكيه اذا اختلفا

عند التنغم فكى بغل طحان

(٣) كالطيالس : الطيلسان وهو ما يعرف بالشال والجمع طيالس .

وفى الأدب الانجليزى ضروب من الفكاهة منتزعة من مجتمعه الخاصة: كالتهكم بالمدعين النبيل الاجتماعى ، والمحدثى النعمة ، والمتشدين بضخم الكلمات لا يفقهون معانيها ، ذلك أن المجتمع الانجليزى - على كون نظامه الحكومى ديمقراطيا - هو أرسقراطى شديد التفريق بين الطبقات ، يتعالى النبلاء فيه عن الدهماء تعاليا لا يقل عن ترفعهم عن أبناء الشعوب الأخرى ، ويكاد يجعلهم أمة داخل أمة ، وبعض العصاميين الذين يؤثلون (٤) ثرواتهم فى ميادين الأعمال أو فى المستعمرات يتطلعون الى الانغمار فيهم ، ويتشبهون بهم تشبها يتعلق بالظواهر ويستثير السخرية . أما التشديق بضخم الكلمات فمرجعه الى تكون اللغة الانجليزية من أصول كثيرة أبرزها اللاتينية الوعرة الألفاظ الكبيرة المشتقات .

ففى كثير من القصص والروايات الانجليزية يظهر الأشخاص المتصنعون السمو الاجتماعى المتكلفون رقة المظهر ودماثة الحديث ، والآخرون المكاثرون باطلاعهم على اللغات الكلاسية المقحمون الجافى الألفاظ فى أحاديثهم ، خالطين صحيحها بخطئها ، حتى ليقولون عكس الذى يقصدون أحيانا .

وللفكاهة مجال رحب فى القصة ، حيث يتحرك الأشخاص ويعملون أعمالهم ويتبادلون الأحاديث ، ومن ثم تحفل القصص والروايات الانجليزية ببارع النكات ، وفكه اللفظات ، ومضحك المواقف والشخصيات ، ونجد الكثير من ذلك فيما قارب القصة من أوضاع فى الأدب العربى : ففى مقامات بديع الزمان ورسالة الغفران للمعرى فكاهات وسخریات هى غاية فى الامتاع والبراعة .

والفكاهة من أمضى أسلحة الاصلاح الاجتماعى ، وقد استخدمها لهذا الغرض بعض فرسانها من الأدباء الانجليز . والمجال لها متسع فى الأدب الانجليزى ، حيث التمثيل والقصص يصوران المجتمع وينقدانه ، وفى المجتمع الانجليزى ، حيث النقد النزيه مباح وحيث للرأى العام القول الفصل فى الحكم على الأنظمة والتقاليد . أما فى الأدب العربى فقلما اتجهت الفكاهة اتجاها اجتماعيا ، بل ظلت فردية كغيرها من أغراض الأدب ، اذ لم يكن الحكم المطلق الذى خضعت له الدولة العربية بمساعدة على نمو النقد واشتداد ساعد الرأى العام .

(٤) يؤثلون : يدخرون المال ليسخضروه .

وهناك لون من الفكاهة يرمى به المتفكه الى ضد ما يقول : فيتنفع بالجد وهو يبغى الهزل ، ويبدى الوقار ويخفى العبث ، ويتظاهر بالمدح والقدح يريد ، ويغالى فى التفخيم قاصدا التهوين ، ويدعى هذا الضرب من الفكاهة بالانجليزية Trony ، وربما أمكن تسميته « التندر » ، والأدب الانجليزى حافل به ، ولعله يناسب الطبع الانجليزى ، وهو شديد المضياء (٥) فى أيدي الناقدين لأحوال المجتمع ، ومن فرسانه المجلدين (سويقت) ، أما فى العربية فهذا النوع من الفكاهة نادر ، ولعل أصلح مثال له مقطوعة التنبى التى نظمها حين رأى أعرابيين يتفاخران بقتل جرذ ، ومنها يقول :

وأيكما كان من خلفه ؟ فان به عضه فى الذنب

وقول بشار وفد تفاخر أمامه رجل بأنه شاعر من نسل شعراء :
« اذن أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » .

ويشترك الأدبان فى ضرب من الفكاهة هو هجاء المرء نفسه وضحكه من عيوبه . على أنه فى كلا الأدبين غرض من القول متكلف ، يطلب به التطرف ويعوزه الصدق والعمق ، فالإنحاء على النفس بالثريب (٦) ليس حلقا فى الانسان بله الأديب ، والذي يتصنع نقد نفسه لا يضع يده على مغازه وعوراته الصحيحة ، ولا يسطر لنفسه الا مدحا بما يشبهه الدم ، ولو رماه غيره بما يرمى به نفسه طلبا للطرف لثار به وأنكر مزاعمه أشد انكار .

ولما كانت المرأة الانجليزية أكثر بروزا فى المجتمع والأدب من المرأة العربية ، فقد نالت دونها حظا عظيما من مداعبة الأدباء الذين أوسعوا غرائزها ومتناقضات أفعالها درسا وتصويرا ، ومن أبرع من كتبوا فى ذلك (بوب) الذى نظم قصيدة طويلة على طراز الملاحم الكلاسيكية أودعها وصفا دقيقا لأحوال فتاة جعلها نموذج المرأة فى مجتمعه ، من احتفالها بالأزياء وتذبذبها بين المعجبين بها ، الى كل صغيرة وكبيرة فى حياتها المنزلية والخارجية فى أسلوب متهمك شائق .

(٥) المضاء : حادا .

(٦) بالثريب : اللوم .

ومن الفكاهات ما قوامه التلاعب بالألفاظ المتشابهة في النطق أو الكتابة ، وقد كان هذا العبث اللفظي شائعاً على عهد شكسبير الذي ضرب فيه بسهم ، ثم أهمل بعد ذلك في الانجليزية واستثقل . أما في العربية – حيث كانت للألفاظ عند الأدباء دائماً مكانة عالية – فظل هذا الضرب من التفكه مألوفاً . فأبو نواس يوافق مدعياً للنسبة العربية على انتمائه الى طلي ، ولكن مع اضافة نون وباء في أول الكلمة . ويقول في بخيل :

وما خبزه الا كآوى يرى ابنه ولم ير آوى في حزون ولا سهل

وقد ازدهرت الفكاهة في الشعر العربي في صدر العصر العباسي ، وبرز في مضمارها في أجيال متتالية طبقات على رأسها بشار فأبو نواس فدعبل فابن الرومي ، وتمتاز في شعر الأولين بالاستهتار ، وفي شعر الثاني بالصرامة ولذع السخرية ، وفي شعر الأخير ببراعة التصوير . وازدهرت الفكاهة في الشعر الانجليزي في العهد الكلاسي أي في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ، وهو العهد الذي اشتد فيه الأثر الفرنسي في الأدب والمجتمع الانجليزين ، وكان من فحول الفكاهة فيه «سويفت وبوب ودريدن» .

والحق ان ذلك العهد هو أشبه عهود الأدب الانجليزي بالأدب العربي . ففيه انضوى الأدب حيناً تحت جناح الملكية وسار في ركاب الحاكمين . واختلط بالسياسة وخاض غمارها ، وانغمر في جو المدنية راحل جانب الطبيعة ، وتأنق في اللفظ وأغرب في المعنى ، واحتدمت الاختصاصات الأدبية السياسية بين رجاله مماثلة لما كان بين جرير والفرزدق ، وبشار وحماد ، والبديع والخوارزمي ، من مصاولات ومقارعات ، وولع الأدباء بالوزراء والقواد ، وفشت الفكاهة واتخذها فريق سببلاً للمجون . وفريق ذريعة للنقد الاجتماعي والاصلاح .

وقد نظم دريدن أحد فحول ذلك العهد قصيدة هجاء لشاعر مزاحم له أفعمها بالتهكم المكسو بثوب الجد ، وبوأ غريمه « عرش الغباوة » في جور من الجحابة والمراسيم والمراكب والشارات مماثل للتوبيج الملوك ، وجعله يلي ذلك العرش معهودا اليه من شاعر غبي من شعراء الجيل السابق انجيليما . ولهذا القصيدة الساخر مماثل في النشر العربي شديد الشبه به ، وان يكن قد كتب قبله بنحو ثمانية قرون ، أعنى العهد الذي كتبه الصابى على غرار عهود الخلفاء والأمراء الى عمالهم ، على لسان م طفل أكلول ال آخر هو المقصود بالدعابة ، وقد بدأه بقوله : « هذا ما عهد به على بن

أحمد المعروف بعليكا ، الى على بن عرس الموصلى حين استخلفه على احياء سننه ، واستنابه فى حفظ رسومه ، من التطفيل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها (٧) وأكنافها ، ويجرى معها فى سوادها (٨) وأطرافها ، لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم .

هــ

وتتسم الفكاهة فى الأدب الانجليزى على العموم بالعفة التى هى سمة الأدب كله كما سبق ذكره فى كلمة سالفة ، أما فى الأدب العربى فتتهوى أحيانا فى يد الهجائين الى حضيض السباب ، وفى يد المجان المستهترين الى وهدة الأفحاش . وتتعلق الفكاهة الانجليزية بالصفات والأخلاق والأعمال وتكشف المتناقضات من آراء الناس وأقوالهم ، وفى العربية يتناول العبث الخلق (بفتح الخاء وسكون اللام) بجانب الخلق (بضم الخاء واللام) . فدعابات ابن الرومى ملأى بذكر أعضاء الجسم من أنوف وأقفية ولحى ، وعيوبه من حذب وصلع وعور . ويشبه المبعوث بهم بالحيوان ، فيقول حماد وقد زعم بشار أن له جنيا يوحى اليه :

إذا خادما، الجنى قردا مشنفا فقل لخنازير الجزيرة أبشرى

وفى كلا الأدبين فحول من الأدباء نأى بهم طبعهم عن الفكاهة . وسما بهم قصدهم فى الحياة عن العبث ، واتسمت آثارهم وحياتهم بالجد والعبوس ، منهم فى الانجليزية ملتون ووردزورث ، وتنيسون ، وفى العربية المتنبى والشريف والرضى ، وأمثال أولئك عادة ذوو مطامع بعيدة . يستغرق نشدها أنفسهم ، أو رسالات لا ينفكون عن النظر اليها ، أو مثل عليا يحسون أن التفكه يهبط بهم من عنانها .

(٧) أرباضها : ما حول المدينة .

(٨) سوادها : قراما .

أسباب النباهة والخمول

فى الأدبين العربى والانجليزى

الممارسون للآداب نشرا ونظما فى كل أمة وفى كل جيل أكثر من أن يعدوا ، لأن الافصاح عن خوالج النفس وتأثراتها بما تحس وما ترى طبعى فى الانسان ، وانما ينبه من أولئك الممارسين للآداب القليلون ويخلد الأقل ، يميزهم من غيرهم سداد الفكر ولطف الشعور وروعة الأسلوب ، ومن أولئك يكون أعلام كل أدب ، ترفعهم عبقريتهم فوق رؤوس معاصريهم ونمشى بهم على عواتق (١) الأجيال .

غير أن للمعسافات والحظوظ والظروف دخلا كبيرا أو صغيرا فى صعود الأدباء وهبوطهم ، فتعدل أحيانا وأحيانا تجور . والأرجح أنها كانت كثيرة الجور والاحفاف فى الأدب العربى ، وكانت أشبه بالعدل والانصاف فى الأدب الانجليزى ، فقد صاحبت الأدب الانجليزى ظروف طبيعية مساعدة تسمح للعبقرية الفردية أن تسلك سبيلها غير معتاقة (٢) . وأحاطت بالأدب العربى عوامل عارضة أدت الى رفع بعض من لا يستحقون الرفعة بجوار من يستحقونها ، والى خفض من هم أولى بالرفعة والنباهة .

فقد ترعرع الأدب العربى ونضج وقومه أميون لا يقيدون فى القراطس آثار أدبائهم وأخبارهم ، وانما يروونها رواية ويتوارثونها تواترا جيلا بعد جيل ، والرواية أقل من الكتابة نصيبا من الدقة وحفظ الآثار والتمييز بين الغث والسمين والبصر بما يستحق البقاء ، فكان من جراء ذلك أن ضاع شعر كثير ونثر أكثر ، واندثرت أخبار أدباء لعل منهم من كان أجدر بالخلود وأجدر بأعجاب الأجيال التالية ممن خلد ، ولم يصلنا من أخبار قرون طويلة قبل الاسلام وبعده الا كل مبتور غير مستوثق .

فلما صارت الرواية صناعة يطلب بها علو الذكر ودر الرزق وتقريب الأمراء ، كان ذلك ضغثا (٣) على اباله ، اذ اشتد عبث الرواة .

(١) عواتق : العاتق : ما بين المنكب والعنق والجمع (عواتق) .

(٢) معتاقة : اعتاقه أى عوقه ومنعه .

(٣) ضغثا : ملتبسا ومضطربا يصعب تأويله .

بما بين أيديهم من الأدب العربى ، وشووه بالبتير والوصل والاختراع والنحل ، وحملهم تنافسهم بسعة العلم على تخليد أسماء أنصاف الأدباء وأشباه الشعراء ، وخلقوا شعراء وفصحاء لم يخلقوا من قبل ، وعزوا الى غيرهم من الآثار ما هم براء منه، وهكذا حمل من رجال الأدب من عاشوا فى عالم الأحياء ، وعاش فى الأدب من لم يشهدوا نور الحياة .

ولما استعملت الكتابة الخطية وقل الاعتماد على الرواية ، ظلت الكتب نادرة والاستنساخ أمرا غير يسير ، ولم تكن الكتب فى شئ من الكثرة التى صارت اليها بعد انتشار الطباعة . ثم تعاورت (٤) الدولة العربية الغزوات البربرية المدمرة ، فباد الوثنيون فى الشرق ، والنصارى فى الأندلس ، كرائم المؤلفات ونفائس الكتب العربية ، فذهبت بذهاب ذلك آثار أعلام من الأدباء واندثر ذكر آخرين .

وكان للمشادات والمقارعات الدينية والمذهبية والعصبية والسياسية والجنسية التى صحبت قيام الدولة الاسلامية ولازمتها فى حياتها يد طولى فى العبث بالتراث الأدبى ، فأحمل ذكر أدباء انهزم حزبهم أو انخذل مبدؤهم ، ونشر عمدا ذكر من ناصروا الغالبين فى كل تلك الحلبات ، وتبارى الغالبون والمغلوبون فى العبث بتراث أسلافهم الأدبى ونسبة الروايات الملفقة اليهم ، ولهم من انتشار الرواية وندرة الكتابة خير معوان .

ويتصل بهذا تقريب الخلفاء والأمراء لرجال الأدب ، لا برا بالأدب ولكن طلبا للأبهة وبعد الصيت ، فقد أصبح اتصال الشاعر أو الأديب بالخليفة أو الأمير ضمان النباهة وسيرورة آثاره فى البلاد ، كما كان الاخفاق فى التقرب الى أولئك الحاكمين داعيا فى كثير من الأحيان الى خمول الأديب ، فنذر من أعلام العربية النابهين من لم يتصل بالخلفاء والوزراء . ولا يسمع المرء الا أن يتصور أن عصور أبى نواس ومسلم بن الوليد وأبى تمام والبيحترى كانت حافلة بأندادهم ، وانما خلصت بهؤلاء لطافة حيلتهم الى حضرة الأمراء فاشتتهروا ، وعثر بغيرهم مسعاهم فخمّلوا . ولقد حمل ذكر ابن الرومى طويلا وانه لأشعر ممن ذكروا جميعا ، ولعل من أسباب خمول ذكره فشله فى الاتصال بالخلفاء والوزراء .

ولما استرقت جوائز الملوك أعناق الشعراء ، وأعمل هؤلاء الحيل ، وأذالوا الشعر فى استرضاء الممدوحين واستجداء الأثرياء ، ترفع كثير من ذوى الشرف والاباء عن الهبوط الى ذلك المجال ، وأحجموا عن نظم الشعر أو التوفر عليه أو الاشتهار به ، ولسان حالهم قول الشافعى :

(٤) تعاورت : تداولت .

ولولا الشعر بالعلماء يزرى
لكنت اليوم أشعر من لبيد
وان يكن أبو تمام يقول :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى
بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فانما كان يعنى شعر المتقدمين من جاهليين ومخضرمين ممن تغنوا في شعرهم بالنجدة والمروءة والعزة ، وما نخاله كان يعنى الشعر الذى كان ينظمه هو وأضرابه تمليقا واستجداء للرؤساء .

وبذلك حرمت العربية طائفة من الشعراء لعلمهم أسمى طباعا وأشرف أغراضا وأصدق شاعرية وأشد حبا للفن من مرتزقة المداحين الذين استاثروا بالجوائز ونباهة الذكر .

ولما فسدت الفصحى تدريجا باختلاط العرب بالأعاجم ، اشتد الحرص على آثار المتقدمين وتعاضل الإعجاب بهم والرفع من شأنهم ، لا لشيء سوى صحة لغتهم واستقامة أساليبهم ، وان كانت أفكار كثيرين منهم على جانب من السذاجة ، وأغراض شعرهم على حظ من البساطة ، كالحطيئة وابن أبى ربيعة وكثير من الجاهليين .

فهذه عوامل شتى فعلت فعلها البعيد المدى فى التراث الأدبى العربى ، وساعدت على اعلاء ذكر رجال وخفض آخرين ، وهى ندرة الكتب والاعتماد على الرواية ، والأغراض المذهبية ، وتسخير الأمراء للشعر ، وتكسب الشعراء به ، وفساد لغة الكلام ، وكوارث الغارات . تحكمت كل هاتيك فى أقدار الأدباء وحظوظهم من النباهة ، ولم يكن مرد أمرهم دائما الى النبوغ الشخصى والذوق الناقد ، فلا نبعد عن الصدق اذا قلنا ان الأدب العربى لم يحتو على خير عناصر المجتمع العربى أو يمثله أصح تمثيل ، وان سجل تاريخ الأدب العربى لا يحتوى على جميع أفذاذ الموهوبين من أصحاب البيان الذين أنجبهم المجتمع العربى .

ومن ثم احتل مكان الصدارة من تاريخ الأدب العربى بعض من لا يستحقون ذلك المكان ، ومن لا يعبرون خير تعبير عن أفكار عصورهم وشعورها ، ومنهم من نال من رفيع الذكر ما هو أهله ، ولكنه لم ينله لمزاياه الصحيحة وأسرار نبوغه الحق بل لمساعدة بعض تلك العوامل السالفة الذكر له ، فقد كان وما يزال من النقد من يعظم المتنبى لأشعاره الصادقة التى أودغها عصارة روحه الكبير ، بل لإختراعاته الكاذبة فى مدح سيف الدولة وتهنئته وتعزيته ، من مثل قوله :

إذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه فى اعمادها تتبسم

وبجانب تلك النباهة غير المستأهلة أو المبنية على غير أساسها
الصحيح ، خمول ما كان أحق أصحابه بالذكر والتمجيد ، ولقد قال
البحتري :

إذا أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه

ولعله هو خير من يعلم كم أخلت الدنيا بنباهته من شعراء ، حين
وفقه الحظ دونهم الى الاتصال بالولاة والخلفاء .

فمن أفذاذ الخوارج أمثال قطرى بن الفجاءة وشبيب بن يزيد من
كانوا أسمى غرضا وأشرف شعرا ونثرا من معاصريهم المداحين ولكنهم
أخمل منهم ذكرا . ومن الأبيات السائرة المجهولة القائلين ما تشمل حكمة
يقصر مداها أشباه بشار وأبى نواس ، أو تحوى نسيبا تزرى روعته بكل
ما لفق فى صدور المدايح من نسيب مصطنع ، أو تعبر عن شاعرية صحيحة
ما كان أخرى صاحبها أن يتوفر على إثراء اللغة بفيض قريحته ، ولكن
طوفان تلك العوامل القاسية غمره ورفع غيره ، فمن تلك الآثار الشاردة
قول القائل :

أهابك اجلا لا وما بك قدرة على ولكن مل عين حبيبها
وما هجرتك النفس أنك عندها قليل ولكن قل منك نصيبها

وقول الآخر :

إذا زرت أرضا بعد طول اجتنابها
فقدت صديقى والبلاد كما هيا
فاكرم أخاك الدهر ما دمتما معا
كفى بالممات فرقة وتنائيا

ولم يخل الأدب الانجليزى من آثار الاجحاف وتقلب الظروف :
فإمام شعرائه شكسبير لم ينل فى حياته مثل ما له اليوم من مكانة ، وخمل
ذكره بعد مماته أجيالا ، وعلا شأنه خارج انجلترا قبل أن يعلو فيها .
وقريعه (مضاربه) فى سماء الشعر الانجليزى ملتون قضى أواخر حياته
فى غمرة من النسيان لانخدال مذهب المطهرين الذى كان هو لسانه
الناطق ، وباع ملحمة الذائعة الصيت لوراق بدراهم معدودة ، وظل حقبة

الطبيعة

فى الأدبين العربى والانجليزى

الطبيعة الف الشاعر الحميم ، وتوأم روحه ، ومرتع فكره ومتاع
بشره ، ومهبط وحيه ، ومعاهد متعاته وذكرياته ، الى ظلالها يسكن ،
وبين محاسنها يهيم ، وعندها ينفذ أوشاب (١) العيش ويطرح أعباءه ،
ويستريح فكره الذى أضناه التعب ، ونفسه التى أضجرتها معاشره الناس ،
وتتهدى اليه عذارى الشعر طائفة ، وتسلس اليه شوارد الأفكار مقادها ،
ويظل يلتفت الى ماضى أوقاته بين مباحجها بحنين عذب ، ويأمل معاودتها
بقلب شيق ، فلا غرو أن يكون للطبيعة فى نفس الشاعر المطبوع مكان
اثير ، وفى أدب الأمة الراقية منزلة رفيعة .

وقد نالت الطبيعة لدى أدباء الانجليزية فى أغلب عصورها هذه
المكانة التى هى بها جديرة : فعكفوا جيلا بعد جيل وأديبا اثر أديب على
وصف مظاهرها وعبادة مفاتيحها ، وملأوا جانبا كبيرا من نظمهم ونثرهم
بأوصاف الوديان اليانعة ، والرعى الحالمة والأمواء الجارية ، والأطيار
الصادحة والأفلاك الدائبة والغيوث (٢) الساجمة ، ووصفوا الطبيعة فى
حالى رضاها وغضبها ، وابترادها ودفئها ، واكتسائها وعريها .

وتوسلوا للتعبير عن فرط هيامهم بمحاسنها المتجددة بشتى
الوسائل : فبثوا أوصافها فى رواياتهم الشعرية وقصصهم النثرية ، كما
فعل شكسبير وهاردى ، وطاروا على أجنحة الخيال الى الوديان السحرية ،
والغابات المجهولة ، والشواطئ النائية ، يرصعون كل أولئك ببدايح
الأوصاف ونفثات العواطف ، وعبادة الجمال الطبيعى ، متخذين مسرجا
لحمل ذلك خرافات الأقدمين كما كان يفعل سبينسر وكولردج وتنيسون.
وبراوننج ، أو جنات الفردوس كما فعل ملتون .

(١) أوشاب : الهموم والحزن .

(٢) الساجمة : الغزيرة .

ومن أولئك الشعراء من يدينون بخلودهم لأوصافهم الطبيعية الرائعة ، وقلما يهتم أحد اليوم لما نظموا في النسيب أو الاجتماع أو السياسة ، مثل تنيسون ، بل منهم من لم يكده يؤثر عنه قول في غير الطبيعة ، أو تخلو قصيدة له من أثر لها ، مثل وردزورث . ولا غرو فالطبيعة مادة الشعر وصميمه ، ولربما عرض في القصيدة قد نظمت في أي غرض كان بيت أو بيتان يحويان وصفا طبيعيا بديعا ، فإذا هما يرفعان من قدرها ويحببانها إلى النفوس ويكونان سبب اشتهاها وسيرورتها .

ولا ندحة (٣) عن القول بأن الطبيعة لم تنل هذه الرعاية ولم تحتل هذه المكانة في الأدب العربي ، ففي العربية لا ريب أوصاف طبيعية بالغة غاية الجودة ، ولكنها قليلة إذا قيست بنظائرها في الانجليزية ، قليلة إذا قيست بما نظم أو نشر في العربية ذاتها في غير الطبيعة من أغراض ، فليس ما قيل في وصف جمال الطبيعة ببالح عشر معشار ما قيل في التشبيب بالجمال الانساني ، ولم يعرف من شعراء العربية من قصر شعره على التغنى بمباهج الطبيعة ، وإن منهم من قصر قوله على النسيب بهند وليلى وأترابهما .

وقلما جاءت أوصاف محاسن الطبيعة مقصودة لذاتها مستقلة بنفسها في قصيدة أو رسالة ، بل كان ذكرها غالبا يأتي عرضا كأنها غير جديرة وحدها بالتفات الشاعر وتكلفه عناء النظم ، وكانت تستعار مظاهرها وأحوالها لبيان أغراض أخرى عن طريق التشبيه ترصع القصيدة بفنونه ، وجاء أصحاب المجموعات الشعرية الذين اختاروا صفوة أشعار العرب في أقوى عصور الأدب ، كأبي تمام والمفضل الضبي ، فما أفردوا للطبيعة بابا من أبواب مختاراتهم ، وإنها لأجدر بالصدر .

وكان فحول الشعراء ينصرفون عن وصف محاسن الطبيعة التي تكتنفهم ، ومفاتن الجنات الزاهية التي كانت مهاد (٤) الدولة الإسلامية ، بمروجها وأنهارها وجبالها وأجوائها ، إلى وصف قصور الأمراء وحدائقها ونافوراتها وبركها الصناعية ، فالبحتري يعرض ببصره عن جبال لبنان الفاتنة متجها إلى مقاصير ابن خاقان :

تلفت من عليا دمشق ودوننا للبنان هضب كالغمام المعلق.

(٣) ندحة : سعة .

(٤) مهاد : الأراضي المنخفضة - المستوية .

الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما ذممت مقامي بين بصرى وجلق
رباع من الفتح بن خاقان لم تزل غنى لعديم أو فكاكا لمهق

ولابن المعتز وابن حمديس وابن خفاجة شهرة بوصف الطبيعة ،
ولكن كثيرا من أشعارهم يتسم بالفتور ويصطبغ بالصنعة وترين عليه
مسحة التكلف والتظرف ، وتنقصه حرارة الهيام بالطبيعة والامتزاج
بروحها والنفاذ الى خفى معانيها وأسرارها ، وتجرى في أشعارهم تشبيهات
تكررت حتى ملت : فالأصيل ذهب والحصاء در والنسيم ينسج من الماء
درعا ، ويفسد الكثير من تلك الأشعار العرص على حسن التعليل كقول
ابن حمديس في نهر :

جريح بأطراف الحصى كلما جرى عليها شكا أوجاعه بخريره

فشستان بين خريز النهر الحى المتدفع وبين الجراح والشكوى
والأوجاع ، وأمثال هذا القول تدل على شعور زائف وملاحظة سطحية .

وبعض أولئك الشعراء اذا استهزتهم فتنة الطبيعة وصفاء الأوان ،
نظموا في ذاك أبياتا شفعوها للتو بدعوة لصديق أو عشيق أو نديم
يناشدونه أن يتحفهم برفقته ويعجل لهم بالراح (٥) والأوتار (٦) ،
فالبحتري بعد أن تألق في وصف الربيع قال :

فما يحبس الراح التى أنت خلها ؟ وما يمنع الأوتار أن تثرنا ؟

وغيره يقول :

ولما حللنا منزلا طله الندى أنيقا وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المقام وحسنه منى فتمنينا فكنت الأمانينا

ولا يدل هذا على كبير شغف بالطبيعة أو حسن فهم لجمالها ، وليس
بمشفوف بالطبيعة ولا فاهم لأسرارها من لا تكفيه مفاتنها السافرة حتى
يستعين لأكسال سروره بالسمر والغزل والغناء والسكر ، وإن أحب
ما تكون الطبيعة الى عاشقها الصادق لحين يصحبها وحيدا ، فهو يرى
مفاتنها خير رفقة له وخير مؤانس لمهجته .

(٥) بالراح : بالخمر

(٦) بالأوتار : بالأفراد .

وقد حظى الربيع دون غيره من الفصول بالفتات شعراء العربية ،
 فكان الربيع وحده هو فصل الجمال والصفاء والحبور (٧) ، وبقية
 الفصول أوان لكسب الرزق واحتمال قبيح الحياة ، كما قال الطائي :

دنيا معاش للورى حتى اذا جاء الربيع فانما هى منظر

ولو درى لعلم ان هذه الدنيا منظر لمن شاء أن يرى ويشعر فى كل
 الفصول وفى جميع حالاتها ومظاهرها ، وان للشتاء لروائعه وجاذبيته
 كما للربيع ، وان جميع مجالى الطبيعة وأشكالها لمسارح اللب الشاعر
 ومجالات لفنه وتصويره ، وقد تغنى شعراء الانجليزية بفتنة الريف كما
 ترنموا بسحر الربيع ، واستجاشهم غضب اليم وتجهم الأفق كما
 استهواهم صفاؤهما ووداعتهما .

ومن شعراء العربية من يضيق باعهم (٨) فى وصف الطبيعة قبل
 أن يقولوا فى المنظر المجلو أمامهم أبياتا ، ويدركهم العجز والاحالة
 فيسبحون بقدرة الباري ، ووحدانيته ، كما قال النواسى :

على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وقول أبى تمام :

صبغ الذى لولا بدائع لطفه ما عاد أخضر بعد اذ هو أصفر

فقدرة الخالق أمر لا شك فيه ، والاشارة اليها فى هذه المواقف
 سداجة فى القول والتواء فى استرسال الفكر ، وهرب من مواصلة التأمل
 والوصف ، والموقف موقف استمتاع بالجمال وتصوير له ، لا موقف وعظ
 وخشوع . وازن هذين البيتين بقول تينيسون فى زهرة ضئيلة : « أيتها
 الزهرة النامية بين شقوق الجدار ، ها قد انتزعتك أناملى ، وهأنت كلك
 محمولة فى كفى ، بيد أنى لو استطعت استكناه سرك لعرفت سر الله
 والإنسان جميعا » فهذا شاعر يفكر ويتأمل ويتوق الى المعرفة ، وذانك
 شاعران يسلمان تسليم العجز ، فلا أجادا التصوير ولا استرسلا فى
 التفكير .

(٧) الحبور : الذعمة والسرور .

(٨) باعهم : الباع هى المسافة ما بين الكفين اذا البسطت الذراعان بعيننا ونحوه .

فأغلب شعر الطبيعة في العربية - على قلته - تنقصه حرارة الشغف بها وطول مصاحبتها وممازجتها روحا بروح ، وادمان التأمل في محاسنها ومحاوله النفاذ الى معانيها ، وصدق التعبير عن وحيها ودقة الوصف لمجاليها المتعددة ، وظل الالتفات اليها دائما ثانويا ، والانتباه اليها عرضيا ، والأنس بها وقتيا وشيك الزوال .

بل كان من فحول العربية من كان بينهم وبين الطبيعة حجابا كثيفا ، فنذر أن أعاروها بالا ، ولم يقع ذكرها في شعرهم ونثرهم ، الا وقوع الغلط كالمثني والشريف الرضي ، برغم كثرة أسفار الأول بين العواصم والفلوات ، وقد صرف الكتاب صناعتهم الى كثير من وجوه البيان ، فلم يختصوا الطبيعة بكبير عناية ، وتوخى بديع الزمان في مقاماته أن يضرب في كل ناحية من نواحي القول بسهم ، ليبدى براعته للقارئ ، الا الطبيعة فانها لم تفز منه بالتفات .

فالعربية تكاد تقفز من الوصف الطبيعي السامي المقصود لذاته ، لولا شاعر فرد هو ابن الرومي الذي تنطق أشعاره بحب للطبيعة عميق ، وانجذاب لسحرها لا يدافع ، ونظر في محاسنها وأغوارها نافذ ، وقد أنشأ لوصف مختلف مظاهرها قصائد كثيرة ، أودعها خير ما في العربية من وصف الجنان والفلوات ، والأصائل والأسحار ، والغيم والمطر ، والطير والوحش ، وشعره في كل هذا يضارع أسمى ما في الشعر الانجليزي .

وضالة حظ الطبيعة في الأدب العربي راجعة الى عوامل متتابعة توالت على الأدب في مختلف عصوره ، فحالت دون أن يكون ترجمانا صادقا مبينا لشعور أصحابه في هذا الباب ، وهي أولا بدائة العرب في أول تاريخهم ، وثانيا تكسب الشعراء بشعرهم في عهد الحضارة والدولة ، وثالثا شدة محافظتهم وتقليدهم للمتقدمين وأخيرا تغلب الصنعة اللفظية في عهد تدهور الأدب .

فوصف محاسن الطبيعة وآثارها في النفس وصفا مسهبا محكما مقصودا لذاته عمل فني لا يتأتى الا بأعمال الفكر ورياضة (٩) النظم ، وهو ما لا يتييسر في عهد البدائة ، فضلا عن أن المناظر الصحراوية واحدة متكررة صارمة لا تحفز الى التصوير الشعري المسهب كما تحفز الى التأمل

(٩) رياضة : راض أى ذلل القوافي الصعبة .

في الخالق ورهبتة وحكمة صنعه ، وقد ظلت هذه النزعة الدينية التي
بثتها البادية في نفوس العرب ، وكانت التنشئة الدينية في العصور
التالية تنميها فيهم منذ الصغر ، مصاحبة لهم فيما بعد ، تغلبهم على
الاستمتاع بروائع الجمال الطبيعي وآيات الفن الانساني ، فنرى
شاعرهم اذا وقف بمنظر فتان أو أثر خلفه القدماء فسرعان ما ينصرف
عما ثمت (١٠) من معاني الجمال أو القوة الى التسليم بعظمة الخالق وضعف
المخلوق وفناء الأفلاك وسقوط الجبابرة ، وقد سبق التمثيل لشيء من
ذلك ، والبحثرى يقول :

أناة أيها الفلك المدار أنهب ما تصرف أم جبار ؟
ستفنى مثل ما تفنى وتبلى كما تبلى فيدرك منك ثار

ولما تحضر العرب وشاهدوا الأقطار الواسعة ونعموا في الجنات
اليانعة ، ودخل أدبهم في طور الثقافة والصناعة الفنية ، ظهرت آثار
الوصف الطبيعي في بعض أشعارهم ، ولكنها كانت قليلة كما تقدم ،
وعميت (١١) عيون أكثر الشعراء عن محاسن الطبيعة وأسرارها في غمار
المدينة ، حيث تكاؤا (١٢) متزاحمين على عطايا الأمراء ، وزهدهم في
وصف المناظر الطبيعية قلة ما ورد منها في شعر المتقدمين الذين كانوا
يترسمون خطاهم ، حتى اذا كان عهد الاضمحلال الأدبي غلب التطرف
واصطناع الرقة والنكتة اللفظية على الشعر ففقد كل روح وحرارة .

أما الأدب الانجليزي فلم يخنقه جو المدينة أو يرهقه تقليد القدماء
الا في عصر محدود ما لبث أن بددته النهضة الرومانسية التي كانت في
جوهرها عودة الى الطبيعة أي الى الشعر الصحيح وبين النقاد المحدثين من
يأبى قبول ما نظمه أقطاب العهد الكلاسي في عداد الشعر الصحيح ،
وفيما عدا ذلك العهد كانت الطبيعة دائما قبلة الشعراء شغفهم بها حبا
أسرا : تعدد مجالها (١٣) وتتابع تقلباتها واختلاف صورها في بلادهم ،
ودراستهم للشعر الاغريقي الحافل بالصور الطبيعية ، ويتجلى أثر هذا
العامل الأخير في المقطوعة التي نظمها كيتس معبرا عن شديد حبه وبالع
متعته عقب قراءة ترجمة الياذة .

(١٠) ثمت : الثمام هو قريب سهل التناول .

(١١) عميت : لم يدر وجه الصواب فيه .

(١٢) تكاؤا : تجمعا وازدحموا .

(١٣) مجالها : أجل أي حسن الوجه ومنها تجلى وجمعها (مجالى) .

بيد أن اللغة العربية ذاتها حافلة بالأسماء والأوصاف لشتى مظاهر الطبيعة وآثارها ، وحالاتها وأوقاتها ، غنية بكل ما يحتاج إليه الأديب. التقدير لينقل على القرطاس أى المناظر الطبيعية شاء ، نقل المصور الصناع. وهنا أيضا يبدو لنا التفاوت بين مقدرة اللغة واستعدادها ، وتقدير أدباء العربية في عهد ازدهار الحضارة دون كثير من غايات الأدب .

أثر الدين فى الأدبين

العربى والانجليزى

للدين فى أدب كل أمة أثر عميق متشعب ، بل هو أصل الآداب والفنون والعلوم ، تنشأ كلها فى الجماعات البدائية لخدمته ، ويستأثر بالتبحر فيها رجاله ، ثم تذيع عنهم فى بقية الشعب وتنفصل تدريجاً عن الدين ، ويستقل كل منها بنفسه ، ويظل للدين مع ذلك أثر فيها قل أو كثر ، يؤثر فيها من جراء تأثيره فى المجتمع الذى تستقى منه العلوم والفنون ، هكذا كان الدين عند قدماء المصريين واليونان والرومان واليهود وغيرهم من الأمم .

ولا يشذ الأدبان العربى والانجليزى عن هذه القاعدة : فقد تأثر كل منهما بالوثنية أولاً ثم بدين سماوى وكتاب منزل ، وشهد نهضة دينية كبرى كان لها أثر عظيم فى مجتمعه ، واختلط الدين بالسياسة فى كلتا الأمتين وتأثر الأدب بهذا الاختلاط ، وكان من رجال الدين فى الأمتين بلغاء ذوو أذواق أدبية أتحفوا أدب اللغة بآثار جليلة فى الحض على الفضيلة والكمال الروحى، وكان من أدباء كلتا الأمتين متشيعون للطوائف الدينية دافعوا عنها فى نظمهم ونثرهم .

شهد الأدب العربى أعظم النهضات الدينية طراً (١) بظهور الاسلام، الذى غير وجه المجتمع العربى وأغنى الأدب بخير ما فيه من الخطب الدينية والسياسية ، وان يكن الأدب الانجليزى لم يشهد نشأة النصرانية فلم تفته نهضة دينية عظيمة الشأن هى الاصلاح الدينى الذى شمل أوربا فى عهد الاسيلاء وامتد فى انجلترا الى القرن السابع عشر ، وانتهى بانتصار طائفة المطهرين ، وأنجب هذا العهد رهطاً من الكتاب والشعراء المبرزين أمثال ملتون وبنيان ودن وهريك وهربرت وكراشو ، الذين خلفوا أحسن ما فى اللغة من أشعار الورع والطهو والسمو الروحى .

وحبت تلك النهضة الدينية الأدب العربى بكتاب سماوى لن يزال مثلاً أعلى فى البلاغة ومعيناً لا ينضب للبلغاء ، ومنذ ترجم الانجيل الى

(١) طراً : كان طريراً ذا رواء وجمال .

الانجليزية ترجمة بليغة ، كان له فضل عظيم على اللغة وعلى أدبها ، فقد أقام قواعدها ووضح أساليبها ، ولم يزل مثلاً رائعاً للسلاسة والامتناع .

واختلط الدين بالسياسة في الدولة العربية ، وكان محور التقائهما مشكلة الخلاف التي اضطرعت حولها الأحزاب وقامت باسمها الدولات ، وامتزج الدين بالسياسة في إنجلترا عهداً ، وكان مدار امتزاجهما سلطة الملك وحقوق الشعب ، فالملكية تدعى الحق الإلهي والسلطان المطلق في شئون الدين والدنيا ، والشعب يريد الحرية في كلا الأمرين ويوجد سلطة الملك في الناحيتين ، وتأثر الأدبان بهذا التداخل بين الدين والسياسة .

ويدين الأدب الانجليزي للديانة بثلاث أياد : الأولى وضع من أوضاع الأدب هو الرواية التمثيلية ، التي نشأت في العصور الوسطى في الكنيسة حيث كان يمثل عذاب المسيح وآلام الشهداء وخبائث إبليس ، وتمثل الفضائل والردائل شخصوا متحاوره ، فمن هذا البدء الساذج نمت الرواية التمثيلية التي ازدهرت في عهد شكسبير ، والتفتت الى دراسة الانسان والمجتمع ، واليد الثانية أثر أدبي خطير من نفائس الأدب الانجليزي ، هو ملحمة ملتون «الفردوس المفقود» ، التي أوحى اليه بها الروح الديني الذي ساد عصره ، والعراك الديني الذي خاض غماره (٢) ، واستعار مشاهدتها ومعالمها من الانجيل الذي كان له في عهده اسمى مكانة ، وأخيراً للكنيسة فضل على الأدب الانجليزي اذ كان من رجالها من ساعدتهم الفراغ الذي ينعمون به على الانصراف الى الأدب ، بل كان منهم من ألحقوا بالكنيسة عمداً ليحفظوا بذلك الفراغ وذلك الانصراف ، ومن مشهورهم سمويفت ودن وكنجزلى .

وليس في الأدب العربي ما يقابل هذه الأيادي التي أسندتها الديانة والكنيسة الى الأدب الانجليزي : فقد أكبر المسلمون شخص نبينهم عن كل تمثيل وتشخيص ، وانتهت حياته بالظفر الأكبر لا بمأساة كمأساة المسيح ، وان يكن في تاريخ الاسلام ما يشابه تلك المأساة فهو مصارع أبناء الامام علي التي خلدها الأشعار الباكية ، واذا كانت رسالة الغفران تشابه الفردوس المفقود في امتداد مشاهدتها في العالم الآخر فهي تخالفها في كل شيء آخر لاختلاف المؤلفين ، ثم انه لم تكن في الاسلام هيئة دينية رسمية تكاد تقصر على أبناء العلية ومن يلوذ بهم كالكنيسة الانجليزية .

(٢) غماره : الغمرة أى الشدة والجمع غمار .

وفي الادبين العربى والانجليزى آثار طريفة للنزعة الصوفية ، التى هى من أسمى مظاهر الروح الدينى ، وان خرجت عن مألوف المتدينين فى أشياء ، وأنكر منها رجال الدين أحيانا أمورا ، واتخذت لها رموزها وطرقها الخاصة التى تستغلق على غير أربابها . وأظهر أصحاب هذه الطريقة الرمزية فى الادب الانجليزى بليك ، وأجزلهم فى العربية شعرا وأسيرهم ذكرا ابن الفارض .

وجاءت النهضة العلمية والفلسفية بعد النهضة الدينية فى كلتا الأمتين ، تمثل ذلك عند العرب فى ذيوع الفلسفة اليونانية ، وعند الانجليز فى ارتقاء العلوم المادية كعلوم الحياة وطبقات الأرض والكيمياء والطب ، وتطبيق نظرية النسوء والارتقاء عليها وعلى العلوم الاجتماعية ، فقام الصدام بين الدين والعلم والفلسفة ، وانعكس ظله فى الأدب ، وأوضح مثال للشك العلمى فى العربية شعر المعرى ، وفى الانجليزية شعر تنيسون وهاردى .

كان انتصار المطهرين الذين وضعوا أساس حرية الشعب الدينية والسياسية أوج احتفال الانجليز بالمسائل الدينية وظهور آثارها فى أدبهم ، وبعدها هبط الى المحل الثانى من تفكيرهم ، ولم تقم له الا حركات قليلة الشأن فى القرن الماضى ، اذ كان يحاول كل من فريقى البروتستانت والكاثوليك جمع الأنصار حوله ، وظهر فى ذلك المعترك من الأدباء المتحمسين للدين جملة ، أشهرهم نيومان ثم تشسترتون المتوفى حديثا ، وكانت آراء داروين فى منتصف القرن الماضى ضربة شديدة وجهت الى روايات الانجيل فى شأن الخلق ، فانصرف جمهور الناس نهائيا عن التحمس للدين ورجاله ، وهكذا بعد الأدب الانجليزى عن الدين وتأثيره فى العصور الحديثة بعدا كبيرا .

أما تأثير الأدب العربى بالاسلام فكان أشمل وأبعد مدى وأطول أمدا من تأثير الأدب الانجليزى بالمسيحية لأسباب عديدة : أولا أن الاسلام نشأ بين أظهر العرب فشهدوا مبعثه وجهاده وظفروه على الوثنية ، وثانيا أنه كان أساس دولتهم وقطب (٣) سياستهم الداخلية ، وثالثا أنه ظل دائما مجاهدا أعداءه مغيرا تارة ومدافعا أخرى ، فكان قطب السياسة الخارجية أيضا فى أحوال كثيرة ، ورابعا أنه كان بعد انتشاره محور العلوم والآداب

(٣) قطب : قوامه ومدراه .

وكان القرآن أساس الثقافة التي يؤخذ بها الناشئون ، وخامسا أنه سوى بين الداخلين فيه فقام منهم مقام الوطنية في الأمم الأخرى ، وأخيرا أنه بأحكامه يشمل أمور الدنيا شموله شئون الآخرة ، ويحيط بقواعد المجتمع الذي هو مبعث الأدب فلا غرو ان تآثر الأدب العربي في كل عصوره بالدين روحا ومظهرا وغرضا وأسلوبا .

فظهر الاسلام بين العرب ترك أثره في شعر الشعراء ، بين مهاجم له ومدافع عنه ومداح للرسول ﷺ ، وظلت مدحة الرسول في كل العصور غرضا من أغراض الشعر ، وجهاد الاسلام أعداء فاتحا أو منافحا (٤) مدى القرون الطويلة ، تجلى أثره في خطب الخلفاء والقواد وأشعار المادحين للأمراء المنتصرين على الروم أو الوثنيين أو الأسبان أو الصليبيين ، لا سيما وقد كان ذلك دائما مصطبغا بصبغة القومية ، فقد كان الاسلام يجمع شعوبه في عصبية أمم واحدة ذات شعور مشترك وأعداء مشتركين ، ومن أشهر آثار ذلك كله في الأدب يائية أبي تمام في فتح عمورية ، ومدائح المتنبي لسيف الدولة ، وقصائد الأبيوردي ، والبهاء زهير ، وابن مطروح في الحروب الصليبية ، ومدائحهم للأيوبيين ، ومراثي الأندلس وصقلية ، كل هاتيك يخفق فيها الروح الديني ، ممتزجا بالوطنية والسياسة وتمجيد الدولة القائمة .

وفي داخل الدولة كان الدين — متمثلا في مسألة الخلافة — محور السياسة ومصطرع الفرق ومشتجر الآراء ولثام المطامع ولواء الثورات وشغل الشعوب ، فلم يكن هناك صراع بين ملكية مستبدة وشعب متشبث بحرياته ، ولم يكن هناك محافظون وأحرار ، ولا اشتراكيون ورأسماليون ، ولكن كان هناك خوارج غلاة في الدين يحبذون الشورى ويقرون الخلافة في الأصلح لها ، وأمويون وعباسيون وعلويون ، كل منهم يدعى الامامة ، ومرجئة ومعتزلة يحظون حينما بتقريب البلاط ، ويستهدفون حينما لمقتته ، وعامة الشعب في أغلب العصور مع شيعة على لمكانة سلفهم العظيم من النبي وفدمه (٥) في الاسلام ، ولما حاق بالخطارييف (٦) من ذريته من تنكيل جمع بينهم وبين الشعب المقهور بعطف متبادل .

ومرآة كل ذلك جليلة في أشعار أقطاب الخوارج ، ومتشيعي الشعراء من عهد الكميت وكثير والفرزدق ، الى زمن ابن الرومي الى عصر عمارة

(٤) منافحا : مدافعا .

(٥) فدمه : فسلمها عمر لها .

(٦) الخطارييف : الخطرييف هو السيد الكريم والجمع خطارييف .

اليمنى الذى رثى دولة الفاطميين رثاء موجعا ، وفى أشعار طالبى الدنيا
المناصرين للدولة القائمة المؤيدين لدعواها ، كمروان بن أبى حفصة ،
وفى نشر زعماء المذاهب ونظمهم فى بيان آرائهم والنضج (٧) عن مبادئهم،
كخطب واصل بن عطاء وشعر صاحب المرجئة الذى يقول منه :

نرجى الأمور اذا كانت مشابهة
ولا نحاور فيمن جار أو عندا

ولا نرى أن ذنبنا بالغ أحدا
ما الناس شركا اذا ما وحدوا الصمدا

وشمول روح الدين أو مظهره الكل مرافق المجتمع وقواعده الدولة
على هذا النحو ترك أثره فى الأدب عامة : اذ صبغ أكثره بصبغة الجسد
والرزانة والقصد فى القول واجتناب الايغال فى الخيال ، والولع بالحكم
والعبر والأمثال ، ورغب الأدباء فى الأخبار الصادقة عن السلف من
جاهليين واسلاميين ، وزهدهم فى الأساطير ومخترق الأحاديث ، وإلى رهبة
الدين الذى كان عماد الدنيا والآخرة ترجع أشعار الزهد والوعظ التى
يحفل بها الأدب كأشعار أبى العتاهية وابن عبد القدوس ، وإلى جلالته
وجلالة الانتماء اليه ترجع مسحة التسامى والعفة التى ترين على شعر
الشريف الرضى .

كان الدين دائما منبث (٨) الروح ، والا فمتجسم المظهر فى شئون
الحياتين ، وان صدمته الأهواء السياسية كثيرا ، وغلبته الأهواء الفردية ،
وتغافل عنه حماته فلم ينشطوا للدود عن حرمانه الا أن يكون فى ذاك
قضاء لمآربهم أو شفاء لسخائمهم ، حتى كان من المتناقضات حقا أن
الأدب العربى الذى ازدهر فى ظل دول اسلامية حوى من جرىء القول
ما لم يحو غيره .

وخلاصة القول أن كلا الأدبين العربى والانجليزى تأثر بدين قومه
ناثرا بينا ، ولكن بينما كان تأثر الأخير بالمسيحية مقصورا على عهود
بذاتها وأمور بعينها ، ثم ركذ أمر الدين ، وأحس الأدب أنه قد استفاد
منه كل ما يمكنه أن يستفيد ، فانصرف عنه ، ظل للدين فى الأدب العربى
مكانة عالية وأثر بعيد ، وسيظل له مثل هذه المكانة ومثل هذا الأثر ، فى
كل أدب يدين مجتمعه بالاسلام وينطق بالضاد .

(٧) النضج : ناضج أى دافع .

(٨) منبث : نبت الأرض : نبش ترابها وحفرها .

الخرافة

فى الأدبين العربى والانجليزى

تفشى الخرافة - وهى الاعتقاد بالمستحيل عقلا - بين الجماعات الأولية ، حتى تشمل ديانتهم وعلومهم وفنونهم القليلة ، وعرفهم وتقاليدهم ، لأن تلك الجماعات فى نشأتها كالطفل فى صغره ، قليلة الإدراك للأسباب والمسببات ، سريعة الانقياد للعواطف والأوهام والمخاوف . فلا تلبث أن تنمو بينها شتى الأساطير ، تفسر بها قوى الطبيعة ومظاهرها ، وتمجد بها أسلافها ، وتدعم كيان مجتمعتها . هكذا كانت لقدماء المصريين خرافاتهم المتعلقة بواديهم ونهرهم ، وآلهتهم وفراعنتهم ، وكانت لليونان والرومان أساطيرهم التى تدور حول أعمال آلهتهم وحروبها ، وحبها وغضبها .

وكانت للمعرب خرافات شتى ، انتزعت من حياتهم البادية ، وما توحى الى النفس من رهبة وبأس ، بفلاواتها وحزونها (سهولها) ، وسباعها وأنوائها (١) ، وحيكت حول الآلهة والجن والغيلان ، وحول أبطالهم وملوكهم وغابر دولهم ، وتناولتها الأجيال المتعاقبة بالزيادة والتهويل ، والتغيير والتبديل ، فى حوادثها ومشاهدها .

وكانت الانجليز فى عهود همجيتهم أساطير متشعبة ، مشتقة من حياة أهل الشمال ، المضطربة بين ظلمات الأحراج (٢) ومتون البحار ، حافلة بأخبار هجراتهم وغزواتهم ، ممثلة بأوصاف شياطين البر والبحر ، ممجدة لبلاء ملوكهم أمثال الملك آرثر ، وألفرد الأكبر ، فى دفع هجمات المغيرين الذين تعاوروا الجزيرة على كر العصور ، من رومان وسكسون ونورمانديين ، وتمازجت أساطير كل هؤلاء ، واختلط مسيحيتها بوثنيتها ، وجنوبيها بشماليتها .

(١) أنوائها : النوء : النجم اذا مال للغروب والجمع أنواء .

(٢) الأحراج : الحرج : غيضة الشجر الملتفة لا يقدر أحد أن ينفذ فيها والجمع أحراج .

والخرافة على ما بها من مجاوزة للمنطق ونهويل وتحريف. واستحالة - لا نقل عن حوادث التاريخ صدقا في وصف احوال المجتمع الذي هي وليدته ، والبيئة التي هي نتاجها ، فالخرافة العربية التي نمت في البادية ، مثلا ، ملاي بذكرى الغيلان والسعال والعنقاء ، وبأسماء العدائين الذين يسبقون الأطباء ، وحديدي النظر يرون القادم والمغير من رأس أميال ، كزرقاء اليمامة . والخرافة الانجليزية التي ترعرعت في الغابة ودرجت على اثباج (٣) اليم حافلة بحكايات عرائس الغاب وآلهة البحار ، ومناظر الغسق والضباب .

على أن الخرافتين تلتقيان ، والمخيلتين تتقابلان في نواح ، حتى لتخال احدهما صدى للآخرى أو محاكاة لها ، لولا بعد الأمتين في تاريخيهما بعدا يحول دون كل محاكاة أو اقتباس ، فأخبار تأبط شرا ، وسليك بن السلكة وأشباههما من شذاذ العرب وطريدي العرف والمجتمع ، مماثلة لحكايات روبن هود وأصحابه الذين كانوا يعيشون على اقتناص الأطباء في غابات ملك انجلترا ، وقصة مقتل أحد أقيال (٤) اليمن على يد أخيه الطامع في عرشه ، التي وردت في كتب الأدب العربي وروى فيها شاعر يدعى ذا رعين ، منه قوله :

فأما حمير غدرت وخانت فمعدرة الاله لدى رعين

واستتسار الخائن للعرافين قبل اقتراف جريمته ، والخدعة الحربية التي لجأ اليها جيش ابن الملك القليل من استتار كل مقاتل بشجرة اقتلعها في طريقه وحملها أمامه ، حتى بدا الجيش كأنه غابة تسير ، كل ذلك مشابه للحوادث التي اتخذها شكسبير موضوعا لروايته ماكبث ، والتي تدور حول مصرع بعض ملوك اسكتلندا ، وهي بلاد تشبه بوعورتها واستقلالها وبأسها وتأثيرها في عقول أهل انجلترا ، حالة اليمن في جزيرة العرب ، وقد عبثت الخرافة بكنتا القصتين ونمقتهما بمظاهر السحر والتنبؤ بالغيب .

حتى اذا ما ارتقت الجماعات البشرية ، وأخذت بأسباب العلم الصحيح ، وعرفت الفلسفة المنطقية ، واعتنقت ديناً راقياً ، فطرت حماسها لخرافاتها القديمة ، وقل تصديقها لها ، وسخر منها العلماء .

(٣) اثباج : الثبج هو وسط الشيء تجمع وبرز ، وجمعها اثباج .

(٤) أقيال : القيل هو حاكم من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم والجمع

أقيال .

والفلاسفة والأتقياء ، وهببت الى طبقة العامة ، فوجدت فيهم وحدهم أمناءها الأوفياء ، يتوارثونها كما توارثها آباؤهم من قبل ، وتروى من نفوسهم ما لا تروى العلوم الجافة ، فهم يؤثرونها على تلك العلوم ، ويمزجون رواياتها بحقائق العلم تارة ، ويخلطون عقائدها بعقائد دينهم المجديد الراقى تارة أخرى .

على أن أكثر الأمم ، كالليونان والرومان وأمم أوروبا الحديثة ، حين بلغت طور نضجها العلمى والدينى ، لم تنبذ خرافات طفولتها ظهريا ، وان بطل تصديقها برواياتها ، وذهب إيمانها بخوارقها ومعجزاتها ، ولكنها اتخذتها غذاء دسما للعلم والفن ، فجعلها العلم موضع فحصه وبحثه وتنقيبه ، وأقامها مقام الشك حتى تثبت البينة على ما فيها من بذور الصدق ، واستمد منها النحت والتصوير والشعر والنثر مادة لا تفنى للتفنن فى الوصف والتأمل والتجوال فى مشاهد الحياة ومرامى التاريخ ومنازع النفس الانسانية .

ذاك أن أكثر تلك الخرافات — على ما بها من وهم ومغالة — تحوى ما لا يحصر من صفات الجمال ومظاهر الروعة ، ودلائل العظمة ، وأحاديث البطولة والمخاطرة التى يغرم بها الطبع الانسانى ، وصور الفضائل والردائل ، التى يرتاح الانسان الى رؤيتها مصورة معروضة ، كما أن تلك الخرافات ، بما تقص من وقائع بعيدة العهد وتعرض من مشاهد نازحة المزار ، تروى فى النفس حب البعيد والشغف بالماضى القسديم والولوع بالمثل الأعلى ، وهى النزعة التى تعرف فى الانجليزية بالرومانسية ، زد على ذلك أن استعارة مشاهد تلك الخرافات ووقائعها وأسمائها فى الوصف ، يكسب التشبيه قوة ووضوحا . فما أجود قول امرئ القيس ، وليت الشعراء أكثروا الضرب على وتيرته :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كانياب أغوال ؟

لذلك حفل الأدب الانجليزى بالخرافات الانجليزية ، وما تحوى من جسيائم الأعمال وبدائع الصور ، كحروب الملك آرثر ومغامرات فرسان المائدة المستديرة ، تلك التى كانت وحيا لسبنسر وتينيسون فى أجود قصيدهما . ولم يكتف الأدباء بخرافاتهم الوطنية ، فاصطنعوا خرافات اليونان والرومان ، وتحدثوا طويلا عن آلهتهم واقتبسوا كثيرا من الالياذة والأوديسة ، وزاد غيرهم فاستعاروا خرافات كل من عرفوا أو سمعوا عنهم من أمم الغرب والشرق : فاتخذ ملتون لقصيدته الكبيرة سمسون

النجبار موضوعا عبرانيا ، وتحدث تنيسون عن هارون الرشيد ، وطار كولردج على جناح الخيال الى قصر قبلاى خان عاهل الصين . أما شكسبير فاستعار مواضيع رواياته من كل ما أصاب من تراث الأمم لا فرق بين تاريخيتها وخرافيتها ، ورصعها بما كان لا يزال يساور أهل جيله من اعتقاد فى عجائب السحر والمعجزات .

ومن الأدباء من لم يكفه كل هذا المدد الزاخر من غرائب الأساطير وافانين خيال الأقدمين ، فأطلق الخياله هو نفسه العنان ، وابتكر مواضيع لقصائده من صنعة الوهم ، وحلها بروائع الصور وممتع الخطرات ، كما فعل كولردج فى خريدته (٥) « الملاح القديم » ، وبراوننج فى فريدته « تشايلد رولاند » ، وتوماس هود فى أنشودته « أينس الحسناء » ، وكما صنع سويفت فى كتابه العالمى الصييت « رحلات جليفر » .

ألقى أدباء الانجليزية فى أرجاء تلك الخرافات ، مجالا رحبا لفنهم وخيالا ، وتحريرا لأفكارهم من عقال الحقائق المتحجرة ، وغذاء لعقولهم الجواله فى مظاهر الكون وشئون الخلق ، المستطلعة الى المجهول ، ووسيلة لتصوير المناظر الطبيعية ، بين جبال ووهاد ، وغياض ومياه ، ورصعوا أشعارهم فى كل ذلك وكتاباتهم بأشتات الآراء ، فى المسائل التى كانت تشغل أذهان معاصريهم ، ولونوا خرافات الأجيال المتقدمة بألوان أجيالهم وجمعهم الذى عاشوا فى مضطربه .

أما موقف العرب من خرافات أسلافهم – حين اعتنقوا دينهم الحنيف ونحضرنا وتشققوا – فكان غير هذا : فقد أعرضوا عنها ترفعا وازدراء ، ولم يحفظوا منها الا ما كان أشبه بالصدق ، وما دار حول يوم عظيم من أيامهم ، أو شاد بمجد بعض قبائلهم . وفى تلك الحال كانت الروايات تختلق اختلاقا ، ويبذل الجهد لوسمها بميسم (٦) الصدق . ولما اطلع العرب على ثقافات الأمم الأخرى من يونان وفرنس وهند ، لم يهتموا الا بما صدقوه من تواريخهم ، وما استملحوه من حكمهم وأمثالهم ، ولم يعبأ أحد من الأدباء أن يستخدم الخرافة مادة لفنه ، أو يستعير ما فيها من جمال وروعة ليفيد بهما أدبه .

وغاية ما يذكر فى هذا الباب ، أن بعض الأدباء – كابن دريد أطلق لخياله شيئا قليلا من الحرية ، ومضى يخترع الروايات والنوادر ، يفسر

(٥) خريدته : الخريدة هى اللؤلؤة لم تشق .

(٦) بميسم : اسم للآلة التى يؤمم بها كالمكواة والجمع مياسم ، ووسم الشيء أى

كواه لماثر فيه بعلامة .

بها بعض الأمثال السائرة المنحدرة من عهود الجاهلية ، كقولهم « عند جهينة الخبر اليقين » ، و « الصيف ضيعت اللبن » ، و « جزاء سنمار » ، وقد أخرج من صنعوا ذلك أحاديثهم مخرج الحق ، وأسندوا بعضها ، كى يضمنوا لها الرواج بين المتأدبين ، كما أن أصحاب المقامات الذين أسلسوا لخيالهم العنان قليلا حرصوا على ألا يبعدوا كثيرا عن حيز الامكان ، لئلا يعرض عنهم أولو الألباب .

ذلك بأن العرب كانوا شديدي الحرص على العلم الصحيح حيث ثقفوه (٧) ، موكلين بالصدق التاريخي ، زاهدين جدا في الأساطير وجمجات الخيال ، وهو خلق أورثهم آياه دينهم منذ اعتنقوه ، فانه وإن أثبت وجود الجان وائثمارهم بأمر سليمان ، واستماع نفر منهم الى القرآن ، قد اوسع أساطير الأولين سخرًا واستخفافا ، وكثيرا ما جمع بينها وبين الشرك ، وهو قد جب (٨) ما قبله مما هو شبيه بالكفر والزيغ ، ودعا المؤمنين الى التفكير في خلق السموات والأرض ، وطلب العلم الصحيح ، فلا غرو أن زهد المسلمون في تخريف الجاهليين وأوهامهم ، وقد زادهم نفرة من الأساطير ومختلف الأقاصيص ما تنبهوا اليه من جرأة بعض الدخلاء والمغرضين على الأحاديث النبوية ، يخرعونها ويفسرونها بما تمليه أهواؤهم .

زد على ذلك أن الاسلام قد حرم الخمر ، وهو تحريم راعته اغلبية الأمة ، وإن تجاوزه بعض الشعراء ، بل الخلفاء والكبراء . وهذا الامساك عن المسكر قد أكسب الأمة عامة صفات التؤدة (٩) والصحة والتوقر والاحجام عن مجازاة الخيال ، والتحليق في فضاء الأوهام ، وطبيعة بلادهم ذاتها تبث هذا الصحو في طبائعهم ، فانها في الغالب مصححة سريعة التحول من وضوح النهار الى حلك الظلام ، لا تطول بها كما تطول في البلاد الشمالية فترات ذلك التحول ، من غلس (١٠) وغسق ، ولا يكثر بها انتشار الضباب الذي يحجب الأشياء الا أشباحها ويوقع في النفس التوجس والوهم ، والخرافة الانجليزية حافلة بتلك المشاهد بين غلس وغسق وضباب .

(٧) ثقفوه : ثقف الشيء : أقام المعوج منه وسواه .

(٨) جب : قطع ما كان قبله من الكفر .

(٩) التؤدة الرزاة والثاني .

(١٠) غلس : ظلمة آخر الليل اذا اختلطت بضوء الصباح .

كل ذلك جعل مثقفى المسلمين سريعين الى انكار الخوارق ونسب
الاغراب والسخرية من المغربين ، فدعبل الخزاعى مثلاً يهزأ ملياً بنفر من
فبيلته ذاتها زعموا أن أحد أجدادهم حادث ذئبا ، فهو يقول :

تهتم علينا بأن الذئب كلمكم
فقد لعمري أبوكم كلم الذئبا
فكيف لو كلم الليث الهصور ؟ اذن
افنيتم الناس مأكولا ومشروبا

ومن جهة أخرى لم يحس أدباء العربية كبر حاجة الى ذلك الضرب
من الأدب ، تحفزهم الى التأول فى الدين وتمييز ما نهى عنه مما لم ينه
فهم لم يكونوا شديدي الولع بتقصي مناظر الطبيعة وتصويرها ، فيتوسلوا
للمتفنن فى ذلك بالطيران على أجنحة الخيال الى شتى المناظر والأودية
والشطآن ، ولا كانوا شديدي التوفر على نقد أحوال عصورهم السياسية
والاجتماعية ، فينتزعوا لذلك الصور من خرافات الأقدمين مماثلة لصور
مجتمعهم ، أضف الى ذلك ما لازم الأدب العربى دائما من نزعة محافظة
وولع بمحاكاة بدائع المتقدمين ، ولما لا طموح معه الى تجديد شديد
المباينة لمناهجهم فى الأدب .

تلك هى العوامل التى صرفت أدباء العربية عن الاحتفال بالأساطير ،
وجعلتهم جميعا يسلكون الطريق « المباشر » للافصاح عن خواطرهم ،
طريقة القصائد المتوسطة الطول ، والأبيات المحكمة الموجزة ، ورائدهم
قول قائلهم :

وان أشعر بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته : صدقا

وقد روى أن سهل بن أبى غالب صنف كتابا فى سير الجن وأحوالهم
ورفعه الى الرشيد ، فقال له الخليفة : ان كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت
عجبا ، وان كنت اخترعت ما رأيت فقد وضعت أدبا . ولكن أحدا من
معاصرى ذلك المؤلف أو من جاءوا بعده لم يحفل بهذا الضرب من الأدب ،
وأهمل الكتاب حتى ضاع .

أقصيت الخرافة عن حظيرة الأدب العربى ، وتركت للعامة يخفون
بالاستماع اليها أعباء عيشهم ، ويسرون بالانصات الى مغامراتها ومصاوماتها

هموم حياتهم المتشابكة الرتيبة ، ويلونها لهم القصاص بألوان الدول
المتعاقبة والأحوال المتوالية ، وتنفض فيها السياسة أحيانا أغراضها ، حتى
أتيح لها من دونها فكان منها أقاصيص ألف ليلة وليلة ، وعنترة ومهلهل ،
وسيف بن ذي يزن ، وقد اطلع عليها بعض أدباء العربية في العصر الذي
دونت فيه فاستخفوا بها ونبدوها .

بيد أن تلك الأقاصيص على عاميتها وركاكة أسلوبها ، وفحش بعض
مواقفها ، تحوى من روائع الوقائع ، وجميل المناظر ، وآثار الخيال ،
ما يعوز الأدب العربى كله ، وبفضل ما فيها من روعة وجمال وخيال قد
نالت الخلود وحظيت بالشهرة والترجمة الى شتى اللغات ، وأعجب بها من
الغربيين من لم يسمعوا بحكم المتنبي ، وأمثال الطائي ، وبديع ابن المعتز .

أثر الفنون

فى الأدبين العربى والانجليزى

تختلف الفنون فى مجالاتها وبعض وسائلها : فللشعر من القدرة على وصف الحركة وتناول الأشياء المتباعدة فى الزمان والمكان ما ليس للتصوير ، ولهذا من المقدرة على بيان دقائق الموصوف وتحديد ماهيته ما يعوز الشعر ، ولكن الفنون تتفق جميعا فى غايتها التى هى التعبير عن تأثير الانسان بروائع الحياة وشغفه بجمالها ، وفى كثير من وسائلها التى تتصل بطبائع الانسان وميوله : كالتناسب والتماثل والتكرار فى الشكل أو فى النغمة أو فى الروى ، والتقابل والتضاد فى كل أولئك .

فالفنون على تعددها مظاهر شتى لصفة انسانية واحدة ، وهى ترهف الشعور وحب الجمال . ولا يخلو المبرز (١) فى أحد الفنون من بصر بسائرهما وان قل ، وحب لها يعلو على حب الفرد العادى . وكثيرا ما جمع الفنان الموهوب بين فنون عديدة يبرع فيها جميعا ، وقد نبئت الموسيقى والشعر والرقص بين الجماعات الأولية من أصل واحد ونمت حتى استقل كل منها . وكان الشعر فى بدئه موسيقى عجماء وصيحات غنائية غير ذات معنى ، ثم داخلها المعنى تافها فى أول أمره ، وما زال يتعاظم شأنه حتى احتل المكانة الأولى فى الشعر ، وان لم تفقد الموسيقى أهميتها فى رصانة القصيد ، فأى شعر خلا منها قصر عن أوج الكمال مهما سما معناه .

وقد مارس العرب والانجليز تلك الفنون الثلاثة : الموسيقى والرقص والشعر ، منذ عهودهم الأولى ، وارتقت موسيقاهم بمخالطة الأمم الأخرى : فأخذ العرب عن الفرس ، والانجليز عن الايطاليين خاصة والفرنسيين ما لم يكونوا يعرفون من أصوات الموسيقى وآلاتها ومصطلحاتها وظهر أثر ذلك فى أدبهم . وأبدع أمثلة للشعر والغناء والرقص فى الانجليزية قصائد ملتون التى نظمها قبل انغماره فى حركة المطهرين . وممن تغنى من شعراء الانجليزية بتأثير الموسيقى والغناء دريدن فى قصيدته « مأدبة الاسكندر » ، وكولنز فى قصيدته « العواطف » .

(١) المبرز : المتفوق على أصحابه .

وبذلك تغنى أيضا شعراء العربية ، بل بلغ انكبابهم على غشيان
مجالس الغناء والرقص حدا بعيدا ، بعد أن انتشر الترف عقب الفتوح ،
حتى كاد شعر كثير منهم ، كبششار وأبى نواس ، ينقسم الى باين
رئيسيين : المدح الذى يطلب من ورائه المال الوفير ، والتغنى بمجالس
اللهو والطرب التى ينفق فيها ذلك المال . ومن جيد ما قيل فى وصف
المغنيات وآلات الموسيقى قول ابن الرومى :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيتها حوان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه . وهو بادی الغنى عن الترجمان
ذات صوت تهزه كيف شاءت مثلما هزت الصبا غصن بان.

وقوله فى راقصة :

إذا هى قامت فى الشفوف أضاءها
سناها فشفت عن سبيكة سابك

وارتقى بين الأمتين حين تحضرنا فن العمارة ، وقامت فى بلادهما ،
بيوت الملك والعبادة ، والحصون والمعقل ، وتأثر فن العمارة فى كليهما
تأثرا كبيرا بالطراز القوطى ، واسترعت الأدباء تلك المباني الضخمة
والحصون المشيدة ، تروع الناظر فخامتها ، ويعجب اللب من مغالبتها
كر السنين ومصاحبتها جيلا من الناس بعد جيل ، وشغل شعراء العربية
خاصة بوصف قصور الملوك ، وما حوت من ضروب الزخرف . ولفتت
أذهان شعراء الانجليزية وكتابها القصور والبروج المتخلفة من عصور
الاقطاع تلك التى تهجش بذكریات الماضى والتى شهدت مصارعات الأمراء
ومجنهم فى غياباتها (٢) . وكانت لكثير من الأدباء مواقف بالكنايس
والكاتدرائيات ، ولا سيما «وستمنستر ابى» التى تعج رحابها بآثار الماضى .

ووصلت يد كل من الأمتين الى تراث اليونان ، فاختلف موقفاهما :
فأما الانجليز فلم يتركوا شاردة ولا واردة من آثار ثقافة اليونان وفنونهم
الا تزودا منها ، فأحدث اطلاعهم على روايات سوفوكليس ويوربيدس
انقلابا فى «رواية المعجزات» التى ترعرعت فى الكنيسة فى العصور
الوسطى ، فالتفتت الى تصوير طبائع النفس الانسانية أى صارت فنا ،

(٢) غياباتها : غيبة كل شيء : قعره .

وأخذ الانجليز عن اليونان وتلامذتهم الطليان النحت والتصوير . وكانت بلاد اليونان وايطاليا وما تزالان محج رجال الفنون الانجليز من شعراء ومصورين ونحاتين وموسيقيين ، وكانت صورهم وتمثيلهم وما تزال وحيا ونماذج لفنانى الانجليز ، وأنجبت انجلترا عددا عديدا من نوابغ المصورين والمثالين جاروا أساتذتهم من أهل القارة فى مجالات النحت والتصوير ، كما جاروهم فى مضمار الأدب .

وظهرت آثار تلك الفنون فى الأدب الانجليزى : فالتمثيل صار بابا من أبواب الأدب له خطره ، وتوفر عليه أكثر نوابغ العصر الاليزابيثى وكثير ممن تلاهم . والصور والتمثيل التى أبدعها رجال الفن الانجليز أمثال رينولدز وكنستبل وترنر ، والأجانب أمثال رافائيل ودورر وفان ديك ، وسير أولئك النوابغ ، صار كل ذلك مجالا لتأمل الشعراء والكتاب ، ومهبطا لآثار أخرى فى عالم الأدب لا تقل مكانة عن تلك الآثار فى عالم النحت والتصوير ، وصرف بعض الأدباء همهم الى نقد أعمال المصورين والنحاتين والممثلين ، ومن أولئك هازلت ورسكن ، والى الأخير يرجع الفضل فى اظهار المصور ترنر .

وقد قضى كيتس وشلى وبيرون وبراوننج وهاردى ردحا طويلا أو قصيرا من أعمارهم فى ايطاليا ، حيث استطابوا مناظر الطبيعة وتقيأوا ظلال آثار الرومان واستلهموا بدائع المصورين والمثالين الطليان ، بين روما وفلورنسا والبندقية ، وقضى الشاعران الأولان نحبيهما هناك ، ودفنا فى أرباض (٣) تلك المعاهد التى ألفاها حين . وبين أطلال روما نبئت فكرة عمل من أكبر أعمال النثر الفنى فى الانجليزية ، ألا وهو تاريخ جيبون عن انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها ، فهو يحدثنا فى مذكراته أن الرغبة فى وضع مؤلفه عنت له أثناء تجواله هناك بين آثار الوثنية ومعالم النصرانية .

ولم تقتصر الصلة بين الأدب وغيره من الفنون على اقتباسه منها واستلهاه اياها ، بل حدث العكس : اذ عمد أعلام تلك الفنون الى الأدب يطلبون الوحي وينشدون النماذج ، فوجدوا فى روايات شكسبير العديدة ، ومناظرها الكثيرة ، وشخصياتها الحية ، ومواقفها الحافلة بشتى العواطف ، وفى خرائد ملتون المملوءة بالأوصاف والصور والحالات النفسية ، وفى روائع تينيسون وبراوننج المنسوجة من أشعثات الخرافات البديعة ، نماذج

(٣) أرباض : الربض : ما حول المدينة والجمع أرباض .

لفنهم ومسرى لخيالهم • والمتاحف الانجليزية ملأى بتلك الآثار المنتزعة من قصائد الشعراء • كـصور أليدى شيلوت ، وأوفيليا ، والحسناء القاسية •

وكان من شعراء الانجليزية المعدودين من ضربوا بسهم فى الفنون الأخرى ، واشتهروا بها اشتهاهم بصناعة القلم : فشكسبير كان ممثلا كما كان شاعرا ومؤلفا للمسرح ، ووليم موريس كان مصورا وشاعرا ، وروزييتى ألف جماعة « ما قبل الرافائييليين » التى كانت لها مبادئها فى التصوير ، كما كان لها مذهبها فى الأدب ، وأكثر من هؤلاء من لم تدركهم الشهرة فى غير الأدب من الفنون ، وإن كانوا شديدي الولع بها ، شديدي الشغف بممارستها والتثقف فيها •

وهكذا أصبح من غير النادر فى الانجليزية أن ترى الأسطورة أو القصة التاريخية ، كوقائع يوليسيز ومخاطرات فرسان المائدة المستديرة • وقد تناولها الشاعر والممثل والمصور والنحات كل من ناحيته مستقلا بنظره ، أو معتمدا على الآخرين ، مستلهما محاسنها ومغازيها ، مبرزاً من صورها وأفكارها ما يلائم فنه ويجرى فى مجال صنعه ، نافثاً (٤) فيها من خلاصة تفكيره وعصارة شعوره واتجاهات عصره ما يزيدها جدة وروعة •

هذا التواصل والتجاوب والتعاون المستمر بين الفنون زاد الأدب الانجليزى خصبا على خصب أفسح أمامه أغراض القول ، وزاد رجاله بصرا بحقائق الفن وغاياته ووسائله ، واعتقادا بوحدة الفنون جميعا وتلاقيها فى الوسائل والغايات ، فحرصوا فى نشرهم ونظمهم على صدق النظرة وصحة الشعور ونشيدان الجمال ، واستعاروا وسائل الموسيقى والمصور والممثل والنحات ، فاهتموا بالأوصاف الجميلة للطبيعة والانسان ، واعتدوا بتوضيحتها وإبرازها ، متوسلين لتصوير المعنى بجرس اللفظ ومناسبة التعبير واختيار القوافي • وتصرفوا فى الوزن والروى بما يلائم الحالة الموصوفة من سكون أو حركة ، وفرح أو حزن ، وقسوة أو لطف : وتأنقوا فى صوغ الحوار بين أبطال قصائدهم ، معبرا حوارهم عن منازعهم ، فإذا قرأت القصيدة القصيرة أو الطويلة لأحدهم ، لم تجدك خيال معان ذهنية متزاحمة ، بل رأيت صورا محكمة التصوير ، وموسيقى مطربة النغمات ، وأشخاصا ممثلين حياة وقوة وألوانا وظلالا •

(٤) نافثا . نفث أى نفخ •

ولم يغفل الشعراء الذين مجدوا الفنون الأخرى ذلك التمجيد عن
 فنهم الخاص : فنظم بوب وكيثس وتنيسون وغيرهم من الأعلام قصائد
 غراء في الشعر والشعراء . وللتون وماثيو أرنولد أشعار في شكسبير
 تفيض إعجابا ونقدية ، ولوردزورث وتنيسون وأبركرومبي الشعراء
 المعاصر في ذكرى ملتون أشعار كهذه . وكان هاردي لا يمل ذكر شلي
 وتعظيمه في قصيدته ، وكانت لشعراء الأمم الأخرى لدى شعراء الانجليز
 منزلة كهذه ، فاشعارهم ملأى بمحاكاة الشعراء الأقدمين كهوميروس
 وفرجيل ودانتى والخيام ، والمحدثين كنيكسار وجوته وهييجو ، وترجمتهم
 والتحدث عنهم ، لأن الفن يجمعهم طرا (٥) في صعيد واحد . ويمحو بينهم
 فوارق الزمان والمكان .

وما أعظم الفرق بين هذا الإعجاب النبيل بمتقدمي الشعراء ، وبين
 ما نراه في العربية من وثوب بعض الشعراء ببعض ، ووقوع حماد في
 بشار ، وحملة ابن الرومي على البحتري ، وحقد دعبيل على الطائي ، أذهلهم
 التناحر على متاع الدنيا عن الصلة السامية التي يصلهم بها الفن ، وقد
 نعلم أن البحتري كان يقدم أبا تمام ، وأن المعري كان يعظم أبا الطيب ،
 ولكن ذلك التقدير لم يتخذ شكلا فنيا ، ولم يبرز في عالم الشعر قصيدا
 رائعا يفيض بتقديس الفن وتبجيل رجاله . وبينما كان ذاك التحاقد
 ديدن (٦) شعراء العربية فيما بينهم كان جهلهم بشعراء الأمم الأخرى
 مطبقا .

لقد حجب العرب عن تلك العوالم الفنية اعراضهم عن تراث اليونان
 الفني ، ودعاهم الى ذلك الاعراض تمكن الملكة البيانية منهم ، تمكنت من
 نفوسهم في البادية ، حيث لا تتوفر أدوات فن من الفنون سوى فن البيان
 الذي لا يحتاج الى أدوات غير صفاء الذهن وطلاقة اللسان ، وقوى اعتداد
 العرب بتلك الملكة وتوفرهم عليها نزول القرآن الكريم الذي زادهم كلفا
 بالفصاحة ، وكان دائما أساس ثقافتهم التي يؤخذون بها من الصغر .
 فالانجليز اتصلوا بتراث اليونان وهم بعد مقصرون دون جميع غايات
 الثقافة ، فاغترفوا من جميع مناهله ، ولم يتصل العرب به وبغيره من تراث
 الأمم الا بعد أن توطد أدبهم وتمكن سلطانه من نفوسهم ، فشتمخوا به
 على سائر الآداب ، واستغنوا به عن كل الفنون .

(٥) طرا : الطير ذا رواء وجمال .

(٦) ديدن : العادة والدأب .

لذلك لم يحفل العرب بالتمثيل ، ولم يزدهر بينهم التصوير والنحت ، ولم يتعدى حدود الصناعة ذات الغرض المادى الى حدود الفن السامى الذى هو غاية نفسه ، واقتصروا من التصوير والزخرفة والنحت على ما كان يزين قصور كبرائهم من تهاويل ودمى قليلة الحفظ من الفن ، لا تحمل وراءها من المعانى السامية ما تحمله الصور والتماثيل الفنية ، واستبد الأدب بالتعبير عن أسمى مشاعر العرب وأرقى أفكارهم . وإذا تذكرنا أن الفنانين الآخرين سالفى الذكر - الموسيقى والرقص - لم يتخلصا من ربة (٧) المادية وشبهة الشهوات الى عوالم الفن المتسامى بالنفوس ، وظلا دائما مقرونين بالشراب والقصف (اللهو) وخلع العذار ، تبين لنا أن الأدب كان فن العرب الفرد ، وأن الشعر ظل ديوانهم فى مختلف عصورهم ، أودعوه حوارهم فاستغنوا عن التمثيل ، وأوصافهم فاستغنوا عن التصوير ، وأمداحهم فقام مقام التماثيل .

ومن ثم نرى أثر فنون التمثيل والتصوير والنحت فى الأدب العربى ضئيلا : فلم يكن بين العرب ممارسون لتلك الفنون ينعكس طاق فنونهم فى الأدب ، ولم يكن لدى أدباء العربية كبير اهتمام بمخلفات الأمم السالفة فى مشارق دولتهم ومغاربها . ومن القليل الجيد الذى نظهوه فى تلك المناحي سينية البحترى التى يصف فيها نقوش ايوان كسرى ، وراثية ابن حمديس التى يصف فيها تماثيل الأسود فى بعض القصور ، وسينية أبى نواس التى يصف عرضا فى أثنائها تصاوير كاسه فى قوله :

قرارتها كسرى وفى جنباتها مها تدريها بالقصى الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها وللما ما دارت عليه القلائس

وقول بعض شعراء الأندلس فى تمثال امرأة وولدها :

ودمية مرمر تزهو بجيد تنهى فى التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا ولا ألت بأوجاع المخاض
ولعلم أنها حبر ولكن تتيمننا بالحاظ مراض

ولا تخلو كل هذه الشواهد من آيات البراعة وحسن الملاحظة والوصف ، حتى ليأسى المرء على أن لم يول العرب هذه المناحي من القول اهتماما أكثر مما أولوها . وسينية البحترى مثل شروود من أمثلة الشعور

(٧) ربة : أسر وعبودية .

الصادق والعاطفة الانسانية والروح الفنية في الأدب العربي ، وأعجب من نفردتها في الادب العربي صدورها عن البحترى الذى سخر بيانه للمدح والهجاء . وقد كان نفاذ العرب يطربون لهذه الاشعار الفنية الجميلة . البعيدة عن اثار المدح والهجاء والنسيب المتكلف ، فقد اعجب ابجاذظ وغيره بسينيتى البحترى وابى نواس سالفتى الذكر ، وعدوهما من ذخائر الشعر العربي ، ولكن دواعى مثل هذا النظم كانت نادرة ، وتيار محاكاة السابقين كان يدفع الادباء فى غير هذا الاتجاه .

فالامتان العربية والانجليزية تتفقان فى ظهور الأدب فيهما على سائر الفنون واجتذابه أغلب نوابغهما ، واشتهارهما بالسبق فيه بين الأمم ، فان الانجليز وان جاروا الأوربيين فى مجالات النحت والتصوير لم يبلغوا شأوهم كما بلغوا الشأو والغاية فى صناعتى الشعر والنثر ، ولم ينجبوا من اعلام النحت والتصوير من توازى مكانته العالمية مكانة شكسبير وملتون وبيرون ، ولكن تفترق الامتان فى أنه بينما مارس الانجليز الفنون الأخرى وهاموا بها ومجدوا آثار الأمم الأخرى فيها ، أهمل العرب الفنون الأخرى اهمالا يكاد يكون تاما ، فلم تجتذب اهتمام نوابغهم ومثقفهم ، وظل ما عرفوه منها أدنى الى الصناعات منه الى الفنون ، وظل الأدب – ولا سيما الشعر – يشغل فى عالم الفن والوجدان مكانا عاليا وسلطة مطلقة فردية بين العرب ، كسلطة الخلفاء والأمراء المستبدة فى عالم السياسة ، متوحدا بالافصاح عن أفكارهم مستأثرا برعايتهم واجلالهم .

وقد خسر الأدب العربى بتفرده هذا الشيء الكثير ، لأن الفن الواحد لا ينمو خير نموه بعزلته ، بل بمواصلته الفنون الأخرى ، خسر ما كان ينتظر أن تمده به تلك الفنون من الهامات ومناوح للقول ، وما كان ينتظر أن تبثه فى رجاله من فهم دقيق للفن وسمو غايته وتعاليه عن المادة وبعد مراميه ، وما توحىه اليهم من وسائل للتعبير والتصوير والملاءمة بين المعنى والملفد ، وجعل الأخير دائما خادما للأول . وبالجملة خسر الأدب معاونة الفنون التى استأثرت بالمكانة دونها ، كما خسر مساعدة الآداب الأجنبية التى ترفع عنها .

شخصيات الأدباء

فى الأدبين العربى والانجليزى

يكثّر التشابه بين أفراد الجنس الواحد فى عالم الطبيعة فى الطبقات الدنيا من الأحياء ، وكلما ارتقى الجنس فى سلم الحياة ازداد الاختلاف فى المظهر والصفات بين أفراد الجنس ، وكذلك الحال فى المجتمعات البشرية : يتشابه الناس ويتقاربون فى المشارب (١) والأغراض فى عصور الانحطاط ، ويختلفون خلقا وعبقريّة فى عصور النهضة ، ويتفرقون فى شعاب الحياة ودروب المطامح فلا يتفقون الا فى تدفع الحياة فى نفوسهم وعلو هممهم وولوعهم ببعيدات الأمور ، فالتشابه والاتفاق من أمارات الانحطاط . والاختلاف والتميز من دلائل الرقى .

وذلك الشأن فى آداب الأمم : فان أظهر ميزات عصور النهضة فيها اختلاف مشارب الأدباء وتباين شخصياتهم واستقلال نظراتهم الى الحياة ووجهاتهم فى الفن ، فهم وان اتفقوا على مبدأ أو مذهب فى الأدب ، لا يتشاكلون (٢) ولا يكرر بعضهم بعضا ولا يغنى أحدهم عن سائرهم ، بل ينتحى كل منهم ناحية من الحياة يوكل بها ، ويرى الحياة جمعا بمنظار نفسه لا بمنظار غيره ، وينفث فى أدبه خلاصة عبقريته الفردية ، أما فى عصور ادبار الأدب فيتماثل الأدباء حذوك النعل بالنعل ، ويتهافتون جميعا على نموذج الأدب أو الانشاء الأدبى ، لا ينفكون يقلدونه ويعارضونه ويغفلون بمحاكاته عن حقائق الحياة ولباب الفن ، فيخرج أدبهم جميعا صورا مكررة من أنفسهم وأشكالا ممسوخة من ذلك النموذج المحتذى أو القالب المصبوب .

ويمتاز فحول الأدب الانجليزى ، ولا سيما فى عصور نهضاته ببروز شخصياتهم واستقلالها واختلاف بعضها عن بعض اختلافا تاما ، الا فى اقتباسها جميعا من نور الصدق ، واصدارها جميعا عن معدن الشعور : فالنهضة الرومانسية فى مستهل القرن التاسع عشر مثلا ، كانت ذات

(١) المشارب : المشرب : هو الميل والهوى والجمع مشارب .

(٢) يتشاكلون : المشاكلة : المماثلة .

أغراض معينة مشتركة بين جميع أعلامها : كانت ثورة على قيود الفكر وصناعة اللفظ وتقاليده النظم وعودة الى الطبيعة والبساطة ، ونزوعا الى جمال الحياة ، ومع ذلك يتباين فحول شعرائها وتبدو شخصياتهم بارزة واضحة الاختلاف في الأخلاق والمشارب والأساليب :

فوردزورث كان موكلا بالطبيعة ومجاليها وأسرارها ، مؤمنا بضرورة استخدام لغة النثر السهلة في الشعر ، وشلي كان معنيا بالاصلاح الاجتماعي وعدوا لدودا للملكية والكنيسة والتقاليد الحمقاء ، وكولردج كان هائما في عوالم المجهول وأغوار الماضي السحيق ، وسكوت كان مغرما بالعصور الوسطى وتاريخها في بلاده اسكتلندا ، متغنيا بمجدها وفروسياتها ، محييا لأغانيها الشعبية ، ويرون كان بوهيمي النزعة جرىء الفكرة مشغولا بقصص الأبطال ، جزل الأسلوب رائعته دون تدبيج ولا ترو *

ولنضرب مثلا آخر مؤرخي الانجليزية الثلاثة ، الذين توخوا الفن والأسلوب الأدبي في توارينهم : جيبون وماكولي وكارليل ، فأولئك شخصيات ثلاث متميزة : فالأول رصين الأسلوب واللفظ ، محكم البنيان ميال الى الموازنة في المعاني والازدواج في التراكيب ، والثاني يراوح بين طويل الجمل وقصيرها ، موالع بتصوير المناظر التي يمر بها تصويرا يقف بك أمامها وجها لوجه ، كلف بتاريخ مآثر وطنه وعظائم أبنائه ومواقف فخاره ، أشد تشبعا بالوطنية وأقل نصيبا من النظرة الانسانية الشاملة من صاحبيه ، والأخير قصير الجمل فجائي الأفكار ، معنى بعظماء الرجال أخلاقهم وسحناتهم وآثارهم في عصورهم *

وقل مثل ذلك في سائر مشهورى الأدباء الانجليز : كلهم مختلفو الشخصيات مستقلوها ، واضحو النفسيات ، متميزة شخصياتهم ونفسياتهم احداها عن الأخرى ، تقاربوا في العصور أو تباعدوا ، اتفقوا في المذهب الأدبي أو اختلفوا ، وذلك أول دليل على حيوية الأدب ، وأصدق شاهد باستمداده من ينابيع الحياة الجارية ، لا من بطون الكتب الجافة ، فالحياة لا تفنى صورها تعددا ، وهى تبدو لكل أديب صادق النظر والشعور في صورة جديدة *

وانما تشابهت شخصيات الأدباء وتمثلت آثار الشعراء في عصور تدهور الشعر في أواسط القرن الثامن عشر ، حين بعد الشعراء عن الطبيعة وانغمروا في المدينة ، وهجروا الحياة وغرقوا في صفحات

الكتب ، وأعرضوا عن وحى شعورهم وقلدوا من سبقوهم ، فعدوا بوب ودريدن المتل الأعلى الذى يحتذى ، والمطلب الأسمى الذى لا يطلب سواء ، واحتذوهما فى الغرض والأسلوب والعروض ، وتعاوروا (٣) أشعارهما معارضة واقتباسا واختلاسا ، فخرجت آثارهم جميعا متشابهة متشاكلة بعيدة عن الفن لا تصور شخصيات قائلها ، وخملوا جميعا من دون ذينك الشعارين اللذين احتذوهما . فلا يهتم بآثارهم اليوم الا مؤرخ الأدب المدقق المستقصى .

وفى تاريخ الأدب العربى شخصيات مستقلة واضحة متميزة ، مخالفة كل منها للآخرى قولا وخلقا وأسلوبا ، كالمعرى الحكيم المشفق على أمة الطير والحيوان ، المعنى بتنازع البقاء وبغى الأحياء ، والمتنبى الطموح « المتعاطى للكبر وعلو الهمة » كما قال بعض معاصريه ، وابن الرومى المشغوف بالجمال الطبيعى والانسانى ، المنهوم بنعيم الحياة ولذاتها ، الدقيق النظرة ، الرائع التصوير ، وأبى نواس الماجن المستهتر ، والجاحظ الموكل بفنون الثقافة ، وبديع الزمان المعتد بنفسه ، الحريص على المادة المكاثرة بثروته اللغوية ومهارته الصناعية ، السهل الديباجة ، الرائق الفكاهة . كل هاتيك شخصيات بارزة متميزة .

ولكن بجانب أمثال أولئك حفل كبير مشهورى الأدباء الذين آتت آثارهم وانحدرت إلينا بعض أخبارهم ، ولكن شخصياتهم مبهمه مطموسة ، يكتنفها الضباب ولا يستجليها الخيال ، وتشابه كثيرا حتى لنضيف آثار بعضها الأدبية الى آثار الأخرى فلا ترى فارقا ، ولا تحس مانعا يحول دون ذلك من تباين الأساليب أو اختلاف النفسيات أو تضاد النزعات . بل ان شخصيات بعض من تقدم ذكرهم من فحول العربية ، على كثرة ما وصل إلينا من كتاباتهم وأخبارهم ، مبهمه فى كثير من نواحيها .

ولا ريب فى أن لطول العهد وكر الزمن أثرا كبيرا فى تبديد الآثار ، وتغيير الأفكار والمشارب والأذواق ، واحاطة شخصيات المتقدمين بغنائم من الغموض والغرابة مهما تحدث الشعراء بذكر الخلود ، ولكن هناك عدا هذا عوامل لا يستلزمها الأدب العربى فأدت الى غموض كثير من شخصيات كثير من أعلامه ، وتشابهها واختلاطها ، أولها شيوع الأمية فى الجاهلية وصدر الاسلام ، مما أدى الى تبديد أخبار كثير من الشعراء وضياع

(٣) تعاوروا : تداولوا الشيء بينهم .

أشعارهم واختلاطها ، ودخول الزيف والتمويه عليها ، مع أن شعر ذينك العصرين كان أصدق حديثا وأكثر إفصاحا عن شخصيات قائله من شعر العصور التالية ، لو لم تعبت به يد الأمية والنسيان .

ولما انتشرت الكتابة لم تكن الطريقة التي جرى عليها المؤرخون في ترجمة الأدباء هي المثلى : فقد اقتصروا على تواريخ ووقائع - كوفود الأديب على ممدوح أو اتصاله بديوان أمير - لا أهمية لها في شرح نفسياتهم ، ولا غناء وراءها في توضيح شخصياتهم ، وجاء كثير من التراجم مختزلا مجتزأ . وناقض بعض الروايات بعضا ، وصعب تصديق بعضها ، فظلت جوانب من تلك الشخصيات مغلقة ، فما أقل ما يعرف عن عبد الحميد وابن المقفع والطائي والبحتري وابن الرومي والمتنبي ، فهم لا يكادون يظهرون في ضوء التاريخ إلا في جناح أمير أو ركاب عظيم ، أما نشأتهم فمهملة ، وهي التي لها أكبر الأثر في آدابهم ، وأما حياتهم اليومية فمغفلة ، كان ليس لها خطر ولا شأن !!

وما قصر فيه المؤرخون لم يعوضه الأدباء أنفسهم : فكثير منهم لم يصوروا أنفسهم في أشعارهم ورسائلهم صورا واضحة ، ولم يودعوها خلجات أفئدتهم ونظراتهم في الحياة ، بل ما أكثر الكتاب الذين قصروا ببيانهم على إنشاء رسائل الأمراء ، والشعراء الذين توفروا بأشعارهم على مديح أرباب النوال (٤) ، فامتلات آثارهم الأدبية بذكر أناس كثيرين ووصف أحوالهم وأفكارهم ، فلا غرو أن جاءت آثارهم متشابهة ، لا توضح شخصياتهم ولا تنهض ببعض ترجمتهم ، ومن العجيب أن أكثر الشعراء إفصاحا عن أفكارهم الخاصة وحاجاتهم وشعورهم ، كانوا هم المجان والخلعاء الذين لم يكن لهم شعور ولا تفكير في سوى اللذة والعبت كبشار وحماة .

فالناظر في ديوان الطائي والبحتري ، وفي رسائل ابن العميد والصاحب ، لا يعثر إلا نادرا على فقرة أو أبيات مصدرية عن شعور شخصي للأديب هو ببيانه محتفل ، أو فكر جليل هو في إذاعته جاد ، ولا يرى في الشعر إلا مديحا وهجاء وشكوى للزمان وافتخارا بعلو الشأن ، أو ما كان يجب للشاعر من علو الشأن ، وضربا للأمثال واصطناعا للحكمة ، ولا يرى في النثر إلا تنميكا وتديجا واقتباسا وتكاثرا بسعة الاطلاع ، فلا غرو أن يتشابه أولئك الشعراء إلا تفاوتا قليلا في الصياغة ، وأولئك

(٤) النوال : العطاء .

الكتاب الا اختلافا بسيطا في الأسلوب ، فاذا أنت نزعت جانبا كبيرا من نظم أولئك الشعراء ، أو نشر أولئك الكتاب ، لم تشوه آثارهم بانتزاع ما لا غنى عنه لبيان نفسياتهم ، واذا أضفت بعض آثارهم الى بعض لم يعقك عائق من تمييز شخصية عن شخصية أو اختلاف منحى عن منحى .

وهناك عامل خطير لا يقل عن هذا أهمية في تشابه شخصيات الأدباء وتماثل آثارهم : ألا وهو نزعة المحافظة والتقليد التي صاحبت الأدب العربى منذ قامت الدولة العربية وانتشرت اللغة فى الأقطار ، فقد اتخذ الأقدمون مثلا عليا فى البلاغة والشاعرية ، وألح المتأخرون على آثارهم وأغراضهم فى القول ومعانيهم محاكاة وتوليدا وتخريجا ، وجالوا جولان المتقدمين فى ميادين المدح والهجاء ، والفخر ، وشكوى الدهر ، وضرب المثل واستخراج الحكمة ، واحتذوهم فى النسيب بليلى وهند ، والوقوف بالأطلال واستحثاث المطى وذرع الفلوات ، فكان للأدباء فى توالى العصور تراث أدبى واحد يتكرر ولا يكاد يتغير ، ويتشكل ولا يكاد يتحول ، ويأخذ منه كل أديب ويكاد يفنى فيه ، وينهل منه وتكاد شخصيته تغرق فى عبابه .

فتقليد المتقدمين دون الطبيعة ، واتخاذهم مثلا عليا يصدر عنها القول ، بدل أن يصدر عن الشعور الفردى المستقل ، من أكبر أسباب ركود الأدب وتشابه الأدباء وتقارب شخصياتهم ، ومن ثم جاءت آثار كثير من الأدباء المتأخرين متشاكلة مشابهة جميعها لآثار المتقدمين ، على تباعد الزمان واختلاف المواطن ، وظلت شخصياتهم غامضة لأنهم لم يجعلوها فى كتاباتهم جلاء صادقا .

ولما استنفذت الصناعة اللفظية ، واشتد الحرص على المحسنات البديعية ، غرقت معانى الشعر وأغراضه وشخصيات الأدباء جميعا فى سسيل من الألفاظ المرصوفة (٥) والعبارات المقتنصة من آثار المتقدمين ، وأصبحت دواوين الشعراء جميعا ديوانا واحدا مملوءا بالنكات اللفظية ، لا فرق بين أوله وآخره . وما أشبه ما قاله البهاء زهير بما قاله ابن نباتة بما قاله صفى الدين من نسيب متناه فى ادعاء الرقة والظرف ، ووصف لمجالى الطبيعة تخلط فيه محاسن الطبيعة وصورها ببهارج الألفاظ وزخارفها مزجا عجيبا ، وتتطلب البراعة باقحام مصطلحات العلوم كالنحو والمنطق والنجوم .

(٥) المرصوفة : رصف - رصافة : صار محكما .

ولا ريب في أن أمنع الأدب للنفس ، وأعلقه باللب ، ما أبان عن شخصية قوية ، ونفسيه مستقلة ، ومن ثم نرى أن ذوى الشخصيات الأصيلة والنظرات الصادقة في حقائق الحياة ، كالمتنبى وأبى العلاء وابن الرومي والجاحظ ، هم الذين حظوا ، دون غيرهم من أدباء العربية الأقدمين ، بالدرس الطويل والترجمة المفصلة من كتاب عصرنا الحالى ، لأن آثارهم تشوق الدارس وتحفزها الى الكتابة والتعليق والنقد ، وتحوى صوراً من انفسهم يطيب للمطلع التأمل فيها والنظر الى الحياة فى ضوء أفكارها . ولو حاول ناقد أن يترجم لروان بن أبى حفصة ، أو مسلم ابن الوليد ، أو مهيار ، أو البحتري ، أو الصاحب ، أو الحريري ، ترجمة مفصلة تشرح نفسيه المترجم وتميط عن نزعاته وميوله وعوامل ذلك ، مستمداً شرحه وتحليله من آثار الكاتب أو الشاعر الأدبية التى اشتهر بها ، لكلف نفسه شططاً .

فالناظر فى الأدبين العربى والانجليزى ، لا يسعه الا أن يلاحظ أنه يجد فى تاريخ الأخير شخصيات قوية مستقلة ظاهرة التباين والاختلاف ، مصورة فى أعمالها الأدبية حتى لتكاد تغنى بها عن ترجمة المترجمين ، وتحوى كتاباتها صورها النفسية الداخلية فلا تكاد تترك للمؤلف أكثر من سرد التواريخ وبعض الوقائع وهى لذلك ممتعة جذابة يحس القارئ أن بينه وبينها على اختلاف اللغة والزمن والوطن تجاوبا وصلة شاملة هى صلة الانسانية ، ويطربه أن يراها تعالج نفس المشاكل وتخامر نفس الخواطر والخوارج التى تساوره ، وأمثال تلك الشخصيات الواضحة أقل عدداً فى تاريخ الأدب العربى .

آثر البيئة

فى الأدبين العربى والانجليزى

طبائع الانسان ومواهبه متماثلة حيثما حل من بقاع الارض ، ومجتمعاته متشابهة الظواهر أينما قامت . تتشعب بين أفراد كل مجتمع انساني عوامل التعاون والتنافس والتحاب والتباغض والمطامع والمخاوف ، غير أن للبيئة أثرها فى تشكيل المجتمع الانسانى الذى تحيط به ، بما تعرض أمام أبصاره وأذنه من مناظر ومسائل تحجب عنه غيرها ، وما تفرض عليه من أعمال يمارسها دون سواها ، ويكون لهذا وذاك أثره البين فى لغة المجتمع وأدبه ، مقرونا الى أثر الطبائع والمواهب التى تشترك فيها الأمم جمعاء .

ف للبيئة فى أدب كل لغة ثلاثة آثار بعيدة المدى : فهى أولا تؤثر فى مبنى اللغة وأصواتها وألفاظها وتعابيرها وتشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها السائرة وحكمها المتواترة ، فكل ذلك منتزع من طبيعة اقليم ، وهى ثانيا تؤثر فى مهن المجتمع وعلومه وفنونه وعمرانه وينعكس كل ذلك فى مرآة الأدب ، وهى أخيرا تعرض دائما أبدا أمام أنظار الأدباء وحواسهم مناظر طبيعية بذاتها ، تسترعى انتباههم وتستجيش نفوسهم وتلهمهم كل ما تجود به قرائحهم (١) فى باب عظيم الخطر من أبواب الأدب هو باب الوصف الطبيعى .

وأثر البيئة فى الأدبين العربى والانجليزى واضح وضوحا شديدا يكاد لروعه يخفى أثر الطبيعة الانسانية التى تشترك فيها الأمتان ويتفق عندهما الأدبان ، فان تباين البيئتين تباينا شديدا أدى الى اختلاف اللغة والمهن والعمران والمناظر فى المجتمعين ، وأدى بالتالى الى اختلاف أشكال الأدبين وصورهما ومواضيعهما وأساليبهما ، ويمكن ايجاز التعبير عن الفرق بين الأدبين بالقول بأن أحدهما شب فى بيئة صحراوية والآخ ترعرع فى بيئة بحرية .

(١) قرائحهم : جمع قريحة وهى ملكة يستطيع بها الانسان ابتداع الكلام .

نشأ العرب في البادية فجاءت لغتهم مشرقة الديباجة متينة البناء قوية التعبير غنية الاشتقاق منتظمة أوزان الشعر متعددتها وحفلت بأسماء ظواهر الطبيعة البرية وحالاتها ، وأسماء حيوان البادية وأطوار حياته ، واشتقت تشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها من القمر والنجوم والكثير والقطا (٢) ، والمنبت الذي لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، وورود الماء بماء أكيس ، والقاء الحبل على الخارب ، ولعدم ملاءمة البادية لغير الأدب من الفنون عظمت مكانته بينهم .

واشتغل العرب في البادية بالتجارة ينقلونها بين الشرق والغرب ، فامتلات لغتهم بمصطلحات التجارة بعضها عربي وبعضها منقول عن الأمم التي بادلوها التجارة ، وامتلا أدبهم بالتشبيهات المنتزعة من أحوال التجارة : فالقرآن الكريم يكرر في غير موضع تشبيه الخير والشر بالنجدين ، وذكر الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وعنصرة يقول :

حصاني كان دلال المنايا فخاض غمارها وشرى وباعا

وبشت حياة البادية في العرب صفات الحمية والشجاعة والحرية والأنفة أن يدينوا لملك ، وظهر أثر كل ذلك جليا في أدبهم ، وأشهر أمثلة ذلك معلقة عمرو بن كلثوم ، فهي ديوان العرب في الحماسة ، وأدى أبائهم ودوام انتجاعهم الكلا إلى استمرار المناوشات والوقائع بين قبائلهم ، وانعكس ذلك في مفاخراتهم ومنافراتهم. نثرا وشعرا .

وهذه الصفات الشماء التي تلزم حياة التبدى جعلت العرب ينظرون شزرا إلى الزراعة والصناعة اللتين لم يكن لهما بحال مجال في البادية ، ويحتقرون الزراع والصناع الذين تسترقهم الأرض وتستعبدهم المادة ، ولا يرون الشرف والعزة إلا في رعى الإبل والتجارة والقتال . فالأخطل يعير بنى النجار بمساحيهم ، وآخر يفاخر غريمه فيقول :

لما الله الأمانا نسبا - وأجدرنا أن ينفخ الكير خاله - يصوغ الشنوف والقروط بيثربا .

والحق أن الشعر الجاهلي مهما يكن قد داخله من تزيف يمثل الجانب الاجتماعي من حياة العرب في الجاهلية تمثيلا رائعا ، ولا يمكن

(٢) القطا : هو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء .

تصور حالة العرب فى ذلك العهد الا على ما وصفت فى أشعار طرفه ومهلل
وأمثالهما .

أما مناظر البادية الطبيعية المتشابهة الشديدة الوطأة ، فيبدو أنها
لم تشرب (٣) العرب من حب الطبيعة مقدار ما بثت فى نفوسهم من
رهبة والحرص على اتقائها ، ولم تلهيهم من أشعار فى وصف محاسنها
قدر ما أوحى اليهم من أشعار فى التأمل فى أحوالها والاستعبار والخشوع .
فلا غرو أن لم تخرج الصحراء شعراء طبيعيين يصفون محاسن المناظر، كتلك
التي تحفل بها الألياذة والأوديسة ، وإنما أخرجت أنبياء وحكماء فى شتى
عصورها .

وتحضر الشعب الانجليزى فى جزيرة تحيط بها البحار ، وتجرى
فيها الأنهار ، وتتخللها البحيرات ، وتتوالى عليها الأمطار والثلوج
والسحاب والضباب ، ويتعاقب فيها الصحو والدجن (الظلام) ، وتنتشر
فى أرجائها الغابات والآجام (٤) ، وتتتابع فيها الربى والقيعان ، فامتلت
لغتهم بأوصاف البحر والغاب، وأسماء ما أسكنوهما من جان، واشتقت منهما
تشبيهاً لهم وأمثالهم ، فاستعير الضباب لحالة الشك والابهام ، والسحاب
للحزن والقلق ، وقالوا فى أمثالهم ان الوقت والمد لا ينتظرون انسانا ،
وحلت السفينة من مخيلتهم ما كان للجمل لدى العرب من منزلة : فبينما
ترى حسان يشبه تراقص الخمر فى انائها بتهاذى الناقة المسرعة فيقول :

بزجاجة رقصت بما فى قعرها رقص القلوص براكب مستعجل

يشبه ملتون « دليلة » وهى شاخصة فى عظم جرمها وتمازى زينتها
وعتادها الى « سمسون الجبار » لاختداعه عن سر قوته بالسفينة
المنشورة الشراع .

وامتلت قلوب الانجليز بحب البحر ، وظهر أثر ذلك فى أدبهم
فى كل العصور : فى روايات شكسبير كالعاصفة وتاجر البندقية ، وفى
تواريخ أمراء البحر الانجليز ككتاب « وستوردهو ! » الذى سماه مؤلفه
كنجزلى باسم البلدة التى أنجبت معظم أولئك البحارين الذين يسمون
بأفذاذ ديفون ، وككتاب سودى عن نلسون ، والروايات الخرافية عن

(٣) تشرب : المشارب : الميل والاهواء .

(٤) الآجام : الأجمة : الشجر الكثير الملتف والجمع آجام .

البحارة الذين لاقوا الأهوال وطوفوا في مسالك البحار ، أمثال روبنسون كروزو ، واسكندر سلكر ، وجليفر ، وأوصاف البحر وقصصه تكون جانبا كبيرا مما يعرف بأدب الأطفال .

ولم يشغف الانجليز بالبحر وحده ، بل بالماء حيث حل من البقاع ، وأيا اتخذ من الأشكال ، فهاموا حبا بالأنهار والبحيرات ، ونال اقليم البحيرات في غرب انجلترا مكانة سامية في قلوب شعراء الانجليزية ، واتخذ شعراء النهضة الرومانسية مسترادا (٥) ومقاما ، وحفلت دواوينهم بأوصافه ومحاسنه ، فحل في انجلترا محل جبال برناس التي كانت ترتادها آلهة الشعر في بلاد اليونان .

وحفل الأدب الانجليزى كذلك بذكر الغاب ووصفه في مختلف أوقات العام ، واتخذ مسرحا لروايتي « كما تشاء » ، و « حلم في منتصف ليلة الصيف » لشكسبير ، وفي الأخيرة تمتزج الحقيقة بالخيال ، وتختلط الاناسى بعرائس الغاب وعفاريته ، وفي تلك العرائس المتخيلة نظمت أشعار كثيرة ، وفي تلك الغابات كان يعيش روبن هود وجماعته ذات الوقائع الممتعة ، وبالجمله بثت طبيعة بلاد الانجليز المتعددة المناظر والحالات ألفة الطبيعة والشغف بها في نفوس الانجليز ، فاحتلت من أدبهم موقعا مكيئا .

ولموقع الجزيرة واحاطة البحار بها اشتغل الانجليز بالتجارة ، ينقلونها بين العالمين القديم والجديد ، وقد مارسوها بحرا على حين مارسها العرب برا ، فدخلت تعبيراتها وأوصافها في أدبهم ، واشتغلوا بالزراعة للملاءمة الاقليم وحفل جانب من أدبهم بوصف سكان القرى والبلدان الريفية ، وحياتهم ومجتمعاتهم ، وكثر ذلك خاصة في العصور الحديثة حين تقدم فن القصص وازداد التفات الأدباء الى الحياة اليومية والطبقات الوسطى والدنيا . ومن خير أمثلة ذلك روايات جين أوستن وتوماس هاردى ، واشتغل الانجليز كذلك بالصناعة الكبيرة لوفرة المعادن في بيئتهم ، فقام نوع من الأدب يدرس مشاكل الصناعة ويصور مجتمع الصناع ، وانصرف بعض الروائيين ، كأرنولد بنيت ، الى وصف حياة الرأسماليين ، وبعضهم ، كتشارلز دكنز ، الى درس أحوال العمال والمناذاة بتحسينها .

(٥) مسترادا : تردد ، أى رجع اليه مرة بعد أخرى

هكذا تآثر كلا الأدبين بالبيئة التي قام فيها ، فاختلغا لذلك مناحي ومواضيع وأشكالا ، بيد أن البيئة التي تقدم ذكرها ان هي الا البيئة المحلية المحض ، وهي على عظيم تأثيرها في المجتمع والأدب قلما تنفرد بالتأثير فيهما ، بل تشاركهما في ذلك بيئة أوسع أطرافا هي البيئة العالمية ، أي العالم كله بما فيه من ظواهر طبيعية وما يسكنه من أقوام ، فتهيئات أن يعيش مجتمع في بيئته المحلية غير متأثر بالعالم الخارجى تأثرا قل أو كثر ، عن طريق التجارة والغارة والرحلة ، وذلك الأثر العالمى يعرض أمام أفراد المجتمع من الظواهر والمشاكل ما كانوا عنه بنجوة (٦) ، ويدخل في لغتهم وأدبهم ما كانوا به جاهلين .

تأثر الشعبان العربى والانجليزى بأحوال العالم الخارجى ، أى بالبيئة الكبرى ، ولكنهما اختلفا في هذه البيئة كما اختلفا في البيئة المحلية ، اذ تأثر كل منهما بما يليه مباشرة من أجزاء تلك البيئة العالمية : وما يلي بلاد العرب هو الأمم الشرقية من فرس وهند وروم شرقيين ومصريين ، ذات الحضارة الشرقية العتيقة والملكيات القديمة ، وما يلي الانجليز هو الأمم الغربية الوارثة لحضارة الاغريق والرومان ذوى التاريخ الحافل بالنظم الحكومية والآراء الحرة فى السياسة والاجتماع ، وبذلك ازدادت صبغتا الأدب تباينا .

تأثر العرب بحضارة الأمم التي كانوا ينقلون تجارتها . ولا سيما الفرس والروم ، وكانت لهم بهؤلاء علاقات سياسية ولاكابرهم الى ملوكهم سفرات ، والى اشتغال قريش بتلك التجارة ومخالطتها تلك الأمم يرجع ذلك الرقى الأدبى والمادى الذى بلغته قبيل الاسلام ، وظهورها على القبائل فى الثروة والجاه والشرف واللغة ، وانجابهها عظماء الرجال الذين على أيديهم توطدت دولة الاسلام ، فكانت مكة قبيل الاسلام فى حال من التمدن وسط بين همجية البداوة ونعومة الحضارة .

ولو استمر تأثر العرب بالبيئة الخارجية طبيعيا محدودا هكذا لازدادوا رقىا وازدادت لغتهم بهاء وأدبهم ازدهارا ، ولكن التوسع الخارجى الذى أعقب نجاح المسلمين الحربى المفاجئ أوقف ذلك التأثير البطيء ، وأحدث انقلابا تاما فى مجرى الأمور ، فلم يعد تأثر الأدب العربى بالعالم الخارجى مقصورا على النقل التدريجى ، بل انتقل الأدب ذاته جملة من وطنه الأصل وهجر بيئته الأولى الى بيئة أو بيئات جديدة فى الشمام

(٦) : بنجوة : برى . سالم .

والعراق ومصر والأندلس وغيرها ، والأدب العربي في انتقاله هذا ومهاجرته هذه من وطن الى وطن نسيج وحده بين آداب الامم .

وجد الأدب العربي نفسه في بيئة جديدة ، في اراض مزروعه مثمرة ، وأمم متلفة مستقرة ، وبلدان عامرة متحضرة ، ذات علوم وصناعات ، فتأثر بهذه البيئة الجديدة في ثلاث النواحي سالفه اذكر : في مفردات اللغة وتعبيراتها التي ازدادت بالنقل والتعريب ، وفي المهن ومظاهر العمران ، وفي وصف مناظر الطبيعة الجديدة ، فنر في الأدب ذكر الرياض والأزهار .

على أن تأثر الأدب في الناحيتين الأولى والثالثة كان قليلا نسبيا لفنى اللغة في الاشتقاق الذي أغناها عن الامعان في التعريب ، ومحافظة العرب التي نفرتهم من استعمال ألفاظ اللغات الأخرى وأخيلتها الا ما جاء عفوا أو ضرورة ، وحرصهم على احتذاء أسلافهم حتى ظلوا يقلدونهم في وصف البيد والخيام والنوى (٧) والعيس (٨) ، وهم يعيشون بين الأرياف والعواصم ، فقامت هذه التقليدات للمتقدمين في الأدب العربي كالتحجرات في عالم الجيولوجيا : قد فقدت كل حياة ولم تعد الا رموزا للماضي .

ولم يشغف العرب شغفا حارا بمظاهر الطبيعة التي صادفوها في بيئتهم الجديدة ، وكان نفرتهم القديمة من قسر الطبيعة لم تفارق نفوسهم ، وكان كل ما كانوا يطمحون اليه بعد أن طووا الأميال ضربا في فلولات الجزيرة وهواجرها (٩) ، ظل ظليل وماء سلسبيل وهواء بليل ، تريح الجسوم وترويه وترفه عنها بعد طول الكد ، ففص أدبهم الطبيعي بذكر راحة الجسم ولذات الحواس ، دون طويل تأمل في محاسن الطبيعة واجتلاء أسرارها وتقص للذكريات والآمال عندها ، وأجمع الأمثلة لذلك قول الشاعرة الأندلسية :

وقانا لفحة الرمضاء واد	سقاء مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا	ألسن من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم

(٧) النوى : مجرى يحفر حول الخيمة أو الخباء يقيهما من العسل .

(٨) العيس : كرام الابل .

(٩) هواجرها : الهاجرة : نصف النهار عند اشتداد الحر والجمع (هواجر) .

انما كان أشد تأثر الأدب العربى فى بيئته الجديدة بالناحية الثانية، ناحية العمران ، ناحية الحياة المستقرة فى البلدان ، المعتمدة على الزراعة والصناعة ، الخاضعة للملكية ، وهى عكس حياتهم فى البادية تماما ، فانغمروا الأدباء فى جو المدن ، واعتزلوا الطبيعة وتكأثروا على بيوت الأمراء ، وتزاحموا على مجالس الطرب والشراب ، واستفروا جهدهم فى انتهاب فرص الحياة من جاه ومال ورفاهية ولهو ، وتأثر الأدب بذلك : فلم يعد ينغنى بالنجدة والبأس والقناعة ، بل طاب له الاستغلال بسلطان الحاكمين، يترنم بمدحهم بعد أن كان أمثال عمرو بن كلثوم يشورون على نيرهم (١٠) ، وتفنن فى وصف مظاهر التحضر وضروب الترف واللهو فى المدن .

أما الأدب الانجليزى ، فتأثر بالبيئة العالمية فى النواحي الثلاث .- نواحي مبنى اللغة ومظاهر العمران ومناظر الطبيعة - تأثرا كبيرا : فاللغة الانجليزية تدين للغات الأجنبية ولا سيما اللاتينية بأكثر مفرداتها وطرق اشتقاقها وكثير من تعابيرها ومجازاتها ، والمجتمع الانجليزى تأثر بالمجتمع الايطالى فى عصر الاحياء ، والمجتمع الفرنسى فى عصر لويس الرابع عشر ، ولم يخل فى عصر من التأثير بحالة العمران فى أوروبا ، اذ كانت الحضارة الأوروبية الحديثة مشتركة بين شتى الأمم ، وباطلاع الانجليز على أوصاف الطبيعة فى الآداب الكلاسيكية ازدادوا شغفا بمفاتيح بلادهم ، وزادوا فوصفوا محاسن الطبيعة فى ايطاليا وبلاد اليونان وغيرهما .

تأثر الأدب الانجليزى بالبيئة العالمية فى شتى النواحي ، ولكنه لاستقراره فى وطنه الأول وبيئته المحلية جاء تأثيره بالأولى بطيئا محدودا لم يطغ على خواصه المحلية ، بل ظلت للبيئة المحلية المكانة الأولى والآثار الواضحة فى الأدب ، ولم يزد الأثر الخارجى على أن أضاف الى العناصر المحلية ما يناسبها من العناصر الأجنبية ، وكلما احتجن (١١) الأدب جانبا من تلك العناصر مثلها ومزجها بنفسه وصبغها بصبغته الخاصة .

فالأدبان العربى والانجليزى قد نشأ فى بيئتين طبيعيتين مختلفتين وترعرعا فى مجتمعين متباينين ، وتأثرا بعوامل عالمية مختلفة ، وهاجر

(١٠) نيرهم : النير هو الخشبة المعترضة فوق عنق الثور وتستعار الكلمة للدلالة على الظلم .

(١١) اخنجن : اخنن نفسه به .

أحدهما من بيئته الأولى الى بيئة جديدة بينما ظل الآخر في وطنه الأول ،
فلا غرو أن يختلف الأدبان في الصبغة والمناحي والأوضاع والأغراض
والأخيلة ، اختلافا يروع الناظر فيهما فيخيل اليه أن ليس هناك تشابه
بينهما قط ، ولا وجه للموازنة والمقابلة ، ويكاد يخفى ما فيهما من تعبير
مشترك عن شتى النوازع النفسية والظواهر الاجتماعية ، التي تنفق فيها
الطبائع الانسانية ، في شتى المجتمعات ، ومختلف البيئات .

النقد

فى الأدبين العربى والانجليزى

ليس النقد الا ميلا طبيعيا فى الانسان الى الحكم على ما يجهل وما يرى ، واختيار الأحسن من ذلك . ونشاط النقد دليل على نشاط الفكر ، وهو مصاحب لارتقاء الأدب وانتشار الثقافة فى كل أمة ، بل هو ضرورى لتقدم الأدب : يقفه على مواضع احسانه ويظهره على مواقع تقصيره ، ويجلو أمامه غاياته وطرائفه ، ويستحثه على دوام الترقى والتزيد . فالأدب صدى الحياة ، والنقد صدى لذلك الصدى ، يظهر للأدباء والمتأدبين مدى نجاح الأدب فى تأدية رسالة الحياة وموقع أعمالهم فى النفوس .

فالنقاد النزيه خير صديق للأديب : يضع اصبعه على عيوبه فيتلافها ، ويستحسن اجادته فيزيده ثقة بنفسه واقبالا على ممارسة أدبه . ولعل أروع أمثلة ذلك ما كان من ملازمة كولردج لوردزورث : فقد وجد الأخير فى صاحبه - حين اعراض الجمهور عنه وغمط الجميع حقه - خير عارف بقدره معجب بأدبه ، وكان لاعتجاب كولردج وتشجيعه أبعد المدى فى أدب وردزورث ، وكان الشعر الذى كتبه فى عهد صداقتهما خير ما كتبه على الاطلاق .

بيد أن الأحقاد الشخصية سريعة الى نفوس الأدباء والنقاد ، والأهواء السياسية والمذهبية كثيرة الوغول على الأدب والنقد . وقد شهد الأدبان العربى والانجليزى ما لا يحصى من أمثلة النقد المغرض ، وقاسى الأدباء حملات الخصوم الشخصيين أو السياسيين باسم الفن والنقد . ومن أمثلة ذلك فى العربية حملة الصاحب على المتنبى واشلاؤه (١) عليه أذنايه (٢) . وفى الانجليزية عانى أعلام الأدب أمثال وردزورث وتنيسون وكيثس حملات الرجعيين والحاسدين ، وبلغ الكمد من الأخير حين هاجمه بعض ناقديه فأقذع أن مات محتضرا فى عنفوانه .

(١) أشلاؤه : الشلو العضو والجمع أشلاء .
(٢) أذنايه : ذنب أى تابع والجمع أذئاب .

وقد كتب الكتاب فى العربية والانجليزية وغيرهما من اللغات فى النقد كثيرا ، وحاول كل من عالجه أن يستخلص من شتى الشواهد المنتزعة من آثار فحول الأدب قواعد عامة للأدب توضح غثه من سمينه وتعين القارىء والناقد على استحصان الحسن واستهجان الهجين مما يكتب الكاتبون ، ولكن النقد لم يتفقوا بعد جهودهم تلك على شىء ذى بال ، بل ناقض بعضهم بعضا ، واستجاد هذا ما استرذله ذاك ، وظل المرجع الأول فى نقد الأثر الأدبى الى ذوق الناقد وتكوينه الفكرى ، وظل كل أثر أدبى من شعر أو نثر يحمل فى طياته المبادئ التى يجب أن ينقد على حسبها ، بل رأى وردزورث - وأصاب - أن الناقد الذى يقبل على نقد أثر أدبى ، وقد كون لنفسه مبادئ ثابتة غير أهل للحكم على ذلك الأثر أو غيره .

وللنقد صور شتى : فالأديب هو أول ناقد لأدبه ، وانشاء الأثر الأدبى عملية مكونة من الخلق والنقد معا ، ومن الأدباء من يعرض ما ينشئ على رفاقه ، ويستمع الى ملاحظاتهم عليه ، وكان ذلك معروفا بين العرب قبل أن تضيع الكتابة ، كما كانوا يعرضون أشعارهم على النقاد فى الأسواق الأدبية ، ولتمكن الملكة البيانية من العرب كان كثير من أمرائهم نقادة حفصاء (جامعين) للأدب . ويروى لعبد الملك والحجاج وسيف الدولة مع مداحهم : كثير وليلى الأخيلىة والمتنبى نوادر فى ذلك ، فكثيرا ما كان الأمير أبصر بالأدب ونقده من مادحه ، فلما ذاعت الكتابة وانتشرت الثقافة ظهرت كتب النقد .

وكتب النقد أنواع : فمنها ما يدرس مبادئ الأدب وغاياته ووسائله ويدخل فى هذا الباب كتب البيان والبلاغة والعروض والقافية ، وهى كل ما يمكن أن يتفق عليه النقاد من مسائل النقد . ويشترك الأدبان العربى والانجليزى فى وفرة هذا الضرب من كتب النقد الأدبى فيهما ، ومن كتب النقد ما يدرس أديبا واحدا أو جملة أدباء على منهج خاص من الدراسة ، كالكتب الكثيرة المؤلفة فى دراسة شكسبير وملتون ووردزورث وتينيسون وهاردى ، ومنها ما يدرس نوعا خاصا من الأدب كالقصة أو الشعر الغنائى ، ومن ذلك كتاب أبركرومبى عن الملحمة ، ومنها ما يدرس عصرا يوضح عوامل الأدب ومظاهره فيه وآثار فحوله ، كالعصر الاليزابيثى والعصر الفيكتورى ، ومنها ما يدرس من عصور أدب اللغة جملة ، وتلك هى كتب تاريخ الأدب ، وليست فى صميمها الا نقدا ، وهى حديثة العهد .

وكل هذه الأنواع نادرة فى الأدب العربى وبعضها لا يوجد به ، وإنما الضرب السائد فيه هو ذاك الذى توخاه مؤلفو البيان والتبيين

والكامل ویتیمه الدهر : من تناول الأدباء بغير نظام وسرد بعض آثارهم والتعليق المقتضب عليها ، وتلك هي كتب الأدب التي لم يكن الغرض منها درس أولئك الأدباء والاماطة عن جوانب نفسياتهم وأسرار نبوغهم . بل كان الغرض منها اقتطاف أطيب آثار المتقدمين وتقديمها للمتأدبين السالكين سبيل الأدب الطالبين أسرار بلاغة العرب ، فلم تكن الغاية درس الأديب المتقدم ، بل اخراج الأديب المقبل .

وقد استفاد النقد في الانجليزية كثيرا بتقدم العلوم الحديثة حتى فاق النقد العربي في نواح شتى : فتقدم علم التاريخ علم النقد أن يهتموا بحالة العصر الذي يدرسون من حيث السياسة والاقتصاد والمذاهب السائدة ، وتقدم علوم الاجتماع علمهم أن يهتموا بالبيئة التي نشأ فيها الأديب الذي يدرسون والصفات التي ورثها عن أسرته ، ومزاجه النفسي وتكوينه الجسمي ، وأثر كل ذلك في أدبه ، فجاء النقد الانجليزي الحديث واضح المناهج بين الأسباب والنتائج ، وأبرز للعصور والأعلام صوراً جلية وشخصيات متميزة .

أما نقاد العرب فكانوا أكثر اهتماماً بدراسة فنون الأدب وأساليب الصناعة منهم بدراسة الأشخاص والعصور ، وقد أسهبوا في دراسة الفنون التي فشلت في أدبهم واستأثرت بمعظم نشرهم وشعرهم : كرسائل الأمراء والنسيب الاستهلاكي والمدح والهجاء والرثاء ، وهي المناحي التي لم تظفر من أدباء الانجليزية ونقادها بالتفات ، فقسم قدامة بن جعفر مثلاً الممدوحين إلى ضروب : فملوك ووزراء وكتاب وقواد وسوقة ، وحصر صفات المدح في أربع : الشجاعة والعدل والعقل والعفة ، يجمعها قول زهير :

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله
فمن مثل حصن في الحروب ومثله لانكار ضميم أو لخصم يجاداه

والناظر في كتب النقد في الأدبين العربي والانجليزي يرى — عدا ما تقدم — فروقا واضحة بين نقدي الأمتين كالفروق التي يرى بين أدبيهما ، بل يرى مواضع الاختلاف واحدة في الحاليتين ، ولا غرو فالنقد كما تقدم صدى الأدب ، بل ان النقد والأدب يتجاوبان فيما بينهما صدى مستمر طوال العصور ، والخصائص التي تغلب على أحدهما لابد أن تغلب على الآخر ، ومن ثم نجد بين النقد في العربية والنقد في الانجليزية ما نجد بين أدبي اللغتين من فروق في نواحي المحافظة والتجديد ، والتأثر بالآثر الأجنبي ، والمعنى واللفظ ، والفنون وهلم جرا .

فنزعة المحافظة هي الغالبة على نقاد العربية ، وقل منهم من دعا الى تجديد صحيح ، وذلك ابن الأثير مثلا يزعم أنه مجدد فاق الأوائل ثم يأتي بأمثلة من تجديده فاذا هي محافظة مغرقة وتقليد مفرط ، وأغلب نقاد العربية يقدسون المتقدمين دون تأمل ، ولا يرون عن مناهجهم حولا ويضعونهم فوق متناول النقد . وذلك أبو على الحاتمي يحسبه أتى بجديد حين مثل القصيدة بالانسان في تناسب خلقه ، فلا ينشب أن يقول : « وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بسديحها ، كالرسالة البليغة » ، فهو لا يتصور القصيدة الا نسيبا ومديحا كما فعل الأوائل .

وتتجلى نزعة المحافظة فى النقد العربى فى أمرين : غرضه ، وممارسيه ، وهما أمران متصلان أحدهما بالآخر ، فقد كان غرض كتب الأدب والنقد فى العربية كما تقدم وقف الناشئ المتأدب على بلاغة المتقدمين ، وتفهمه أسرار اعجاز القرآن ، لينحو منحى أولئك المتقدمين ويضرب على وتيرتهم ، فكان غرض النقد الأول تعليم المتأخرين كيف يقلدون الأولين .

ولم يمارس النقد فحول الكتاب والشعراء ، ولم يؤثر عن فحول العربية مما يدرج تحت عنوان النقد الا شذرات مقتضبة بعيدة عن التنظيم ، كوصية عبد الحميد لمعشر الكتاب ونصيحة أبى تمام للبحثرى ، وربما ثار بعض الشعراء بما درج عليه زملاؤهم من تقاليد ، كثورة أبى نواس بالوقوف على الديار فى مثل قوله :

لا جف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو الى وتد

وتمرد المتنبي على النسيب الاستهلالى فى قوله :

إذا كان شعر فالنسيب المقدم أكل أديب قال شعرا متيم ؟

ولكنها كانت خطرات عابرة لم تكون مذهبا ولم تغير سنة ، بل لم يتبعها قائلوها أنفسهم وجاروا التقاليد الجارفة فيما نظموه ، وانما مارس النقد فى العربية المقلون فى النثر والشعر كالجرجاني وأبى هلال العسكري ، أو من لم يؤثر عنهم شيء ، وهكذا كان الأدباء فريقا والنقاد فريقا آخر .

أما فى الانجليزية فاختلط الفريقان ، وكان أفذاذ الأدب عادة هم أفذاذ النقد أيضا ، وكان زعيم كل نهضة أدبية هو أيضا زعيم النقد فيها :

فكل من بن جونسون ودریدن وبوب وصمويل جونسون ووردزورث وكولردج وديكونسي وماكولى وماثيو أرنولد ورسكن ، كان كاتباً أو شاعراً كما كان ناقدًا ، وذلك لعمر الحق دليل حيوية الأدب وروح التجديد فيه : فلن يكون الأديب أديباً حتى يكون له رأى فى الأدب والحياة ينضج عنه فى كتاباته النقدية ، كما يصدر عنه فى آثاره الأدبية ، وكل من دریدن وبوب ووردزورث قد استجد مدرسة فى الأدب لا بأشعاره فقط ، بل بنظرياته فى النقد . فبينما كان غرض النقد فى العربية المحافظة على مناهج المتقدمين ، كان فى الانجليزية ابتداء حركات جديدة .

ولا ريب فى أن الأدباء الذين يمارسون النظم والنثر هم أدرى الناس بنقدهما ، لأنه لا يعرف الشوق الا من يكابده ، والأديب الذى يعلن للناس نظرياته النقدية مشفوعة بآثاره الأدبية أمثلة مؤيدة لتلك النظريات ، كما فعل وردزورث فى أغانيه الشعبية ومقدمته النثرية لها ، أخرى أن يتبع من الناقد الذى لا يمارس الأدب ، وانما يملى على الأدباء آراءه وهو بنجوة عن محيطهم ، فمن أعجب ظواهر الأدب العربى تنحى فحوله عن مضمار النقد ، وتركهم مجاله لعباد القديم ومقدسى السلف .

ولتقديس النقاد للقديم وقفوا موقفا متناقضا : فكانوا ينكرون على الأديب أن يحيد عن مناهج القدماء ، ثم ينكرون عليه أن يتداول معانيهم التى سبقوه اليها ، وصرفوا جانبا عظيما من اهتمامهم الى تتبع سرقات الشعراء ، فكتاب «الوساطة» للجرجاني أغلبه جهد ضائع فى تقصى المعانى الى مواطنها الأولى من أشعار الأجيال السالفة ، وتمزيق القصائد بيتا بيتا ، والحكم على الشعراء بالاختلاس لأوهى الشبهات اللفظية .

وكان نقاد العربية أكثر التفاتا الى الألفاظ منهم الى المعانى ، وعد أكثرهم احكام اللفظ ميزة الأديب الفحل ، وعدوا المعانى مشاعا بين الجميع ، قال أبو هلال العسكري : « وليس الشأن فى ايراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ، وانما هو فى جودة اللفظ وصفائه » ، وقال ابن الأثير : « ولقد رأيت كثيرا من الجهال الذين هم من السوق أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم الا من يقح له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوج بين لفظتين ، فالعبارة عن المعانى هى التى تخلب بها العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى » .

ولهذا صرف أكثر النقاد همهم الى خصائص الألفاظ وضروب الأساليب ، وأسهبوا القول فيما سموه علم البديع ، واستقصوا أقسام

الجناس والطباق والسجع ، وطرق تضمين الآيات وحل الأشعار ، ووجود علم البديع فى العربية دون الانجليزية برهان ناطق على شديد اهتمام نقاد العرب باللفظ ، وكان للنقاد والأدباء معا ايمان وطيد بمقدرة اللغة على أداء أى معنى ، وثقة لا تتزعزع فى تفوق اللغة العربية فى الفصاحة على غيرها من اللغات ، وكانوا يرون ذلك ميزة العرب على غيرهم من الأمم التى بذت لهم فى شتى العلوم .

أما موقف جمهور الأدباء الانجليز من اللغة فكان غير هذا : فهم وان لم يغفلوا أهمية الصياغة اللفظية وضرورة تمكن الأديب من اللغة ووقوفه على أسرارها ، ظلوا يعدون اللغة وسيلة لا غاية ، وسيلة للتعبير عن خوالج النفس ، بل عدها كثير منهم وسيلة ناقصة عاجزة عن التأدية الى تلك الغاية ، يجب على الأديب أن يستتفرغ جهده لجعلها تؤدي غرضه ، فلم يهتم أدباء الانجليزية ونقادها برنين الألفاظ الأجوف وزخرفها المموء ، بل استعانوا بمعانيها المصطلح عليها ، وجرس حروفها ودقة اختيارها والملاءمة بينها ، واشتقاقها وخلقها حيث لا توجد لتأدية الحالة النفسية المتخيلة على ما يجب ، وتصوير الجو العاطفى أو المنظر المرئى : من رهبة أو جذل أو سكون أو سرعة ، ويفاضل النقاد الانجليز بين الأدباء حسب مقدرتهم على استخدام اللغة هذا الاستخدام وتطويرها لأغراضهم على هذا النحو ، لا حسب حظوظهم من المحسنات البديعة ، ويقولون ان الفرق بين لغة العلم ولغة الأدب أن الأولى تعتمد على المعنى المجرد للفظ ، والثانية على ما توحيه الألفاظ من أجواء معنوية .

ولما كان ايمان العرب بتفوقهم البيانى كما تقدم ، لم يهتموا بالآداب الأجنبية أو النقد الأجنبى كثيرا ، فهم واضعو علوم البلاغة فى لغتهم ، وهم نهجوا بكتب الأدب والنقد نهجهم الخاص بهم ، وجددهم فى هذا السبيل جسيم جليل ، أما الانجليز فجعلوا النقد الأدبى الأجنبى دائما نصب أعينهم ، قديما كان أو حديثا ، فمما كتبه أرسطو ومما نظمه هوراس فى النقد نشأ النقد الأدبى فى الانجليزية ، وغذى بعد ذلك بكتابات دانتى وبوالو ولسنج وجيته وسنت بيف وتين ، فالناقد الانجليزى يستعرض آراء هؤلاء أثناء استعراض آراء مواطنيه بلا تفريق .

ولا ريب فى أن اشتغال النقد الانجليزى على آراء أمثال أولئك ربح للأدب لا يقدر : فاطلاع الأدباء والنقاد على خير ما تنتجه القرائح فى العالم أجمع يوسع آفاق تفكيرهم ويفسح حدود أدبهم ، ويربأ بالأدب أن تثقله القيود وتفسده التقاليد ، ومن ثم قال ماثيو أرنولد بضرورة اتقان الناقد

فى أدب ما أدبا أجنبيا واحدا على الأقل ، تزداد فائدته له كلما ازداد التباين بينه وبين أدب الناقد الأصلي .

فأكثر النقاد الانجليز كانوا كما تقدم من أعلام النظم والنشر ، وكانوا مطلعين على الآداب الأجنبية ، وما كتب فيها فى النقد ثم هم كانوا - ولا سيما متأخروهم - مهتمين بالفنون الأخرى بجانب الأدب ، واقفين على ما كتب فى نقدها ، بل كان منهم من جمع بين نقدها والنقد الأدبى : فدریدن واضح أساس النشر الانجليزى الحديث كتب رسالته فى « الموازنة بين الشعر والتصوير » وكذلك جمع لام وثكرى ورسكن بين نقد الأدب ونقد التصوير أو النحت، ولا ريب فى أن تفقه الناقد فى تلك الفنون أكبر معوان له على حسن النظر فى الأدب وصدق النقد له ، لتشابه الفنون فى وسائلها وغاياتها .

فالناقد الانجليزى كان أكثر أهلية للنقد وقدرة على النجاح فيه : لأنه كان يمارس الأدب بنفسه نظما ونثرا فهو أدرى بدخائله ولأنه مطلع على الأدب الأجنبى والنقد الأجنبى ، ، فهو أدرى بمحاسن أدبه ومثالبه (١)، ولأنه متبصر فى الفنون فهو أعلم بمناحي فنه الخاص - الأدب - ومن ثم حفل الأدب الانجليزى بالدراسات القوية لعصور الأدب وفحوله وفنونه ، وجاء تاريخه أوضح منهاجا وأبين معالم من تاريخ الأدب العربى .

(١) مثالبه : المثلية أى العيب ، والجمع مثالب .

أنس نظام الحكم

فى الأدين العربى والانجليزى

تمر الأمم فى استقرارها وتحضرها بثلاثة أطوار عامة من أنظمة الحكم : فى الطور الأول تكون أزمة الأمور بأيدي رؤساء القبائل الرحالة أو القريية العهد بالاستقرار ، وهو ضرب من الحكم أرسقراطى ، وفى الطور الثانى تتجمع مقاليد الحكم فى يد حاكم فرد يوحد أجزاء مملكة ذات مساحة يعتد بها وتخوم طبيعية ، وهو نظام الملكية ، وفى الطور الثالث يعود تصريف شئون الدولة فى أيدي جميع أبنائها القادرين ، وهو النظام الديمقراطى الذى هو أصلح الأنظمة جميعا ، اذ هو أدناها الى العدل والمساواة وأجدرها أن يفسح المجال للمواهب الفردية ويمهد الطريق لرقى الأمة .

ومن الشعوب البدائية ما لا تتجاوز الطور الأول ، ومن الأمم ما تقف عند الثانى كجميع دول الشرق القديم ، ومنها ما تصل الى الثالث كبعض مدن اليونان وروما ، وقد تعود دولة بعد بلوغ الطور الثالث فترتد الى الثانى ، لنكسة فى أحوالها تحرمها التمتع بمزايا الحكم الديمقراطى وتجعل الحكم الفردى ضربة لازب (أمرا واقعا) ، ومثال ذلك روما حين اتسع سلطانها وأفسد الثرف أخلاق أبنائها ، فعجز السناتو عن تصريف شئونها ووقع حكمها فى قبضة الدكتاتورين والأباطرة .

وقد عرف العرب الطور الثانى من أطوار الحكومة فى جاهليتهم فى أطراف الجزيرة ، حيث ساعد خصب الأرض واستوائها على توحيد دولة متسعة وتوطد ملكية قوية ، أما فى سائر الجزيرة فظل الطور الأول ، طور الحكم الأرسقراطى ، سائدا ، وبلغ بين بعض قبائلها ولا سيما فى الحجاز مستوى عاليا من الاحكام ، وكانت لأشراف العرب دراية عملية فائقة بقواعد الحكم والاجتماع . تتمثل فى قول الأفوه الأودى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل رأى ما صلحت
فان تولت فبالأشرار تنقاد

وهو تلخيص شعري رائع لنظريات أرسطو في السياسة . وقد لُمى هذا النظام في نفوس العرب نزعات الحرية والحمية والشجاعة التي أدت الى دوام الخصام بينهم ، وأورثتهم الفخر بالعصبية والتمدح بالنسب ، وأثر كل ذلك بين في أشعار ذلك العهد التي أغلبها تكرار مستمر للمفاخر والمآثر القبلية ، وتمدح بالعز والمنعة ، فالى ذلك صرف شعراؤهم قولهم ، ولم ينصرف الشعراء الى مدح الملوك وتعداد مآثرهم دون مآثر القبيلة أو الأمة الا حيث قامت ممالك الغساسنة والمناذرة والتبابعة ، فكانت من ذلك مدائح حسان والنابغة والأعشى .

فلما جاء الاسلام خرج العرب دفعة واحدة من الطور الاول من أطوار أنظمة الحكم طور الأرستقراطية ، الى طور الملكية الذي توطدت بينهم قواعده وظلوا في حدوده لا يتعدونه الى الطور الثالث طور الديمقراطية ، ويرجع تمكن الملكية بين العرب بعد تعودهم التشاور في الأمور ورغم حض الاسلام على ذلك التشاور ، الى عوامل خطيرة أولها مكانة النبي عليه السلام: اذ كان أول حاكم فرد للجزيرة ، وكان له من جلال النبوة وعظمة الشخصية والقدرة الخارقة ما عود العرب الامتثال لأمير مطاع ، وزادهم انقيادا لهذا الضرب من الحكومة اقتفاء العمرين أثره في عدل الحكم ونجاحهما في الخارج والداخل ، وحرص المسلمين على وحدة الكلمة والدين ما يزال يجاهد أعداءه ، ومن تلك العوامل أيضا اتساع أطراف الدولة العربية السريع ، حتى عادت ادارتها متعذرة الا بيد حاكم فرد مطاع ، ومنها قيام الدولة على أنقاض ملكيات عديدة ما لبثت تقاليدها أن سرت في كيان الدولة الجديدة ، ومنها الصفة الدينية التي ظل يتخذها الحاكمون .

لذلك هجر العرب تدريجيا تقاليد التشاور وتوطد لديهم نظام الملكية المطلقة ، فكان منذ قيام دولتهم النظام الوحيد الذي عرفوه ، أو فكروا فيه ، فلم يقيم من مفكريهم من نادى بنظام مخالف له ، أو دعا الى ضرب من الديمقراطية ، بل كانت الملكية لديهم هي النظام الطبيعي الذي لا نظام غيره ، وظل لسان حالهم قول المتنبي : « وانما الناس بالملوك » ، وانما كان أحرارهم يفرضون في الملك العدل والاصلاح واتباع أحكام الدين والا وجب خلعه . وعلى هذا الأساس كان خلع عثمان والوليد بن يزيد ، وامثلاً لتاريخ العرب بالشورات ، ولكنها لم تكن - فيما عدا ثورة الخوارج

الذين تمسكوا وحدهم بتقاليد الجاهلية وديمقراطية الاسلام - تمردا على نظام الملكية المطلقة ، بل كانت ثورة مظلوم على ظالم ، أو وثبة فرد بفرد ، أو فتكة أسرة بأسرة ، وفي ظل هذا النظام الملكى المطلق بلغ الأدب العربى غاية رقيه .

أما فى انجلترا ، فساعدت الظروف المحلية الجغرافية والتاريخية على خروج الشعب من الطور الثانى الى الطور الثالث من أنظمة الحكم ، فان عزلة الجزيرة أبعدها عن غمار الحروب التى تتخذها الملكية ذريعة لتقوية سلطانها ، وفرض الضرائب ، وجمع جيش قائم يخمد كل تمرد على مظلماها فى الداخل ويشيد فى الخارج امبراطورية لا يتساقط حكمها لغير الملكية ، فلم يتجه الشعب الانجليزى الى التوسع الخارجى ، ولم يبن امبراطورية الا بعد أن وطد أساس حقوقه وحرياته ، وبنى تلك الامبراطورية تدريجا ، فلم يستهدف لتضخم فجائى يوقع حكومته فى يد دكتاتور ، وبذلك ظل الشعب غنيا عن خدمات الملكية فى الخارج قادرا على كبح جماحها فى الداخل لقوته وضعفها ، فأحرز عليها النصر الحربى فى كل ثورة ثارها فى وجهها ، بينما كان نصيب الثورات الشعبية فى الدولة العربية السحق العاجل .

ترعرع الأدب الانجليزى وقد ثبت النظام الدستورى فى انجلترا بجانب نظام الملكية ، وشهد الأدب تضامنها أحيانا كما فى عصر شكسبير ، وصراعهما أحيانا كما فى عصر ملتون ، وكان رجال الأدب عادة فى جانب الحرية والديمقراطية يجاهرون المستبدين العداء ، وقد عميت عينا ملتون فى دفاعه بقلمه عن الجمهورية فى ظل كرومويل ، ولم يصلح ما بين الملوك والأدباء الا بعدم انتصار الديمقراطية على الملكية ، وصيرورة الملكية جزءا من النظام الدستورى ، وشارة من شاراته ، وفى ظلال هذه الديمقراطية بلغ الأدب الانجليزى مبالغ عظمته .

فهذا فرق ما بين الأدبين فى هذا الصدد : أن أحدهما بلغ أوجه فى ظل النظام الملكى ، والثانى جرى الى مداه فى حمى النظام الدستورى ، ومن ثم نجد الأدب الانجليزى أعظم حرية فى النزعة وأصدق فى التعبير ، وأغنى بالمواضيع ، وأكثر تنوعا فى الأشكال ، لأن الملكية ليست بخير النظم التى يترعرع فى ظلها الفن الصحيح ، لأنها شديدة الأثرة والغيرة ، لا ترضى من ضروب النشاط الا بما يتوفر على خدمتها ، ولا تسمح للحق والفن بالذیوع اذا كان فى ذیوعهما تحد لسلطتها . أما النظام الدستورى فيفسح المجال للمواهب بلا عائق ، ويطلق العنان للحقيقة بلا كبح .

فمن شأن الملكية المطلقة أن تحمد الرأي العام في بلادها ، لأنها « هي الدولة » والرأي لها ، لا يكاد ينطق ناطق أو يعمل عامل الا بما ترضاه ، ومن ثم كفت الشعب عن ممارسة شئون الحكم ، وكفت الأدباء عن نقد أحوال المجتمع ، فعاش أدباء العربية بنجوة عن ذلك المجتمع لا يكادون يشعرون بشعوره أو يعبرون عن خوالجه أو يصفون أحواله ، ومن ثم لم تظهر في الأدب العربي القصة التي تدرس المجتمع وتحلل دوائل النفس ، وجاء شعر الشعراء ونثر الكتاب أكثره نظريا لا اتصال بينه وبين حقائق المجتمع والحياة اليومية . أما في انجلترا فان توطد أركان الديمقراطية صاحبه ظهور القصة الاجتماعية وتعاطف مكانتها حتى طغت على أشكال الأدب الأخرى .

وفي ظل الملكيات المطلقة ذوى ضرب آخر من ضروب الأدب ، هو الخطابة التي لا تزدهر الا حيث الديمقراطية والمشاورة وحرية الرأي ، فنراها بعد أن بلغت أوجها قبيل الاسلام وفي صدره تخمل تدريجا تحت الملكية التي تستأثر بالرأي والفعل ، وتبطل كل رأى آخر وكل فعل ، على حين ظلت للخطابة في الانجليزية منزلتها ، وأنجب البرلمان الانجليزى في عهوده القريبة خطباء مصاقع ، أمثال والبول وفوكس وبنت وبرايث وجلادستون .

وفي نظير ابتعاد الأدباء عن نقد المجتمع والخوض في شئون الحكم ، ترك لهم الملوك عنان العبث مرسلا ، يقارفون ضروب المجون في منتدياتهم ، ويدونون صنوف الهجر في آثارهم ، ويتبادلون فاحش القول في أشعارهم ، فامتلا الأدب بذلك السقاط حتى ظن المتأخرون الذين شبوا على دراسته أن الرقاعة والخلاعة من صفات الأديب ، وحتى ترفع ذوو الحسب عن معاطاة الأدب .

ولم يكتف الملوك بكف الأدب عن نقد أعمالهم بل اتخذوا رجاله أبواقا للتمدح بآثارهم ما صح منها وما بطل ، فكما اتخذوا من مرتزقة الجند أنصارا لهم على اخضاع الرعية ، اتخذوا من مرتزقة الشعراء أعوانا على تضليلها ، وقد هبط هذا الارتزاق بالأدب عن مكانته السامية درجات ، وحسبك أن يهبط الشاعر من قمة الفن والشعور والصدق الى وهدة الشحاذة والتمليق والكذب ، وهذه خلال تنزه عنها الأدب الانجليزى في أغلب عهوده ، لأن الشعب لم يمكن الملكية من ابتزاز ثمار اجتهاده وكده لتبعثرها في مظاهر الأبهة الجوفاء ، وتنتشرها على المرتزقة من الجند والشعراء .

وفى سبيل استرضاء الحكام واستدراار صلاتهم لم يحجم كثير من الشعراء عن امتهان الفن من جهة ، فأذالوا الشعر وملأوه بالأكاذيب ، وعن امتهان الخلق الكريم من جهة ، فمدحوا الظالم والقاتل ما دام فى دست الحكم ، وتقربوا اليه بدم أحفاد الرسول ، وتملقوه بهجاء من فتك بهم من قواد ووزراء ، وهجا البحتري الخلفاء المخلوعين ومدح من استعادوا العرش على التوالى ، ومدح بشار العلوى الخارج على المنصور ، فلما علم باندحاره حول القصصيدة ومدح بها المنصور . وتحاسد الشعراء وتهاجوا لتنافسهم على جوائز الأمراء ، على حين نرى فى الانجليزية أن شلى لما بلغه امتداح سوذى لملك انجلترا فى ذلك العهد امتداحا متملقا ، كتب اليه يوسعه توبيخا ويجاهره بالقطيعة .

واذا ندرت فى الأدب العربى آثار انتصار الأدباء للشعب وماناصبتهم لنملوك دفاعا عنه ، فلم تندر فيه أخبار الخارجين على الحكام طلبا للملك والمجد الشخصى كحكاية تميم بن جميل الذى أنشد بين يدي المعتصم تائيته البديعة التى مطلعها :

يعز على الأوس بن تغلب موقف يسلى على السيف فيه وأسكت

ولم تندر أخبار الأدباء الطامحين الى الملك كالمتمنى الذى خرج فى هيباه وظل يتوق الى الخروج طول حياته ، والشريف الرضى الذى باح بدخيلة نفسه فأسقط عليه الخليفة ، بقصيدته التى أولها :

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف حمى

وما كان مثل ذلك ليكون فى الأدب الانجليزى : فالأدباء الانجليز كانوا أشد حبا للأدب واعتدادا بمكانة الفن من أن يهجروهما الى شىء آخر ولو كان هو الملك ، كما كانوا من جهة أخرى أشد اخلاصا لوطنيتهم ووفاء لسعادة بلادهم من أن يفكروا فى اعتراض سبيل الحياة الدستورية التى رضىيتها لنفسها ، وما كانت الظروف لتعينهم لو حاولوا بأكثر مما أعانت أدباء العربية سالفى الذكر .

ولتزام شعراء العربية على صلات الملوك ومن تشبه بهم من الأمراء تجمعوا فى المدينة وانصرفوا عن محاسن الطبيعة ، فلم تفز من أغلبهم بكبير التفات . وقل مثل ذلك فى شتى أبواب الشعر : فما يكاد يكون فى أشعار الفحول وصف لجيش أو أسطول أو بحر أو بلد أو قصر أو

منظر ، أو رثاء أو حكمة أو تفكير في الحياة والموت ، إلا مرثيا لكل ذلك من وجهة نظر الممدوحين وجاريا في ثنايا مدحهم والترنم بما حازوا من رفيع الشأن ، فكانت مدحة صاحب النوال هي الوحي الأول الذي يدفع الشاعر الى ملاحظة تلك المشاهد وتدبر تلك الحقائق .

ولاعتماد الأدباء في معاشهم على صلوات الأمراء ، وتوقف سعوردهم ونحسهم على رضى الأمراء وغضبهم ، كثرت الشكوى في الأدب العربي ، وأنحى الأدباء على ما أسموه الدهر ذما وتقريعا وتفنيدا ، وعزوا أنفسهم بالتفاخر الأجوف ، وطال ذمهم لحرفة الأدب ، وما يزاملها من شقاء وحرمان ، ولا ذنب للأدب ، وإنما هم صيروهم حرفة وما هو إلا فن ، بل هبطوا به الى ما دون الحرفة فصيروهم تسولا . أما في الانجليزية فنرى جييون مثلا يستخر من السخرية ممن يزعمون أن الأدب أشقاهم ، ويعلن في صراحة واغتيباط أن كتابه عن تاريخ الرومان كان خير رفيق له وسمير لروحه أعوام تصنيفه ، ثم أناله من بعد ذلك صيتا وضمن له بعد مماته ذكرا ما كان يستحقه بدونه .

أما من قنطوا من صلوات الأمراء من بين شعراء العربية ، وقعد بهم عجز خيلتهم عن الوصول الى ساحات الملوك ، فاما هجروا الشعر جملة واما عكفوا على نظم أشعار الزهد ، فغزر ذلك الضرب من النظم في العربية . وليس التزهيد في الحياة بأسمى رسالات الآداب ، بل رسالتها الصحيحة الترغيب في الحياة والتعبير عن جمالها والدعوة الى الاستمتاع بها .

ولطمع الأدباء في جوائز الأمراء نزحوا من أطراف البلاد الى العاصمة ، فصارت دون سواها من المدن مجال الشعر وسوق الأدب ، وخمد في غيرها نور الفنون ، أما في انجلترا فقلما هجر أديب بلده الى لندن طلبا للحظوة والمال ، بل هجر بعضهم مقامه بالعاصمة الى منطقة البحيرات ، فاستقر حيث الجمال الطبيعي والحياة الشعرية والوحي الصادق ، وحيث عرش الطبيعة لا عروش المالكين .

ومن خلال المدح كان يتحدث شعراء العربية عن انتصارات الدولة في الحروب ، فكل من أبى تمسام والمتنبى وابن هانئ الأندلسي يشيد بانتصار ممدوحه ، وينسب اليه كل الفضل في تدبير الرأي والاقلام وهزيمة العدو ونصر الدين ، أما في الانجليزية فكان شعراء الوطنية أمثال كامبل وتينيسون وكبلنج يرون في انتصارات الدولة ظفرا للقومية الانجليزية ، لا فخرا شخصا للملك ، فتغنى الشعراء بتلك الانتصارات ،

وشادوا ببسالة القواد وأمرء البحر الذين أكسبوا أمتهم مواقف الفخار ،
وقلما التفتوا الى الملك أو خصوه بذكر .

وكما طلب شعراء العربية الرزق بمدح الملوك ، طلبه الكتاب
بالاستيزار والانشاء فى دواوينهم ، فجاءت آثارهم الأدبية كآثار الشعراء ،
كثيرة المبالغة والاغراق ، قليلة النصيب من صدق الشعور وصحة النظر ،
كثيرة التلاعب بالألفاظ ، وكان لأولئك الوزراء شأن أعجب من شأن
الشعراء : اذ اتخذهم الخلفاء وسيلة لابتزاز أموال الرعية ، حتى اذا
ما حان الحين فتكوا بهم واستصفوا أموالهم ، وكتب الأدب حافلة بأنباء
نكباتهم .

ولا ريب فى أن غير الملوك على سلطانهم المطلق كانت من أسباب
الانصراف عن ترجمة تراث اليونان الأدبى والتاريخى ، كما ترجم تراثهم
الفلسفى الى العربية ، لأن هذا الأخير مشحون بالنظريات والقضايا الخيالية
التي لا تتعرض لسلطانهم بسوء ، على حين أن تراث اليونان الأدبى حافل
بمظاهر الديمقراطية ، وآثار اشتراك الشعب فى حكم نفسه (١) ، فالملكية
أكثر تسامحا مع العلماء وتشجيعا للعلوم التي تدرس ظواهر الكون
العامية ، منها للآداب التي تترجم عن مشاعر النفوس ، ولا شك فى أن
اطلاع الانجليز على آداب الاغريق وتاريخهم كان من عوامل تمكين نفوسهم
وتشبعهم بحقوقهم . وهكذا كانت الملكية المتسيدة من أسباب حرمان
الأدب العربى من الأثر اليونانى الذى استفاد منه الأدب الانجليزى فوائد
جزيلة .

فالملكية فى ابان صولتها ليست بخير أنظمة الحكم التي تزدهر فى
ظلها الآداب الرفيعة ، أما فى عهود عجزها فهي شر مستطير على الفكر
والحضارة عامة : فحين ضعفت قبضتها على الدولة العربية تقطعت أوصال
المملكة ، وتكاثر الملوك والأمراء وتنازعوا وتحاربوا ، فكل بلدة « فيها أمير
المؤمنين ومنبر » ، وظهروا فى جلود الأسود منتفخين ، وأفقروا البلاد
بحروبهم ومغارمهم ، وكان منهم الأعاجم الذين لا يقدر على الأدب ، فخيبت
لديهم رجاء الشعراء فركد حتى ذلك الضرب من الشعر المملوء بالأماديح
والمبالغات ، ودخلت الحضارة عامة والآداب خاصة فى دور ذلك التدهور
الطويل الذى دام قرونا .

(١) ذلك رأى وجيهه اذ ثبت أن هؤلاء الملوك قد اطلعوا على مضامين الاسفار
الأدبية الافريقية فى أصولها (الرسالة) .

فالآدب العربى قد شهد الطورين الأول والثانى من أطوار النظام
الحكومى التى تقدم ذكرها فى صدر هذه الكلمة : طور الأرسىقراطية
فى الجاهلية ، وطور الملكية فى الإسلام ، فجاء فى الطور الأول أكثره حماسى
عصبى ممجد للقبائل وأبطالها ، وكان قائلوه عادة من الأشراف ذوى المكانة ،
وظل فى الطور الثانى مكفوفاً فى حيز الحدود التى رضىيتها له الملكية
منصرفاً عن أغراض كثيرة من أغراض الفن السليم ، وترعرع الآدب
الانجليزى فى الطور الثالث من أنظمة الحكم ، طور الديموقراطية ، فجاء
حر النزعة ، متعدد النواحي ، واسع الأفق ، محتفظاً بسمو الفن وتجرده
عن المادة ، وكان الفرق بينه وبين الآدب العربى ، أن الأخير بلغ أشده فى
ظل الحماية والمنحة ، والأول جرى الى غايته فى ظل الحرية والاستقلال .

غرض الأدب

فى الأديبن العربى والانجليزى

التعبير عن خوالج النفس الانسانية وتأثيراتها بمظاهر الكون المحيطة بها هو غرض الفنون جميعا ومن بينها الأدب . ولا يرقى الأدب الى مرتبة الفن السامى حتى يكون ذلك التعبير عن المشاعر النفسية غرضه الوحيد، منزها عن كل غرض خارجى أو مطلب مادى ، فاذا خالطه شئ من ذاك هبط الى مرتبة الصناعة ، ولم يعد له فى النفوس ذلك الوقع المطرب الذى تتركه فيها الفنون الجميلة .

وقد ظل التعبير الحر الصادق عن نوازع النفس غرض الأدب الانجليزى الوحيد فى أغلب عصوره ، فلم يكن غرض الكاتب أو الشاعر مما ينشئ الا الافصاح عما يشعر به أو يفكر فيه ، فزخر الأدب فى تصوره المتوالية بألوان الشعور وأشتات الأفكار فى مختلف مشاعب الحياة ومتباين حالات النفوس ، وتناول بالتصوير والتحليل دخائل النفوس وأغوار الطباع وأطوار الأفراد والمجتمعات ، ولم يدع فحوله شاردة ولا واردة من نوازعهم وبوادهم ومشاهداتهم وتأملاتهم الا أثبتوها فى منشآتهم وأبرزوها فى روائع الصور .

وكذلك كان التعبير الصادق المنزه عن الغرض الخارجى غاية الكثير مما نظم الشعراء وسطره الكتاب فى العربية ، وحفل الأدب العربى بالرائع من الحكم والأمثال والدقيق من أوصاف النفس وغرائزها وميولها ، وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى أو يشار اليها ، وانما نذكر منها الوصايا المنسوبة الى بعض فحول العربية ، كذى الاصبع العدوانى وعلى بن أبى طالب ، ومنها وصية ابن هراسة لابنه حيث يقول : « ان من الناس ناسا ينقصونك اذا زدتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمتمهم . ليس لرضاهم موضع فتقصده ، ولا لسخطهم موقع فتحذره . فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبدلهم وجه المودة ، وامنعهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم ، وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعا بعجزهم » .

غير أن في الأدب العربي بجانب ذلك آثارا كثيرة لم يكن التعبير عن خوالج النفس غرضها ، ولا الصدق شعارها ، فهي لذلك لا ترقى الى مرتبة الفن الجميل ، ولا تؤثر في النفس تأثيره ، وانما هي أدنى الى الصناعة ، لها كالصناعة غرض مادي تؤديه وغاية خارجية تخدمها . ولا غرو أن كان العرب يسمون النظم والنثر بالصناعتين ، ويعدون الأدب « صناعة » أو « آلة » « يتعاطاها » صاحبها ، ولم يكن لكلمة « الفن » لديهم ما لها اليوم من المعنى السامي .

بلغ الأدب العربي مرتبة الفن السامي في عصر الجاهلية ، حين كان أشراف القبائل وحكمائها يودعون الشعر حكمتهم وأطرابهم وأحزانهم ، فلما قامت الدولة العربية صحبتها عوامل لم تكن لتساعد على اطراد رقى الأدب في وجهته الصحيحة ، بل عملت في غير ناحية على تفهقره وفقدانه ما كان له في الجاهلية من قوة وصدق وسمو ، وهي سمات الفن الصحيح ، حتى أصبح من السهل تقسيم الآثار الأدبية ، بل تقسيم آثار كل أديب منفرد ، الى قسمين : قسم صادق يصدر عن شعور صحيح ويدخل في دائرة الفن السليم ، وقسم كاذب مملوء بالمفارقات والمبالغات يمت الى الصناعة ولا يمت الى الفن .

وأول تلك العوامل ذبوع التكسب بالشعر ، فانه جعل للشعر غرضا سوى التعبير عن خوالج النفس الذي هو غرض الفنون جميعا ، وصبر له غاية مادية هي صلة الممدوح التي قامت مقام الحافز النفسي والشعور الصادق ، فسارع الى الشعر الكذب والمبالغة ، وهبط عن مرتبة الفن السامي وصار صناعة تمارس ويبرز فيها ذوو اللباقة والمهارة ، لا أصحاب العبقرية والنفوس الكبيرة ، وداخل النثر من هذه السمات ما داخل الشعر ، لأنه مثله سخر نفسه لخدمة الحاكمين .

وثاني العوامل هو نزعة المحافظة والتقليد ، التي سرعان ما تمكنت من الأدب العربي ، حين أشفق العرب على أدبهم ولغتهم ودمائهم مما اجتاحتها من هجنة الأعاجم الداخلين في دينهم ولسانهم ومجتمعهم ، أدى ذلك الى الضن الشديد بآثار المتقدمين والتبجيل العظيم لأشكال الأدب وهصوره في عهدهم ، والاعجاب المطلق بأشعارهم وخطبهم ذات اللغة الفصيحة السليمة ، وتمادى الشعراء فقلدوهم في وعورة الألفاظ أحيانا ، وفي المعاني وضرب الأمثال والاستهلال بالنسيب ، وتمادى الكتاب فأنحوا على آثار المتقدمين محاكاة واقتباسا وتضمينا ، وفي مثل هذا الجو

من المحافظة والتقليد يخمد الفن الصحيح الذى يصدر عن صادق الشعور،
ولا يسود الا الصناعة التى تتكلف الألفاظ وتتعمل المعانى .

وثالث تلك العوامل اعتزال الأدب العربى غيره من الآداب ، فهو قد أهمل الأدب اليونانى ولم يتأثر بالأدب الفارسى ، الا قليلا عن غير قصد ، واتصال الأدب بغيره من آداب الأمم شرط أساسى لدوام رقيه فى معارج الفن السليم ، لأن ذلك الاتصال يدخل فى الأدب صادق النظرات والأفكار ، التى تشترك فيها الانسانية جمعاء على اختلاف المشارب واللغات ، دون الثقات الى زخارف الألفاظ وتلفيقات المعانى ، التى لا تمت الى الطبع السليم بصلة ، ولا تتعلق من الفن الصحيح بسبب . واعتزال الأدب وغيره ينحرف به شيئا فشيئا عن وجهة الفن القويمة ، ويميل به الى ناحية التكلف والتعمل والتقليد والجمود والصناعة .

ولما كان الكاتب يكتب والشاعر ينظم ونصب أعينهما غايتان : ارضاء صاحب السلطان الذى تسخر له الأقلام ، وارضاء النقاد الذين لا يريدون عن مناهج الأولين حولا ، لم يسعهما الا الاقلاق عن محاولة التعبير عن شعورهما الصادق ، واللجوء الى محاولة اظهار البراعة ليرضيا الفريقين فصارت البراعة – لا صدق التعبير عن الشعور – هى غاية الأديب . فالبحترى وابن المعتز والبديع وابن العميد والحريرى وأضرابهم ، قلما نفلحوا أو نثروا بغية التعبير الصادق البسيط عن مشاعر حارة تعتلج فى نفوسهم ولا يستطيعون لها حبسا ، وانما كان ابداء البراعة وطلب الاعجاب وتحري الاغراب ديدنهم فى معظم ما أنشأوا ، وكتاباتهم لذلك – حتى حين يجيدون – فائرة الشعور باردة الوقع لا تنفذ الى القلب ولا تهز النفس ، ربما أوحى الى المطالع أن أصحابها بارعون ، ولكن قلما توحى اليه أنهم نوابغ عظماء ذوو نفوس كبيرة ونظرات بعيدة .

ولما جهد الأدباء فى تقليد معانى الأقدمين ومناحيهم ، واختراع أوصاف الممدوحين ومحامدهم ، حتى لم يعد فى مجال المعانى متسع لتكلف ، التفتوا الى الألفاظ يطلبون فى مجالها السبق والبراعة ، ففشت المحسنات اللفظية ، فكانت انحرافا جديدا للأدب عن جادة الفن القويم ، وشغل الأدباء بالسجع والجناس والمقابلة وحسن التعليل عن صدق الشعور وصدق التعبير ، وركبت الصناعة الأدب من ناحيته : ناحيتى المعنى واللفظ .

وطلب الأدباء البراعة من طريق آخر : فأقحموا فى الأدب ما ثقفوه من مصطلحات العلوم ومسائلها ، كعلوم النجوم والكلام والنحو والمنطق ،

فُتجِلت البراعة فيما أنشأوه من ذلك ولكنه فقد ديب الحياة ، فمن تقليد
قضايا المنطق قول المتنبي :

تقولين ما في النفس مثلك عاشق جدى مثل من أحببته تجدى ملى

وقول الشاب الطريف :

رمى فأصاب قلبي باجتهاد صدقتم : كل مجتهد مصيب

ومن استخدام مصطلحات النحو قوله :

لاى شيء كسرت قلبي وما التقى فيه ساكنان ؟

ووقر فى نفوس كثير من الأدباء أن الأدب مجال للصناعة والبراعة ،
وليس مظهرا لأحاسيس النفس ولا مستودعا لخوالبها . فاذا أعوزهم
ممدوح يثنون عليه بما هو ليس أهله من المبالغات ، طلبوا البراعة
واصطنعوا التطرف بوصف أمر تافه ، كحمل هزيل أو قدح خمر أو محبرة
أو يراع ، الى غير ذلك مما لا خطر له فى ذاته ، ولكنه يمنح الفرصة لطلاب
البراعة ليظهروا لطافة بديهتهم وحسن محاضرتهم ووفرة محصولهم اللغوى .
وكثيرا ما كانوا يتبادلون ذلك فى الرسائل الإخوانية ، والكتب التى
يستهدون فيها الخمر والأقداح والمزاهر والقيان .

ولاصدار الأدباء فى كتاباتهم عن أغراض مصطنعة بعيدة عن غرض
الفن الصحيح نجد الكثيرين منهم يقفون مواقف متناقضة : فيمدح أحدهم
الرجل أرفع المدح ثم يذمه أقبح الذم ، فان خاف بطشه عاد مستغفرا يقول
كما قال الأعشى :

سأمدحو بمدح فيك اذ أنا صادق كتاب هجاء سار اذ أنا كاذب

ويطلب أحدهم البراعة بتحسين القبيح وتقبيح الحسن ، أو بمدح
الشيء الواحد وتحسينه ثم ذمه وتقبيحه ، كما فعل الحريرى حيث جعل
أبا زيد يمدح الدينار بمقطوعة من الشعر ، ثم يذمه بأخرى حين اقترح
عليه بعض الحضور أن « يذمه ثم يضمه » ، ويدعى المتنبي الغرام والصبابة
والنحول فى مطالع أماديجه ، فاذا أفصح عن صادق شعوره وميوله قال
ان المجد ليس زقا وقينة ، وان للخود منه ساعة ثم بينهما فلاة ، وأنه
يرى جسمه يكسى شفوفا تربه ، وقال :

ومن خبر الغوانى فالغوانى ضياء فى بواطنه ظلام

وجاء النقاد فأقروا الشعراء على هذا التناقض ، وأباحوهم ضروب اللغو والهدر ، وأخذوا تلفيقاتهم فى قصائد المديح مأخذ الجد ، وأضاعوا وقتهم ومنطقهم وحججهم فى الموازنة والمفاضلة بينها ، وفضلوا شاعرا على شاعر ، لا لصدق شاعريته وصدق فهمه للحياة ، ولكن لبراعته فى احتيال الحيل اللفظية والمعنوية لتفخيم شأن ممدوحه . فقدماءة بن جعفر مثلا يقدم الأعشى فى قوله فى ممدوحه :

واذا تجىء كتيبة ملمومة شهباء يخشى الراهدون نهالها
كنت المقدم غير لابس جنـة بالسيف تضرب معلما أبطالها

على كثير لقوله فى ممدوحه :

على ابن أبى العاصى دلاص حصينة أجاد المرى نسجها وأذالها
يود ضعيف القوم حمل قتيـرها ويستظلع القرم الأشم احتمالها

لأن الأول جعل صاحبه يغشى الوغى فى غير مدرع ، والثانى وصف صاحبه بالتحصن وراء الدروع الثقيلة . يفاضل قدماءة بينهما بصرف النظر صرفا تاما عما اذا كان المعنى المذكور فى كل حالة صحيحا ، فالمسألة تتعلق لديه بالتزام الصدق ، بل البراعة فى الاختراع والمبالغة وتهويل أمر الممدوح ووصفه بكل عظيمة صحيحة مزعومة ، ممكنة أو مستحيلة .

وبهذا المقياس المجحف الذى لا يقيم اعتبارا لصدق الشعور والتعبير ، بل يجعل الاعتبار كل الاعتبار للبراعة واللباقة والحفة والاحتيال ، قاس كثير من النقاد آثار الأدباء وفاضلوا بينهم . بل ان النقاد صرفوا جل اهتمامهم الى ذلك الضرب الصناعى من الأدب الذى قوامه التعمل والاختراع ، وعماده الأقيسة المنطقية ، بل المغالطات المنطقية ، وأهملوا الضرب الصادق الذى يترجم عن شعور الأدب الصحيح . فاذا رأوا أثرا من هذا القبيل مروا به كراما ولم يروه أهلا للنقد والتحليل ، لأنهم يرونه بسيطا عاديا غير محتو على براعة لفظية أو معنوية . والأدب كان فى نظر كثير منهم صناعة لا فنا . وقد سمي أحدهم وهو أبو هلال العسكري كتابه فى أصول الشعر والنثر : « كتاب الصناعتين » .

والحق أن أكثر ما يعرف اليوم بالفنون الجميلة كان لدى العرب صناعات ، فالأدب والموسيقى والعمارة والنحت والتصوير كل هذه كانت أشبه بالصناعات ، لأنها كانت في أكثر الأحيان تخدم أغراضا مادية خارج ذاتها ، وكانت تنتج نتائجها في ظلال الملوك والكبراء الذين يستخرونها لأبهتهم ومتعتهم ، ولم تنل من الاستقلال الفني والغرض الذاتي ما لها اليوم . ومن ثم ظل الفنان الأخير دائما في حالة بدائية لم يتعدىها إلى أطوار الفن السامية .

ولقد تترعرع الفنون الأخرى كالعمارة والنحت والتصوير في ظلال الرعاية والمنحة من جانب الأمراء ، كما حدث في عهد النهضة الإيطالية التي أنجبت رافائيل وميكلانجو ودافنشي وعشرات من أمثالهم ، أما الأدب فهو أشد احتياجا إلى الحرية وأسرع انحطاطا وركودا في ظلال الاستبداد ، فإن الملكية المستبدة إذا سخرته لأغراضها وسيرته في ركابها حملته على اخفات الحق واغفال الصدق ونسيان رسالته ، ولهذا ازدهر الأدب في إنجلترا أكثر من ازدهار غيره من الفنون التي اقتبسها الإنجليز عن أهل القارة ، حتى باري الإنجليز غيرهم في الآداب وبذوهم ، فقد ألقى الأدب في إنجلترا من حرية الفكر والتعبير أكثر مما ألقى في غيرها . ولنفس السبب ازدهر الأدب في المدن الإغريقية ، على حين كان رقيقه في روما الملكية قصير العمر .

لم يسخر الأدب الإنجليزي نفسه لتخليق الأمراء والكبراء ، كما سخر الأدب العربي نفسه ، ولم يصرفه طلب رضاهم عن طلب رضى الفن الصحيح ، وإن كان بعض رجاله — منذ عهد شكسبير — قد تزلفوا إلى سلطان آخر غير سلطان الحاكمين ، فطلبوا رضى الجمهور من رادة المسارح وقراء الكتب ، ولو بتضحية رضى الفن أحيانا . على أن ذلك قلما كان ، وأكثر الأدباء احتفظوا بسمو الأدب وأرستقراطية ، ولم يلبث انتشار التعليم أن وسع دائرة القراء الذين يقدرون الفن الصحيح ويتسامون عن الفضول ، وانقسم الكتاب إلى فريق محافظ على سمو الأدب ، فهم عماد الأدب السامي ، وفريق ينشد اقبال العامة باللغو والهراء . وأم يحدث أن هبط الأدب جملة عن مرتبة الفن الصحيح المنزه الغرض .

كذلك ربأ بالأدب الإنجليزي أن تركيبه الصناعة وتغلبه على غرضه الصحيح ، دوام تبصر رجاله في الآداب الكلاسيكية والأوربية المعاصرة ، فكان معين تلك الآداب يجرى في شرايينه من آن آخر ، فيجرد ما فتر فيها من دفعة الحيساسة ، فكلما هي الأدب بطور ركود تغلب فيه الصناعة

الفن الصحيح - كذلك الذى مر به فى بعض القرن الثامن عشر - شعر الأدباء بعظيم الفرق بينه وبين الآداب الأخرى ، فانتشلوه من وهدته .

ومما ساعد على احتفاظ الأدب الانجليزى بصبغته الفنية ، وحماه الهبوط الى درك الصناعة الرخيصة ، اطلاق فحوله على آثار الفنون الأخرى الراقية ، من تصوير ونحت ، تلك التى تشترك جميعا فى غرضها الذى ذكر فى أول هذه الكلمة ، وهو التعبير الصادق عن الشعور الصحيح ، فكانت للأدب دائما من تلك الفنون أسوة ، تهيب به أن يحيد عن جادته أو ينحرف عن غايته ، أو يضل فى تيه التلفيق المعنوية والزخارف اللفظية .

وقد راجت فى الأدب الانجليزى ضروب من القول قد يتبادر الى الظن لأول وهلة أن الأدب يتجرد عندها من نوازعه الشخصية وشعوره الصحيح ويطلق العنان للخيال والصناعة ، كالرواية التمثيلية والقصة والملحمة التى يتحدث مؤلفها عن أشخاص بعيدين عنه ، ويصف عواطف غيره وتصرفاتهم ، ولكن الواقع أن المؤلف فيها لا يقل صدقا ووفاء للحياة وحقائقها عن المؤلف فى غيرها ، ولا هو يتجرد من ميوله ، بل يخلع تلك الميول على أبطاله ، وينطق أفكاره ومشاهداته على ألسنتهم ، فكل بطل من أبطال شكسبير ، كهاملت وعطيل ولير ، يمثل حالة من حالات نفسه وفكرة أو فكرات من أفكاره ، والقصى الانجليزى الذى يتحدث عن الآخرين فى كتاباته أصدق وأكثر إفصاحا عن ذات نفسه من الشاعر العربى الذى يشبب بليلى ودعد ويصف ممدوحه بغير ما يعلم فيه .

ففى كلا الأدبين العربى والانجليزى ترى فى آثار الفحول دلائل الطبع الجزل والشعور الصادق والفن الصحيح ، ولكن نظرا لتلك العوامل التى صاحبت الأدب العربى فأفشت الصناعة فى كثير منه ، وهذه العوامل التى لازمت الأدب الانجليزى فساعدته على الاحتفاظ بسمات الفن ، جاء الأدب الانجليزى أحفل بصادق الشعور وجاد الأفكار من الأدب العربى ، وكان التعبير الصادق عن النفس الانسانية غرضه دائما ، على حين زاحمت هذا الغرض فى الأدب العربى أغراض أخرى : كالصناعة وطلب البراعة والاغراب والتظرف ومحاكاة الأقدمين .

آثر الترف

فى الأدين العربى والانجليزى

الترف من مستتبعات الحضارة ، تتجه اليه الأمم عقب عصـور النهضة ، اذ يلذ لها الركون الى الراحة واجتناء ثمرات مجهوداتها التى بذلتها فى عهود النهوض والكفاح والتمهيد ، وتميل الى الاستمتاع بخيرات الحياة من دعة ولذة وسرور فى ظل السلام والنظام اللذين تنشرهما الدولة بعد أن توطدت أركانها ، وفى بحبوحة الثروة والنعمة اللتين أثلهما (أصلهما) جهاد السنين والأجيال ، فيهجر الشعب رويدا رويدا حياة الخشونة والقناعة والجدة ويستكثر من أسباب الراحة والبهجة ، واشباع مطالب الجسم والنفس ، وبدوات الخيال والشهوة .

وبكون أشد الأمم اقبالا على وسائل الترف ومضيها الى غاياته ، أشدها من قبل نخشنا فى العيش ، وأعظمها جلادا فى ميدان تنازع البقاء ، وأتمها ظفرا وغلبة على البلدان ، لما تجنح اليه من الراحة بعد الجهد ، والاستمتاع بعد الحرمان ، ولما تغدقه عليها انتصاراتها من أسلاب أعدائها وأرزاقهم ، وما تطلع عليه من وسائل لهوهم وترفهم ، ومن ثم انتشرت موجات هائلة من الترف فى مصر الفرعونية عقب فتوحها الكبيرة فى آسيا ، وفى أثينا عقب امتداد سيادتها على سواحل بحر الأرخبيل وجزره ، وفى روما بعد اتساع سلطانها شرقا وغربا .

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية خرجتا من بدائة وخشونة عيش الى حضارة وحياة دعة ، وكلتاهما أقامتا امبراطورية مترامية التخوم تعج نواحيها بالخيرات والكنوز ، وسرت اليهما من جراء ذلك عدوى الترف وبدا أثرها فى أدبيهما . بيد أنهما تفاوتتا تفاوتا كبيرا فى مدى تأثرهما بذلك الترف ، فكانت الأولى على الأرجح أعظم الأمم أخذا بوسائله وتفننا فى ضروبه ، وكانت الأخيرة أقلها انقيادا لتياره وأشدها تشبها بأهداب الاعتدال .

فالأمة العربية ينقسم تاريخها الاقتصادى الى ثلاثة أطوار كبيرة : فالطور الأول وهو عهد الجاهلية أقرب الى الفقر والخشونة التى فرضتها

على العرب طبيعة بلادهم الضنيّة ، الأمر الذي أورثهم صفات القناسة والصبر والجلد واحتمال المشقات، كما أورثهم الجود وقرى الأضياف، فتمدحوا بكل هاتيك الصفات وامتلا بها شعرهم ، وجاء ذلك الشعر في جملة قويا متسما بالرجولة متيرا للاعجاب ، وندر في ذلك العهد شعر المجون والخلاعة ووصف دواعي الرفاهية ومظاهر الحياة الناعمة ، بل كان السادة يتبرءون من الانقياد لشهوات الجسم والنفس . ومن روائع آثار ذلك في الأدب قول حاتم الطائي :

واني لأستحيي صديقي أن يرى مكان يدي من جانب الزاد أقرعاً
وانك مهما تعطى بطنك حقه وفرجك نالا منتهى الدم أجمعا

وقول عنتره :

يخبرك من شهد الوقية أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم
وأرى مغنم لو أشاء حويتها فيصدنى عنها الحيا وتكرمى

وبقيام الدولة العربية دخل العرب في الطور الثاني : طور الحضارة والرفاهية والترف ، وتدرجوا في الأخذ بأسباب ذلك مع مرور الزمن حتى أوفوا على الغاية ولا غرو ، فقد اجتمع لديهم من أسباب الترف ما لم يكن يجتمع لغيرهم ، فان نجاحهم الحربى الفجائى أوقع فى أيديهم أغنى بقاع الأرض وأخصبها وأعظمها حضارة وترفا لعهدهم ، وأغدق على كبرائهم ومقاتلتهم فيضا متلاحقا من الأموال ، وأدخل فى حوزتهم شناسع الأملاك ، وأقام فى خدمتهم الحجوم الغفير من الموالى ، وسمحوا هم لشتى الأجناس بمخالطتهم والاقامة بين ظهرانيتهم ، فجاءت الأمم المقهورة فى ميدان الحروب تسلط على الأمة الغالبة ما بذتها فيه من أسباب الرفاهية واللذذة ، وهى التى كانت من قبل سبب سقوط عزيمتها وادبار دولتها .

وكان كل ذلك جديدا على أعين العرب الذين قضوا الأجيال فى شظف البادية وتقتيرها ، فاندفعوا يصيبون من تلك اللبانات (الرغبات) ما حرموه طويلا ، وأغرقوا فى استمراء تراث الأمم المغلوبة كما يغرق الوارث الذى طال حرمانه فى تبذير ثروة الغنى الراحل . وكأنما تعجل العرب فى تراث كسرى وقيصر ما وعدوه فى الدار الآخرة من طيبات ، ومن ثم ابتنى الخلفاء القصور وحشدوا التشييدها الصناعات من شتى الأجناس ، ووفروا بها آنى أسباب الدعة والمتعة ، وحشروا فيها الغلمان والقيان ، وبالغوا فى

اعداد الموائد والأسبطة ، وأكثروا من الألوان والصحاف ، واستمتعوا بالغناء والشراب ، ورفلوا في فاخر الثياب ، واحتفوا بالمواسم والأعياد والمهرجانات ، وأسرفوا في أعراسهم حتى ضربت ببعضها الأمثال ، ولم يدعوا متعة من متعات النفس أو لذة من لذات الجسم الا استناموها .

واحتذاهم في ذلك الأمراء والكبراء وكل من أطاقه من عامة الشعب ، فانتشرت مجالس الشراب والغناء ، وأحكمت أوضاعها وارتقت آدابها ، وراجت صناعة المغنين وحذقوا فنهم وجودوه ، وراجت تجارة الرفيقي ونفقت سوق الجوارى ، وأخذن بالتثقيف والتهايب ليجمعن فتنة اللب الى فتنة النظر ، وأولع الناس بالرقه والظرف والكياسة ، ونفروا من الخشونة وتندروا بالجلافة والغفلة ، واحتفوا بالمواسم يشخصمون فيها الى الرياض أو الأديرة في أرباض المدن ، يتنادمون ويتغزلون .

وأثر تلك الحياة المترفة جلي في الأدب العربي ، بل لعله أكبر فارق يفرق أدب ما بعد الاسلام والحضارة عن أدب الجاهلية ، اذ أن الأدباء اهتموا بتصوير مظاهر ذلك الترف كلها ، بل كانوا من أشد الناس حرصا على الانغماس فيه ، بل تجمعوا في العواصم طلبا لأسبابه ، وكان منهم من صاحبوا الخلفاء والأمراء في مجالس شرابهم وسماعهم وساعات تبذلهم واستمتاعهم ، وجلسوا الى موائدهم وشاركوا في محافلهم ومهرجاناتهم ، وكل ذلك ضمنوه مدائحهم لأولئك الحكام ، وكان شهودهم تلك المشاهد وما يحوكونه فيها من القصائد ، من متممات السرور والأنس ، ومستلزمات الأبهة والعظمة .

ومن ثم يحفل شعر بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحتري وابن المعتز وابن الرومي وابن حمديس وكثيرين غيرهم بأوصاف القصور والحدايق والنافورات ، وسفائن النزهة وكلاب الصيد ، واللوان الطعام والفاكهة والأسبطة ، ومجالس الشراب وحذاق المغنين وحسان المغنيات ، والمحافل والمواكب ، كما امتلأ بالنسيب الذي كان أغلبه نسيبا بالجوارى دون الحرائر ، والذي امتزج بكثير من الخلاعة والفجور ، وروى الشعراء في كل ذلك عن ممدوحيه من الأمراء تارة ، وعن أنفسهم تارة أخرى ، وصوروا في الحالين حياة الترف المغرق التي طغى سسيلها في عهود العباسيين والفاطميين وخلفاء الأندلس وغيرهم .

وقد ظفرت الخمر من بين أسباب الترف هاتيك بالمكانة الأولى في النفوس ، وفازت بالحظ الأوفر من حفاوة الشعراء ، فكانت معقد السرور

ومناطق الأُنس ورمز الصفاء ، وتفنن الشعراء في تمجيدها ووصف تأثيرها ووصف مجلسها وساقيتها وكأسها ، وطلبوا البراعة بالابتكار في تلك الوجوه ، وخلصوا العذار واطرحوا التدين في التوفر عليها والتغنى بها ، وهزئوا باختلاف الفقهاء في تحليل بعض أنواعها وتحريم بعض ، وظفرت الخمر في الأدب العربي بمنزلة لا تبارى في أدب آخر ، وسما شأنها حتى زاحمت النسيب على مكانته الموروثة من عهد الجاهلية ، فأصبح الخمر كالتشبيب والوقوف بالدمن وسيلة تقليدية من وسائل استهلال القصيدة .

ومن أجمل الشعر في وصف أسباب الرفاهية تلك ، قول ابن الرومي الذي يختمه بتحسره على حرمانه مما يصف ، إذ أصبح التلهف على أسباب النعيم ديدن الشعراء ، وكانوا من قبل في الطور السابق كما تقدم يتبرءون من الاستسلام للترفه والشهوات :

في أمور وفي خمور وسمو ر في قاقم وفي سنجاب
في حبير منمنم وعبير وصحان فسيحة ورحاب
في ميسادين يخترقن بسساتي من تمس الرؤوس بالأهداب
عندهم كل ما اشتهو من الآلات والأشربات والأشباب
والطروقات والمواكب والولدان مثل الشوادن الأسراب
والغوالي وعنبر الهند والمسك ك على الهام واللحي كالخضاب
لم أكن دون مالكي هذه الأشياء لو أنصف الزمان المحابي

وقد بلغ من ولع كثير من الشعراء باجتناء ثمار تلك الحياة المترفة الغارقة في اللذات ، أن خصصوا أشعارهم لمدح الأمراء بغية أن يقربوا ويمنحوا طرفا من ظل تلك النعمة السابغة ، ويشاركوا بمدوحهم في أبهتهم ولذاتهم ، وبغية النوال ينفقونه في ارتياد مواطن اللهو التي حفلت بها العواصم ، ويبذرونه في مجالس الشراب والغزل يعقدونها في دورهم أو في دور المغنين والنخاسين أو في الحانات والأديرة ، ومن ثم امتلأ شعرهم بالمدح من جهة ، وبوصف الملاحى من جهة أخرى ، وراح بشار مثلاً يفخر بكل الأمرين : باقتناص أموال الملوك ، وانتهاج سوانح اللذات ، قال :

وانى لنهاض اليدين الى العلا قروع لأبواب الهمام المتوج

وقال :

قد عشت بين الريحان والراح وال
مزهري في ظل مجلس حسن

وبعد طور الثروة والترف هذا جاء الطور الثالث ، طور الفقر والانحلال ، حين استنزفت موارد البلاد ، وعظمت مفاصد الحكام ، وخمدت العزائم من جراء الانهماك في ذلك الترف ، وفدحت الضرائب الأهليين ، وتنازع الأمراء والولاة . وقد كان جانب كبير من الشعب يشقى ويألم في عهد الرخاء والترف السالف ، أما في هذا العهد فعم الشقاء ، وانتشر الخراب ، وكسدت الصناعات ، وظهر القحط وتتابعت المجاعات .

ولم يبق معتصما برتبة الترف فوق سبيل هذا البؤس الا القليلون ومنهم الأمراء الذين يتنازعون الحكم ويرهقون الأهالي بالمغارم ليتشبثوا بمظاهر الملك والفخفة ويتشبهوا بالسابقين في الجاه والأبهة ، يسلبون الناس أرزاقهم باليمين ليمنوا عليهم باليسار بالأثواب والأطعمة في المواسم والأعياد كأنما يابون أن يطلبوا الرزق من وجوهه الشريفة ، ولا يريدونهم الا عجزة مستجدين يفرعون الى بر الأمير ويتمدحون بجوده . تلك كانت حال مصر مثلا في فترات طويلة من حكم الفاطميين والمماليك ، وذلك كانت حال الأندلس على عهد بعض ملوك الطوائف الذين لم تكن الحرب بينهم تهدأ ، حتى لقد تشابه ثمة الأمراء ذوو الجيوش وقطاع الطرق أصحاب العصابات والمناسر . وقد أوجز بعض شعرائها وصف عبث الأمراء برفادية البلاد في قوله المفعم بالحسرة :

أطاعت أمير المؤمنين كتائب
تصرف في الأموال كيف يريد

فثالث الأطوار المشار إليها في بدء هذه الكلمة هو طور العوز والبؤس الذي جاء رد فعل لطور الاسراف في الترف ، كما يجيء الخمار عقب الاسراف في الشراب . وفرق ما بينه وبين فقر الطور الأول أن الأول كان فقرا طبيعيا معتدلا قضت به البادية على أبنائها وحصنتهم منه بالخلق المتين ، والآخر فقر منشؤه الافراط والتفريط ، وحليفه الذلة والمسكنة واللثيم من الطباع ، وفي طيه الشره والشهوة المكبوتة والتلذذ والحرمان . وقد انعكس كل ذلك في أدب هذا الطور اذ جاء ضاويا سقيما مملوءا بالشكوى والتوجع ، منطويا على تمويهات المعاني ومخادعات الالفاظ التي تحكى ما كان يجيش به المجتمع من تمويه .

هكذا جرى العرب من الترف الى أبعد غاياته ، ثم كانت سقطتهم من بعد ذلك بعيدة المهوى . أما الانجليز فانهم وان شابهوا العرب ومن قبلهم الرومان في تأسيس امبراطورية ضخمة ، كانوا نسيج وحدهم في توقي أعراض الترف وتحاشى عقابيله التي يجرها على المجتمع ، والتي تحدث ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع بهدمها لصروح الدول ، لما تسبب أبنائها من صفات النخوة والجهاد والغلبة ، فلم يمس الترف المجتمع الانجليزى والأدب الانجليزى الا مساً خفيفاً ، وفي عهود قصيرة ، وذلك للظروف التي أحاطت ببناء الامبراطورية .

فقد شيدت الامبراطورية الانجليزية ببطء وتدرج ، لا بسرعة كما شيدت الامبراطورية الرومانية ، ولا فجأة كما بنيت الامبراطورية العربية، فلم يغمر المجتمع الانجليزى سيل مفاجيء من الثروة ، وبنيت الامبراطورية في العصور الحديثة فلم يتبع الانجليز الطريقة القديمة من انتهاب أموال العدو المهزوم وأسر المقاتلين أو المسلمين واسترقاقهم ، ولم يستأثر الملوك والقواد بغنائم الحرب وثمرات الفتح ، فتتصر الثروة في طبقة محدودة تسرف في اللذات بينما بقية الشعب محروم ، بل كان الاقليم المفتوح حرباً يفتح للتجارة الانجليزية ورجال الأعمال الانجليز صغارهم وكبارهم ، فجاء توزيع الثروة بين طبقات الشعب أكثر تعادلاً مما كان في المجتمع العربى .

أضف الى ذلك أن الانجليز لم يخالطوا الشعوب المفتوحة ولم يسمعوها لأبنائها أن يملأوا عليهم وطنهم الأول ولم ينقلوا هم اليهم بحواضرهم كما فعل العرب، ولم يأخذوا عنهم ضروب لهوهم وترفهم ولا غير ذلك من ظواهر الحياة ، لأنهم كانوا عادة يفتتحون أقاليم أقل منهم حضارة ، لا يستسيغون ما عندها من ضروب المتع ، وظل الانجليز في بلادهم بعيدين عن تأثيرات أملاكهم ، متمسكين بتقاليدهم القومية وعوائدهم وأنظمتهم التي نمت وتوطدت قبل الالتفات الى ما وراء البحار .

هذا الى أن الامبراطورية لم تشيد الا وقد كسرت شوكة الملكية في انجلترا واستتب النظام الدستورى ، والملوك المستبدون هم عادة رادة الترف في ممالكهم والموحون الى رعاياهم باغتنام اللذات والملاهي ، يتوفر أوائلهم على تأسيس الدولة وتأييل السلطان ، ثم يعكف أخلافهم على الترف والأبهة واتباع الشهوات ، ويقتدى بهم من هم دونهم . كذلك كانت الحال في الدولة العربية حيث توطد سلطان الملك بامتداد أطراف الامبراطورية،

أما في إنجلترا حيث كُف الملك عن أموال الدولة أن يبذرهما ، فقل ظل الملوك متبعين سياسة الاعتدال، فلم يكونوا قدوة سيئة لغيرهم من الطبقات .

١٨

إنما فشا الترف والفساد في المجتمع الانجليزي في أواخر القرن السابع عشر حين عادت الملكية منتصرة من فرنسا مستعيدة بعض ما ضاع من نفوذها ، مصحوبة بالفرسان الانجليز الذين عاشوا زمنا في المجتمع الفرنسي ، والفرسان الفرنسيين الذين شبوا في بلاط لويس الرابع عشر، فبعج البلاط الانجليزي بمظاهر الترف وأسباب الخواية ، وفشا ذلك منه في طبقات الشعب ، وساعد على ذلك تبرم الناس بما كان حكم المطهرين الغلاة قد فرضه عليهم قبل ذلك من كبح وتزمت ، وبدا أثر ذلك الترف والفساد الخلقى في درامة ذلك العهد .

وانتشر الترف كرة أخرى في بعض القرن الثامن عشر بين طائفة أرباب الأعمال الذين أثلوا لأنفسهم ثروات ضخمة بشريف الوسائل وخسيسها في الولايات الهندية قبل أن تشرف الحكومة الانجليزية على ادارتها ، وعادوا الى أوطانهم مكاثرين بطارف أموالهم مستكثرين من مظاهر الأبهة والفخفة ، وعرفوا بالنواب تشبيها لهم بأمراء الهند ، ورأى فيهم أدباء العصر مواضيع شائقة لكتاباتهم الساخرة ، وأولع بهم ماكنزي وكوبر وغيرهما طويلا ، على أنه في كلتا هاتين الحالتين كانت النوبة عارضة قصيرة الأمد ضيقة الحيز ، صمد لها الخلق القومي ، والطبع الانجليزي الهادي ، وتغلبت عليها تقاليد الأيام المتعاقبة وعاد الاعتدال شعار البلاط والمجتمع والأدب .

فالأدب العربي قد حوى من آثار الترف الشيء الكثير ، بل حوى من ذلك ما لعل أدبا آخر لم يحوه ، وحفل بالرائع من الأوصاف لتلك الآثار ، وإن نبا بعضها أحيانا عن الذوق السليم والخلق الكريم . ولا ريب في أن ميله هذا الى زخارف العيش وولعه بتصويرها كان مما جنح به أخيرا الى زخرف الألفاظ وأنيق المعاني . أما الأدب الانجليزي فظل رجاله غالبا بعيدين عن موائد الأمراء ، وظل الاعتدال في أغلب العصور رائده ، بعيدا عن زخارف الحياة المترفة وزخارف الألفاظ المنمقة معا ، وكان رجاله أشد شغفا بتصوير دخائل النفس الانسانية ووصف محاسن المناظر الطبيعية منهم بوصف قصور الأمراء ومحافلهم ومواقبهم .

أشكال الأدب

فى الأدبين العربى والانجليزى

تبدأ العلوم والفنون الانسانية كلا مختلطا كالسديم فاذا ما ارتفعت وتطورت تبينت أجزاؤها وانفصلت ووضحت أشكالها وتميزت ، وتعددت مناحى كل علم وفن وتوفر بعض ممارسى العلوم أو الفنون على ناحية من نواحي العلم أو فرع من فروع الفن وتوفر غيرهم على غيرها ، كل يتبع ما هو أقرب الى طبعه وأوفق لعبقريته وأتم تعبيراً عن منازعه وكلما ارتقى العلم أو الفن ، جادت فيه ضروب وأشكال لم تكن من قبل وتولدت من الأشكال القديمة أخرى غيرها .

وذلك شأن الأدب : يبدأ بانفصال الشعر عن الموسيقى فاذا هو ألحان وأهازيج ساذجة المعانى ، ثم ما يزال جانب المعنى منه يقوى حتى يطفى على جانب النغم ، حتى يبلغ الشعر أشده . وما تزال الأمة مثبديّة ، فاذا ما نالت حظاً من الحضارة والثقافة ظهر النثر بجانب النظم ، حاوياً لكثير من مميزات الشعر الفنية : كالتعبير عن الوجدان وحسن اختيار الألفاظ المعبرة ، فاذا ما استمر الأدب فى رقيه تعددت أشكال النظم والنثر واختلفت صورهما ، واجتذب كل شكل فريقاً من الأدباء يصطفونه دون غيره أو بجانب غيره ، لاجراج أفكارهم وأحاسيسهم فى قالبه ، وابرار نظرتهم الى الحياة فى أوضاعه وحدوده . فتعدد أشكال الأدب من دلائل رقيه وابتعاده عن عهود الابتداء وعصور الإبهام والعموم ، وهو أيضاً من دلائل سريان روح التجديد فيه : فمن طبيعة النفس الانسانية أن تسمأ النعمة الواحدة اذا كررت ، مهما كانت عذوبتها أو براعة صاحبها ، وتستوى فى ذلك الموسيقى وغيرها من الفنون ، فاذا ما سئم جيل شكلاً من أشكال الأدب ، أو أصبح ذلك الشكل الأدبى غير ملائم لعصره ، فان روح التجديد اذا كانت هناك تدفعه الى ابتكار شكل طريف ملائم ، وهجر الأشكال القديمة مهما كانت منزلة الأدباء المتقدمين الذين مارسوا تلك الأشكال ، ومهما يكونوا قد أودعوها من صادق الأفكار والشعور ، ومحكم الصور لعصورهم .

وقد شهد الأدب الانجليزي عصر اليزابث ، وهو ما يزال مختلط الأجزاء ، مضطرب الصور ، لم تتميز أشكال منظومه ومنثوره ، بل لم تستقم بعد أساليبه الشعرية ولا لغته الكتابية ، فما لبث الشعر على أيدي شكسبير ومعاصريه من مؤلفي المسرح ، وسبنسر وملتون ثم دريدن ، أن كسب لغة نقية مختارة ، وأشكالا واضحة بيّنة ، صالحة للتعبير عن شتى الأفكار وتصوير مختلف الحالات النفسية . وضع شكسبير أساس الشعر المرسل ، ورفع بعبقريته مكانة ذلك الضرب من الموشحات المعروف بالسونيت ، وهو موشح من أربعة عشر بيتا متداخلة القوافي على هيئة تبرز الفكرة الوحيدة التي تتضمنها السونيت ابرازا رائعا ، ووضع سبنسر موشحه المنسوب اليه والمكون من أبيات تسعة متداخلة القوافي آخرها أطول عروضاً من سائرهما ، الأمر الذي يجعل الموشح أداة صالحة للقصص الشعري الرصين .

وجاء ملتون فأدخل الملحمة في الشعر الانجليزي الحديث : والملحمة أعظم ضروب الشعر شأنًا ، وأكثرها كلفة ، وأبعدها منالا لما تحتاج اليه من طول التوفر ، وعمق البصر من الأساليب الشعرية ، وامتداد الخيال ، وقد قدر كولردج الزمن اللازم لإنشاء ملحمة بعشرين عاما : ينصرف الشعراء في عشرة منها الى الاستعداد والتحضير ، ويتوفر في عشرة على الإنشاء والتجويد ، وجاء دور دريدن عقب ملتون فوطد أساس ضرب آخر من النظم يدعى الأود Oad أو القصيد الخطابى ، يمتاز بوعورة عروضه وقوافيه ، ويوجه الخطاب فيه عادة الى شيء مخصوص أو فرد معروف أو ذكران ، ورفع دريدن كذلك مكانة «الدوبيت» في الشعر الانجليزي ، أعنى القصيد المؤلف من أبيات ثنائية القوافي ، محكمة الوزن ، مصقولة اللفظ ، وهو الضرب الذي تلقفه عنه بوب فزاده صقلا واحكاما ، وساد من بعدهما القرن الثامن عشر .

توطدت دعائم الشعر وتميزت أشكاله فيجاء دور النثر ، وهو دائما متأخر عن الشعر في الظهور ، ودعت الأحوال السياسية والاجتماعية التي سادت القرن الثامن عشر الى احتفاء الأدباء والمثقفين بالنثر : فقد كانت النظم الدستورية قد استتبت ، والرأى العام قد تكون ، والطبقة الوسطى قد تعاطم شأنها ، والحركة العلمية قد نشطت بعد ما اقتبسته انجلترا من علوم أهل القارة ، والصحف قد انتشرت معتمدة على الرأى العام والطبقة الوسطى ، وقد غبر عهد المخاطر والجهاد الذي تجلى في حكم اليزابث وثورة المطهرين ، وألهب خيال الشعراء ، وجاء عهد الإصلاح والعمل الرزين في الداخل والخارج .

وفى أول ذلك القرن كان النشر الانجليزى حطاما مبعثرا من الألفاظ المتنافرة والتعابير المبعثرة ، والأساليب العامية ، وزخارف اللفظ ، وبهارج المعنى ، والتقليدات الفاشلة للأسلوب اللاتينى المتطاوّل الجمل ، فما لبث دريدن وكاولى أن هذبا من حواشيه وقوما من معوجه ، ونقياه من الغريب والسوقى ، فظهر النشر الانجليزى الحديث المعروف ببساطة ألفاظه ، ولطافة مأخذه ، وسلاسة تعابيره ، ثم تلاهما أديسون وسنيل فوطدا دعائم « المقالة » فى الصحف التى تعاونوا فى إصدارها ، فاذا المقالة شكل من أشكال الأدب جم المزايا • فهى تدور حول فكرة مفردة تكون وحدتها ونجم حولها شتى الأفكار الثانوية ، وتتناول ما شاء الكاتب أن يدرسه من مسألة اجتماعية أو نقد أدبى أو حالة نفسية ، أو نظرة فى الفنون •

ومن المقالة نمت بذور شكل آخر من أشكال النشر دعت اليه طبيعة ذلك العصر : هو القصة التى تكونت من اجتماع عدد من المقالات تدور حول شخصيات معينة ، فما لبث الذوق العام أن استطرفها ودرس الأخلاق واستكنه دوائر النفس الانسانية ، وتوفر عليها من كبار الكتاب أمثال ريتشاردسن وجولدسميث ، وجين أوستن ، فأحكموا أوضاعها ، وهذبوا حوارها ووضحوا شخصياتها ، وأسلموها الى القرن التالى شكلا من أشكال الأدب جم المزايا مبشرا بمستقبل حافل •

وكأن النشر لم يقنع بهذا الضرب الخيالى من التأليف وآثر أن يجعل من الحقيقة الواقعة مادة للفن كما جعل من القصص الخيالى ، ويتخذ من الماضى مرادا له كما اتخذ من الحاضر فالتفت الى التاريخ ، وكان من قبل يدون باللاتينية أو بانجليزية ملتوية التراكيب مختلطة الحقائق بالأوهام والأكاذيب ، فبعث فيه الروح الفنية التى شملت نواحي الأدب ونفخ فيه النزعة العلمية التى تمشيت فى سائر العلوم ، ولم ينصرم القرن الا وقد ظهر أكبر أثر تاريخى فى اللغة ، وهو كتاب جيبون عن الدولة الرومانية ، واذا النشر الفنى قد كسب شكلا جديدا هو التاريخ الفنى للعصور أو الوقائع أو الأبطال •

وهكذا صار الأدب الانجليزى أدبا رفيعا متسع الجوانب متميز الأشكال ، مشتملا على أرقى ما لدى الأمم الأخرى من الصور الأدبية ، يقدم لممارسيه ما يختارونه من أشكال الأدب ملائما لطبائعهم ، ولقرائه ما يؤثرونه موافقا لأذواقهم ، وورث القرن التاسع عشر عن القرنين السابقين له تراثا ضخما من أشكال المنظور والمنثور وآثار الفحول فيهما ، فلم يكدهم يحسن حاجة الى استحداث أشكال أخرى ، بل انصرف الى استغلال ما بين يديه

منها ، ولاءم بين بعضها وبين حاجاته ، وآثر بعضا منها على بعض : فعالج وردزورث وتينيسون الشعر المرسل ، وعالج سودى وموريس وهاردى الملحمة واختلفت حظوظهم من النجاح ، واستغل هازلت وثرى وهاردى المقالة فى النقد الأدبى ، وعالج ماكولى وكارليل التاريخ . وهجرت الرواية التمثيلية الشعرية وحلت محلها أخرى نثرية أكثر التزاما للواقع وملاءمة لحاجة العصر ، وتعاضلت مكانة القصة الطويلة والصغيرة حتى فاقت ما عداها ، والتفتت الى تصوير المجتمع الجديد القائم على الصناعة والمخترعات .

أما تاريخ الأدب العربى منذ نهضته بقيام الاسلام وتوطد دولته ، ودخوله فى طور الحضارة والثقافة ، فمغاير لهذا : فقد ورث عن الجاهلية لغة قوية غنية تبشر بمستقبل عظيم ، وشعرا رصينا محكم الأوزان متعدد موطد الأركان ممدد الأساليب مؤدنا برقى الى أبعد الغايات ، فاذا الأدب يجمد فى أول الطريق ، ويجتزئ بماضيه عن مستقبله ، ويطوى زهاء خمسة قرون من عهود الحضارة والثقافة ، فلا يتفرع كما تفرع الأدب الانجليزى الى أشكال متميزة ذات خصائص واضحة ، بل يظل كل من الشعر والنثر سديما مشوشا كما كان فى أول بدئه ، وينبغ من فحول العربية أمثال ابن المقفع والجاحظ وابن الرومى والمتنبى والمعري ، فلا يعنيه غير تقيل السلف فيما درجوا عليه من مناهج القول ، ولا تتوطد على أيديهم أشكال جديدة للنظم والنثر ، ولا يؤدون للعربية الخدمات الجلى التى أداها للانجليزية أبناؤها .

طوى الأدب العربى عصور ازدهاره وهو يضرب على نغمة واحدة فى النظم وأخرى فى النثر ، وفى النظم ظلت القصيدة المفردة القافية ، شير المحدودة الطول ، غير الموحدة الفكرة ، غير المعروفة العنوان ، هى الشكل الشعرى الوحيد ، يصوغ فيه ابن القرن الخامس أفكاره كما صاغ الجاهلى أفكاره من قبل ، وفى النثر ظلت كتب الأدب المبهمة العناوين المشتجرة الفصول والفقرات المتباعدة المواضيع ، المختلطة النظم بالنثر ، والأدب بالدين ، والقصص بالنقد ، هى الضرب السائد منذ انتشرت الكتابة الى أن خمد الأدب .

وفى الشعر ابتكرت الموشحات ، فلم تكن غير زخارف من القوافى ينمقها الناظم كما شاء دون أن تكون أوضاع قوافيها معينة على إبراز المعانى ، ولم ينتشر استعمال تلك الموشحات واقتصرت على ضروب من الشعر الوجداني الضئيل الحظ من المعنى . قال ابن رشيق : « وقد رأيت

جماعة يركبون الخمسات والمسمطات ، ويكثرون منها ، ولم أر تقدما حاذقا صنع شيئا منها لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه . . . وهذا الجنس موقوف على ابن وكيع والأمير تميم ومن ناسب طبعها من أهل الفراغ والرخص ، وفي النثر ابتكرت المقامة فاذا هي أشد من الموشح احتفاء باللفظ ، واذا هي لا تفوقه ذيوعا ونجاحا ، وحاكته عقما فلم ينتج عنها ابتكار جديد ، كما مهدت المقالة في الانجليزية السبل مثلا للقصة .

فاذا بحثت في الأدب العربي عن أشكال أدبية متميزة متعددة لم تجدها ، وإنما ظل الأدب كما بدأ سديما مختلطا متشابها : ارتقت معانيه وتعددت أغراضه ورقمت ديباجته ، ولكن جمده شكله فلم يتحول الى أشكال جديدة ، وظل النقاد لا يقسمون الأدب الى أكثر من نظم ونثر ثم يقفون ، ويفاضلون بين النظم والنثر مفاضلة ليس لها موضع ولا هناك ما يسوغها ، فان أرادوا التوسع فاضلوا بين الرجز والقصيد ، وقدموا شاعرا على شاعر لبراعته في الطول أو في القلح ، وهي مفاضلات كذلك لا موضع لها ولا مبرر ، لأن هذه الأشياء متقدمة الذكر ليست بأشكال للشعر متميز كل منها بخصائص في الأسلوب أو في الموضوع ، تجعل شكلا منها أصعب على الشاعر المعالج من شكل آخر أو أبعد متناولا .

وإنما جنح بالأدب العربي الى هذه الحال من الجمود الشكلي التي لا يجد معها جديد ، ولا يحل طريف محل عتيق ، ولا يتسع أفق الأدب ولا تتشعب مناحيه ، عوامل تقدمت الإشارة اليها مرارا وكان لها أبعد الأثر في تاريخ الأدب العربي ، بل كان لها فيه ضرر بليغ ، اذ باعدت بينه وبين أن يكون دائما تعبيرا حرا صحيحا عن شعور الفرد والمجتمع ، متطورا مع حاجات الأجيال وتجدد شئون الحياة ، وتلك هي ثغلب روح المحافظة على روح التجديد فيه ، واعتماده على تشجيع الملوك واعتزاله الآداب الأخرى ، واحتفاله باللفظ قبل المعنى .

فلو عني أدباء العربية بدراسة الآداب الأخرى حق العناية لاطلعوا على أشكال للأدب تستحق أن تنقل الى العربية فتكون باعشا على ابتكار غيرها . ولقد اهتمدى الأدباء الانجليز في كل ابتكاراتهم سالفه الذكر بهدى الأمم الأخرى : فالسونييت اقتبسوها عن بترارك ، والشعر المرسل أخذوه عن الدراما الاغريقية ، والأود نقلت عن بندار ، والملحمة تأثر فيها ملتون أثر هوميروس وفرجيل ، والمقالة أوحى بها كتابات مونتين ، وليس يدين

الأدب العربي بشيء من هذا الغيرة من الآداب ، ولو فعل لجاء أرحب آفاقا وأوضح مناهج وأبرز أشكالا •

استنقل الأدب العربي بنفسه واعتزل غيره ، ولم يكن له من داخله حافز الى التجديد والابتكار : فان نفس السبب الذى صده عن آداب الأمم الأخرى صدف (١) به عن تجديد نفسه ، ذلك السبب هو اكبار المتقدمين واجلال آثارهم اجلالا لا مطمع معه الى تنكب طرائقهم أو الحيدة عن أساليبهم ، وغير هذه النزعة المحافظة التى كانت تسود الأدب الانجليزى: كانت روح التجديد متمكنة من سائر فحوله ، لا يمنعونهم اعجابهم بمتقدميهم من الأعلام عن اختطاط غير طرقهم ، وبفضل هذه الروح المجددة كان الأثر المنقول عن الآداب الأجنبية لا ينشب أن تتماشا الانجليزية ويونع فيها ، ويؤتى ثمرا جديدا لم تحظ به الآداب المنقول عنها ، فالسوانيت أصبحت فى الانجليزية ضربين : الشكسبيرى والميتونى ، والمقالة هذبت واستخدمت فى مقاصد لم تخطر لمونتين على بال ، وكانت أداة اصلاح اجتماعى نادر المثال ، وخرجت من غصونها القصة الاجتماعية •

وولوع أدباء العربية بالألفاظ استغرق كل تفكيرهم واجتهادهم : ألهاهم احتيال الحيل فى تنسيق الألفاظ واظهار البراعة فى استخدامها عن التفكير فى المعنى أو الشكل الأدبى الذى يصاغ فيه ، فابتكروا كثيرا فى البديع الذى يتعلق باللفظ ولم يبتكروا فيما يتعلق بالشكل الأدبى • ولما أراد شاعر مجيد كالمعري أن يأتى بجديد فى القوافى لم يتجه الى تحرير الشعر من بعض قيودها أو تذليلها لابرار المعنى على أحسن صورة ، بل زادها قيودا فضاعف حروف الروى فى لزومياته ، لأنه كان يحس أنه يفعل ذلك دون أن يخرم التقاليد الأدبية المتخلفة عن الأقدمين ، ودون أن يتهمة متهم من النقاد كابن رشيق « بعجزه وقلة قوافيه وضيق عطنه » •

واعتماد أدباء العربية على نوال الأدباء ، وترددهم على أبوابهم ، ومشاركتهم ايامهم فى لذاتهم وترفهم أحيانا ، أو دوام طموحهم الى تلك اللذات والمتعات ، وذهاب أيامهم بين مرارة الحرمان ونشوة اللذات ووخامة البشيم والخمار ، كل ذلك لم يدع لهم وقتا للتوفر على الأدب الصحيح والانصراف الى الفن الرفيع ، ولم تقم أمامهم حاجة الى الابتكار والتجديد ، اذ كان الأمراء قانعين أن يقال فيهم مثل ما قيل فيمن قبلهم من الملوك

(١) صدف : اعترض وعال •

الفخام وكما قيل في أولئك الملوك ، فكان حسب الشاعر أن يقتفى أثر من قبله ويحذق وسائله في اقتناص معاني المديح .

أما فحول الانجليزية فكان معظمهم بمنجى من هذه الحاجة الملحة ، ومعتصم من حياة الفلاكة واللذازة التي كان يحيها كثير من أدباء العربية، وكان لهم بفضل كدهم في سبيل الحياة أو بفضل ما ورثوه من ثروة غنى عن سؤال الأمراء ، ومتسرع من الوقت للاعتزال في صومعة الفن الخالص من شوائب المادة ، بل كان منهم أفراد كوردزورث وشلي وتنيسون عاشوا في رغد دون أن يعملوا في حياتهم عملا سوى أن يقرأوا ويكتبوا ما يسر نفوسهم ويرضى الفن وحده . ولا ريب في أن أمثال هؤلاء أشد رغبة في التجديد والاختراع ، وأقدر على القيام بالتجاريب الأدبية في الأشكال والصيغ والمواضيع ، ممن يقضون العمر نظما للممدح والسؤال وترقبا للرضى والانعاس . وقد فطن ابن رشيقي في عبارته السالفة الى ضرورة اتساع الفراغ للتفنن في ضروب القول وان يكن قد قرن ذلك بذكر الرخص وأضافه الى البطالة والعبث .

فالأدب الانجليزي ظل دائما على صلة بالحياة وحقائقها ، يعينه على ذلك ما به من روح التجديد ، وما أخذ نفسه به من التزود من الآداب الأخرى ، وما تمتع به أقطابه من وقت قصروه على فنهم والحياة دائبة التحول والتجديد ، فلا ندحة للأدب اذا توثقت صلته بها عن تحول أشكاله وتجدد صوره وأزيائه . أما الأدب العربي فباعده بينه وبينها تلك العوامل السالفة الذكر ، فلا غرو أن جمده فلم تتجدد أشكاله مع مرور الزمن ، وتحول الأدب الانجليزي في قرنين من أدب ناشئ مختلط الأوضاع الى أدب راق متجدد الصور متعدد الأشكال .

الأدب العامي

فى الأدبين العربى والانجليزى

بداوة الأمة هى عهد طفولتها : فيها يكون أدبها ساذجا على صدق عاطفته ، ضئيل الحظ من الفكر المستقيم على قوة شعوره ، ويشبه دخول الأمة طور الحضارة والثقافة بلوغ الناشئ الحلم : اذ تنضج أفكارها وينتبه وعيها بما يحيط بها من مظاهر الكون ويزداد تأملها فيها واتصالها بها ، ومن ثم يزداد أثر الفكر السليم والنظر الثاقب فى آدابها بجانب الشعور الحار والعاطفة المتدفقة ، على أنه لما كانت العاطفة عادة تقتصر على فريق من أبناء الأمة دون فريق ، فانه يصير للأمة المتحضرة أدبان : أدب راق للخاصة وأدب عامي للدهماء ، ولا ريب فى أنه كلما ازداد انتشار التعليم فى الأمة كان ذلك كسبا للأدب الراقى ، ولم توجد بعد الأمة التى يتوحد فيها الأدبان .

وتزداد الهوة بين الأدبين تدريجا بارتقاء الحضارة وازدهار الثقافة وترفع المجتمع : فتدخل الأدب الراقى النزعة العلمية، وترتقى لغته وتتسع جوانبها ، وتتهذب لهجته وترق حاشيته ، ويزداد تراثه من جيل الى جيل لاستعائته بالكتابة ، أما الأدب العامي فيتداول بالرواية ، ولذا يظل فى تجدد وتحول وزيادة ونقص ، تلونه المجتمعات المتعاقبة بألوانها ، وتترك فيه العصور المتوالية مياسمها ، ويظل ساذجا كأدب البداوة الأولى : يهتف بالغرائز والعواطف البسيطة ، ويتحدث بأحلام النفس الانسانية فى السعادة المطلقة وميلها الدائب الى الجمال والقوة والحق والفضيلة ، ويظل على ما يشوبه من خرافة وغرارة هو الثقافة الوحيدة التى تتمتع بها الطبقة العاملة .

وقد كان للعرب على عهد حضارتهم أدبان كذلك : ساعد على قيام الأدب الراقى اعتداد أشراف العرب بأدبهم القديم ، وتمسكهم بلغتهم ، وانتشار الثقافة والعلم التى ورد مناهلها فريق من الأمة دون فريق ، وساعد على ظهور الأدب العامي اختلاط العرب بالأمم وفساد لغة الكلام . وصار للانجليز كذلك أدبان منذ تحضروا وثقفوا وامتزجت اللغة الانجلوسكسونية باللاتينية ، واستخدمت فى العلوم والآداب ، وتوطدت

قواعدها واتسعت جوائبها وأصبحت لغة مجتمع راق ، فانفصال الأدبين الخاص والعامى أحدهما عن الآخر جاء مختلف الكيفية فى الأمتين : ظهر الأدب العامى فى العربية بفساد اللغة الفصحى وانحطاطها ، وظهر الأدب الفصيح فى الانجليزية بارتقاء اللغة العامية وارتفاعها .

تختلف الأمتان فى هذا ، وتختلفان أيضا فى علاقة الأدبين الفصيح والعامى فى الأزمنة التالية لانفصالهما : وفى العربية كانت الهوة بينهما سحيقة والاتصال يكاد يكون معدوما ، لشدة ترفع الأدب الفصيح عن صاحبه ، بل تجاهله لوجوده ، أما فى الانجليزية فكانت المسافة بينهما أقرب ، والاتصال أوثق ، وظل للأدب العامى دائما للمثقفين اعتبار ، ورحب به الأدب الفصيح مرارا وخلطه بنفسه ، واقتبس أساليبه وصوره ، واصطنع مواضيعه ونغماته ، فأفاد بذلك فائدة كبرى .

فالأدبان الفصيح والعامى وان اختلفا تهذب لغة واستقامة تفكير وعمق نظرة وتنوع أشكال ، يستقيان من معين واحد ، هو النفس الانسانية ، بميولها وأحلامها وآمالها . وإذا امتاز أولهما بصفات هى وليدة الحضارة العالية والمجتمع الراقى والعلم المنظم ، فان الثانى يمتاز بصفات الصدق والبساطة والقرب من الطبيعة التى هى مرجع كل فن ، والأدب الفصيح عرضة من أن الى آن لغلبة اللفظ فيه على المعنى ورجاحة الزخرف على الجوهر ، وظهور التأنق والتحدلق على الشعور الصحيح والطبع المرسل ، فهو بحاجة دائما الى العودة الى الطبيعة ، وخير سبيل له اليها الأدب العامى ، اذا نقاه من أوشابه واستخلص أجود عناصره .

ظل للأدب العامى فى انجلترا دائما اعتبار ، وظل كبار الأدباء مهتما سميت ثقافتهم واتسعت نظرتهم الى الحياة على علم به : فشكسبير وسبنسر وملتون طالما استقوا من معينه قصصا سائغا ضمنوه آثارهم ، والتقطوا من كنوزه ألفاظا معبرة ألحقوها باللغة الشعرية الراقية فصارت من بنيتها ، وأتيح للأغاني الشعبية من حين الى حين أفراد من خاصة المثقفين عنوا بجمع ما وصل الى عهودهم منها ، فكانت تلك المجموعات نصب أعين الشعراء ، يتخذون منها مواضيع لأشعارهم أو يحاكونها فى الأسلوب والنظم .

وكان لتلك الأغاني فضل عظيم فى بعث النهضة الرومانسية فى أوائل القرن التاسع عشر ، بعد أن اختنق الشعر فى جو المدينة وأثفاته قيود الألفاظ والتقاليد ، فقد انصرف جمهور المتأدبين عن ذلك الضرب

المتكلف من النظم الى مجموعات الأشعار الشعبية التي توفر على جمعها ونشرها اذ ذاك نفر من الأدباء ، وضمنوها ما وصل اليهم من مقطوعات منذ عهد القرون الوسطى تنازلا ، بعضها يدور حول السحر والطلاسم ، وبعضها من نسج الخرافة ، وبعضها مزيج من الخرافة والتاريخ ، وكلها مملوءة بحب الطبيعة ووصف مناظرها ، وكان لاسكتلندا وأدبائها فضل كبير في تلك الحركة ، فقد أخذ الكثير من الأغاني من أدبها العامي ، وقام أدباؤها بالجانب الأكبر من ذلك الجمع والنشر ، وقاموا بالرحلات بين أريافها وحزونها ينقلون عن الزراع والرعاة أغانيهم وأسمارهم .

ومن الاسكتلنديين أيضا كان الرعيل الأول من الشعراء الذين نظموا أشعارهم في التغنى بالطبيعة وحياة البسطاء من الفلاحين والرعاة وحياة الفروسية الغابرة ، ومن أولئك ألان رمزي وروبرت برنز ووالتر سكوت . وقد كان ثاني هؤلاء فلاحا قححا ، فعبر في شعره عن حياة فلاح اسكتلندا وتقاليدهم وأفراحهم وأتراحهم ، أما الثالث فقد كان على نقيض ذلك أروستقراطيا سليل أسرة تمت الى فرسان العصور الوسطى ، فاحتفى بشديد الاحتفاء بالأغاني الراجعة الى تلك العصور ، وازداد شغفا بالأغاني الشعبية حين اطلع على ما ترجم منها عن الألمانية ، فطاف في اسكتلندا طلبا للاستزادة ، وجعل محصوله من كل ذلك مادة لأشعاره وقصصه التي رفعت في زمنه وبعده الى مصاف كبار الأدباء ، وأكسبته شهرة عظيمة في القارة الأوروبية .

وفي هذا الجو المملوء بحب الطبيعة والبساطة والشعور الصادق ، نشأ وردزورث وكولردج ثم شلي وكييتس ، وهذه الروح الخافقة المأخوذة عن الأغاني الشعبية هي التي اوحى اليهم أشعارهم البديعة وجعلتهم ينهجون بالشعر نهجهم الطريف . وكان وردزورث أحرص الجميع على اختيار المواضيع البسيطة لقصيده ، واختيار أشخاصه من بين الريفيين والدهماء ، واستعمال ألفاظهم بذاتها في شعره ، وقد جمع باكورة ما نظمه على ذلك النمط في كتابه « الأغاني الشعرية » الذي أخرجه بالاشتراك مع كولردج ، وصدره بمقدمة شرحا فيها المذهب الجديد المستمدة روحه من روح الأغاني والأقاصيص العامية .

ووجد الأدب العامي لنفسه مسلكا جديدا الى الأدب الفصيح ، حين تقدمت القصة وتناولت الحياة الاجتماعية بالوصف الدقيق ، وأولعت بتصوير شتى الشخصيات من الطبقات الفقيرة والأوساط الريفية ، وتناولت معاملات تلك الطبقات والأوساط ومحاوراتها وعقلياتها بالعرض

والتحليل ، وتوخت الأمانة للواقع بنقل ألفاظ القوم ومحاكاة أساليبهم
فى الخطاب ، وفى روايات هاردى تصوير لكل ذلك دقيق لا يبارى دقة
ونفاذ بصيرة ، وهكذا كسب الأدب الفصيح كسبا جديدا من الأدب
العامى .

أما فى العربية فكان نصيب الأدب العامى دائما الزراية والتجاهل ،
وكان أول ما يأخذ به المتأدب نفسه التخلص من شوائب العامية لفظا
ومعنى وأسلوبا ، وشر ما يوصم به اللفظ أنه عامى ، أو معنى أنه سوقى ،
وأبعد ما يفكر فيه الأديب أن يخالط العامة أو الزراع ليأخذ عنهم
ما يتحدثون فيه وما يتأدبون به ، من قصص ممزوج بالخرافة ، وغناء
متسهم بالسذاجة ، أو يطوف فى الأرض طلبا لذلك كما طاف سكوت
وأمثاله فى شعاب اسكتلندا ، انما كان أدباء العربية يشدون الرحال الى
البادية طلبا للفصيح من الكلام والأصيل من الأساليب ، والمأثور من أقوال
العرب يتخذ حجة فى المناظرة ، وأنموذجا فى الانشاء وقد عيب على بشار
قوله فى جارية :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

لأنه تناول موضوعا بسيطا عاميا ، وتحدث فى سذاجة لا تليق
بالشعر الفصيح . وانما كان الأدب العربى فيما ارتضى له أصحابه ،
واستن له نقاده ، أدب بلاط يحفل بذكر الملوك لا السوق ، ونديم
أرستقراط يشارك فى حياة العلية ويشمخ عمن دونهم ، ولا يرى فى حياة
الدهماء وحيا لقول ، ولا موضوعا لتفكير ، فلم يكن من شعراء العربية
من يحتفى بوصف أشخاص قريته كما فعل جوالد سميث فى « القرية
المهجورة » وصفا كلة حب وحرارة ، ولا من يرثى أبناء القرية فى مراقدهم
الآخيرة ، وهم الذين أفنوا العمر كذا دون أن تسمع الدنيا بأسمائهم أو
يصعدوا الى المجد على اكتاف غيرهم أو دمائهم ، كما فعل جراى فى مرثيته .

وقد أثر عن بعض شعراء العربية كأبى نواس وأبى تمام ، أنهم
كانوا يتلقفون أحيانا أقوال العامة فيصوغونها شعرا ، كالذى رواه
ابن الأثير من أن أبا تمام وصل من بعض قصيده الى قوله : « وأحسن
من نور يفتقه الصبا » وأرتج عليه ، حتى مر بالباب سائل يقول :
« من بياض عطاياكم فى سواد مطالبنا » ، فأكمل أبو تمام البيت :
« بياض العطايا فى سواد المطالب » ، على أن ذلك كان نادرا ضئيل

الأثر • أما الاحتفال للأدب العامي ، ومحاولة الانتفاع به ، والرغبة في جمعه ، والعمل على تلقيح الأدب الفصيح بعناصر الحياة فيه ، فذلك كان بعيدا جدا عن أذهان أدباء العربية •

لم يستفد الأدب العربي الفصيح من شقيقه العامي شيئا ، مع أنه كان أحوج كثيرا من الأدب الانجليزي الى تلك الاستفادة ، بل لعل رفضه الاستفادة من أدب العامة كان من أسباب اضمحلاله وسقوطه : فقد ابى الأدب العربي الا اعتزال أدب العامة بنفس الاصرار والشموخ اللذين اعتزل بهما آداب الأمم الأخرى ، وتعالى عليه تعاليه عليها ، ورأى المسعودي وابن النديم نسخا من قصص ألف ليلة وليلة ، التي بدأت تتجمع حولها آداب العامة فاستخفا بها وحقراها ، ولم يخطر لهما أن بها مادة لعبقريّة الأديب أو لقاحا للأدب ، سخرا من الأقاصيص الشعبية في القرن الرابع الذي كانت الصنعة اللفظية فيه قد ركبت الأدب ، والتقاليد قد كبلت المظلوم والمنثور ، ولو التفت الأدباء الى ذلك الأدب الشعبي الناشئ واستوحوه جديدا من القول ، لربما شهد الأدب العربي نهضة جديدة وأحياء كالذي شهدته الأدب الانجليزي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي يليه •

والحق أن الأدب العربي العامي قد احتوى من المواضيع الأدبية والأشكال الفنية ما أعوز الأدب الفصيح ، بل انه احتوى من ذلك على ما هو أشبه بالأدب وأنهض بوظيفته وأقرب الى التعبير عن الشعور • والحق أن الأدب الفصيح ليس بالترجمان الصادق المستقل للمجتمع العربي ، ولا هو بالسجل الكامل لنتاج ذهن العربي وخلصة النفس العربية في تعاقب العصور ، والأدب العامي أصدق وأوفى منه في كل ذلك •

فالأدب العامي حافل بآثار الخيال ، مملوء برائع القصص ، وهو ما يعوز الأدب العربي الفصيح منشوره ومنظومه ، فالقصة الاجتماعية ضرب من الأدب لم يألّفه أدباء العربية ، والخيال الذي أولع به الشعراء واشتهر به الباحثري خيال كاذب ، انما هو وهم ومغالطات صبيانية : من توهم أطياف أحبة لا وجود لهم ، واختراع مواقف للموداع لا طائل تحتها ، ولو فطن الأدباء لأخذوا بيد القصة فرفعوها من عاميتها الى لغة الفكر المثقف والوضع المهدب ، فأضافوا بذلك الى الأدب فنا يجد فيه متحولا عن فنونه العتيقة •

والأدب العامي حافل بضروب الأوزان والقوافي الشعرية المتداخلة ، وهي الأشكال التي رفضها الأدب الفصيح وظل متمسكا دونها بالقصيدة

الموحدة القافية ، وأبعدها عن حظيرته فلبجات الى حظيرة الأدب العامى ، على أن تلك الموشحات التى راجت فى الزجل دون الشعر ، أدل على الرقى الأدبى وأقدر على التعبير عن شتى المقاصد من القافية الموحدة ، فذلك فائدة أخرى ما كان آخرى الأدب الفصيح أن يستفيد منها من الأدب العامى ، ولكن الأرجح أن ذبوع تلك التوشيعات فى أدب العامة زاد الأدباء صدودا عنها فيما يحتفون به من أغراض القول .

واسباب هذا الجفاء الذى استحكم بين الأدبين الفصيح والعامى فى العربية هى : روح المحافظة التى سادت الفصيح ، والتبجيل العظيم لآثار الأقدمين ، والاعتداد الشديد بلغة الضاد التى هى لغة الكتاب المنزل والدولة ، وهى عوامل نماها وقواها اعتزاز العرب فى صدر الاسلام بقوميتهم وتعاليتهم عن عداهم من الشعوب ، وحرص أبناء تلك الشعوب على التشبه بهم بحذق لغتهم وتقليد أساليبهم ، كل ذلك جعل للفظ عند الأدباء التقديم على المعنى ، فكل قول عدم اللفظ الفصيح هو عامى سوقى حقير لا قيمة له ، وجعل لأساليب العرب الأقدمين مكانة رفيعة ، فكل قول شذ عنها ناب مستهجن ، وكل احتذاء لها مهما أرققه التكلف وخرج به التقليد عن طور المعقول والمحسوس ، فهو مقبول محدود فى الأدب ، هذا الى ما تقدمت الإشارة اليه من تعلق الأدباء بأهداب الملكية والعلية ابتغاء النوال ، مما نأى بجانبهم عن جانب العامة .

فالادب الفصيح استحال فى حين تلك التقاليد والمراسيم الى قوالب متحجرة ، وأوضاع متصلبة ، غير حر الحركة ولا سهل التجديد ولا قابل لتأثير من الخارج ، لا يتأثر الا بماضيه ، بتراث العرب الأقحاح الذين قصدوا (بتشديد مع فتح الصاد) القصائد ونسبوا (بتشديد مع فتح السين) وفخروا وهجوا وارتجلوا الخطب ، وتلك حال اذا صار اليها الفن جمده وبعد عن الأمانة للحياة والتصوير لحقائقها . وشبيه بذلك ما صار اليه فن النحت وفن التصوير عند قدماء المصريين من جمود وزيف عن الحقيقة ، حين كبلتهم الأوضاع والرموز الدينية .

وقد أصبح لزاما على الأدب الفصيح وقد كبلته التقاليد بالقيود ، وأحاطته الصناعة بالسدود ، أن يترك التعبير الصحيح عن شعور المجتمع للأدب العامى ، وذلك هو الذى تم دون أن يشعر رجاله ، ودون أن يقلعوا عن كبرياتهم وترفعهم عن الشعب . فظلوا فى تقاليدهم الجامدة وبراغانهم اللفظية سادرين ، وقد نما الأدب الشعبى واتسع ، وحوى من صادق المشاعر والعواطف ، وجميل المحاورات والمناظر ، ما أعوز الأدب الفصيح ، وما قرب به الى نفوس الشعب والى نفوس الأمم الأخرى معا :

فقد فطن الأوروبيون من عهد الحروب الصليبية الى ما فى الأدب العربى من جمال وعبقورية ومتعة ، فتداولوا أقاصيصه وأغانيه وحاكوها فى آدابهم الشعبية وخلطوها بها ، وترجموا مجموعات منها الى لغاتهم فى شتى الأزمنة ، ولم يألوها حفاوة وامتداحا ، وعرفوا فضلها فى ادخال العنصر الرومانسى فى آدابهم العالية ، وهى نفس الوظيفة التى أداها أدبهم الشعبى ، أما موقفهم من الأدب العربى الفصيح فكان خلاف ذلك : فانهم كلما حاولوا دراسته والانتفاخ به فى آدابهم صدمهم عنه ما فيه من غرابة مجان متكلفة لا تمت الى الحياة الصحيحة ، ومن زخارف الفاظ يحتفى بها أدباء العربية كأنها حقائق مجسمة ، فاذا ترجمت لم تعد شيئا مذكورا ، فرجعوا خائبين وعزوا تلك الغرابة الى اختلاف عقليتى الشرق والغرب ، وما هو كذلك وانما مرجعها ما خالط الأدب الفصيح من تقاليد جامدة شبيهة بالرموز الدينية ، بعدت به عن التعبير عن شعور النفس الانسانية، شرقية كانت أو غربية .

فالأدب العربى العامى قد احتوى من عناصر الصدق فى الشعور ، وتصوير المجتمع ، ووثبات الخيال ما أعوز الأدب الفصيح كثيرا ، وهو مع ذلك قد لقى الاهمال والازدراء من المتقنين وخسر الأدب الفصيح معونته فى العصور الماضية ، وهو ان لم يكن أخرى من الأدب الفصيح بالدرس ، وأكثر منه فائدة لمؤرخ الأدب والمجتمع ، فليس دونه فى تلك الوجوه ، وهو خليك أن يدرس معه جنبا الى جنب ، وتجمع آثاره المتخلفة من شتى العصور ، ففيها هى ذاتها متعة جليلة ، وفيها بجانب ذلك للشاعر والقصصى ما يبعث الالهام ، ويبسط منادح التفكير والقول ، ويدنى من الطبيعة والصدق .

الانسان

فى الآدين العربى والانجليزى

اذا ما استقر الانسان فى موطن آمن ، وارتقت عقليته ، لم يعد يكتفى بتوفير حاجاته الجسدية واتقاء توارع الطبيعة ، بل بدأ يفكر فى نفسه ومنشئه وغايته ، لم يعد يكتفى بقبول الحياة على علاقتها ومدارة غوائلها ، بل راح يتساءل عن ماهيتها وغايتها وما بعدها ، وأجاب على تساؤله ذاك بما تتيح له عقليته البدائية من تفسيرات فطرية ، بعضها صادق وأكثرها وهمى ، ثم ما يزال كلما ترقى فى مدارج الفكر يعاوده الشك من حين الى حين فى تلك التفسيرات ، ويشور على عقائده المتوارثة ، ويتناولها بالتعديل والتهذيب ، فيكون من ذلك الدين والفلسفة .

ويشارك الأدب الدين والفلسفة فى التعبير عن تأمل الانسان فى نفسه ، وتساؤله عن نشأته ومصيره ، فيحفل الأدب شيئاً فشيئاً بآثار تفكير الانسان فى الحياة والموت ، وافتخاره بقوته وسيادته ، وجزعه من ضعفه وقصور حياته ، واعتداده بمتعته فى مجال العلم والفن والصناعة ، وارتياحه من تساؤل آثاره تلك جميعاً ازاء قوى الطبيعة وأبعاد الكون ، وتصطبغ تأملاته تلك فى عالم الأدب بصبغة البشر والتفاؤل حيناً ، وبصبغة التشاؤم والقنوط حيناً ، حسب ما يسود المجتمع من عوامل الحيوية والثقة بالنفس والاقبال على أسباب المتعة والخير ، أو دواعى الانخزال وسقوط الهمة وفتور العزيمة ، وحسب ما يخالج الأديب الفرد من بشر ملازم أو طارىء ، وتشاؤم مصاحب أو عارض .

فتأمل الانسان فى نفسه ، وتساؤله عن مكانه فى الكون ، واهتمامه الدائب بسبر قواه وامتحان قدرته واستكناه غاياته ومراميه ، كل هاتيك من أظهر ميزات المجتمع المتحضر والأدب الحى ، وقد كان ذلك الاهتمام المايح بالانسان : قواه وطباعه وموطن ضعفه ، ومفاخره ومعايبه ومصائره ومطامحه ، من أبرز ظواهر الحضارة الاغريقية وخصائص الأدب الاغريقى والفنون الاغريقية ، ففيها تنويه بالجمال الانسانى وترنم بالبطولة الانسانية ، وفيها بجانب ذلك عرض لنقائص الانسان ومغامزه ، وفيها اشادة بما تمهد له الحياة من أسباب المجد والابتداع والتمتع والسرور ،

وُتصوير لما تفرضه عليه من هوان وصغر وقهر وآلام • وما تبسط له من فجاج الحرية وما تكبله به من مشعبات القيود ، وليست مواضيع الدراما اليونانية المتعددة في صميمها الا موضوعا واحدا : هو اصطدام مطامع الانسان بصرامة الأقدار •

ولحفول الأدب الاغريقي على ذلك النحو بدراسة الانسان ، سميت الآداب الاغريقية أو الكلاسيكية عامة منذ عهد النهضة الأوروبية ، « بالانسانيات » ، فان الاطلاع عليها لم يكن كشفا للعالم القديم فقط ، بل كان كشفا للنفس الانسانية ذاتها • تلك النفس التي كانت قد أهملت في العصور الوسطى أشد الاهمال • وازدريت شر الازدراء ، بتأثير الكنيسة التي ذهبت في تضليل العقول مذهبا بعيدا ، فزعمت الانسان خاطئا بالطبع ، وعلمت الانسان أن فيه نزعة من الشيطان ، لا يذهب مسها عنهم الا العصا في الصغر ، ودوام التندم والاستغفار في الكبر • وهكذا عكست الكنيسة بجهالتها غاية الدين الذي لم يأت الا لتوطيد ثقة الانسان بنفسه وتمكين اعتقاده بحاضره ومستقبله • فلا غرو أن خمد الأدب في تلك العصور • اذ لا أدب ولا حياة الا حيث للانسان ثقة بالانسان •

وقد ورث الأدب الانجليزي فيما ورث عن الأدب الاغريقي تلك النزعة الانسانية ، وحفل كما حفل أدب اليونان بتمجيد الانسان من جهة ، والأسى لتلاعب الأقدار به من جهة أخرى : فمواضيع روايات شكسبير الكبرى كهملت وعطيل وماكبث هي مواضيع الدراما اليونانية : فهي تدور حول أبطال أو عظماء نالوا من المجد شرف المحترق فضائل الشجاعة والقوة والعقل شأوا عظيمما ، ولكن كل مزاياهم تلك تذهب هدرًا من جراء مغامر في شخصياتهم تتسلل منها أصابع القدر الى سعادتهم فتتغصصها ، والى مجدهم فتثله ، ورواياته بجانب ذلك تعج بشتى الدراسات للطبائع الانسانية ، التي تثير الروعة والاكبار تارة ، والشفقة والأسى مرة ، والاحتقار والاشمئزاز حينًا ، والسخر والضحك طورا •

واذا انتقلنا الى العصر الحديث في الأدب الانجليزي ألفينا نفس ذاك العراك المستمر بين النفس الانسانية الجادة في تحقيق مطالبها ومطامعها ، واثبات شأنها وخطرها ، وبين القدر الصارم القوانين السادر في جبروته • لم يزد بعد تقدم العلم وتذليل قوى الطبيعة الا تجسما واستفحالا • وقد نقله هاردى من عالم الرواية التمثيلية التي تدور حول الأبطال والملوك ، الى القصة المقروءة التي تدرس المجتمع العادي ، وتتناول

أوساط الناس ودهماءهم ، وليست « تس » الفقيرة الا نظيرة « أوفيليا »
المنعمة ، ولا « يهود المغمور » فى طموحه الى القوة الا قريع « ماكبت »
المشهور فى تطاوله الى العرش : مطامح انسانية ، وآمال فى المنعة
والسعادة ، وأقدار ماضية تعترضها وتبطلش وهى عمياء بطش جبارين .

وقد كان الموت ولن يزال عدو الانسان اللدود ، وبلاءه الأكبر ،
واللغز الأعظم الذى استغلق على فهمه ، ووقف له بالمرصاد كأنما يسخر
من كل ما يبنى وما يجمع ، ويتهكم بكل ما يأتى وما يدع ، ويقنعه فى
ذروة نجاحه ومجده وسعادته بعبث سعيه وادراكه ، ومن ثم امتلأت الآداب
بذكر الموت وصولته وازرائه بالحياة والأحياء . واتيانه على الجبابرة ،
وتسويته بين العلية والسوقة ، وبين العالم والجاهل ، وتمزيقه شمل
الآلاف ، وتعقيته لآثار السرور والفوز بوصل الأحبة ، وعبثه بحور العيون
وبياض الأجياد والنحور . وقد تفنن الخيام فى رباعياته فى صوغ هذه
المعاني وتحليلتها بالصور الفاتنة المنتزعة من الطبيعة ومن الجمال الانساني ،
ومجالس الصفو والشراب .

وبجانب الموت تمثلت الرهبة لعينى الانسان فى مظاهر الطبيعة
الرائعة ، وقواها المصطرة ، وفجاجها المترامية ، ومخلوقاتا المقتتلة فى
سبيل الغلب والبقاء ، وصممها عن آلامه وأشجانه ، وغفلتها عن أفراحه
وأفراحه . ومضيتها على عاداتها حسنت به الحال أو ساءت ، وخلودها
على رغم فنائه ، وطبيها جيلا من الناس بعد جيل ، فامتلا الأدب بذكر ذلك
كله . ومن جميل أمثلته مقطوعة هوجو « الطبيعة والانسان » التى يقابل
فيها بين شباب الطبيعة وشيخوخته ، ونضارتها وجفاف عوده ، وبقائها
ووشك ذهابه ، ويتنبأ بقيام جنازته بين معالم أعيادها ، وبمضيه غير
مأسوف عليه منها ، ولا محسوس فقده .

وقد كان شكسبير معنيا بالموت موكلا بالتفكير فيما بعده ، ينطق
بذلك أبطاله كهاملت ، الذى يتأمل فى الموت فى خلوته ، ويؤم المقابر
حيث يرى الحفارين يعبثون بالجماجم . ولا يمل شكسبير ذكر الموت
والبلى ، حتى فى شعره النسبي ، الذى يتسم لذلك بمسحة الحزن
والكتابة . ولشيرلى مقطوعة رائعة فى الموت سارت بعض أبياتها مسير
الأمثال ، وهى تطابق فى شتى المواضع معانى رباعيات الخيام . ومن أحسن
أشعار التأمل فى الموت فى الانجليزية قول كيثس ، وقد كان لضعف بنيته
ما يزال متمثلا شبح الموت : « حينما يخامرني الخوف من أن أقضى قبل
أن أجنى ثمار عقلي الوافرة ، وقبل أن تحويها الكتب المقدسة كما تحوى

البيادر المحصول الناضج ، وحينما أشاهد على وجه الليل المرصع بالنجوم رموزا من الغمام لرواية تجرى فى علو ، وأذكر أنى ربنا لا أعيش حتى أرسم ظلا لها بيد الالهام السحرية ، وحينما أشعر يا جميلتى الوشيكة المضى أنى لن أراك بعد ، ولن أنعم بتلك القوة الساحرة : قوة الحب الأعمى . عند ذلك أقف وحيدا على شاطئ الدنيا الرحيبة ، وأفكر حتى يصير الحب والمجد هباء » .

وتمثلت رهبة الطبيعة لأدباء الانجليزية فى البحر وهياج أواذيه واصطخاب عواصفه ، واطراد ثورته وبعد غوره . ومن روائع آثار الشعراء فى هذا الصدد أبيات تينيسون التى نظمها وقد قصد البحر مفكرا مهموما ، يبغى العزاء عن فقد صديق له حميم ، ومنها قوله : « تكسر أيها البحر على صخورك الباردة الكالحة ، وطوبى لابن الصائد اذ يتصايح هو وأخته لاعبين ، وتمضى الجوارى المنشآت الى مرافئها بسفح التل . ولكن من لى أنا بمصافحة تلك اليد التى غابت ، وذلك الصوت الذى سكت » . واستعار شلى رجب البحر وشدة أسره وصرامة صروفه ، للتعبير عن صرامة الزمان وبطشه بالانسان . قال يخاطب الزمان : « أيها البحر الذى لا يسبر غوره ، والذى أمواجه السنون ، والذى غدت أواذيه أجاجا من مالح دموع الانسان ، والذى يطوى فى مده وجزره أطراف الانسانية ، ويبشيم من فرائسه وان يكن ما يزال يعوى طلبا لسواها فيلفظ بقاياها على شطوطه غير الكريمة ولا الوثيرة » .

واسترعت تفكير الأدباء أحوال المجتمعات التى رضيها الانسان لنفسه مقاما وما يداخلها من نقائص لا يخلو من بعضها مجتمع أو جيل ، وما فى بعض أنظمتها من تقييد للحريات وهضم لحقوق بعض الأفراد أو الطبقات ، فنددوا بتلك المساوىء ونادى بعضهم باصلاح تلك المفاسد التى تهبط بالانسان عن رتبته التى هو جدير بها فى الكون ، وتعرض سيره الى ما ينشده من كمال ، فكان منهم رادة حركات النهوض والاصلاح ، بل نادى بعضهم بفض المجتمع والعودة الى الطبيعة . وبمثل تلك الكتابات الاجتماعية تحفل كتابات فولتير وروسو . وقد كانت هذه النزعة ضئيلة المظهر فى الآداب القديمة ، أما فى الآداب الحديثة فهى تتعظم وتشتد جيلا فجيلا . فالنقد الاجتماعى والحض على الاصلاح غرض حديث من أغراض الأدب يضارع غرضه القديم من التعبير عن الجمال والافصاح عن الشعور الفردى .

فالتفكير فى شأن الانسان ماضيه وحاضره ومستقبله من مميزات الانسان المتحضر المثقف ، وهو لا يكف عن هذا التفكير طوال حياته ، ولا تزال أشباح الماضى والمستقبل والحياة والموت ماثلة أمامه ، يكون لنفسه فى شأنها فلسفة تختلف عمقا واتساعا واقناعا وتختلف فى مدى قربها من اليقين والجزم ، أو قيامها على الشك والرفض . على أن هذا التفكير الانسانى يفرض نفسه فرضا شديدا على كل أديب أو كل مثقف أن كل انسان ، فى فترة خاصة من فترات حياته ، بل أزمة من أزمات وجدانه ، يشتد فيها تفكيره فى نفسه وببنى جنسه ، ويحفزه الى التساؤل والثورة على الحياة الانسانية حادث نفسانى يؤثر فيه أثرا عميقا : من خيبة أمل واخفاق حب أو موت عزيز ، فتتسم آثار الأديب فى تلك الفترة بالتمرد والتشاؤم والكآبة ، وقد يحاول اصلاح العالم دفعة واحدة ويدعو الناس الى حياة جديدة تصورها له أحلامه ثم ما يلبث أن تخلف الحقائق المتحجرة ظنونه وتشبط هياجه وتروض جماحه ، فيعدل حياته بما يلائم ظروف الحياة الانسانية البطيئة التغير الوثيدة الخطى ، فتعود آثاره الأدبية مشرقة بالبشر متغنية بمباهج الحياة بدل الامعان فى التفتيش عن معاييبها ولسريان الحيوية فى دماء الشعب الانجليزى وغلبة التفاؤل على أمزجة أبنائه ، كان أدباؤه اذا راعتهم نقائص الحياة الانسانية وشروها . وأحزنهم ضعف الانسان وشقاؤه ، لم يلبثوا أن يتحولوا عن ذلك الجانب الأسود من الصورة الى جانبها الأبيض ، ويطلبوا العزاء بما فى الحياة من جمال عما فيها من قبح ، فيشيدون بمقدرة الانسان على الجلال وبراعته فى الابتكار ، وبطولته وماضيه الحافل بالعظائم ، ويترنمون بمفاتيح الطبيعة وما يصيب الانسان عندها من رخاء وراحة بال ونفس ، ويطلبون السلوى قبل كل شئ بممارسة فنهم الذى صور تلك الحياة ويحكى حكاية تروى من نفوسهم ما لا ترويه الحقيقة الواقعة ، يصور آلامها تصويرا يخفف وقع تلك الآلام عن نفوسهم ، ويحكى مفاتها ونعمها التى فاتتهم حكاية تشفى صدورهم . فتمثيل الأديب للحياة فى فنه يشعره كأنما قد أحاط بتلك الحياة وتمكن من أعنتها ، ويكسبه ثقة بنفسه وإيمانا بقدرته على الابتداع والاتيان بجديد من عنده .

فتنيسون حين فقد صديقه الحميم سالف الذكر توفر على انشاء قصيدة طويلة فى ذكراه ، ولكنها لم تقتصر على ذكراه بل امتدت الى شتى نواحي الحياة وشملت نظراته العامة اليها ، وشكسبير حين مرت به أزمته النفسية الكبرى باخفاق آماله فى الحب والصدقة ، نفس عن صدره بمآسيه الكبرى ، وفيها لا نرى الانسان العوبة عاجزة فى يد الأقدار ، بل نرى من آثار بطولته ما يملؤنا روعة ويبقى أمامنا نور الأمل ، ووردزورث

حين تبددت أحلامه في المجتمع الانساني الفاضل الذي خال الثورة الفرنسية منجلية عنه ، مرت به غيمة قنوط عابسة لم يقشعها عنه الا تعزیه بمحاسن الطبيعه وقضاؤه الوقت متفينا ظلالها مصورا آثارها في شعره . وفي عبادة الجمال الطبيعي والانسان كان كيتس يجسد مفرع روحه مما يتكنفه من بأساء الحياة وما يمض عيشه من فتكات الداء .

ومن أبدع الأشعار التي تعرض جانبي الصورة ناصعتهما وحالكهما ، وتجسم ضعف الانسان وفناءه ، وتمجد قوته وعبقريته ، مقطوعة شلي المسماة « أوزيماندياس المصري » وفيها يقول : « قابلت مسافرا من أرض قديمة قال : تقوم في الصحراء ساقان من الحجر ضخمتان عديمتا الجذع ، وقد ارتمى بجانبهما وجه مهشم يكاد يغور في الرمال ، تنطق تقطيعته وشفته المعوجة كبرياء وعظمة هادئة ، بأن المسال قد أجاد قراءة تلك الصفات التي ما تزال حية مطبوعة على ذلك الحطام الجامد ، وقد فنيته اليد التي صورتها والقلب الذي غذاها ، وقد لاحت على القاعدة هذاه الكلمات : اسمى أوزيماندياس ، ملك الملوك . انظروا الى آثارى أيها الجبابرة وأقروا يائسين ، وليس بجانب ذلك شيء باق ، قد أحاطت بذلك الحطام الهائل المهدم رمال موحشة منبسطة جرداء تمتد الى ما لا نهاية » ، فهنا وصف شائق أخذ لعظمة الملك وبراعة الفنان ، وتصوير رائع لسلطة الموت وبطشة الفناء .

وفي الأدب العربي نرى تزايد هذا الاهتمام بالانسان نشأته وأحواله ومصيره ، بتزايد حظ العرب من الحضارة والثقافة : ففي الأدب الجاهلي وفي صدر الاسلام لا نعثر الا بالأبيات المتفرقة يتأمل فيها الشاعر في ضعف الانسان وقصر حياته ، وتلاحق همومه ، واتصال آماله برغم ذلك ، وشدة اقباله على الحياة وتغاضيه عما وراءها . وفيما عدا تلك النظرات الخاطفة والمواعظ المعارضة ، لا يكثر الشعراء أنفسهم كثيرا بالتساؤل فيما كان وما سوف يكون ، بل لكل منهم شأن يعنيه من حاضره ، فمتغزل عاكف على هواه مترنم بليلاه ، ومفتخر يشيد بمجد نفسه ومكان قبيلته ، ومداح مجتهد في استندار صلوات الأمراء ، وهجاء ممعن في اثخان غريمه . ومما أثر عن متقدمي الشعراء في التأمل في حال الانسان قول القائل :

منع البقاء تقلب الشمس
وطلوعها من حيث لا تسمى

وقول الآخر :

آلا تسألان المرء ماذا يحاول ؟ أنحب فيقضى ؟ أم ضلال وباطل ؟

ويتزايد التفكير فى خلق الانسان وغايته كلما انتشر العلم والفلسفة : فنرى فى شعر بشار وأبى نواس وأبى تمام من آثار ذلك فوق ما نجد فى شعر الأخطل والشمخ وجميل ، حتى يبلغ ذلك التفكير مداه بنضج العلوم والفلسفة فى القرنين الثالث والرابع ، ويبدو ذلك واضحا فى آثار شعراء العربية الكبار : ابن الرومى والمتنبى والشريف والمعري : لكل من هؤلاء فلسفة انسانية منشورة فى أنحاء شعره ، ونظرة الى الحياة تلائم طبعه ومذهبه : فابن الرومى يرى الحياة فرصة من الجمال الطبيعى والانسانى يجب أن تغتنم ، ومتعة للحس والروح يجب أن تباكر . والمعري يرى حياة الناس شقاء وشرا متصلا . والشريف يرى مثله الأعلى فى الفضيلة والمعالي . والمتنبى يرى الناس سواما يحرق فيهم القتل ويحق لمثله أن يسود فيهم ويعتلى ، فلسان حاله قوله :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم

كما أن جماع فلسفة المعري قوله :

فأف لعصريهم : نهار وحنس وجنسى رجال منهم ونساء

والحق أن المعري كان أشمل هؤلاء جميعا نظرة ، وأنفذ شعراء العربية جميعا فكرة ، وأشدهم شغلا بالحياة ، وعناء بأمر الانسان والأحياء عامة ، وتفكيراً فى ماضى الانسان ومستقبله ، وتبصرا فى أحوال مجتمعاته ودياناته ، وله فى كل ذلك من مستنير الأفكار المصبوغة فى جزل الألفاظ والأساليب ما ينزله أرفع مكانة بين الشعراء المفكرين ، على ما يشوب تفكيره فى أكثر مواضعه من مسحة التشاؤم القاتم المغرق الذى هو وليد عصره المضطرب ، وحياته الكثيبة ، وبنيته السقيمة ، وأعصابه المرهقة . وفيما عدا المعري نرى أدباء العربية عامة أقل عناء بشئون الانسان وشغلا بالحياة وغايتها من أدباء الانجليزية ، وهم أكثر منهم قبولا للحياة على علاقتها . ورغبة فى اغتنام متعاتها والتغاضى عن سوآتها ، وأقل تمردا ولجاجا فى الازمات النفسية . والأديب العربى أكثر تحدثا عن نفسه . وعاداته وآدابه ولباناته منه عن الانسان عامة ، وهذه النزعة السمجة الراضية ترجع الى عوامل أهمها طيب المناخ الذى يبعث البشر والثقة ،

والايمان الدينى الذى بعثه الاسلام فى نفوس أبنائه وبثه فى مجتمعهم ،
والاسلام أكثر تغلغلا فى حياة معتنقيه وتسربا فى أرواحهم وتجسسا فى
مظاهر مجتمعهم من غيره من الأديان . هذا الى أن الحكم المطلق لم يكن
يسمح للأدباء بنقد المجتمع والنظم نقدا جريئا ، وانما كان يروضهم على
الاندماج فى ظروف الحياة المحيطة بهم ، والتعود على اجتناء خيرها واتقاء
شرها ، كما قال الشاعر :

وان امراً أمسى وأصبح سالماً من الناس الا ما جنى لسعيد

فلم يكن أدباء العربية يطيلون الوقوف بمهامه الشكوك ومضايق
الأزمات النفسية ، بل سرعان ما كانوا يشيخون عما يطوف بهم من
خيالاتها علما بأن من أطال الفكر فى الحياة وغايتها ، والانسان ومصيره ،
أقامه الفكر بين العجز والنصب ، كما قال المتنبى ، وحين كانت تطيف بهم
تلك الحالات النفسية العابسة ، ويثير شجنهم وجزعهم ما يلاحظون فى
حياة الانسان ومجتمعه من نقص وشر ، لم يكونوا يتأسون كما يتأسى
شعراء الانجليزية بمحاسن الطبيعة ، فقلما أعاروا محاسنها التفاتا ، كما
أنهم قلما اكرثوا لفجائعتها وأهوالها ، ولو كانوا يتعزون بذكر البطولة
الانسانية ، فما يكاد يكون لها فى آدابهم أثر ، أو بتاريخ الأمم العظيمة ،
فما كانوا يذكرون من أمرها الا غرور مشيدها وتقويض الزمان لأركانها ،
ولا بالتأمل فى مخلفات فنون تلك الأمم ، فما كانت توحى اليهم الا بضعف
الانسان وبطلان مساعيه . وقد التفت المتنبى الى شرقى الامبراطورية
الاسلامية المترامية فقال :

أين الأكاسرة الجبابرة الألى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيق

والتفت الى غربيها فقال :

أين الذى الهرمان من بنيانه ؟ ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حينما ويدركها الفناء فتتبع

انما كان أدباء العربية اذا جزعوا لضعف الانسان وقصر مدته وشرور
مجتمعه ، يجدون مفرعهم من الحزن والقنوط فى « الفضيلة الاجتماعية » :
فى الأخلاق القويمة التى تكسب الانسان حسن الأحداث الموروثة حبها عن

العرب الأقدمين ، وتنجيه من شرور المجتمع الذي لا يد له بإصلاحه ، والذي لا تنال شروره عادة الا من يستهدف لها بسوء فعله ، وتكسبه رضى ربه وتضمن له عقبى الدار . ومن ثم زخر الأدب العربى بروائع الحكم ونبيل التمدح بمكارم الأخلاق ، وهذا باب من أشرف أبواب الأدب العربى وبه يمتاز على غيره ، ومن محاسن ما فيه من ذلك قول اياس بن القائف :

إذا زرت أرضا بعد طول اجتنابها فقدت صديقى والبلاد كما هيا
فاكرم أخاك الدهر ما دمتما معا كفى بالممات فرقة وتناثية

وقول الشريف :

لغير العـلا منى القلى والتجنب
ولولا العـلا ما كنت فى العيش أرغب
غرائب آداب حبانى بحفظها
زمانى ، وصرف الدهر نعم المؤدب

فالعرب كانوا منذ جاهليتهم أمة اجتماعية ذات ميل غريب الى الاجتماع ، وفضيلة اجتماعية أصيلة ، واستعداد متمكن للتحضر والتعاون ، وأن يكونوا أمة مصلحة ، يأنسون بالاجتماع ويتفاخرون بحسن الجوار وسيادة العشيرة وخدمتها معا ، ويشغلون بمتعات تلك الحياة الاجتماعية عن طول الندب لنقائص الحياة وشوائبها ، وطول التشكك والتحير فى منشأ الكون ومنتهاه ، وميلهم الطبيعى ذاك واضح الأثر فى شعر شعرائهم . وفضيلتهم الاجتماعية تلك هى مرجع ازدهار العمران فى كل بلد وطئوه ، حالما وطئوه ، على حين نشر الاغريق الخراب فى شرق البحر الأبيض حين هبطوه ، واستغرقوا قرونا طويلة فى الاستقرار وتشرب الحضارة .

التفأول والتشاؤم

فى الأدين العربى والانجليزى

حب الحياة كائن فى طبيعة كل حى ، والرضى بها والاطمئنان اليها والاقبال عليها شيمة جميع الأحياء ما دامت بنياتهم صحيحة وحاجاتهم حاضرة ، والمرح واللعب غايتهم الأخيرة ما دامت غرائزهم مقضية اللبانات مشبعة المطالب . ولما كان الانسان يمتاز بالخيال والفكر فان له مطالب نفسية غير مطالب جسده الغريزية ، يرضى ويرتاح اذا قضاه ، ويقنط ويكتئب اذا أخطأها ، وليس يشكو الحى أو يألم ، وليس يسخط الانسان أو ينقم ، الا أن يغدو وهو سقيم الجسم أو محروم الغريزة أو ممنوع المطالب . فحب الحياة والاقبال عليها والرضى عنها هى الحال الطبيعية العادية ، وذم الحياة والعزوف عنها والسخط عليها حال طارئة استثنائية ، نتيجة لامتناع وسائلها وعدم مواتاة أسبابها .

فالمتشائمون قوم قست الحياة عليهم فحرمتهم قليلا أو كثيرا مما حبت به سواهم ، فثاروا عليها وكالوا لها قسوة بقسوة ، وجزوها على حيفها بمرير الدم والتفنيذ ، فلسنا نرى بين المتشائمين الزارين على الحياة والأحياء رجلا صحيح البدن معتدل المزاج مجدودا واثقا بنفسه ، بل كلهم ممن أكسبتهم الوراثة والنشأة والبيئة أجساما معتدلة أو أعصابا مختلة ، أو ألحت عليهم الخطوب فحطمت مساعيهم . أو اقتنعوا بعجزهم عن مصاولة الأحياء فى ميدان الحياة ، فأورثهم ذلك حسا مرهفا متيقظا الى مواطن الشر والقسوة والنقص فى الحياة ، فقعدوا يبرون لها وللمقبلين عليها السهام .

وفى الحياة مواطن للنقص لا تحصى ، يهتدى اليها الناقمون عليها بلا عناء ، وهى تعرض مثالبها عليهم وتضع أصابعهم على نقائصها ، بيد أن المتفائل المعافى الجسم الناجع المسعى قلما يلتفت الى تلك المساوىء ، واذا التفت اليها فبرهة قصيرة يأسى فيها ويعتبر ، ثم يعود الى ما كان فيه من استمرار لمتعات الحياة واجتلاء لفاتنها ، متعزيا بهذه المفساتن والمتعات عن تلك النقائص والمقايح ، باذلا جهده لتوفير السعادة لنفسه ولمن حوله ، وممحو ما يستطيع من أسباب الشقاء ، على حين يظل المتشائم

امام ما يروعه من مساوىء الحياة قائما ، لا يريد أن يحول بصره الى
سواها ، بل يهول تلك المساوىء كما يسول له حسه المرهف وخياله
المغرق .

والأدباء وغيرهم من رجال الفنون عادة أرهف حسا وأبعد خيالا ممن
عداهم ، وما من أديب الا تتجسم له مقابح الحياة جهمة مقززة فى فترة
من فترات حياته ، فتعافى نفسه ، وينقم عليها وعلى نفسه وعلى الأحياء
جميعا ، فاما من كان متفائلا بطبعه معتزا بنفسه واثقا من قدرته على خوض
وغى الحياة ، فسرعان ما يخرج من تلك الغمة وتنتصر فيه دفعة الحياة
القاهرة ، فيلتفت الى ما بالحياة من مباهج بجانب ما بها من مآس ،
ويطلب العزاء ببعض تلك عن بعض هذه ، ويستن لنفسه مثلا أعلى
جديدا فى الحياة ، وأما المتشائم المحس بوطأة الحياة الثقيلة على جسمه
المتعب وأعصابه المنهوكة ونفسه الخائرة ، فيرفض كل عزاء ويأبى كل
إيمان ويسخر من كل مثل أعلى .

فالفرق الرئيسى بين المتفائل والمتشائم هو أن الأول يرضى العزاء
والثانى يرفضه ، والأول يؤمن بمثل أعلى والثانى يأبى الإيمان بشيء ،
فالمتشائم يرفض الدين فيما يرفض ، فالتشاؤم والدين ضدان لا يلتقيان :
التشاؤم ازراء بالحياة وانكار لجدواها وتحقير لأبنائها ، والدين يبشر
بجدوى الحياة الصالحة ويبث العزاء فى النفوس عن آلام الحياة .
وما كانت الديانات الأولى كديانات المصريين والفرس الا محاولة حاول بها
الانسان أن يفسر ما راعه من تجاوز قوى الخير والشر فى الحياة ، وأن
يتعزى بجانب الخير عن جانب الشر منها ، أما والتشاؤم هو فقد الإيمان
بالحياة ورفض العزاء عن ضرورها ، فالتشاؤم والدين نقيضان ، ولا ترى
متشائما الا يسر الانكار للدين أو يعلنه ، ولا مؤمنا معتصما بدينه فد
هوى فى لهوات التشاؤم .

وليس فقد الإيمان بالحياة ومثلها العليا — أو التشاؤم — ينتهى
بصاحبه فى كل حالة الى الاسراف فى رفضها واعتزالها ، بل هو ربما
أذى الى اسراف مناقض لهذا : اسراف فى انتهاب لذاتها القريبة واشباح
الغرائز النهمة منها ، تناسيا لمنخصاتها وتخلصا من لدغات التفكير فى
نقائصها ، فالمتشائمون المعتزلون للحياة الناقمون على الأحياء الساخرون
من المجتمع ، والمتشائمون المستهترون بالذات المتهمون بتقاليد المجتمع
وأخلاقه ، الخارجون على عرفه المصادمون له فى عقائده ، أولئك وهؤلاء
سيان فى التشاؤم ورفض الإيمان والعزاء النفسى ، أو قل هما طرفان

متباعداً بينهما الوسط الذي يحتله المتفائلون الراضون بالحياة على
علاقتها ، المتسبلون بنعمائها عن بأسائها في قصد واعتدال ، المتشبهون
ببعض مثلها العليا .

على أن المتشائمين أنفسهم لا يخلون من عزاء وان توهموا سوى
ذلك ، وأشدّهم امعاباً في التشاؤم لا ينضب من نفسه حب الحياة ،
وعزاء أكثرهم هو ذلك الفن الذي يزاولونه ، هو أدبهم الذي يودعونه
فلسفتهم المتشائمة وخطراتهم القائمة ، ففي كتابة أفكارهم تلك راحة
لنفوسهم المعذبة وشقاء لغرائزهم الظائمة ، ولولا أنهم ما يزالون يحبون
الحياة في صميم أفئدتهم ، على رغم إعلانهم الحرب عليها ، لما لبثوا
يساحتها ، ولو أنهم يزدرونها ويزدرون أبناءها بقدر ما يزعمون ، لما
حفلوا بتدوين آرائهم فيها وعرض تلك الآراء على أبنائها ، ففلسفتهم
المتشائمة تناقض نفسها بنفسها .

فاذا كانت فلسفة تصدق أو تفسر للحياة يقبل ، فليست فلسفة
المتشائمين بالتى ترجح وتفسر الحياة ، وليست رسالتهم التى يؤدونها
الى الانسانية بالتى تقبل ، لأن فلسفتهم كما تقدم تناقض نفسها ،
وتناقض طبيعة الحياة التى بثت حبها فى جبال أبنائها ، ومهدت من
متعاتها ما يرجح شوائبها ، وزودت بنيتها بالسلاح اللازم لهيجائها . ليست
فلسفة المتشائمين بالمقبولة فى جملتها ، وان احتوت فى أطوائها من صائب
النظرات وبديع اللفظات وآثار الفكاهة والسخر والوصف والتحليل
ما يمتاز به أصحاب ذلك المزاج ، وما يهديهم اليه حسهم المرهف المستوفر
وخيالهم المتيقظ المسترسل .

وفلسفات المتشائمين فى مختلف الأمم والأجيال متماثلة ، ومواضيعهم
مقاربة : اسهاب فى شرح مظاهر تنازع البقاء ، واطناب فى ذكر لثيم
الطباع فى الأحياء وفى الانسان خاصة ، واصرار على تذكر الموت وكرور
الزمن وحلول البلى ، وتهويل لضعف الانسان ازاء جبروت القدر ، وتصوير
لنفاق المجتمع وجور أنظمتة ، وتحقير للمرأة وموازنة بينها وبين الحياة ،
وآراؤهم فى كل ذلك مردها الى اضطراب تكوينهم وتزعزع ثقتهم بأنفسهم
وحرمانهم من شتى مطالب الحياة ، ففلسفة المتشائمين لا تدلنا على حقائق
الحياة والكون ، بمقدار ما تدلنا على نفوس أصحابها وأمزجتهم وعوامل
تكوين أذهانهم .

فهم يجزعون لمراى تنازع البقاء لاحساسهم بأنهم عزل ضعفاء ، وينحون على المجتمع بقوارع الكلم لأنهم عاجزون عن الانغمار فيه ونيل الحظوة والصدارة به ، ويذكرون الناس بالموت والدثور لأن الناس يتمتعون دونهم بالطيبات ، فهم يسلون أنفسهم بتكرار القول بأن تلك الطيبات عما قليل ذاهبة ، ويخوفون الناس بجبروت القدر لأن غيرهم يتمتعون بالقوة والاقتدار ، فهم يلوحون أمام أعينهم بالقدر الذى يتلاعب بهم ويضحك من تدبيرهم ، ويرمون المرأة بالغدر والتقلب لأنها تفى لغيرهم ، ويجاهرونها بازدرائهم اياها ، لأنهم يسرون الاحساس بازدرائها اياهم واعراضها عنهم .

ولما كان مرد المزاج السوداوى المتشائم الى عوامل فردية محض ، من وراثة أو بيئة ، يظهر المتشائمون فى شتى الأمم والأجيال متفرقين لا اتصال بينهم من مدرسة أو مذهب ، على أن مسحة التشاؤم تطفى عادة فى آداب عصور الادبار السياسى والضيق الاقتصادى والفوضى الخلقية ، فيسود الشك والرفض والتهكم المرير ، كما كان الشأن فى الأدب الروسى تحت الحكم القيصرى ، كما أن صبغة الايمان والبشر والتفاؤل تغلب فى عصور الرخاء والنجاح والمغامرة ، وهى الصبغة التى سادت الأدب الاغريقى فى عصره الذهبى عقب الانتصار على الفرس . فلما تلا ذلك عهد الادبار ظهر السخر والشك ومذاهب الرفض والاعتزال من جهة ، ومذاهب الاستهتار والاباحية من جهة أخرى .

ولعل أشد أدباء الانجليزية نكيرا على الانسان وتهكما بمساعيه وتهوينا لشأنه هو جوناثان سويفت ، وهو أديب نشأ نشأة ضنكة مقلقلة ، ولازمه داء فى أذنه جشمه آلاما مبرحة ، وما زال حتى طغى على عقله فى أواخر حياته ، وحالف الاخفاق مطامحه السياسية وصاحب النحس غرامه ، فلم يبق له الا الانزواء فى عزلته ببعض بلدان ايرلندة ، والا أن يقول لبعض أصحابه انه يمقت ذلك الحيوان المسمى الانسان من أعماق قلبه ، وما ذاك الا لما كابد من عنت الظروف والأمراض ولدد الخصومات وغصص الاخفاق ، وهو الذى كان فيما عدا ذلك من أوفى الناس عهدا وأصفاهم ودا ، وهو الذى عطف على الايرلنديين ودافع عنهم ، على حين ناصبهم من قبل ذلك مواطنه وزمبله فى حرفة الأدب ادموند سبنسر . وكتاب سويفت « رحلات جليفر » على ما به من سلاسة وفكاهة وبراعة تصوير ، مملوء بالسخر المرير من الانسانية .

وزعيم التشاؤم فى العصر الحديث توماس هاردى ، الذى كانت أشباح الموت والبلى والقدر لا تبرح ناظريه ، وكان لا يمل تكرار موضوعه

انوحيد فى شئى قصائده وقصصه : موضوع ضعف الانسان وقلة حيلته وعيب مسعاه ، حيال ضربات القدر الأعمى ، ودوران رضى الزمن المطحون ، فدان دائما يتفنن فى اختراع المواقف المفجعة والظروف المنحوسة ، ينخذ مشاهدتها فى المقابر والبرارى وفى الأيام الداجنة الكالحة ، ويضيف أشخاص روايته بين الموتى ، وينطق الموتى فى أشعاره ، ويغالى فى تصوير فجائع الحب : بين الغدر والسلو والنسيان والغيرة وجفاف الجمال : فأشعاره لا تكاد تنتقل بك من غمة الى غمة ، ولا من محنة للانسان الا الى انتصار وخشى للأقدار عليه .

ومعاصره أو خليفته فى هذه النظرة المتشائمة الى نصيب الانسانية فى الحياة هو هاوسمان ، الذى كان يحاكيه كثيرا فى اختيار مواضيعه وطريقة معالجتها واجرائه الحديث فيها بين الأحياء والأموات . ومن نماذج ذلك الضرب من شعر التشاؤم قوله : « - أما برحت خيلى تحرث الأرض كعهدي بها ، اذ أنا حى أسوقها وأسمع صليل شكائهما - ؟ بلى ما تزال تنقل خطاها وشكائهما تصل ، ولم يتغير شئ برغم أنك قد رقدت تحت الأرض التى كنت من قبل تحرثها - أو ما تزال الكرة تتراعى ويتسابق خلفها الرفاق على شاطئ النهر ، وان أك لا أستطيع اليوم نهوضا ؟ - نعم تتراعى الكرة بينهم وكلهم باذل فى اللعب جهده ، وذلك مرماهم قائما وحارسه لا ينى - وفتاتى التى شق على فراقها ، أسئمت البكاء واستطابت طعم الغمض ؟ - نعم هى ناعمة فى خدرها ، فم أنت وقر - وهل صديقى صحيح معافى وقد نحتل أنا وبليت ؟ وهل وجد بعد فراشى فراشا وثيرا ؟ - أجل أنا يا صاح لى ضجعة كأروح ما يشتهي الفتى : أسلى حبيبة رجل قضى ، ولا تسألنى حبيبة من » .

ومن أمثلة الوراثة المختلة والمزاج السوداوى فى تاريخ الأدب الانجليزى كوبر ويرون : كلاهما كان مضطرب التكوين اضطرابا أدى الى ظهور الغرابة فى مسلكيهما وأدبيهما . على أنها رغم اتفاقهما فى ذلك كانا يختلفان ثقة بالنفس : كان أولهما ضعيفا متناهيا فى الخجل ، وكان الثانى مفرطا فى الزهو والاعتداد بمواهبه ونسبه ، ففنع كوبر بحياة العزلة ولم يعلن على الناس حربا ، وان ظهرت أعراض التشاؤم فى كثير من شعره ، أما يرون فصادم المجتمع بمسلكه الخلقى كما هاجمه فى شعره ، ولما لفظه المجتمع الانجليزى زاد عتوا وجرأة ، وتحديا لخصومه وتشفيا من مؤيدى النظم الاجتماعية التى كان يمتقتها . هذا فضلا عما حفلت به آثاره عامة من تصوير لضعف الانسان وقصر مدته وعيب جهوده .

ورمز التشاؤم في العربية هو ولا شك المعري ، الذي اجتمع عليه من أسباب التشاؤم ما لم يجتمع على غيره : من اعتلال التكوين الجسمي ، واختلال الصحة ، والحرمان من شتى اللذات ، واضطراب العصر الذي عاش فيه ، فجاءت فلسفته مثالا نادرا لفلسفات المفكرين المتشائمين : حقر الانسان ، وأندر ببطش الأقدار ، وذكر بالموت ، وشك في الدين ، وأزرى بالمرأة ، وندد بالمجتمع ، وفند الحكام ، وأطنب في تنازع البقاء ، ورثى مع ذلك للانسان ورأف بالحيوان ، وضاق بنفسه كما ضاق بغيره وحرم على نفسه اللذات وعاش نباتيا ومات عزبا لم يحن على أحد ، وعبر عن نظراته النافذة الحكيمة التي سبق بها عصره ، تعبيراً شعرياً عربياً جزلاً ممتعا ، وكان صادقا صريحا : اعترف بأنه لم يختر تلك الحياة الضنكة الا لأن سواها قد شآء ، فهو القائل :

ولم أرغب عن اللذات الا لأن خيارها عني خسنه

فقد كان لدقة حسه شديد الحرص على كرامته ، شديد التوقى لمواطن السخر والزراية ، فكان ذلك حائلا بينه وبين ما تصبو اليه غرائزه من متعات ، وكانت حياته معركة طويلة قائمة داخل نفسه ، بين الرغبة في الاستمتاع بطيبات الحياة والاصرار على رفضها ، لاستعصاء سبلها على الكفيف المجدور ، الا أن يبيح كرامته ويهدر حياته . وما أطار خياله الى طيبات الفردوس الا حرمانه من طيبات الحياة وطول نزوع نفسه اليها . وما كان وصفه لمتعات الخلد الا ارضاء لشهواته المخمدة تحت رماد التوقر والتقشف . وما كان تأليفه رسالة الغفران أو اتخاذه الخلد مسرحاً لها الا تنفيساً عن مكتوم نوازعه ، وبفضل هذه النوازع المكبوتة خلف المعري الكفيف أثرا من آثار الخيال فريدا في اللغة ، كان المبصرون من أدباء العربية منصرفين عن مثله .

والمعري نسيج وحده في التشاؤم في العربية ، يرفع راية الرفض للحياة والاعتزال لها والازراء عليها ، ويمارس في حياته ما ينادى به في أشعاره ، ولا ينضوى تحت تلك الراجية سواء : انما كانت غالبية المتشائمين في العربية الذين نبذوا الايمان ورفضوا العزاء وهانت عليهم الحياة فلم يجدوها أهلا لسعي ولا لحفاوة ، هم طائفة المتشائمين المستهترين ، الذين ظهروا حين طغت تيارات الترف المادية والشكوك ، على المجتمع والعقائد في العهد العباسي كبشار وأصحابه ، وأبى نواس وأضرابه ، أولئك ساقهم تفكيرهم الى تصغير الحياة وما يقدس الناس من مثلها العليا ، فلم ينبذوا الحياة جملة بل راحوا يطفئون غليل نفوسهم المتحرقة في لذات الحياة

الدنيا ، ويشبعون غرائزهم الحيوانية متهمين بما عدا ذلك مما يسميه المجتمع فضائل وعظائم وعقائد . وأبو نواس هو القائل :
وما هنأتك الملهى بمثل اماتة مجد واحياء عار

والقائل :

قلت والكأس على كفى تهوى لالتشامى :
أنا لا أعرف ذاك اليوم فى ذاك الزحام

وانما حرضهم على سلوك تلك السبيل ما كان يسود عصرهم من حرية تقرب من الاباحية ، وما كان يسود المجتمع العربى دائما من صراحة لا نظير لها فى المجتمع الانجليزى ، حيث التقاليد الاجتماعية شديدة انصرامة ، فعلى حين كان يتأتى لبشار وأبى نواس وأضرابهما أن يباشروا وهم معافون حياة الاستهتار التى باشروها ، ويتهموا بعقائد غيرهم ما شاءوا ، ويترنموا بمخازيهم شعرا ، نرى بيرون الذى لم يجر الى مداهم يلفظ من المجتمع الانجليزى الذى بجله من قبل لشعره وحسبه .

وحياة المعرى وبشار موضع لموازنة ممتعة : كلاهما عاش كفيفا ، أى مكفوفاً الى مدى بعيد عن كثير من مسرات الحياة ومتعات المبصرين ، فخلقت فيهما تلك الحال وحشة وشذوذا وزرابة على الحياة والأحياء ، ولكن المعرى كان دقيق الحس مرهف الأعصاب ضعيف البنية ، فنفض يده من الحياة ونجا بالسلامة والكرامة ، وبشار كان مفرط الجسم متنزى الحيوانية مضطرم الشهوة ، فأكب على اشباع شهواته مستهدفاً لزراية الآخرين وتهكمهم ، وشهر عليهم سوط لسانه المقدع ، كما يشرح السبع المنهمك فى تمزيق فريسته مخلبه لذب غيره من السباع عنها .

تلك مظاهر التشاؤم ، أو فقه الايمان بسمو الحياة والعزاء النفسى عن شوائبها ، فى الأدبين العربى والانجليزى ، وفيما عدا ذلك كان أقطاب الأدبين - لما يتدفق فى شرايينهم وشرايين أمتيهم من دفقة الحياة - متفائلين متشبثين بأهداب المثل العليا التى ترضاهم لهم طبائعهم وبيئاتهم ، يغبر لهم وجه الحياة حيناً فيبدو أثر ذلك عابساً فى آثارهم ، ثم يجنحون الى التعزى والايمان : فملتون فى الانجليزية مثلاً على فرط ما لاقى من خذلان فى حياته الفردية والعامة وما حل به من فقدان البصر ، ظل وطيء الايمان متطلباً للعزاء الى منتهى حياته ، وكتب ملاحمه فى أواخر أيامه طلباً للترفيه

عن نفسه ولكى « يبرر للناس أعمال الله » ، والمتنبى فى العربية رغم ما أصاب من اخفاق متوال فى مطلب حياته الأسمى ، الذى « جل أن يسمى » ، ورغم ما كابد من حسد وكيد وعداوة ، وما صب على الناس من قوارص كلمه ، ظل أبدا « من نفسه الكبيرة فى جيش وفى كبرياء ذى سلطان » ، متدربا متأهبا للجلاد .

وان يكن هناك مجال للمقابلة ، فالأدب العربى لا شك أكثر اصطباغا بالتفاؤل والایمان ، على كثرة ما به من الشكوى ، والأدب الانجليزى أحفل منه بآثار التشاؤم ، ولا سيما فى العصور الحديثة التى زادت الحياة فيها تعقدا ووطأة ، وانما يبت ذلك التفاؤل فى المجتمع والأدب العربيين أمران : صحو الجو الذى يعدل المزاج ويبعث البشر والطلاقة ، والدين الاسلامى الذى يبت الايمان فى النفوس ويحضى على اجتلاء متع الحياة التى أحل الله ، والذى هو كما تقدم القول أكثر تغلغلا فى سرائر معتنقيه ، وشمولا لجوانب حياتهم من غيره من الأديان .

البطولة

فى الأدبين العربى والانجليزى

البطل فرد يمتاز عن غيره من أفراد مجتمعه بمواهب عقلية أو خلقية أو جسدية ، يظهر بها بينهم وينال من أجلها اجلالهم ويبدلها فى خدمتهم ويتولى قيادتهم فى معترك الحياة ردحا من الزمن ، ويترك فى تاريخهم أثرا يطول فى عهده أو يقصر ، فالبطل لا يكون الا فى مجتمع ، وهو عادة نموذج لصفات أبناء ذلك المجتمع ومثل أعلى لنوع حياتهم ، ومواهبه اجابة لمطالب ذلك المجتمع وحاجاته فى فترة من الزمن ، فالأمة المحاربة اذا كانت الحياة تجرى فى عروقها قوية وتتمتع بالصفات اللازمة للبقاء ينبغ فيها القائد ، والأمة الشاكة الحيرة يظهر فيها النبى ، والشعب الذى يشكو فساد أنظمتة الاجتماعية يقوم فيه المصلح .

والأمة المتبدية الساذجة التى لم تستقر بعد ولم تبرح حياتها سلسلة متواصلة من الحروب ، لا يكاد يظهر فيها من أنواع البطولة الا القواد البسلاء ، الذين يقودونها فى مهاجراتها ومحارباتها لجيرانها ، ويبدون من ضروب الشجاعة ويفتقون من أفانين الحيلة والرأى والمكيدة ما يبلغون به الفرصة فى أعدائها ، ولأولئك الأبطال فى تلك الجماعات مكانة لا تطاول وأثر لا يبارى وكلمة لا ترد ، وان أحدهم ليغنى غناء الجحافل ، ويعدل بين قوله ما لا تعدل الآلاف ، ولا غرو : فالحروب فى أمثال تلك العهود أكثرها مصاولات فردية ، وتسمى تلك العهود لذلك عصور الأبطال .

وفضلا عما يناله البطل فى عصره من تبجيل وتقدير ، فانه اذا ما مات وخلا مكانه وافتقد مثاله ، زاد ذكره ارتفاعا وزاد ذاكره مبالغة فى تعظيم آثاره وتصوير وقائعه وتخيل صفاته ومواهبه ، وما يزال جيل يزيد على جيل حتى تقوم حول بعض الأبطال أقاصيص طويلة السرد ، تنطوى على شىء من الحقيقة الأولى ويتكون أغلبها من صنعة الخيال ومما تصبو اليه النفس الانسانية دائما ، من أمثلة القوة والشهامة والنجدة والغلب وحماية الذمار ، وما تتوق دائما الى تصوره من روائع المشاهدات ، وجسام الوقائع ، بل كانت بعض المجتمعات البدائية تغالى فترتفع بأبطالها الى

مصاف الآلهة . كما فعل أوائل قدماء المصريين بأوزيريس وأخته وابنه ،
وكما فعل أوائل الاسكندناويين ببطلهم أودين ، أو الى مراتب أنصاف
الآلهة كما فعل الاغريق القدماء بأبطالهم .

واذا ما استقرت الأمة وتحضرت ، وجنحت الى السلم ولم تعد الحرب
هى الحالة الطبيعية العادية التى تعيش فى ظلها ، تغيرت حالها الاجتماعية
وضوئت مكانة أبطال الحرب وحكام وأرباب علم وفن ، وهبطت قيمة
القائد فى الجيش قليلا فلم يعد هو وحده المهيمن على مصائر الحرب ، بل
صار للعدد والنظام والسلاح وغير ذلك حساب كبير ، وبطل تصديق
المتعلمين بوقائع الأقايسى المتخلفة عن عصور الأبطال ، ولكن البطولة
على صورة من الصور خالدة ، وعبادة الناس فى كل العصور لها قائمة ،
بل ان احتفاء الأمة بأبطالها من أبرز دلائل حيويتها ، كما أن من دلائل
حيويتها حفول تاريخها بأسمائهم ، بل يغالى كارليل ويزعم أن تاريخ
الأمة هو تاريخ أبطالها ، وتاريخ العالم ان هو الا سير الأبطال .

وتلك الأقايسى المتخلفة عن عصور الأبطال اذا فقدت اعتقاد الناس
بصدق كثير مما فيها فما فقدت الا هينا يسيرا ، ولن تفقد ما يعجز به من
روائع الأوصاف وبدائع الصور وممتع الأخيلة وشائق المواقف والوقائع،
والعرض الصادق لأحوال المجتمعات المتخلفة عنها تلك الآثار ، والتأمل فى
طبائع الانسان ومذاهبه فى الحياة ، فتظل تلك الأقايسى تحفظ
لنفساتها ، وتظل كنزا ثميننا لقرائح الأدباء وأخيلتهم ، يطيب لهم الهيام
فى عالمها البعيد ، واجراء أفكارهم على ألسنة أشخاصها العظماء ،
واستعارة وقائعها وتشاهدها فى التمثيل لوقائع عصورهم وأحداثها ،
وابراز معانيهم وأغراضهم بالإشارة الى حوادثها وملابساتها ، وخير مثال
لكل ذلك عصر الأبطال فى بلاد الاغريق :

فعصر الأبطال فى بلاد الاغريق ، الذى امتد زمن استقرارهم فى
شرق البحر الأبيض وتشربهم حضارته ، هو أشهر عصور الأبطال وأسيرها
ذكرا ، لأن أشعار هوميروس قد خلدت روائع الصور لأحواله وعظائم
أبطاله ، وبدائع الأوصاف الشاملة لمعتقدات القوم وتصورهم لآلهتهم ،
حتى اذا ما انقضى ذلك العصر وبرزت اليونان فى عالم التاريخ الواضح
وطلعت فى عصرها الذهبى وحلت الفلسفة محل الخرافة ، وبطل الاعتقاد
بكثير من أخبار الإلياذة والأوديسة ، اتخذت أشعار الملاحم تلك مادة لضرب
جديد من الأدب هو الدراما ، التى ظهرت لتسد من حاجة ذلك العصر ما لم

يعد يسده شعر الملاحم الذى يلتفت الى الماضى ويتوفر عليه ، ولا يعير
الحاضر التفاتا .

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية قد مرت فى استنقرارها وتحضرها
بعصر أبطال ترك أثره فى أدبها : وعصر الأبطال فى التاريخ العربى هو
عهد الجاهلية الذى انتهى بظهور الاسلام وظهور الأمة العربية فى ضوء
التاريخ المستيقن ، فالجاهلية العربية شديدة الشبه بالعصر الهوميرى :
فيه كانت الأمة منقسمة على نفسها لا تفر عن القتال ، ولا يزال يظهر
فيها من الأبطال أمثال عنتره ومهلل ودريد بن الصمة ، ولا تزال تحدث
بأيام المواقع وتتفاخر وتتفاخر كما تفاخر أبطال الحروب الطروادية ،
ولولا أن الاسلام وضع حدا فجائيا لذلك العصر ، لما بعد أن تتجمع أشعاره
وأقاصيصه فى ملحمة أو ملاحم كبرى ، وكان العرب على تفرقهم يشعرون
بوحدهم فى الجنس واللغة ويجتمعون فى مواسم الحج وأسواق التجارة
والأدب ، كما كان اليونان يجتمعون فى دلفى وأوليمبيا ، وكما كان اليونان
يزدرون غيرهم ويلقبونهم بالبرابرة كذلك كان العرب يعتدون بعربيتهم
ويلقبون غيرهم بالأعاجم ، ولم يفتهم أن يجمعوا شملهم تحت لواء العربية
لدفاع الفرس فى موقعة ذى قار ، كما فعل الاغريق من قبل اذ تجمعوا
بزعامة أثينا لرد عادية الفرس أيضا ، وفى موقعة ذى قار يقول الأعشى :
لما أمالوا الى النشاب أيديهم ملنا ببيض فظل الهام يقتطف
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

ومر الإنجليز بمثل ذلك العصر فى عهد استنقرارهم فى الجزيرة ،
وأهم الآثار الأدبية المتخلفة عن ذلك العصر ملحمة بيولف ، التى تصف
كيف تغلب أمير انجليزى على وحش هائل أقض مضاجع الناس فى ذلك
العصر فى التاريخ الانجليزى شديد الغموض ، ولغموضه ذاك ردت اليه
خرافات لعلمها لم تكن منه فى شيء كقصص الملك آرثر وفرسان مائده
المستديرة ، وهى قصة قد نالت من احتفال أدباء الانجليزية ما لم تنله قصة
بيولف ، لسنداجة هذه وشدة امتاع تلك ، واحتوائها على كثير من تقاليد
العصور الوسطى وأنظمة فروسيتها ومغامراتها .

ولما ظهر الأدب الانجليزى الحديث ، بعد انتشار الحضارة والعلم ،
اتخذ الشعراء والروائيون من تراث العصر السابق مادة لخيالهم ، ولم
يكتفوا بذلك بل استعاروا خرافات عصر الأبطال الاغريقى مضافا اليها

تاريخ الاغريق والرومان ، بما انطوى عليه ذلك التاريخ من سير الأبطال ، فحفل الأدب الانجليزى بذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، سيان انجليزيهم وأجنبيهم ، تاريخيهم وخرافيهم ، عجت بذكر هؤلاء وأولئك روايات شكسبير ، وتفنن سبنسر وتينيسون فى سرد قصص آرثر وفرسانه ، واستعار شلى أبطال اليونان وآلهتهم لبعض مواضيعه ، كما فى قصيدته « بروميثيوس المقيد » ، ولم يأل سكوت جهدا فى تصوير بطولة القرون الوسطى فى قصصه .

تناول الادباء سير اولئك الأبطال بالدراسة الفنية لشتى الأسباب : لما ركب فى الطبع الانسانى من عبادة الأبطال والشغف بحديثهم ، ولما يضيفه مجدهم وبأسهم على الموضوع المتناول من عظمة وجلال ، ولما يبعثه حديثهم فى النفس من تسام وصبو الى المثل الأعلى ، وما يبعثه ذكر أبطال الوطن فى نفوس أبنائه من فخر وثقة : فلعبادة البطولة فى اطلاقها وتمجيد العظمة الانسانية فى عمومها تناول شكسبير سير قيصر وبروتس وكريولانس وعطيل بالوصف ، وكتب ماثيو أرنولد قصيدته الطويلة سهراب ورستم ، ولتبجيل البطولة القومية والاعتزاز بأبوة الوطن الذين شادوا مجده تناول شكسبير مواقف هنرى الخامس فى حرب مائة العام ، وألف سكوت قصصه الاسكتلندية مثل خرافة منتروز وكونتين دروارد .

ولم يقتصر أدباء الانجليزية فى تمجيدهم للبطولة واحتفائهم بالأبطال على الماضى الخرافى أو التاريخى البعيد ، بل التفتوا الى الحاضر والماضى القريب ، ووفوا أبطال جزيرتهم الذين وطدوا مكانتها وأعلوا كلمتها جقهم من الذكر والتعظيم ، فى جانبى المنشور والمنظوم ، بل كان الأبطال الخرافيون يستعارون أحيانا رموزا للعظماء المعاصرين ، كما فعل ادموند سبنسر فى قصته الشعرية « الملكة الحسناء » . وكما قيل ان شكسبير قد قصد من الرمز لشخصية هاملت الى شخصية ارل اسكس ، وقد احتفل سوذى وكامبيل وتينيسون وماكولى بتمجيد أبطال الانجليز وعظمائهم فى البر والبحر أمثال نلسون وولنجتون وكلايف . وكتب كارليل كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » فأسهب فى الكلام على مظاهر البطولة فى شتى الأزمان والأمم ، وأثر الأبطال فى تقدم العمران البشرى وما هم جديرون به من حفاوة .

فالأدب الانجليزى ، بعد انقضاء عصر الأبطال المحاربين ، لم يخل من ذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، بل ظل معنيا بأبطال الماضى ولم يجعل الحاضر دبر أذنه : لأبطال الماضى البعيد بوقائعه الخارقة التمجيد والتصوير

الحضور غاب على الطائي تشبيهه ممدوحه « بأجلاف العرب » حين أنشد
سينيته في مدح أحمد بن المعتصم فقال منها :

أقدام عمر في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

ومن مثل هذا الحديث تتبين بعض أسباب اعراض الأدب عن حديث
البطولة : كالتكسب بتمليق امراء أنانيين يابون الا أن يكون كل المدح
لهم ، بيد أن هناك سببا أهم هو انعدام روح القومية بين العرب : فقد
كانت العصبية القبلية فوق القومية العربية في عصر الجاهلية . فلما وحد
الاسلام العرب تحت لوائه وحض على التآخي ونبت العصبية ، لم يستمر
العرب دولة واحدة مستقلة منعزلة زمنا طويلا كافيا لتوحد عناصرها
نوحدا صحيحا ، واعتناقها جميعا للقومية العربية مكان العصبية القبلية ،
بل اندفعوا وهذه العصبية ما تزال على أشدها يفتنحون شرقى العالم
وغريبه ، فاذا هم في بضع سنين يمجون في امبراطورية مترامية ، ضلت
قوميتهم العربية في قومياتها المتعددة ، وظلت عصبيتهم المتأصلة تستأثر
بولاثم وتثير الفتن بين قبائلهم ، وكان هذا التناحر القبلي من أكبر أسباب
انتصار الفرس ، ووثوبهم الى السلطان على أيدي العباسيين .

فالمجتمع العربي عرف العصبية القبلية الضيقة الحدود والامبراطورية
العالمية الفضفاضة الجوانب ، ولم يعرف القومية العربية التي تسمو على
العصبية وتفخر بأبطال العرب الغابرين من أى الأحياء كانوا ، والتي
تضيق دون مدى الامبراطورية الواسعة ، التي لا يجمعها ماض واحد
ولا تشترك في تراث عمراني ثقافي فرد . فلم يكن العربي المسلم يفخر
بأبطال العرب المشتركين كابن الوليد وابن الخطاب قدر ما يفخر بأبائه
الذين تنتسب اليهم قبيلته . فابن الرومي في القرن الثالث يمدح
أبا الصقر فلا يفوته أن يمدح قبيلته شيبان ، وأبو الصقر يرى أن
ابن الرومي لم يوف شيبان حقها فيجرمه العطاء ، وأبو فراس في القرن
الرابع يفخر ببني حمدان الذين يراهم لم يخلقوا الا « لمجد أو لبأس أو
لجود » ، ولا يرد ذكر العرب في شعره ، وهذه النزعة القبلية الضيقة
لا تنتج شعر بطولة فنيا راقيا ، بل تنتج الروح القومية المتدفقة .

انما كان الدين يحل محل القومية من نفوس العرب ، ومن ثم كان
له في أدبهم أثر بعيد المدى ، ولذلك نرى أن جانبا عظيما مما قد ندعوه
شعر بطولة في العربية يدور حول أعظم الشخصيات الدينية في الاسلام
بعد الرسول الكريم ، شخصية الامام علي ، وشخصيات أبنائه : ففي

الفنى المبالغ المغرق فى الخيال والشاعرية ، ولأبطال الحاضر التكريم والتأريخ الذى هو أدنى الى الحقيقة دنو عصرهم من الأذهان ، وأبعد عن الخرافة والخيال بعد الانسانية عن عصور طفولتها ، أما فى الأدب العربى فقد انقطع ذكر الأبطال أو كاد بانتهاء عصر البطولة الجاهلية : أهمل الأبطال الجاهليون أو فازوا بالنظرة العابرة والذكرة العارضة ، ولم يكن أبطال الاسلام أوفر منهم حظا من عناية الأدباء ، مهما كان نصيبهم من اهتمام المؤرخين ومكانهم فى التاريخ .

ولم يخل تاريخ العرب بعد الاسلام من أبطال يمجدون وتنسج حولهم القصائد الطوال ، ولا أقفر تاريخهم من حوادث مملوءة بالوحى الشعري الصادق ، بل ان تاريخ نهضتهم وبسط سلطانهم لهو ملحمة التاريخ الكبرى التى تزرى بكل ملحمة ، وتسخر من الوقائع الموضوعية الضئيلة التى حاك حولها هوميروس قصيده الفاجر . وقد أنجبت تلك النهضة – بعد شخصية الرسول الكريم التى لم يجد بمثلها الزمن – نخبة من أبطال السلم والحرب ، خالد وعمر وعلي وابن العاص ومن عاصرهم وتلاهم من فحول الأبطال الذين لم تنجب أمة أعظم منهم ، واحتوى تاريخ العرب على سير أفذاذ يستفزون الوحى الشعري خاصة ، لما انطوت عليه سيرهم من طرافة وجاذبية : كالحسين الذى استشهد على أسنة الرماح آبيا أن يستأسر ، وصلاح الدين الذى رفع لواء الاسلام وقصم ظهر الصليبيين فى سورية ، وعبد الرحمن الداخل الذى شاد من الفوضى دولة من أزهر دول التاريخ ، ومحمد بن القاسم ، الذى فتح السند وهو يافع والذى قيل فيه :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة يا قرب ذلك سؤددا من مولد

والكن الأدب العربى قد نبذ ذكر أولئك جميعا ظهريا ، ولم يحتو من ذكر البطولة والحماسة والحروب الا على وقائع ثانوية كفتح عمورية وأعمال أنصاف الأبطال ، كبدر بن عمار ، وغيره من ممدوحى الشعراء الذين كانوا يطمعون فى رضاهم ونوالهم ، فجاء مدحهم لهم شديد التكلف مغرقا فى التهويل ، أما اذا لم يكن نوال ولا سلطان حاضر فلا بطولة تستهز نفس الشاعر ، ولا عظمة تستدعى إعجابه وتستجيش وحيه ، ولا يرد ذكر عظماء الجاهلية فى القصيد الا مستعارة صفاتهم وفضائلهم للممدوح مهما ظهرت فضفاضة عليه داعية الى السخرية ، بل كان أولئك العظماء يزدرون فى موقف الملق لأرباب السلطان : فقد قيل ان بعض

الأشعار التي تندب مصارعهم - رغم اتسامها بالحزن والفجعية ، وقلة ما تسجله من عظام أولئك الأبطال الذين نهضوا في الحقبة بعد الحقبة ، وساروا الى الموت مملوئين ثقة وبسالة - تمجيد صادق الشعور للمتل العليا مشخصة في أولئك نفر الغر الميامين ، ولدعبل وابن الرومي وغيرهما أشعار حارة فيهم ، ومن ذلك قول الأول :

وليس حي من الأحياء نعلمه من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
الا وهم شركاء في دمائهم كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

وسبب آخر عظيم الأثر في خلو الأدب العربي من تمجيد البطولة ، هو أن هذا الضرب من الأدب ضرب فني يحتاج في ممارسته الى تفرغ وطول معاناة وكثرة مراجعه ، ومثل هذا الفراغ لم ينهيا لأدباء العربية ، ومثل هذا العكوف أو الترهيب الفني الذي حظى به ملتون ووردزورث وتينسون وغيرهم من شعراء الانجليزية لم يفز به شعراء العرب وكتابهم ، أضف الى ذلك أن الأدب العربي كان دائما يؤثر التقليد ويحجم عن اتخاذ مواضع أو صور جديدة لم يرثها عن العرب الأولين ، ولهذه النزعة المحافظة قد نفى من حظيرته كثيرا من فنون القول ومناوح الفن ، لم يرها من شأنه ولم يحسبها جدرة بالتفاتة ، لأنه لم يرثها عن الأقدمين ولم يطلع على أدب الاغريق فيقف على بدائع النظم التي تأتي من ذلك الباب .

وكان الأدب العربي كلما نفى من حظيرته بابا من أبواب القول يمت الى الطبيعة الانسانية بسبب لا يجد ، ويروى من النفس البشرية غليلا دائم الحاجة الى الري ، تلقفه عنه الأدب العامي فنهض عنه بالعبء الذي طرح ، وآثر ارضاء النفس الانسانية حين آثر الأدب الفصيح ارضاء التقاليد ، ومن ثم حاك الأدب العامي ، أو الخيال العربي ، حول أبطال الجاهلية كعنترة وكليب ، وعظماء الاسلام كعلي بن أبي طالب وهارون الرشيد ، روائع قصص البطولة ومنازلة الصناديد ومقابلة الانس والجان واجتلاء أسباب المتعة والبهجة والفكاهة ، وما كان بالأدب العربي الفصيح قصور عن ذلك الضرب من القول لو أراد . انظر الى روعة الوصف في قول المتنبي :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفي أذن الجوزاء منه زمازم

وقول ابن هانيء الأندلسى فى جيش جواهر :

إذا حل فى أرض بناها مدائننا

وان سار عن أرض ثوت وهى بلقع

فهذا وصف للجيش لن تحوى أبلغ أشعار الملاحم أروع منه ،
ولا غرو : فقد كانت المادة متوفرة لأدباء العربية لينسجوا من أحاديث
البطولة وأوصاف المواقع ما شاءوا ، فقد تفنن المسلمون فى وسائل
الحروب البرية والبحرية وحازوا فيها غايات سبق ، والدول والانقلابات
كانت تتوالى على أعين الأدباء تبسعا واللغة العربية الرحبة المساعدة
بالألفاظ ، الغنية بالأوزان الرصينة والقوافى المتعددة ، خير معوان على
نظم قصيد الملاحم ووصف عظماء الأبطال ، فلو التفت الشعراء الى هذا
المجال من القول لرأوا سعة ولكنهم أغفلوه فيما أغفلوا ، وعدوا البطولة
والأبطال شأننا من شئون التاريخ ، لا فنا من فنون الأدب .

موضوعات الأدب

فى الأدبين العربى والانجليزى

يعبر الأدب عن شتى خوالج النفس وخواطر الذهن . ويصف تائر النفس بمختلف صور الحياة وظواهر السكون وصروف الدهر ، وكلها أمور لا يحدد مداها ولا تحصى مذاهبها . ومن ثم لا تحد ولا تحصى اشتات الموضوعات التى يعالجها أدب أمة من الأمم فى مختلف عصوره ، فأدب الأمة الحى يشمل أطراف حياتها المترامية ، مما يوحى به الشدين والورع الى ما يمليه التبذل والاستهتار ، وما يمليه الحزن والألم الى ما توحى به الغبطة والسرور ، وما يدعو اليه التفكير والتأمل الرزين أو يحمل عليه التفكه والتندر ، ومن كل ما يبعث اعجاب الانسان ورهبتة وخشوعه أو يثير احتقاره أو نفوره ، ومن كل ما يوقظ حب الاستطلاع والدرس والمعرفة المركب فى طبع الانسان ، ويمتد مجال الأدب حتى يختلط بشتى فروع العلم فى بعض أطرافها .

على أن موضوعات الأدب وان تعذر استقصاؤها يتجمع اكبرها واخطرهما شأننا حول مواضيع رئيسية يكثر طرقها ويعزى الى واحد منها كل اثر من آثار رجال الأدب ، كالنسيب والثناء مثلا ، كما أن أدبا قد يختلف عن أدب فى فن يحتفى به ولا يكاد يوجد فى غيره ، أو فنون يدمن طرقها دون غيرها ، بل يختلف الأدب الواحد فى عصر من عصوره عنه فى عصر آخر من حيث فنون القول التى يحتفى بها ويقدمها على غيرها . فالبيئة والعصر يتركان أثرهما فى فنون الأدب التى تحظى بالرواج والاقبال : ففى عصور الجهاد والصراع مثلا تسود أشعار الحماسة وتمجيد الحمى والأبطال ، وفى عصور النزاع بين المادية والترف وبين الدين والتقاليد ، تكثر آثار المجون والزيغ من جهة ، وآثار الوعظ والزهد من جهة أخرى ، وعصور البداوة تتسم آثارها بالسذاجة والعاطفة المتدفقة ، وعصور الثقافة تمتلئ آدابها بآثار التأمل والأزمات النفسية ، وكلما ارتقى المجتمع وصدق أدبه فى التعبير عن حياته كثرت فنونه التى يطرقها ، وطال طرقه للفنون الرئيسية التى تمت الى النفس الحية والفكر المذهب بأوثق الأسباب ، واختلف أدباؤه كل منهم يخص فنا أو فنونا منها باحتفائه . أما فى عصور التدهور والركود فتضيق دائرة تلك الفنون ويتعلق كثير

منها بالسطحي والتقليدي من الأقوال ، ويتفق أكثر الأدباء في طريقة تناول تلك الفنون المحصورة .

والأدبان العربى والانجليزى قد تناولا أشتاتا من فنون القول ، وعبرا عما لا يحصى من أفكار الانسان ومشاعره ، واتفقا في كثير من ذلك لاتفاق الطبيعة الانسانية في كل مكان ، واختلفا في مدى الاحتفال ببعض الفنون والاعراض عن بعضها لاختلاف بيئات الانسان من اقليم الى آخر ، وظهرت في كل منهما على تعاقب العصور مواضيع لم تكن معروفة من قبل ، وحظيت مواضيع دون أخرى بالحفاوة والصدارة ، فالشعر الحماسى كان في العصر الجاهلى هو الفن الرئيسى ، لما كانت تتطلبه الحياة القبلية من التعبير عن صفات القوة والغلب ، ثم حلت الخطابة السياسية في صدر الاسلام محل الشعر ، ثم احتل الصدارة في العصر الأموى النسيب والمهاجاة ، وهلم جرا . وفي الأدب الانجليزى بلغت الخطابة الدينية الوعظية شأوها في عهد المطهرين ، وملكت الطبيعة جل اهتمام الشعراء في العصر الرومانسى ، وفاز التحليل القصصى النفسى والاجتماعى بالصدارة في العصر الحديث .

ولعل النسيب أحظى فنون الأدب باحتفال الأدباء في شتى الأمم ، لما يصدر عنه من عواطف وغرائز متأصلة في النفس الانسانية على اختلاف البيئات . وقد بلغ من احتفاء العرب به أنهم لم يقتصرُوا على الحديث عنه في مكانه ، بل استهلوا به منذ عهد الجاهلية قصيدهم . ولم تخل من حديث الحب أكثر روايات شكسبير في القديم وقصص هاردي في العصر الحديث . فوسع الأدبان شتى الأوصاف لحالات الحب الراضية وأطواره الغاضبة . والى الحب يرجع الفضل في كثير من الآثار الأدبية وفي تكوين نفوس كثير من الأدباء ، وحول حديثه يدور جانب عظيم من كل أدب ، وقد غلا قوم فعدوه مصدر كل أدب وفن .

والرثاء فن محدود من فنون الأدب فى العربية والانجليزية ، يمتاز كثير من آثاره بالصدق وحرارة العاطفة وعمق التأمل . وذاك لأن حلول الموت ينقض الشمل وينغص المسرة ويذهب بالألف (بكسر الهمزة وسكون اللام) ، فيبعث فى نفس الأديب ثورة ، ويدفعها الى مراجعة التأمل فى الحياة ، ويستخرج خير ما فى النفس من صفات الوفاء والمودة وعذب الذكريات وخلجات الحنين . ومن غرر المراثى فى العربية رثاء مهلهل لأخيه ، ودالية المعرى ورثاء البحترى للمتوكل ورثاء ابن الرومى لأوسط صبيته ورثاء التهامى لولده . ومن روائع المراثى فى الانجليزية مرثية ملتون المسماة ليسيداس ومرثية شلى المسماة أدونيس ومرثية

تنيسون المسماة الذكرى . وقد نظم كل منهم قصيدته فى رثاء صديق له رفيق لصباه مات معتبطا . ومن بدائع المراثي الانجليزية أيضا خطبة مارك أنطونى على جسد قيصر فى رواية شكسبير الذائعة الصيت ، ومرثية جراى التى نظمها فى مقبرة قرية .

والتدين والوعظ فن يشترك فيه الأدبان ، ينمثل فى العربية فى خطب الرسول الكريم وكثير من خلفائه ، وكثير من أشعار أبى العتاهية وأبى نواس وابن عبد القدوس وابن الفارض وأصحاب المدائح النبوية ، وفى الانجليزية فى كثير من شعر ملتون ودن ونشر هو كروبنيان ونيومان ، وأكثر ما كتب من ذلك فى الانجليزية انما كان بأقلام رجال الدين المنتمين الى الكنيسة . اما العربية حيث لم تكن للدين هيئة رسمية ذات نفوذ كالكنيسة فجاء أدب التدين متفرقا يستوى فى معالجته رجال الدين المتفقهون فيه ورجال الدنيا غير المتوفرين عليه . ومن أنبغ رجال الدين فى الأدب العربى الامام الشافعى الذى يمتاز شعره برصانة ونقاء رائعين ، ومن آثاره قوله :

ثلاث هن مهلكة الأنام	وداعية الصحيح الى السقام :
دوام مدامة ودوام وطء	وادخال الطعام على الطعام

وقوله :

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة	تجرع ذل الجهل طول حياته
حياة الفتى والله بالعلم والتقوى	إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

والميل الى الصداقة طبع فى الانسان لا يكاد يقل عن الحب تمكنا وقوة ، فما يزال الانسان فى حنين الى الأليف الروحى الذى يبادلّه الفهم والشعور ، ويقاسمه الحزن والسرور ، ومن ثم تشغل الرسائل والقصائد الاخوانية فى الأدبين العربى والانجليزى مكانا معدودا ، بين مخاطب فى شتى الأمور وبين تعارف وتقاطع ، وبين تعاتب وتقريع . ومن آثار الصداقة فى الانجليزية كثير من مقطوعات شكسبير ، وما كان بين بوب وكوبر وليدى منتاجيو وبعض معاصريهم من تراسل ، وما كان بين جونسون وجولد سميث وبوزويل وجماعتهم من أحاديث دونها الأخير فى كتابه عن الأول ، وما كان بين جراى وشلى وبيرون وكثيرين غيرهم وبين أصدقائهم فى الوطن من مراسلات ، حين كان أولئك الشعراء يطوفون فى

ربوع أوربا ، وللجاحظ والبديع والصابى وابن العميد رسائل الى
أصدقائهم بارعة تعد فى صميم الأدب العربى . ولم تكن رسالة الغفران
الا رسالة بين صديقين . ومن قصائد التعائب المشهورة لامية معن
ابن أوس التى مطلعها :

لعمرك ما أدرى وانى لأوجل على أينما تعدو المنية أول

وهمزية ابن الرومى الطويلة التى مطلعها :

يا أخى أين عهد ذاك الاخاء ؟ أين ما كان بيننا من صفاء ؟

ونقد الأدب موضوع مهم من مواضيع الأدب ، تلذ فرائده كما تلذ
فراة آثار الأدب الأخرى ، لما يحوى من عام النظرات وخاص فى مخلفات
الأدباء وعصور الأدب . ومما يزيد أكثر كتب الأدب فى العربية ككتاب
السناعاتين وكتاب الوساطة امتناعا حفولها بالكثير من بدائع المختارات
والفتبسات . وفى الانجليزية يحتفى بعض النقاد أمثال ماكولى وماثيو
ارنولد واديسون بأسمائهم الأدبى فى تقديمهم لآثار غيرهم ، حتى ترى
آثارهم النقدية مضاهية لما ينقدونه لذة وامتاعا . ويسنزع بنقد الأدب فى
الانجليزية نقد الفنون الجميلة عامة ، والاشارة الى القواعد التى تشملها
عى والأدب ، ففى مقاله عن بيرون مثلا يوضح ماكولى آراءه بأمتلة من الفنون
الأخرى من موضع الى آخر .

وأحوال المجتمع وأحداث السياسة ليست مما يمر بالأديب المثقف
دون أن يكرنه . بل لابد أن يترك ذلك أثره الواضح فى أدبه . وقد كان
شعر الجاهلية سجلا موجزا لكبريات أحداثهم ، فلما خضع العرب للملكية
بعد الاسلام كفكت تلك النزعة ، وقل نقد الأنظمة الاجتماعية والسياسية
فى الأدب والتعليق على الحوادث الى حد كبير ، الا أن يكون فى ذلك
مجاراة ومظاهرة لأصحاب السلطان . وقد قتل المنصور ابن المقفع الذى
رفع اليه رسالة فى شئون الحكم وان عزى مقتله الى سبب آخر وأحيط
بالغموض . انما أثر السياسة والحوادث فى الأدب بعد الاسلام باد فى
الرسائل الديوانية التى كان يتألق الوزراء الكاتبون أمثال سهل بن هارون
والقاضى الفاضل وابن زيدون فى كتابتها الى عمال الأمير وأنصاره وأعدائه
والخارجين عليه ، كما أن فى كتابات الجاحظ ومقامات البديع تدميرا
واضحا لكثير من أحوال مجتمعاتهم وأنبائه . ومن أشعار الأحداث السياسية

قصيدة يزيد المهلبى فى رثاء المتوكل وقصيدة ابن الرومى فى ثورة الزنج
التي منها يقول :

بينما أهلها بأحسن حال اذ رماهم عبيدهم باضطلام
صبحوهم فكابد الناس منهم طول يوم كأنه الف عام

وهذا الفن أوسع محيطا وأحفل بالآثار فى الانجليزية ، حيث مهدت
الحكومة الديمقراطية السبيل للنظرات الحرة والنقدات الصادقة . وكان
استقلال الأمة الانجليزية عن غيرها واعتزالها سواها الى حد بعيد داعيا
الى اشتداد الشعور القومى والاحساس بوحدة المجتمع والاهتمام لشئونه
كأنها شئون كل فرد الخاصة . وقد قال الامام على : كلكم راع وكلكم
مسئول عن رعيته . وما أسماه مبدءا انسانيا ومذهبا ديمقراطيا وحكمة
عمرانية ، بيد أنه كان شعار المجتمع الانجليزى أكثر منه شعارا للمجتمع
العربى ، ومن ثم كانت لأدباء الانجليزية نظراتهم الاصلاحية الخاصة ،
التي تتراوح بين الخطرات العارضة وبين الرغبة فى الانقلاب الكلى ، وظهرت
القصة نتيجة هذا الاندماج الاجتماعى تصور المجتمع تصويرا دقيقا لا يغادر
منحى ولا مذهباً .

ولكن الحياة ليست كلها جدا مرا ، ولا النفس الانسانية تحتل الجهد
المتواصل ، وانما يميل الانسان بطبعه الى الترفيه عن نفسه بالتفكه والنظر
الى الجانب الهزلى من الحياة . والأدباء لدقة احساسهم ونفاذ نظراتهم
سريعون الى ملاحظة مواطن التناقض ومواضع الفكاهة فى أخلاق الناس
وأعمالهم ، ومن ثم يحفل الأدبان العربى والانجليزى بصور عديدة من صور
الفكاهة، تتراوح درجاتها بين العبث البرىء فى أيدي شكسبير وجورلد سميث
وأديسون والجاحظ ، وبين السخر المرير فى أيدي سويفت وبوب
وابن الرومى والمعري ، ويتناول بها الأدباء منافسيهم ومعاصريهم ويفندون
حماقات المجتمع .

وهناك مواضيع احتفى بها الأدب العربى حفاوة بالغة تفوق ما نالته
فى الانجليزية ، وأولها الحكمة : فأدباء العربية كانوا منذ الجاهلية
يعشقون الحكمة ويحبون نظمها والاستماع الى أشعارها ، بل كانوا كما
قليل لا يعترفون لشاعر بالفحولة حتى يوفق الى شئ منها . وظل الأعشى
مزويا عن مصاف الفحول حتى قال فى مدحه سلامة ذا فائش : « والشئ
حيثما جعلاً » ، فجمع صدق النظرة الى ايجاز اللفظ وهما سمتا الحكمة
عند العرب . ولما اطلع العرب على ثقافات الأمم كان أهم ما احتفوا بنقله

من آدابهم الحكمة . ومن كتب الحكمة مؤلفات ابن المقفع ومقصورة ابن دريد والخطب المنسوبة الى قس ابن ساعدة والامام علي ، والجيم الغفير من أشعار المتنبي التي سارت مسير الشمس ، وليس من محض الصدفة أن كان أكبر شعراء العربية وأسيرهم ذكرا حكيما مكثرا لصوغ الحكم وضرب الأمثال . وبالحكمة الصادقة البليغة الموجزة كان الأديب العربي يستغنى عن فنون وأشكال من الأدب ازدهرت في الانجليزية ، كالقصة والرواية التمثيلية والملحمة ، فالعبرة التي تنطوي عليها احدى هذه يجمعها الشاعر العربي في بيت واحد يلقيه اليك وخلاه ذم .

واقتراس الحكمة والمثل والاستشهاد بأقوال السلف أقل حدوثا في الانجليزية منه في العربية ، لأن الحكم الموجزة التي تغزر في الأخيرة قليلة في الأولى . وكثيرا ما يلجأ المقتبس في الانجليزية الى الأدبين الاغريق واللاتين ، وحتى هذا يبطل تدريجا في العصور الحديثة . وأكثر أدباء الانجليزية حظوة لدى المقتبسين والمستشهادين شكسبير ، وليس ذلك لأنه كان يعتمد صوغ الحكمة أو يحرص على التكثر منها ، بل لأن رواياته من جهة قد أحاطت بشتى أحوال الحياة والنفس الانسانية ، بحيث يجد فيها كل كاتب شيئا مقاربا لما هو بصدده ، ولأن مقدرته اللغوية العظيمة من جهة أخرى كانت تهديه الى صوغ أفكاره صياغة موجزة ممتعة ، ويليه سيرورة أقوال بوب ، زعيم الأسلوب المحكم الرصين الذي كان شعاره في الأدب التعبير « عما قيل من قبل كثيرا ، ولكن لم يقل أبدا بهذا الاحكام » ، فسار كثير من أبياته المحكمة الموجزة على الأقلام والأفواه .

ومما يتصل بالحكمة في الأدب العربي ويمتاز هذا الأدب به التمدح بحميد الخصال كالجود والشجاعة وحمى الذمار وحسن الجوار وحفظ السر وكظم الغيظ ومدارة السفية ، الى غير ذلك من الدساتير الخلقية التي كان كثير من أشراف العرب الأدعياء يسنونها لأنفسهم ، وامتداح تلك الصفات في الغير والحث عليها ، وهذا من أنبل مواضيع الأدب العربي ، ولحاتم الطائي ومسكين الدارمي والمقنع الكندي والشريف الرضى والامام الشافعى آثار في ذلك ، تروع برصانة أسلوبها ومتانة أسرها وعظمة خلقها ، فلما غلب التقليد على الأدب ، ودخل الشعر في طور التقهقر انقلب مثل هذا التمدح المحبوب الصادق المقرون بالفعال فخرا عاجزا أجوف ، بمآثر وهمية وعزائم مزعومة ، وتيها على النجوم ودلا على الزمان ، كقول السرى الرقا :

وانك عبدى يا زمان واننى على الرغم منى أن أرى لك سيديا

والغريب أن أحد أولئك الشعراء المتشبهين بالفخر ربما قرنه في القصيدة الواحدة بشكوى سوء الحال وقعود الجدود وخيبة الآمال .
والشكوى موضوع من مواضيع الأدب العربي كانت أقرب الى متناول أدبائه منها الى أدباء الانجليزية ، وقد فشت خاصة في آثار المتأخرين ، والأدب العربي من جهة أخرى أحفل بوصف آثار الترف ومظاهره : من القصور والمحافل ومجالس الشراب وآلات الطرب ودواعي المجون . وللخمر خاصة منزلة في الأدب العربي لا نظير لها في الانجليزية ، وقد حظيت من جزالة أسلوب الأخطل وأبي نواس وابن الرومي بما خلد أوصافها وأعلى ذكرها ، وقبلما يرد ذكر الخمر في الأدب الانجليزي الا تنظرنا وتنسبها بالاغريق الأقدمين وإشارة الى باخوس اله الخمر عندهم .

وراج في الأدب العربي فنان ليسا من صميم الأدب في شيء ، وما زالا برقيان حتي احتلا مكان الصدارة من الأدب ، وموضع الحفاوة من الأدباء ، وهما المدح والهجاء اللذان استفحل أمرهما من عهد الأمويين فنازلا ، حتي استبدلا بأجزاء كبيرة من دواوين بشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي ، وكادا يشغلان كل دواوين آخرين غير هؤلاء . وما كان ارتفاع شأنهما هكذا الا نتيجة فساد تقاليد قديمة ، كانت في الجاهلية تقاليد محمودة لا ضير فيها ، ثم استمرت بعد ذهاب عصرها واندثار بيئتها بظهور الاسلام وقيام الدولة المتحضرة المركزية ففسدت تلك التقاليد وصارت بلاء على الأدب الصحيح .

كان العرب الجاهليون يحرصون على حسن الأحداث ، ويتمدحون بكرم الصفات ، وينافحون خصومهم بالشعر ، ويجزون من فعل ذلك عنهم ، وكان ذلك كله وليد بيئتهم البدوية ، فلما كان الاسلام والدولة والحضارة لم يعد لمثل ذلك التفاسخ والتهاجي موضع ، ولكن الشعراء استبقوا ذلك التقليد طلبا للنوال ، والأمراء قبلوا منهم ذلك الاحياء المفتعل لنقله غير عصره طلبا للمجد الزائف . ومن العسير أن نحصى المساويء التي جرها هذان الفنانان من القول على الأدب العربي : مواضيعه ومعانيه وأساليبه .

ولم يكن في الانجليزية شيء من هذين الفنين يقاس بما كان في العربية ، وحتى القليل من المدح الذي كان في بعض الفترات يستفز الأدباء الأداة الى مثل قول بوب : « فلأعبر عن رأيي في الأمر في كلمة : إن وصف الرجل بأكثر مما نعلم فيه عمل بعيد عن الأمانة اذا قصد من ورائه الربح ، وعمل أخرق اذا لم يقصد ، وكل من نجح في مثل هذا العمل لابد أن

يعتقد في قرارة نفسه أنه هو نفسه دجال لأنه فعل ذلك ، وأن ممدوحه أحق لأنه صدق لما قيل فيه » .

وعلى حين احتفى شعراء العربية بهذين الفنين الزائفين من فنون القول ، أهملوا الى حد بعيد فنا هو من صميم الأدب والحياة ، وهو الوصف الطبيعي : فديوان المتنبي الذي يعج بمعاني المدح والهجاء المخترعة لا يضم الا أبياتا معدودة منشورة في التغنى بمباهج الطبيعة . أما في الانجليزية فالطبيعة وحى ما لا يعد من قصائد بين مقطوعات ومطولات ، ووصفها يتخلل أشتات المنظوم والمنثور في مختلف الأغراض ، وهى المنظر الخلفى لكثير من روايات العصر الاليزابيثى وملاحم ملتون وسبنسر ومطولات تينيسون وقصص هاردى ، بل بلغ من دقة دراسة تينيسون اياها أن أصبح شعره يقتبس في كتاب الجيولوجيا والجغرافيا أحيانا ، وبلغ من معرفة هاردى بطبيعة الاقليم الذى أجرى فيه حوادث قصصه ، أن كان يخصص الصحائف الطوال لوصف المنظر الواحد في قصصه بدقة العالم لا القصصى .

وهناك مواضيع أدمن أدباء الانجليزية ورود مناهلها وغزرت آثارها في أدبهم ، فكانت فيه مادة فن وامتاع وغبطة : كالتحدث عن المغامرات وروائع القصص وعجائب الرحلات ، وجسام حوادث الماضى وعظائم أبطال الأمم ، وممتع خرافات الأحياء وأغنيات طبقات الشعب وأقاصيصهم ، كل هاتيك وجد فيها أدباء الانجليزية منادح للفن والخيال ومعارض لميول النفس الانسانية وطباعها وسجاياها المرسله ، أما الأدب العربى فيمتاز بكفكة غلواء الخيال والتجافى عن البعيد من الأمكنة والأزمنة ، والازورار عن الأمم الأخرى والترفع عن العامة وثقافتهم المتواضعة ، واحتقار الخرافة وأساطير الماضى .

واتخذ الأدب الانجليزى التاريخ الواقعى مادة لموضوعاته : منه اتخذ الاليزابيثيون مواضيع بعض رواياتهم ، وفيه جال جييون وسوذى وماكولى وكارليل ، يدرسون كبريات الوقائع وعظماء الرجال واليه رجع الشعراء والقصصيون ، وقد صور سكوت في قصصه حوادث التاريخ تصويرا يفوق كتب التاريخ أحيانا دقة ووضوحا ، ولم يكده يلتفت الى التاريخ من أدباء العربية ويتناوله في أسلوب أدبى جزل سوى الجاحظ .

فالأدبان العربى والانجليزى قد تناولا مواضيع مشتركة بينهما ، وطرق كل منهما مواضيع لم يحتف بها الآخر . على أن الأدب الانجليزى أغزر موضوعات وأكثر شغلا بأسباب الحياة ، والأدب العربى لم يظل

دائما ترجمانا لكل عواطف المجتمع العربى ، وكانت روح المحافظة التى سببت عدم تطور أشكاله سببا فى قلة تطور مواضيعه أيضا ، فأهمل مواضيع شتى تمت الى الطبع الانسانى بأوثق الأسباب وتدخل فى حظيرة الأدب أول داخل ، وتناول غيرها لا تمت الى الفن بسبب ، ومرجع ذلك ما خالطه من نزعة تقليد جامدة ، وما اعتمد عليه من رعاية الأمراء ، على حين كان الأدب الانجليزى دائما حر النزعة حر الحركة والنمو .

الرومانسية الكلاسيكية

فى الأدبين العربى والانجليزى

ينشأ أدب الأمة المتبديية ساذجا بسيطا صريح التعبير قريب المتناول، مطلق السجية فى الاعراب عن الشعور الانسانى ، وتظل له هذه السمة حينئذ ، حتى تتحضر الأمة وينتقل الأدب من جو الطبيعة الطلق الى حياة المدينة ، بما تشمل من وسائل الحضارة المادية وأسباب الثقافة الذهنية ، فيرتقى الأدب لذلك كله وتتسع جوانبه وتبعد أغواره ، بيد أن الحضارة المادية التى توفرها المدينة لساكنيها ولا توفرها الطبيعة للمتبددين ، ربما طغت فأفسدت على القوم حياتهم ، وكذلك الثقافة العقلية فى ظلها يرتقى الأدب رقيا عظيما ربما زيفت على الانسان شعوره ، وتعاونت مع تلك الحضارة المادية على افساد الأدب بتغليب الصنعة والتكلف فيه على الاحساس الصادق ، وتكبيله بالتقاليد والأوضاع ، وتضييق حدوده ومد آفاقه ، وإيلاء الألفاظ فيه المكانة الأولى دون المعانى .

إذا بلغ الأدب هذا الطور الصناعى التقليدى انحط ولم يعد يسير الا من تدهور الى تدهور ، وصار الأدب المتبدى على سذاجته أرقى منه وأصدق ، ولم يعد للأدب الذى غلبت عليه الصناعة من سبيل للنهوض ، الا الرجوع الى الطبيعة والاقتباس من الأدب البدوى المرسل الطبع ، والاطلاع على آداب الأمم الأخرى التى لم يرهقها التكلف ولم تفسدها الصنعة ، بهذا وحده يتأتى له معاودة الحياة وأن يعود ترجمانا صادقا مبينا لها ، وبغير تلك العوامل الخارجية هيئات أن ينهض الأدب العاثر من سقطته ، وانما يزداد امعانا فى التكلف السمج جيلا بعد جيل ، واغراقا فى اختراع كاذب الأخيلة والأحاسيس ومزجها بالأعيب الألفاظ ، والخروج بكل ذلك عن كل ما يسيغه ذوق أو يقبله عقل .

فحياة الطبيعة المطلقة فى أعنتها ، وحياة المدينة ذات الحضارة والثقافة ، تتنازعان الأدب وتؤثر كل منهما فيه تأثيرا خاصا ، ولكل منهما مزايا هى قادرة على ابداعها الأدب : تمنحه الطبيعة شتى مناظر جمالها وصدق شعورها وبعيد آفاقها ورائع أسرارها ومخاوفها ، وتمنحه المدينة وسائل التفكير العميق والنظر الشاقب والطموح الى المثل العليا ، وأسباب

الذى أصبح فى حاجة اليه ، حين انتقل الى المدينة وشغل بآثار الحضارة والثقافة .

وقد كانت الرومانسية هى الصفة الغالبة على الأدب الانجليزى فى العصر الاليزابيثى ، وفى ذلك العهد كانت البساطة والخشونة تسودان المجتمع والملاط ، والحركة والنشاط والتطلع تتجلى فى شتى نواحي الحياة : فى العلم والأدب والكشف والمخاطرة والحرب . كان عهد نهضة تتحفز وتستشرف الى الجديد وترمى الى التوسع ، لا تقنع بالقليل الحاضر ولا تقبل القيود والحدود ، وزمن شباب يولع بالقوة والجلاد ويبرم بالأيام والأقياد ، فهو لا يرضاها فى الأدب ، ومن ثم جاء أدب ذلك العصر غزير المادة وتلاطم العباب مترامي الآفاق ، جياشا بشتى العواطف والمعاني ، حافلا بمختلف الأوضاع الأدبية والمذاهب الفنية ، لم يتقيد رجاله بتقاليد فنية غير معقولة : فعلى حين تقيد أدباء الفرنسية بالوحدات الثلاث التى أثرت عن الدراما الاغريقية ، انتفع الأدب الانجليزى بخير ما فى تلك الدراما وضرب بتلك الوحدات عرض الحائط ، ولم يتقيد بألفاظ خاصة فى الشعر ، مما أصبح فيما بعد يسمى « الألفاظ الشعرية » ، بل زاد على استعمال كل ما فى لغة الكتب أن اقتبس من لغة العامة واصطنع بعض ألفاظ اللغات الأجنبية ، واشتق ما راقه من ألفاظ . وأخرج هذا العصر الحافل كبير شعراء الانجليزية شكسبير ، وأنجب بجانبه أحد كبراء شعرائها سبنسر ، وامتد هذا العصر حتى انتهى بظهور علم ثالث من أعلامها هو ملتون .

تصرم ذلك العهد المملوء بالحرية والنشاط والجرأة والفتوة ، وتلاه عصر كلاسى طويل ، بين أواخر القرن السابع عشر وأواخر القرن الذى يليه ، خمدت فيه روح المغامرة والتطلع التى كانت هتنبهة فى عصر اليزابث ، واستراح الناس الى حياة المدينة ومنتدياتها ، وانغمز الأدباء فى المعارك الأدبية فيما بينهم ، فكان نزاع بين كل من دريدن وأديسون وستيل وديفو وسويفت ومعاصريهم ، محتدم حيناً ومتروك حيناً ، ومعلن تارة ومستتر أخرى ، وانغمزوا كذلك فى المشادات السياسية وانضووا تحت ألوية الأحزاب ، وشجعهم رجال تلك الأحزاب على الانخراط فى سلوكهم والدود عن مبادئهم بأقلامهم ، فكان سويفت فى صف المحافظين ، وأديسون فى جانب الأحرار ، وكان ستيل يختلف من هؤلاء الى أولئك . وخلا أدب ذلك العصر أو كاد من ذكر الطبيعة ومجاليها ، وحتى أولئك الأدباء الذين كانوا يرحلون الى الأقطار الأجنبية ، لم تكن تحرك نفوسهم مناظرها الجديدة ، فكانوا يتناولون فى رسائلهم الى أصدقائهم فى الوطن

الانشاء الأدبي الفنى والجهد الأدبي المتصل ، والتفنن فى ابتكار صور الأدب وأوضاعه ، والخير كل الخير أن يأخذ الأدب من كلتا الناحيتين. بنصيب ، والأدب الذى اجتمع له رجب الطبيعة وحرارة شعورها وجمالها ، الى ثقافة المدينة ووسائل التوفر الأدبي فيها ، أدب لا شك بالغ من الرقى غاياته ، أما الأدب المتبدى فيظل على صدقه وجماله قاصرا ساذجا ، وأما أدب المدينة الذى بالغ فى الانغمار فى جوها وأهمل جانب الطبيعة ، فسائر الى الفساد والانحلال لا محالة .

والرومانسية هى الصفة التى ينبعث بها عادة الأدب الذى يؤثر جانب الطبيعة ، ويخفل بمظاهر عبادتها والتأمل فى ظواهرها ووصف مشاهداتها والنسب فى آفاقها ، يؤثر كل ذلك على اللفظ فلا يهتم بهذا الا بقدر ما يستخرج فى ايضاح أغراضه ، وعلى حياة المدينة فلا تستغرق شؤون السياسة وعلاقة رجاله برجالها وبرجال البلاط والحرب كل جهده والتفاته ، ولا يصرفه الحاضر عن الولوع بالماضى والتأمل فيه وفى المستقبل ، ولا ريب فى أن ذلك لا يعنى اهماله لجانب الحضارة والثقافة ، بل هو بهما شديد الولوع وبدرس ماضيهما ومستقبلهما شديد الشغف ، والكلاسيكية هى النعت الذى يطلق على الأدب الذى استغرقت حياة المدينة وشغل بها عن جانب الطبيعة وانغمر فيها رجاله ، فى مجتمعيها ومنتدياتها ومعاركها السياسية والحزبية والشخصية ، وآثر التأنق فى اللفظ والشكل الأدبي وكفكف العاطفة فحل محلها الذكاء والبراعة واللياقة ، وضيق مجالات القول وحدد أغراضه ، وكل هاتيك صفات ولوازم تعلق بالمجتمع المترف وتنعكس عنه فى الأدب .

وقد كانت الصيغة الرومانسية هى الغالبة على الأدب الانغريقى فى عهد عظمته ، لأنه ترعرع فى مجتمع قريب من البداوة ، وفى حياة شديدة النشاط مطردة الحركة ، تجيش بالمغامرة والجلاد ، وفى حرية فى الفكر والسياسة . أما الأدب اللاتينى فكان أكثر اضطباغا بالكلاسيكية لأنه لم يبلغ ذروته الا فى الملكية المطلقة والامبراطورية الموطدة المستقرة . فكان أدب مدينة وثقافة متأنقة ، واشتهر أعلامه كفيرجيل باحكام الأسلوب والتشبيث بمبادئ وتقاليد أدبية خاصة ، ومازالت الياذة هومير وانياد فويرجيل موضوع مقابلة من هذه الناحية . وكان أدباء الانجليزية أكثر احتفالا باللاتينيين واقتداء بهم فى العصر الكلاسي فى الأدب الانجليزى ، كما كانوا فى عهده الرومانسى أميل الى اليونان وأكثر تغنيا بآثارهم ، وبعدم اطلاق الأدب العربى على الأدب اليونانى فقد هذا العنصر الرومانسى

شنتى المواضيع فاعداها . واهتم أدباء ذلك العهد باللفظ كل اهتمام
وقدموه صراحة على المعنى ، وجعلوا للشعر ألفاظا لا يتعداها ومواضيع
لا يتخطاها ، واتخذوا للشعر وزنا واحدا مزدوج القافية لم يكد أحد ينظم
فى سواه ، وقلدوا الأقدمين من أدباء الاغريقية واللاتينية ونقادهما ،
وانصاعوا لمبادئهم انصياغا أعمى ، وبهذا كله ضاقت حدود الأدب ضيقا
شديدا ، وأرهقه التكلف وفدخته القيود ، فسار الى الانحلال .

وزعيم هذا المذهب الكلاسى الذى بلغ أوجه على يديه هو بوب الذى
نال الغاية من احكام اللفظ ، وقد قال عنه بعض مترجميه ان شعره ليس
بالا نثرا ، جيد النظم ، وذلك حق : فهو يتناول فى شعره مواضيع هى أقرب
الى النثر وأبعد عن الخيال والشاعرية ، وكان يسمى بعض قصائده
« مقالات » ومنها مقالته فى النقد التى نظم فيها مبادئ المذهب الكلاسى
فى الأدب ونقده ، فظلت مرجعا لمن تلاه من شعراء المذهب ، ومنها يقول :
« تعام اذن التقدير الحق لمبادئ الأقدمين ، فمحاكاتها هى محاكاة للطبيعة ،
فتلك المبادئ القديمة - التى انما اكتشفت ولم ت اخترع - ان هى
الا الطبيعة ، غير أنها الطبيعة منظمة مهذبة » ، وقد ترجم بوب الياذة
هوميروس ترجمة قدسها معاصروه ، ولكنها قلما تذكر الآن أو يعتمد عليها
أو تعد صورة صحيحة لشعر هوميروس ، اذ كان من المستحيل على أديب
مشبع بالروح الكلاسى أن يخلص الى روح الشاعر الاغريقى الرومانسى .
ثم دبت فى المجتمع الانجليزى روح جديدة ، وانتعش الأدب الانجليزى من
خموله باطلاعه على آداب الأمم الأخرى الناهضة كالآداب الالماني ، والعودة
الى صدر الطبيعة الرحب الحافل بالأسرار والحياة والوحى . تمخض كل
ذلك فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل الذى يليه عن نهضة رومانسية
جديدة فكث الأدب من عقالة ونبهت الشعر من غفوته ، ورحبت آفاقه
وبسطت جوانبه ، وسبحت به فى آماذ الكون والطبيعة والانسانية ،
وأنجبت هذه النهضة جمهرة أخرى من أفذاذ الأدب الانجليزى : أنجبت
وردزورث وبليك وكولردج ، ثم بيرون وشلى وكيثس ، ثم تنيسون
وبراوننج ، عدا من أخرجت من أفذاذ النثر الذين جاء نشرهم حافلا بمظاهر
النهضة الجديدة ، ولا غرو : ففي العهود الرومانسية يتجلى الروح
الشعرى حتى فى النثر ، وفى العصور الكلاسية يفيض الروح الشعرى
حتى فى النظم ، وماتزال تلك النزعة الرومانسية ملحوظة فى الأدب
الانجليزى ، على ما داخله من نزعة واقعية ، واقبال على درس مسائل
المجتمع كافة .

والعصر الرومانسى فى الأدب العربى هو ولا شك عصر الجاهلية
والعهد الراشدى وصدر العصر الأموى : فى تلك العهود وكان المجتمع

العربي أدنى الى البساطة والتبدي ، وكان الأدب مرسل السجية صادق التعبير عن خلجات النفوس : من حزن وطرب ولذة وألم ، وحب وبغض وحماسة ووصف ، خالياً في أكثر نواحيه من مظاهر التكلف اللفظي أو التعمل في المعنى أو التصنع في الموضوع . وماتزال لحكم بعض الأعراب والأعرابيات ومراثيهم ، وحماسيات قطري بن الفجاءة وغزليات جميل وقيس ، روعة في النفوس وغبطة شاملة ، لصدورها عن طبع سليم وشعور صميم ، هذا على رغم بساطة ذلك الأدب وخلوه من مظاهر التشقف والتعمق في التفكير .

تجرم ذلك العصر بطول عهد العرب بالحضارة والثقافة ، ومهدت حضارة المدينة وثقافتها من أسباب القول ودواعي النظم ووسائل التفنن الأدبي ما لم يتوفر في البدايات فنشأ من ذلك أدب جديد يفوق أدب العصر السالف تعدد مواضيع وعمق نظرة ووفرة محصول ، وتجلى ذلك في خير آثار ابن الرومي والطائي والمتنبي والمعري والجاحظ والبديع والجرجاني وأضرابهم . على أن الأدب في طوره هذا انغمس في جو المدينة انغماساً تاماً ، فكان هذا عهداً كلاسيكياً صميماً : فيه تزايد ولوع الأدباء تدريجاً باللفظ واحتفاؤهم به ، ثم استعبادهم أنفسهم له وللأوضاع والمبادئ الموروثة عن المتقدمين . وضائق مواضيع القول رويداً رويداً وكبلها التكلف والاغراب ، وتجمع الأدباء حول موائل الأمراء ورجال السياسة والحكم والحرب ، وخاضوا غمار مشاحناتهم ، وتشاحنوا هم أنفسهم فيما بينهم ، وهي مشاحنات تذكرنا بحملات سويقت ودريدن من الأدباء ، فمن هجاء الوزراء قول دعبل في وزير المأمون :

أولى الأمور بضیعة وفساد أمر يدبره أبو عباد
يسطو على جلسائه بدواته فمضى بدم ونضح مداد

ومن تهاجى الشعراء قول ابن الرومي في البحتري :

أف لأشياء يأتي البحتري بها من شعره الغث بعد الكد والتعب
البحتري ذنوب الوجه نعرفه وما عهدنا ذنوب الوجه ذا أدب

وقول المتنبي في معاصريه :

أفى كل يوم تحت ضبتي شويعر ضعيف يقاويني ، قصير يطاول ؟
وكم جاهل بي وهو يجهل جهله ويجهل علمي أنه بي جاهل

فى ذلك العصر الكلاسى الطويل أعرض الشعراء اعراضا يكاد يكون تاما عن الطبيعة وحديثها ومجاليها ، وأقبلوا على حياة المدينة أى اقبال . وما منهم من له أمل أبعد من أن ينال النجاح فيما تهيئه لأبنائها من أسباب اللذة والمتعة والشهرة ، فكان منهم طامع الى الملك كالمتنبى والشريف الرضى ، وحريص على الوزارة كالصاحب وابن العميد ، وراغب فى الولاية حظى بها كالطائي وقصر عنها كابن الرومى ، ومغتنبط بالحظوة والمنادمة كابى العتاهية والبحترى ، وغير هؤلاء وأولئك ممن سعوا سعيهم ولم ينالوا مثل شهرتهم ، وممن طمحوا فيما هو دون ذلك من متعات الحياة ، ونظير ذلك كله تراه فى العصر الكلاسى الانجليزى سالف الذكر : فقد تقلب دريدن بين الأحزاب وحرس على الحظوة فى البلاط ، وتدرج أديسون فى المناصب حتى صار وزيرا للخارجية ، ولم يقنع سويفت بما تولى من مناصب فى الكنيسة ، وكان اخفاقه فى مطاعمه البعيدة أحد أسباب نغمته وتشاؤمه .

وتجلت هذه الصفة الكلاسية فى الأدب ذاته : حددت مواضيعه وقصرت على ما اتصل بالحاضر القريب من شؤون الحياة فى المدينة ، وأهملت المواضيع الرومانسية الصبغة ، كالالتفات الى الماضى واستعراض حوادثه الطريفة واتخاذها مادة للنظم والنثر ، ومعالجة خرافاته واستلهاها ما بها من معانى الجمال والعظمة والبطولة ، وأهملت أحداث الرحلات وأوصاف البلاد البعيدة والأصقاع المجهولة ، ما وجد منها فى الحقيقة وما يتخيله الشاعر ، وكفكف الخيال ونبتت آثاره من عالم الأدب .

خلا الأدب العربى فى ذلك العهد من كل هذه المواضيع ، وهى من صميم الشعر ولباب الفن وجوهر الادب اذا ما تحضر أهله وانتفعوا بالثقافة ، وانما تركت هذه المواضيع الجليلة للأدب العامى ، فظل الأدب الفصيح أدبا كلاسيا وصار الأدب العامى هو المثل للرومانسية .

دام ذلك العصر الكلاسى الطويل فى الأدب العربى طوال عهد ارتقاء الأدب ، أى زهاء ثلاثة قرون ، ثم طوال عهد انحطاطه أى الى العصر الحديث ، لم تعقبه خلال تلك الأجيال المتوالية نهضة رومانسية تخفف من غلوائه وتصلح من فسادة ، وتقيم ما اعوج من مبادئه الأدبية ، وتعود به الى الطبيعة التى هجرها واستغرق فى النوم فى أحضان المدينة : لم تنبعث فيه تلك النهضة التى انبعثت فى الأدب الانجليزى فى أعقاب القرن الثامن عشر ، حين بلغ العهد الكلاسى مداه من التحكم فى أساليب الأدب .

وبلغ الأدب الدرك من الاسفاف والامحال ، ذلك لأن الأدب العربى كانت تعوزه تلك العوامل التى تساعد على النهضة وتعاون على الرجوع الى الطبيعة وتنبت الميل الرومانسى ، فكان استمرار النزعة الكلاسيكية المحتدمة فى الأدب أكبر أسباب تدهوره الطويل .

فالأدب العربى لم يكن على اتصال بآداب أجنبية فيأخذ عنها حب الطبيعة وإيثار البساطة ، ويلتفت باطلاعه عليها الى حقائق الحياة الكثيرة التى أهملها ، أو هو لم يكن يتنازل فيتصل بآداب العامة وأقاصيص الزراع والرعاة ، التى تنسم فيها نسائم الطبيعة والبساطة والشعور الصميم ، وهو لم يكن يرجع الى ماضيه الرومانسى الذى سبقته الإشارة اليه ، فينظر فيه نظرة حرة مميزة ، تستخلص اللباب وتنظر من خلاله الى حقائق الحياة ، انما يرجع اليه طلبا للأسلوب واللفظ ، دون المعنى والموضوع ، كان يعده كنز لغة فصيحة الأساليب والألفاظ لا كنز حقائق منتزعة من الحياة الصميمة . فاذا نظر الى المعانى حاول حكايتها وتقليدها تقليدا كاملا على ما هى عليه ، أى حاول الأديب أن يحيا فى أدبه حياة البدو ويشعرهم بشعورهم كله ، وكان الأجدر أن ينبذ ذلك جميعا ، ولا يهتم الا بصدق تعبير أولئك المتقدمين عن شعورهم ، ووجوب صدقه فى تعبيره عن شعوره الصحيح ، فى عصره وحياته المخالفين لما كان قبله .

ظل هذا المذهب الكلاسيكى التقليدى سائدا فى الأدب العربى ، يقلده المتأخر المتقدم ، يزيد عليه تقييدا وتضييقا فى مجالات القول وأوضاعه ، مادام الأدب محجوبا عن غيره من الآداب بعيدا عما جهله أو تجاهله من حقائق الحياة والأدب ، حتى أتيح له الاتصال بالآداب الغربية فى العصر الحديث ، فصحا من غفوته ونفض عنه تدريجا غبار التقليد والتقييد اللفظى والمعنوى ، وفتن بحقائق الكون ومحاسن الطبيعة التى كان عنها فى شغل ، وتناول شتى المواضيع التى كان حرمها على نفسه ، وبالجمله تقشع عنه عصره الكلاسيكى الطويل ، وأشرق عليه فجر نهضة رومانسية جديدة .

الحرب

فى الأدبين العربى والانجليزى

حب الحياة والاقبال على متعانها والرغبة فى التكسر من خيراتها مركب فى طبائع الأحياء . وليس لحاجات الحى ورغباته ومطامحه نهاية . بل تبقى له حاجة مابقى كما قال الشاعر ، والنزاع بين الأحياء على خيرات الحياة من اجل ذلك متصل لا يفتر ، وهيهات يفتر وحب الخلاف والنزاع والجلاد ذاته بعض طبائع الأحياء . والشغف بالقلب والتخايل بالقوة والزهو بالسيادة من أكبر مطامع الأحياء والانسان خاصة . ومن ثم عرف الانسان الحرب من أول عصوره واشتغل منذ همجيته بمكافحة الأحياء من الوحش ومن أبناء جنسه ، وتم له النصر من قديم على أمة الوحش ، وما تزال معارك الانسان مع أخيه — أو عدوه — الانسان متصلة تسب بين حين وحين .

وقد كابد الانسان فى شتى العصور أهوال الحروب وعلم علم اليقين عواقبها الوخيمة ، بيد أنه لم يستطع بعد أن ينبذها ، لقيامها على غرائز فى طبعه راسخة متأصلة ، ولما تليح به أمام عينيه من مزايا النصر ومغانمه ومجده ولألائه ، ومن ثم كانت مهمة دعاة السلم من أشق المهام ومطلبهم من أبعد المطالب ، وقد هبوا فى الفترة بعد الفترة ينددون بالحرب وبلاياها ومغباتها ، فكانت صيحاتهم تترك صداها فى نفوس الكثيرين ، لا سيما فى أعقاب الحروب الطاحنة التى أهلكت الحرث والنسل ، ثم لا تلبث غرائز الانسان الفطرية أن تعاوده على أشدها ، وتبدأ الأمم سيرتها الأولى من الطمع والتفانى وتحكم القوة التى لا يفصل سواها بين المطامع المتضاربة .

وللحرب آثارها المشهودة فى أدب كل أمة بلا استثناء . ولتلك الآثار ثلاث نواح : فالحرب أولا من أهم وسائل اتصال الأمم واختلاط الأفكار وتلاقح الثقافات ، وهى ثانيا وحى الجهم الغفير من نظم الشعراء ونثر الكتاب الواصفين لوقائعها وسلاحيها ورجالها ، الممجدين لأبطالها

وانتصاراتهم ، المفاخرين بما كان دحر (١) الأعداء وحماية الدمار وسلامة الشرف الرفيع من الأذى ، والحرب من جهة ثالثة أوحى بآثار أدبية شتى. فى تبغيض القتال ، وتسفيه اعتداء الانسان على الانسان ، والحض على السلم والدعوة الى الاخاء والصفاء وان كان أثر هذه الدعوة فى الأدب أقل كثيرا مما فيه من الترنم بمجد الانتصار والتغنى بالعز والغلب ، ولم تكثر آثار تلك الدعوة فى الأدب الا فى العصر الحديث .

وكل هاتيك الآثار بيئة فى الأدبين العربى والانجليزى ، فقد خبت الأمتان وأوضعتا فى مجال الحروب . وكان بين كل منهما وبين جيرانها وأعدائها ملاحم ومواقع جسام ، وشهد أدبها قيام نهضة حربية عظيمة وتشبيد امبراطورية واسعة ، وأنجبت كل منهما عظماء القادة وحازت مشهود الانتصارات ، وذاقت أحيانا مرارة الهزيمة ، ووقفت مرارا حيل الأخطار الجائحة التى تهدد كيائها وحريتها وتقاليدها ، وشهدت الكثير من أمثال هذا كله يجرى بين الدول المجاورة والأمم المعاصرة لها ، وعلى كثرة ما يحتويه الأدب الانجليزى من آثار كل ذلك ، فان ما فى الأدب العربى منه أكثر ، وذلك لأسباب عديدة .

فأولا ارتقى الأدب العربى وتوطد والأمة العربية ما تزال منشقة متناضلة ، تتفاخر قبائلها بأيامها وانتصاراتها ، أما الأدب الانجليزى فلم يبلغ عظمته الا فى ظل القومية الموحدة ، ولم تنشق الأمة على نفسها ويمتشق بعضها الحسام لقتال بعض الا مرة واحدة فى عهد الصراع بين الملكية المطلقة والنظام الدستورى ، وهى الفترة التى أنجبت القائد العظيم كرومويل ، وفيما عدا ذلك يمتاز التاريخ الانجليزى بخلوه من الحروب الأهلية .

وثانيا كانت الحروب أكثر طروءا (٢) فى تاريخ العرب منها فى تاريخ الانجليز ، حتى بعد توطيد الامبراطورية : فان تلك الامبراطورية ظلت - مادامت لها قوتها - تجالد أعداءها فى الدين من روم ووثنيين ، حتى اذا ما وهنت قوتها انقسمت على نفسها ، وكثرت فى داخلها الدويلات والحروب .

وثالثا لأن كثيرا من اعلام الأدب العربى كعنترة وقطرى بن الفجاءة والمتنبى وأبى فراس ، كانوا جنودا يشهدون الوغى ويتمدحون بمآثرهم.

(١) دحر : دفع وطرده الأعداء .

(٢) طروءا : حدث لهجة

فيها ، وقل من أدباء الانجليزية من كان كذلك ، بل لقد ذكر أن المقاتلة في عهد التلاحم بين على ومعاوية والخوارج كانوا اذا تهادنوا ليلا تقابلوا تقابل الأصفياء يتناشدون الأشعار .

رابعا كان جل شعراء العربية المتأخرين متصلين بالأمراء والقواد ، فلم يكن لهم ندحة عن وصف أعمال ممدوحهم الحربية .

كان العرب في الجاهلية في قتال لا يكاد يهدأ ، وكانت بين قبائلهم وأشرافهم ثارات وعداوات لا تكاد تنتهي حتى اضطروا الى أن يتخذوا لهم موضعا حراما ووقتا حراما ما تهدأ فيه الخصومات وتغمد الصوارم وتتصل أسباب الحياة والتعاون ، وبالتمدح بالنصر في تلك الحروب والتفاخر بأيامها والتوعد والتربص ، كان أكثر ما قيل من شعر في الجاهلية . وظلت لهذا الباب من الشعر المسمى بالحماسة مكانته بعد انقضاء عهد الجاهلية بطويل ، وبه بدأ أبو تمام مختاراته الشعرية وبه سماها ، وكثر في الشعر الجاهلي ذكر السيوف والرماح والخيول وغيرها من وسائل الحرب ، وكثرت في العربية أسماؤها وأوصافها ، وارتقى بين العرب البصر بالحروب وتأصلت فيهم ملكاتها ، حتى أخرجت الجزيرة صناديد الاسلام الذين اصطلموا كتائب قيصر وآل ساسان ، ومن الشعر الذي يعرض صور حروب ذلك العهد معلقة عمرو بن كلثوم التي يقول منها :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
وكنّا الأيمنين اذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا

وكانت الرسالة النبوية ، وكان صاحبها يجمع الى عبقرياته العظيمة المتعددة التي لم تجتمع لانسان ، البصر بالحرب والبلاء فيها فتخلف في أشعار ذلك العهد ولا سيما شعر حسان أثر ما كان بين المسلمين والكفار من كفاح ، حتى اذا ما وحد الاسلام قلوب العرب انصرفوا الى جهاد أعداء الدين ، ومن عجب أن عصر الفتوح الباهر الذي تلا ذلك لم يترك في الأدب العربي الا أثرا ضئيلا . وليس امتلاء النفوس برهبة الدين هو كل السبب في ذلك ، بل يرجع ذلك أيضا الى جدة الحالة التي وجد العرب بها أنفسهم : من قتال أمم مخالفة لهم في الجنس واللسان والمسكن ووسائل القتال ، ولعلهم لم يجدوا من اللذة والغبطة ودواعي الفخار في اجتياح تلك الجيوش المرتبة ، ما كانوا يجدونه في مصاولاتهم البدوية المملوءة بالكر والفر والمساجلات الفردية .

وأهم من هذا وذاك أنهم لم يتعودوا الفخر بالأعمال القومية ، التي يشترك في فخارها المضرى والبكرى والتغلبى ، ولم يتعودوا أن ينظموا القصيد في الفخر على أعجمى ، وإنما هم كانوا يترفعون على الأعجمى ترفعا بدهيا بسيطا لا يكلفون له عناء النظم ، ولا يحتفون بالقول ، وآية ذلك حكاية الأعرابي الذي سئل : أتحب أن تكون ابن أعجمية ولك قصر في الجنة ؟ فقال : لا أحب اللؤم بشيء • قيل : فان أمير المؤمنين ابن أمة ، قال : أخزى الله من أطاعه !

إنما كان الفخر كل الفخر عند العرب في الظفر بعربى مثله ، من قبيلة معادية لقبيلته ، قد توارثت قبيلتهما العداوة والتراث جيلا بعد جيل • وما هي الا أن دبت الفتنة من جديد بين العرب حتى ظهر أثرها في الشعر : فمهدد لمعاوية وحزبه ، ومناصر لبنى هاشم أو مناصب لهم • ومفاخر بكنب أو بتغلب أو معير لهذه أو لتلك ، الى عهد بشار الذي يتمدح — على كونه من الموالي — بالغضبة المضرية التي تهتك حجاب الشمس ، وظل الشعراء الذين يمدحون الخلفاء والأمراء والقواد ويمدحون بلاءهم في الحروب ، لا ينسون أن يذكروا مفاخر قبائلهم من قبل وبلاءهم في الوغى ، فاذا مدح الشاعر الحجاج ذكر ثقيفا ، أو عبد الملك ذكر أمية ، وظل الشعر العربى دائما يردد ذكر بنى مطر وبنى شيبان وبنى تنوخ وبلاء كل أولئك في الحروب ، وكان التساجل بين الشعوبيين وأنصار العربية فلم يكده يترك أثرا في الشعر العربى ، وحتى المتنبى يحفل شعره بذكر قبائل من مدحهم على التوالى ، رغم تعصبه للعربية ، وطول تأمله من أن يرى عربا ملوكها عجم •

بجانب تلك العاطفة القبلية نمت تدريجا عاطفة أخرى هي الرابطة الإسلامية ، اذ تمكن الاسلام من نفوس معتنقيه ومجتمعهم تمكننا أحله محل القومية ، وترددت تلك العاطفة في أشعار الشعراء الممجدين لبلاء الخلائف والأمراء في دفاع أعداء الملة ، وكان للاسلام في أول ظهوره عدوان كبيران : الوثنية وزعيمتها فارس ، وقد فرغ من شأنها عاجلا ، والنصرانية وممثلتها الدولة الرومانية ، وقد ظل جهادها دائما من أول مهمات الخلفاء وولاية الثغور ، وظلت حربها من أهم ما يشغل بال المسلمين ويغذى عاطفتهم المشتركة وشعورهم القومى ، ويتجلى أثر تلك الحروب بين الدولتين ، أو بين الديانتين ، في أشعار أبى تمام والبحترى والمتنبنى ، ولما أعيت الدولة الرومانية الحيل استنجدت بغيرها من أمم النصرانية ، فكانت الحروب الصليبية ، التي ظهر أثرها في شعر شعراء مصر والشام ، ومن ذلك قول البهاء زهير في السلطان الأيوبي :

فابلغ رسول الله . أن سمييه
وأقسم ان ذاقت بنو الأصفر الكرى
حمى بيضة الاسلام من نوب الكفر
فلا حامت الا بأعلامه الصفر

وبلغ المسلمون المبالغ فى فنون الحرب البرية والبحرية ، وعنهم
أخذ الصليبيون ، ومن لغتهم نقل الغرييون كلمة الأميرال أو أمير البحر
وغيرها من مصطلحات القتال ، وحفل شعرهم بوصف المعارك والجيوش ،
وما توقعه بأرض العدو من دمار ، كوصف أبى تمام لتخريب عمورية ،
ووصف الأساطيل ، والمتنبى هو أصدق وصف فى الحرب فى المتأخرين
وأروعه ، لأنه كان يصف ما يميل اليه بطبعه وما يمارسه ويشاهده
بنفسه ، ولا تكاد ترتوى منه لهفته ، ومن ثم لا تقل أشعاره الحربية عن
أشعار الجاهليين والاسلاميين صدقا وفطانة وتفوق بعضها جزالة وتجويدا ،
ومن جيدها وصفه لخييل سيف الدولة الذى منه :

رمى الدرب بالجرد الجياد الى العدا وما علموا ان السهم خيول
شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرح من تحتة وصهيل
كتائب يطرن الحديد عايهم فكل مكان بالسيوف يسهل

ومن جيد وصف الأساطيل قول ابن هانىء الأندلسى :

أنافت بها آطامها وسمالها بناء على غير العراء مشيد
وليس بأعلى كوكب وهو شامق وايس من الصفاح وهو صلرد
إذا فريت غيظا قد ترامت بماوج كما سب من نار الجحيم وقود

ولم يقتصر ذكر الحرب على هواضعها الخاصة بها ، ومناسباتها بين
الحين والحين ، بل كان أمرها من الشمول والاتصال والحضور فى أذهان
الناس بحيث تسرب ذكرها فى شتى أبواب الأدب ، واستعيرت صفاتها
وأحوالها لمختلف الأغراض : ففي النسيب استعيرت السيوف والسهم
للجفون واللواحظ (١) ، والقتل لشدة التتيم ، وبالسيف شبه الممدوح
صقلا ومضاء (٢) وبه جرت الأمثال فليل : سبق السيف العذل (٣) ،
وشبه المتنبي المنون (٤) بعسده لا تجدى المشرفة والعوالى فى قتاله .

(١) اللواحظ : جمع لاحظة وهى المقلة .

(٢) مضاء : أى حادا سريع القطع .

(٣) العذل : فى المثل : « سبق السيف العذل » يضرب لما قد مات ولا يستدرك .

(٤) المنون : الكثير المن .

ولا تنجى السوابق المقربات من خيبه ، وقرن التمدح بالبلاء فى الحرب بالتشبيب ، كما كان يفعل عنتره ، وكما قال أبو عطاء السندى وهو البيت الذى تمثل به صلاح الأيوبى فى بعض رسائله :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقة السمر

وفى الأدب الانجليزى أوصاف رائعة للحروب ، وتمجيد شائق لأبطالها ، وتفاخر بانتصاراتها وما كسبته الأمة من اعتزاز وهيبة ، وللمتون ومارفيل وكامبيل وتينيسون وكبلنج فى ذلك أشعار مأثورة . وقد كان مجال القول أمام أمثال أولئك الشعراء ذا سعة : فتاريخ الامبراطورية حافل بعظائم جنودها . نعم كانت سياسة بناتها دائما سلمية لا تلجأ الى الحرب الا فى الحالة القصوى . ولا تندفع الى ميدان القتال بمجرد الرغبة فى الظفر والافتخار . ولكن الدولة كانت دائما عزيزة فى وطنية أبنائها وقوة أسطولها ، وقد كسب لها جيشها وأسطولها انتصارات باهرة خالدة ، ودوخ أبطالها أمثال كرومويل وملبرا ونلسون وولنجتون الأمم ، وأعلوا كلمتها فوق كل كلمة .

ولا يستأثر الشعر دون النثر بحديث الحرب ووقائعها وأبطالها ، بل هناك كتاب سوذى عن نلسون ومقالات ماكولى عن كليف وهستنجر وفردريك الأكبر ، وتاريخه وتاريخ جييون ، كل هاتيك حافلة بالوصف الدقيق البليغ لشتى المواقع والحروب ، هذا الى ما فى مختلف القصص من ذلك ، ولا يكاد يكون فى العربية من مثل ذلك سوى بعض خطب الامام على بن أبى طالب ، ورسائل فى بعض الخلفاء الى ولائهم ينهونهم أن يؤذوا المسلمين أو يعيشوا فى الحرث والنسل ، وخطب بعض القواد كتلك المنسوبة الى طارق بن زياد والتي تفيض بلاغة وشجاعة . ولا غرو فقد كان للشعر دائما التقديم على النثر ، وقد ظل طويلا يستأثر دونه بالحفاوة .

ولم يقتصر شعراء الانجليزية على نظم القصيد فى تمجيد انتصارات وطنهم وعظائم أبنائه ، بل التفتوا - كدأبهم فى كل فنون القول - الى الماضى والى الخارج ، ونظموا فى المواقع التاريخية والخرافية ، ارضاء للفن وتسريحا للخيال وتنشيطا للفكر ، فوصف تينيسون آخر معارك الملك آرثر وصفا أصبح من ذخائر الأدب الممدودة وآثاره السائرة ، أودعه كل مقدراته على تجسيم الوصف وخلق المنظر الكامل بدقائقه وألوانه وأصواته ، ونظم هاردى قصائد شتى فى حروب نابليون والثورة الفرنسية ، وكان

له بحروب نابليون غرام كبير لقرب عهدها منه واشتراك بعض اقربائه فيها ، وفي تلك الحروب نظم ملحمة الكبيرة التي تعد اكبر آثار الشعر الانجليزى الحديث ، وفيها ينتقل بين شتى المناظر والأوصاف والنظرات والتأملات .

ولم يخل الأدب العربى من ذم للحرب ودعوة الى الاخاء ، ومن آثار ذلك أبيات زهير بن أبى سلمى المعروفة ، من معلقته حيث يمدح السيدين اللذين أصلحا بين عبس وذبيان بعدما تفانوا ، ويستطرد الى قوله : « وما الحرب الا ما علمتم وذقتم » ، غير أن ذلك قليل نادر . وقد كان الجهاد دائما شعار الدولة الاسلامية ، وكان النزاع والغلاب دأب أمرائها ، وبذلك تفاخر فرسانها وبه امتدحهم مادحوهم من الشعراء ، وظل السيف والرمح والبنود والخيول فى شعر شعراء العربية مرادفات للعرز والمجد والسيادة ، ولم يخل الأدب الانجليزى من محبذين للحرب متغاضين عن مغباتها (١) كتنيسون الذى كان يرى الحرب وسيلة لا غنى عنها من وسائل العمران وتطهير النفوس من شوائب المادية والترف والأنانية ، غير أن الأدب الانجليزى أغنى بآثار النظرة الانسانية ، التي تبغض الحرب وتصور بشاعتها وبلاياها .

ففى قصيدته « البطولة » يقول كوبر معرضا بملوك فرنسا : « أيها الملوك الذين يستهويكم المجد وتؤيدون بالدم دعواكم ، وتهوون بالضربة ثم تبررونها بالدفاع عن النفس ، المجد بغيتكم والحق ذريعتكم ، تسكن عبر النهر الذى يحد ملككم الحق ، ويريكمدى ما يجوز لكم أن تنشروا عليه حكمكم ، أمة لا مطعم لها فى تاجكم ، حريصة على السلام ، سلام جيرانها وسلامها ، ولكن يا لشؤم طالع تلك الأمة ! ويا شدة ما تتقاضاها جريرتها الوحيدة ، جريرة مجاورتها اياكم ، أما هى الا أن تنطلق الأبواق حتى تزحف كتائبكم الى الخارج شاقة طريقها وسط المحصول الناضج ، يطأون فى كل خطوة حياة جماهير وخبز أمة ، فالأرض امامهم جنة يانعة ، وهى خلفهم يباب (٢) بلقع » (٣) .

وفى قصيدته عن موقعة بلنهايم التي كسبها القائد النابغة ملبرا ، يصف سوذى شيخا ألمانيا جالسا ذات مساء أمام كوخه فى أرباض البلدة

(١) مغباتها : عاقبتها .

(٢) يباب : خراب .

(٣) بلقع : الخالى من كل شئ .

التي دارت حولها وحى المعركة ، بعد جيل من حدوثها ، وحفيداه يلعبان حوله ، فاذا الطفلة ترى أخاها يدحرج شيئا مستديرا قد عثر به بجانب الجدول ، فتناول الشيخ ذلك الشيء والطفلان مشرئبان اليه يريدان أن يعلموا ما هو ، حتى هز الجد رأسه قائلا : هذه جمجمة مسكين سقط يوم النصر العظيم ، وكثيرا ما أعثر بهذه الجماجم في الحديقة « وحين أحرث الحقل كثيرا ما يثيرها المحراث من التربة ، ولا غرو فقد سقط آلاف مؤلفة في ذلك النصر العظيم . فيتساءل الطفلان بفارغ الصبر عن تلك الحرب وسبب تناحر الفريقين ، فيقول جدهما : شئت الانجليز صفوف الفرنسيين ، أما سبب ذلك فلا أعلمه ، بيد أن الجميع يقولون انه كان نصرا عظيما . ويمضى واصفا كيف أحرقت مزرعة أبيه وألجى الى الفرار وكيف هلكت الجبال والرضع ، ثم يردف قائلا : ولكن مثل هذه الأشياء يا ابني تحدث في كل نصر عظيم ، فالمجد لدوق ملبرا ولأميرنا الطيب برجين ، فتصيح الطفلة : كيف ؟ لقد كان ذلك أمرا ادا (٤) ! فيراجعها الشيخ . كلا يا بنيتي بل كان نصرا عظيما ، وكل انسان أطرى الدوق الذي كسب تلك الموقعة ، فيصيح الطفل . وماذا كانت فائدة كل ذلك ؟ فيسلم الشيخ تسليم العاجز قائلا : أما ذاك فلا علم لي به ، بيد أنه كان نصرا عظيما .

فآثار الحرب واحاديثها على مختلف ضروبها ظاهرة محسوسة في جوانب الأدبين ، ولا ندحة من أن تكون ظاهرة محسوسة فالحرب ناحية من نواحي حياة المجتمع الانساني جليلة الخطر حاضرة الأهمية دائما ، تتصل برفاهية الأفراد ومستقبل الجماعات ومصائر الدول والمدنيات ، وبالحرب تتعلق كل معاني القوة والحرية والذود عن الحقيقة ، وقد كانت الحرب أحيانا ممهدة لانتشار الحضارة وازدهار الثقافة ، كما كانت اذا استفحلت وبالا على العمران وبلاء على الانسان بيد أنها قد تركت في الآداب تلك الأوصاف الممتعة للملابسات الحروب ومشاهدها وأعقابها ، وقد خلدت هذه الآثار الأدبية الرائقة عبرة ومتاعا للألباب ، بعد أن غبرت تلك الحروب وهدأت تلك المطامع والشارات ، وذهب مسعروها ومن اصطلوا بها واستوى في الترب القاهر منهم والمقهور .

(١) ادا : الأمر المنكر .

سباع وهمية ، وعلم العرب أن الغول والعنقاء مستحيلان استحالة الخل
الوفى ، وظهر من المثقفين ذوى النفوس الرقيقة من انتهوا ونهوا عن قتل
الحيوان والتغذى بلحمه والتلهى بصيده وتعذيبه وسجنه كأبى العلاء
الحكيم العربى ، وكالمصور الايطالى ليوناردو دافنشى ، الذى كان يبتاع
الطيور الحبيسة ليطلقها ويشعشع نفسه المتألمة برؤيتها تضرب أجنحتها
ذاهبة الى الفضاء ، وظهرت آثار تلك العلاقات المختلفة بين الانسان
والحيوان فى الآداب : وفى الأدب الاغريقى وصف المغامرات حملة
الارجونوت التى خرجت لاستخلاص فراء ثمين يحميه غول فظيع ، وفيه
وصف لجماعة السيكلوب أو المردة ذوى العيون المفردة ، وما كان بين
كبيرهم وبين يوليسيز من كفاح ، وفى الأدب الفرنسى قطعتان بديعتان
تفيضان رحمة وجمالا ، تصور احدهما مصرع غزال والأخرى مصرع ذئب
على أيدي الصيادين .

والأدب العربى حافل بذكر أنواع الطير والحيوان التى عرفها
العرب فى باديتهم ، كالجمل والحصان والأسد والقطاة (١) والحمامة ،
وكان من عاداتهم أن يمنحوا بعضها كنيايات : فأبو قيس للقرد
وأبو خالد للأسد ، وكان لبعضهم أسماء فى لغتهم عديدة ، وبها ضربوا
الأمثال فقالوا : أهدى من قطاة وأحذر من غراب وأعدى من ظليم (٢) ،
وسيروا الكنى فقالوا : جبان الكلب ومهزول الفصيل اللجواد المضيايف ،
واستعاروا أوصافها للانسان فقالوا : جيد كجيد الغزال وعيون كعيون
الجآذر (٣) وشبهوا خوذات المقاتلين ببيض النعام ، وتشاءموا بأصوات
بعض الحيوانات كالغراب والبومة ، وزجروا الطير يتفاءلون بالسارح منها
ويتشاءمون بالبارح ، وأجروا الأمثال على أسنتها كقصة الثيران الثلاثة
المنسوبة الى الامام على ، وكالقصص التى أنطق فيها الحيوان ابن المقفع ،
والمحاورات التى نحلها اياها اخوان الصفا ، واسترعت أحوال الحيوان
ومسمعاته انتباههم فتدبروها مليا كما فى تلك الرسالة البليغة عن النمل
المنسوبة الى الامام على أيضا ، وفى التدبر فى أحوال كثير من الطير
والحيوان والهوام أفاض القرآن الكريم فى شتى المواضع ، ودعا الانسان
الى التفكير فيها ، وألف الجاحظ كتابه المعروف جامعا بين العلم والأدب .

وقد أطنب أدباء العربية خاصة فى ذكر الابل ووصفها فى أشعارهم ،
ووصف سيرها وحنينها الى أعطانها واستحثائها ومناجاتها ، ولا غرو فقد

(١) القطاة : نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء .

(٢) ظليم : ذكر النعام .

(٣) الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية .

الطيران والحيوان

فى الأدبين العربى والانجليزى

وحدة الأحياء واشتراكهم فى صفات ترفعهم جميعا عن الجماد وتميزهم بالشعور بالغبطة والألم ، كل هاتيك حقائق من الموضوع بحيث اهتدى اليها الأولون قبل أن يحققها العلم الحديث ويفصل دقائقها وخوافيها ، وتنازع الأحياء البقاء ، وعدوان أقواها على أضعفها وفوز القوى بالغلب والبقاء ، هذه كذلك أمور واضحة رأى المتقدمون مظاهرها وظهرت لمحاتها فى آدابهم ، وقد كان موقف الانسان منذ عصوره البدائية من الحيوان غريبا لا يخلو من تناقض وطرافة : كان فى أول أمره ينازع السباع البقاء ويفترسها ليتغذى بها ، ثم استأنس بعضها وسخره فى أعماله تسخير العبيد ، واتخذ بعضها للزينة والمسرة ثم عاد ففقد بعض عبيده أولئك ورفعهم الى مصاف الآلهة ، لأنهم يدرون على حياته خيرا وبركة ، بينما ظل يتلهى باقتناص أوابد الوحش . ويجرب بأسه وفروسيته باصماء حشاشاتها ، والتفريق بين الأمهات منها وبين الصغار .

واخترع خيال الانسان فى تلك العهود البعيدة عجائب الحيوان وغرائب الأطيوار ومخيف الكائنات ، كما توهم البابليون وحشا هائلا يقذف الماء من فيه فيغمر السهل والجبل ، وكما تخيل الاغريق الجياد الطائرة والسباع ذوات الرؤوس المتعددة وخلائق شعور رؤوسها أفاع باغية ، وتوهموا الأبطال المغامرين منطلقين لقتال تلك السباع والأفاعى ، وكما تصور العرب الغول والعنقاء ، وزعم السندباد أنه سافر على جناح طائر ميمون يدعى الرخ ، وكما توهم أوائل الانجليز سبعا ضاريا قد ألقى الرعب فى مملكة بأسرها ، حتى صارعه فصرعه الأمير بيولف فى الملحمة المسماة باسمه ، ولم تكن كل هذه السباع الوهمية التى هذى بذكرها الانسان فى عهوده الأولى ، الا صدى لذكريات الوحوش الهائلة التى كانت تقطن البر والبحر فى غابر الأزمان ، وكان الانسان المتوحش على فزع منها وحذر دائبين .

فلما بلغ الانسان طورا من الحضارة أرقى ، انزل تلك العجماوات التى كان ألهاها من محاريب عبادته ، ونبتذ تلك الخرافات وما بها من

كانت قوام حياة العربي في حله وترحاله ، بل كان لها أثر جليل في تطور الشعر العربي ذاته ، اذا صح ما قيل من أن أوزان الشعر اشتقت من مشياتها وتدفعها ، وهو قول وجيه ، وقل شأن الابل قليلا حين تحضر العرب ، ولكن ظلت لها أهمية عظيمة ، وظلت من أهم وسائل الانتقال وحمل المتاجر برا ، وحافظ أدباء العربية على تقاليد الجاهليين من الاطناب في ذكر الابل وتقديمه بين أيدي المديح حتى استقلت الابل بجانب عظيم من الشعر العربي ، ومن خير أوصافها قول طرفة في معلقته :

وانى لأقضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغدى
تبارى عتاقا ناجيات وأتبعن وظيفا وظيفا فوق مور معبد

وأطنب أدباء العربية أيضا في ذكر الخيل ووصفها في أشعار الحماسة ، وما ذاك الا لأنهم في جاهليتهم واسلامهم كانوا أمة جلاد وكفاح ، الخيل أول عدتهم في القتال والذود عن حقيقتهم ، فكان أعز مكان في الدنيا لديهم ظهر سابح كما قال المتنبي ، وطالت صحبتهم الخيل ، وأطردت ملازمة الخيل لهم ، فكأنما ولدت قياما تحتهم كما قال المتنبي أيضا ، وكأنما ولدوا على صهواتها ، ووصفوا مواقفهم في الحروب ومواقف جيادهم ، كما فعل عنتر في معلقته ، حيث يذكر كيف ازور حصانه من وقع القنا بلبانه ، وكيف شكا اليه آلامه بعبرة وتحطم ، وصار لكلمة الخيل أو كلمتي الخيل والرجل مغزى خاص بالحرب ، بعد أن استعملها القرآن الكريم في تلك الآية البليغة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، وتأنق أبو تمام والمتنبي في وصف الخيل وسماتها وأخلاقها وزحوفها (١) ، ومن بديع أوصافها في العربية قول الفرزدق في جواد أغر محجل :

فكأنما لطم الصباح جبينه فاقترض منه فخاض في أحشائه

وأبيات أبي تمام التي يقول منها :

ذو أولق تحت العجاج وانما من صحة افراط ذاك الأولق

وقول أبي الطيب في وصفه للمعركة التي دارت على ربي حصن

الحدث :

اذا زلقت مشيتها ببطونها كما تمشي في الصعيد الأراقم

(١) زحوفها : الزحف : الجيش الكثير والجمع زحوف .

وفاز الأسد والذئب باهتمام أدباء العربية ، وتركوا في الشعر العربي أوصافا شائعة وقصصا ممتعا ، من ذلك وصف بعض المقاتلة أمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان طلوع أحد الليوث عليهم في جلجلة ورهبة زلزلت الأرض وخلعت قلوب الفرسان وجيادهم ، ومنه أيضا وصف الفرزدق للأطلس العسال الذي رأى ناره موهنا فأتاه ، فقامه عشاءه ، حتى امتلأ الذئب فتكشر ضاحكا ، ولكن الفرزدق حين رأى نيوب الذئب بارزة لم يظن أن الذئب يبتسم ، بل جعل قائم سيفه في يده بمكان ، وتاه على الذئب بما أناله من قري (١) بدل أن يرشقه بشبابة (٢) سنان ، أما الباحثري فلم يكن بهذا المكان من الجود ، بل كان يحدث نفسه بصاحبه الذئب ، كما كان الذئب يحدث نفسه بصاحبه الباحثري ، فرمى الانسان الوحش فأصماه ، ونال من لحمه قليلا ، كذلك يصف المتنبي في أبيات هي من غرر الشعر العربي ملاقة بعض ممدوحيه للأسد ، وتعفيره (٣) إياه بالسوط ، وهناك كذلك وصف البديع في بعض مقاماته لمثل هذا اللقاء الرائع بين فارس مقدم وبين ملك الحيوان ، ومنه قوله على لسان الفارس :

وقلت له : يعز على أنى قتلت مناسي جلدًا وقسرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه سواك ، فلم أطق ياليت صبرا
تحاول أن تعلمنى فرارا ، لعمر أبيك قد حاولت نكرا

ولما تحضر العرب وانتشر في عليتهم الترف ، تألقوا في اتخاذ الحيوان للزينة والمتعة ، وكان الخروج للقنص من وسائل لهوهم وترويحهم عن النفس ، وكثر في الشعر وصف تلك الأفيال التي كان الخلفاء الفاطميون يسيرونها في مواكبهم ، والمها التي كانوا وكان غيرهم يزينون بها حظائرهم وقصورهم ، ووصف الخروج للقنص وكلاب الصيد ، وقد وصف أبو نواس في أبيات مشهورة كاسا له قد صورت عليها مها تدرىها بالقسي الفوارس ، ووصف المتنبي لبؤة مقتولة وأشبالها حولها جائمة ، وكان قد هيىء ذلك المنظر في حفل استقبل فيه سيف الدولة سفراء قيصر ، ولابن الرومي عينية بارعة في وصف يوم طرد (٤) تمتع به في رفقة له ، ومن نوادر أبي دلالة أنه خرج مع الخليفة المهدي وعلي بن سليمان للصيد ، فأخطأ على الرمية وأصاب أحد كلاب الصيد فقال أبو دلالة :

(١) قري : كرم

(٢) شبابة : حد طرفه

(٣) تعفيره : العفرة : بياض تخالطه حمرة فيصير كلون العفر

(٤) طرد : مزاوله الصيد

قد رمى المهدي طبييا شك بالسهم فؤاده
وعلى بن سليمان رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهما : كل امرئ يأكل زاده

وكان من عادة أدباء العربية أن يمثلوا لأحوالهم بأحوال الحيوان ، ويستعبروا صفاته لما هم بسبيل وصفه ، فيمثلون لحنينهم بحنين الابل الى أعطانها ، ولوجدتهم بوجد الطبية على خشفها (١) قد صرخته نبال الصائد ، أو مزقته برائن السبع الضاري ، يصفون مصرع طفلها وافتقادها اياه وجزعها وتلددها (٢) لهلاكه ، في أبيات كثيرة يبدءونها بقولهم : « وما طبية ... » أو نحو ذلك ، ويعقبون عليهم بقولهم : « بأوجع منى يوم بانوا ... » أو ما اليه ، كما كان من التقاليد المتبعة في أشعار النسيب والوجد مناجاة الحمائم وسؤالها عما يشجيهما ، ومقابلة شجوها بشجوع الشاعر ، ووصف تهيجها لذكر يانه وتجديدها لآلامه ومن محاسن ما قيل في الحمائم قول أعرابي :

وقبلى أبكى كل من كان ذا هوى هتوف البواكى والديار البلاقع
وهن على الأطلال من كل جانب نوائح ما تخضل منها المدامع
مزبوجة الأعناق غر ظهورها مخطمة بالدر خضر روائع
ترى طررا بين الخوافى كأنها حواشى برد زينتها الوشائع
ومن قطع الياقوت صيغت عيونها خواضب بالحناء منها الأصابع

أما أشد شعراء العربية شغلا بأمر الأحياء وتأملا في أحوالها وذكرها لها في شعره فهو المعري ، الذى بلغ من نفاذ البصر فى شؤون الحيوان وشدة الرحمة له حيناً ، والانكار للؤم طباعه حيناً ، وطول التأمل فيها تأملا موضوعيا لا ذاتيا ، ما لم يبلغه غيره من شعراء العربية فهو تارة ينعى على الضرغام مغادرته غابه لينازع طبي رمل فى كناس (٣) ، وتارة يسمح للذئب بالشاة علما بما بالذئب من داء السغب (٤) ، وتارة يبكى للحمامة البريئة يعاجلها الصقر عن نقرها وهديلها ، وطورا يرميها بمماثلة غيرها من الحيوان فى الجور والعدوان ، وهو ينهى عن فجيرة

(١) خشفها : الخشف : ولد الطبية اول ما يولد .

(٢) تلدها : التلد هو الالتفات يمينا ويسارا تحيرا .

(٣) كناس : مدخل فى الشجر يأوى اليه الطبي ليستتر والجمع اكلسة .

(٤) السغب : سغبا وسغابة : جاع مع تعب .

* لنحل في شهبها أو الناقة في فصيلها في حائته الرصينة من لزوم
ما لا يلزم .

لا يكاد يوجد في الأدب الانجليزي شيء من ذكر تلك الأنواع من
الحيوان سالف الذكر ، التي احتفى بها أدباء العربية أي احتفاء ، وحفل
بذكرها الشعر العربي في شتى عصوره ، فلا الجمل ولا الحصان ولا الأسد
والدئب ، ولا الحمائم والظباء ، تمثل ذلك المكان الظاهر من موضوعات
الأدب وتشبيهاته وكنائياته وأمثاله ، وذلك لاختلاف البيئة الاقليمية
والاجتماعية ، فتلك ضروب من الحيوان لا تكثر في انجلترا كثرتها في بلاد
العرب ، بل لا يوجد بعضها أصلا ، والانجليز كانوا جوابي بحار لا رحالي
صحار ، ومقاتلة على الماء أكثر منهم على البر ، فلا غرو ألا يملأوا بتلك
الأنواع الا عرضا ، وأن يمتلئ أدبهم بوصف ضروب أخرى من الأحياء
غير هذه .

انما يحفل الادب الانجليزي بذكر الطيور الجميلة المفردة ، ووصفها
ومناجاتها ، ووصف أغاريدها والاسترسال معها الى آماذ الخيال البعيدة
والطيران معها على أجنحة الشعر ، فالأدب الانجليزي غنى بالشعر الطبيعي
الذي قصده به الوصف الطبيعي وحده ، وهذا الوصف حافل بوصف
الأطياف ، والأدب الانجليزي غنى أيضا بالوصف الطبيعي لم يقصد لذاته ،
وانما يتخلل شتى أغراض القول ، وهذا مملوء بذكر الطير أيضا ،
والشعر الانجليزي غنى فوق ذلك بالقصائد التي كتبت خاصة في مناجاة
الطيور وعبادة أصواتها المطربة ، ولم يخل الأدب العربي من شيء من
ذلك ، ومن محاسن ما فيه منه وصف الصابىء للبيغاء ، وهو من غرر
الشعر العربي ومنه يقول :

عدت من الأطياف ، واللسان	يوهمنى بأنها انسان
نظرت من عينين كالغصنين	في النور والظلمة بصاصين
تميس في حلتها الخضراء	مثل الفتاة الغادة العذراء

بيد أن الشعر الانجليزي أغزر وأحفل بتلك الآثار . ولكل من
وردزوث وكيثس وشلي وتينيسون وسوينبرن قصائد في ذلك بالغة غاية
السمو العاطفي والكمال الفني ، ولم يكتف الشعراء بمناجاة أطياف جزيرتهم
الغريبة الكثيرة ، فلجأوا على عادتهم الى الخرافة وتصوير كولردج طائرا
غجيبا سماه الالباتروس جلب اليمن والبركة لأصحاب الملاح القديم ،
ثم جزاه هذا الأخير جزاء سنمار فقتله ، فكان ذلك سبب ضلاله وهلاك
أصحابه .

ومن غرر تلك الأشعار فى الانجليزية قول وردزورث : « أيها القادم السعيد ، هانذا أسمعك فأطرب ، أسمىك طائرا أم صوتا محلقا ؟ أنا أسمع هتافاتك المرددة وأنا مضطجع على العشب ، ويخيل الى أنها تمر من ربوة الى ربوة ، قريبة بعيدة فى آن واحد : ترسل أغاريدك فى الوادى المكسو بالأزهار وضيء الشمس ، فتثير فى نفسى رؤى بعيدة ، مرحبا بك يا رسول الربيع ! يا من كنت اليه أستمع اذ أنا صبى بالمشرب . وطالما جعلنى هتافك هذا أتلقت فى كل ناحية باحثا فى الشجيرات والأدواح والسماء ، وطالما ضربت فى الغابات والأعشاب فى نشدائك ، وظلمت أنت دائما أملا أو حبا يطول التشوق اليه ولا يرى أبدا ، وما أزال أستطيع الاستماع اليك والانبطاح فى السهل مصيخا اليك ، حتى أستعيد فى مخيلتى ذلك العهد الذهبى » .

ولجون لوجان من شعراء القرن الماضى مقطوعة عذبة فى مناجاة الطائر عينه ، قد وقع فيها على بعض معانى وردزورث وتعبيراته ، وان لم يقل عنه جمالا وابتكارا ، قال : « مرحبا يا غريب الأراكة الجميل ، يا رسول الربيع ، ها هى ذى السماء تعد لك مقعدك من الريف ، ويردد الغاب صدى الترحيب بك ، اذا ما رنن (١) الأحموان العشب أبقنا أن سنسمع صوتك من جديد ، فهل لك نجم يهديك السبيل أو يوقت لك دورة العام ؟ أيها الزائر المطرب ، انى معك أرحب بأوان الأزهار وأسمع الموسيقى العذبة التى ترددها الأطيوار فى حواشى الخمائل ، ويسمع صدى المكتب صوتك المنبى بالربيع الجديد ، وهو يطوف فى الغاب يقطف آخر زهيرات الشتاء ، فيتوقف منصتا ويقلد تغريدك ، أيها الطائر المطرب : ان خميلتك خضراء أبدا ، وسمائك أبدا صافية ، وليس فى أغاريدك شجن ولا فى عامك شتاء ، فياليتنى أستطيع الطيران فأخف معك على جناح الحبور ، نطوف طوفتنا السنوية حول الأرض ، رفيقى ربيع مستمر »

بأمثال هذه الأوصاف الطبيعية الشائقة ، والمناجاة الحارة الصادقة يحفل الشعر الانجليزى ، ومثل هذا الولع بالطيور والشغف بمناجاتها ووقف القصائد والمقطوعات على الترجم بحبها غير شائع فى الأدب العربى فالشعر العربى أحفل بذكر الحيوان ولا سيما الضروب سالفة الذكر والشعر الانجليزى قليل الاحتفال بها عظيم الحفاوة بالطير ، ولا غرو فقد كان العرب رجال مجتمع مقبلين على أسبابه ووسائله ، يحمدون الأبل التى هى قوام حياتهم والخيول التى هى عمادهم فى معركة الحياة.

(١) رنن : حسن وزين .

ويتمدحون بالبأس والشجاعة فيذكرون قتال الأسود وجندلة الذئاب ،
وفيما عدا ذلك لم يكن لهم كبير التفات الى الطبيعة ، ولا شديد عطف على
أبنائها ، وأشعارهم في هذا الباب لا تنم عن حب للحيوان أو شغف
بحياته ، وكان حب الطبيعة والهيام بجمالها من أكبر مميزات الأدب
الانجليزي ، والطيور أكثر تمثيلا لجمالها وحبورها من الأسود والذئاب ،
فكثر في الأدب الانجليزي وصف الطيور ، كما كثر وصف الأزهار والآجام
والأنهار ، وفي شغف الأدب الانجليزي بهذه واحتفاء الأدب العربي بتلك
رمز وبيان للصبغة الاجتماعية التي ترين على الأدب العربي ، والنزعة
الطبيعية التي تتجلى في الأدب الانجليزي .

الذاتى والموضوعى

فى الأدبين العربى والانجليزى

تتأثر النفس الانسانية بكل ما تحس من مظاهر الحياة ، فاذا ما عبر المرء عن تأثره ذاك نثرا أو نظما فى الفظ نقى ، كان تعبيره ذاك أدبا ، فالأدب نتاج عاملين : مؤثر هو مظاهر الحياة التى تحفز الأديب الى الانشاء ، ويتخذها موضوعا لانشائه ، ومتأثر هو ذات الأديب التى يترجم القول المنظوم أو المنثور عن خوالجها ، وليس يخلو عمل أدبى من آثار هذين العاملين ممزوجين ، فكل عمل أدبى هو ذاتى وهو موضوعى ، غير أن الأعمال الأدبية تختلف حظا من هذا ونصيبا من ذاك ، فاذا استرسل الأديب فى وصف ما هو بازائه من مظاهر الحياة وشرح أحوالها على علاتها ، مكفكفا (١) من عنان عواطفه محكما دونها الفكر ، كان العمل الأدبى موضوعيا ، وإن أرخى الأديب العنان لعواطفه ملما بالموقف الذى هو حياله الماما خفيفا ، كان عمله الأدبى ذاتيا .

فمظاهر الحياة المختلفة هى مادة الأدب لأنها مادة الاحساس والتفكير ، وبدونها لا يتصور تفكير ولا شعور ، ولا تكون النفس الا خواء تاما ولا الفكر الا فضاء مطلقا ، والنفس الانسانية هى العامل الفعال الذى يعكس صور مظاهر الحياة تلك ، ويمنحها من الصفات ما يروق المرء حينما ويطر به ويحببه فيها ، وما يسوؤه حينما ويؤله ويبغضه فى بعض تلك المظاهر ، والأديب مهما توفر على موضوعه الذى هو بصددده ، ومهما كان موضوعه ذاك بعيدا عن نفسه وعن محيطه وزمنه ، ومهما حكم فيه الفكر السليم والرأى المنزه ، لا يخلو من أن يكون معبرا فى عمله الأدبى عن ذاته ، مصدرا عن طبيعته ، وهى طبيعة يتفق فيها مع الآخرين الى مدى ، ويختلف عنهم فى بعض نواحيها .

بل لا يعدو الحق من يقول ان الأديب لا يزيد مدى حياته على أن يعرض نفسه على قرائه ، مهما تباينت موضوعاته وتعددت أشكال أدبه ، فسواء راح مادحا أو ذاما أو واصفا أو قاصا ، أو ملاحظا لأحوال الناس

(١) سكفكفا : مصرنا .

أو متأملا في ماضيهم ومستقبلهم ، فهو لا يعدو محيط نفسه وتجاريبه وعواطفه ، بل ان بعض كبار الأدباء انما بلغوا أوج نجاحهم الأدبي في العمل الأدبي الذي يصف كل منهم فيه قصة حياته ، أو أهم تجربة من تجاريبه ، أو أزمة نفسية عبرت به ، كما قص لامرئين قصة حبه في « رفائيل » ، وكما وصف كل من شاتوبريان وأناتول فرانس نشأته في آثاره الأدبية ، وكما وصف تشارلز دكنز قصة طفولته في « دافيد كوبرفيلد » ، وبلغ القصصيون ذروة نجاحهم في قصصهم التي كان أبطالها صورا من أنفسهم أو من بعض حالاتهم النفسية ، كما كان جوته فاوست ، وكما كان أناتول فرانس بعض أشخاص كل رواياته .

وأناتول فرانس نفسه يقول اننا لا نكتب الا عن أنفسنا ، ويؤيد فيقول اننا لا نقرأ حين نقرأ الا أنفسنا . ولا نغزو فالمرء لا يدمن الا قراءة الضرب الذي يعجبه من القول ويصادف هوى في فؤاده ، ولا يصطفى من الكتاب الا من يشاكله نفسا ، وهو حتى حين يقرأ موضوعاته الأثيرة من آثار أدبائه المختارين يصبغ كل ما يقرأ بصبغة نفسه ويؤوله على حسب ادراكه وطبعه ، ويستخلص منه ما قد لا يستخلصه غيره ، وما لعل المنشئ نفسه لم يقصده ، والناس انما يقرءون الشاعر أو الكاتب وهو يتحدث عن نفسه لأنهم يرون في نفسه صورة من أنفسهم ، وفي ذاته صدى من ذواتهم ، فاذا ألفوه قد أغرب وباعد بين ما يصف وما يحسون نبذوه واستهجنوه ، ولم يعنهم مما يصف من أحوال ذاته التي لا يحسونها في ذواتهم ، أكثر مما يعنهم من أحوال معيشتهم الخاصة ومطعمه وملبسه .

والذاتي في أدب اللغة أسبق ظهورا من الموضوعي : يبدأ الأدب في عهده الأول بتعبير الانسان عن خواطره العاجلة وأحاسيسه السانحة وتجاريبه الحاضرة ، يرسل ذلك على سجيته وبديته قولا سائرا أو أبياتا شاردة ، لم يعد لها العدة ولا تكلف فيها عناء طويلا ، ويرقى الأدب رقيا كبيرا وما تزال الصبغة الذاتية هي السائدة فيه ، وتظل له هذه الصبغة ما دام قريبا من البداوة غير آخذ أهله بشيء من الثقافة أو مقيد لآدابهم بالكتابة ، فاذا ما انتفع الأدب بالثقافة والتدوين ظهر فيه الضرب الموضوعي اذ تنبسط أفكار الأدباء ويمتد أفق نظراتهم ويقصدون التأمل في شئون الحياة قصدا ، غير منتظرين التجارب التي تسنح (١) عرضا ، ويطلبون من مناحي الحياة ومذاهب التفكير الأبعد فالأبعد ، فتزاحم الصبغة الموضوعية الصبغة الذاتية .

(١) تسنح : تعرض .

فغزارة الضرب الموضوعى فى الأدب من لوازم رقيه ووصوله الى الطور الفنى ، بيد أن العنصر الذاتى لا يمضى ببلوغ الأدب هذا الطور ، بل يبقى ويزداد رقيا وحرارة وعمقا ، ويظل صدقه وعمقه وحرارته خير مقياس لصدق الأدب ورقيه ، ويقترب ضعفه وتلاشييه بضعف الأدب وفتور العاطفة فيه وتغلب اللفظ على الشعور الصحيح ، ففي عصور تدهور الأدب يسود الضرب الموضوعى ، وتنفق موضوعات بذاتها يصطلح الأدباء على طرقها على أساليب مخصوصة لا يعدلون عنها ، ويكفكون عواطفهم الذاتية ، فلا يكاد يتميز واحد منهم عن الآخر فى السمات والميول ، فالضرب الموضوعى يظهر متأخرا عن الضرب الذاتى فى الآداب ، ثم يبقى متخلفا عنه عند اضمحلال الأدب ، يبقى على حال من الضعف والتكلف والابهام .

ولما كان الضرب الذاتى من الأدب أسبق الى الظهور فى تاريخ الأدب ، كان مقترنا بالشعر الذى هو أسبق الى الظهور من النثر الفنى فالأدب فى عهوده لا يكاد يزد على أن يكون شعرا ذاتيا ، فاذا دخل الأدب طوره المتحضر الفنى ظهر فيه النثر وظهر الضرب الموضوعى فى الشعر والنثر معا ، بيد أن الشعر يظل دائما متعلقا بالضرب الذاتى ، بينما يستأثر النثر منذ نشأته بالجانب الأكبر من الأدب الموضوعى ، فالشعر لما له من مزايا الموسيقى والخيال أقدر على التعبير عن الوجدانيات والنش لما له من مزايا الريح والدقة والتحرر من قيود الوزن والقافية أقدر على تتبع الوصف لموضوع الانشاء ، والاسهاب فى شرح دقيقه وجليله ، فاذا جمع أديب بين الصناعتين رأيته يندفع اندفاعا تلقائيا الى النظم ، اذا حفزته ثورة نفسية متدفقة ، وينساق بداهة الى النثر اذا أراد التأمل الهادى والتوسع فى الشرح والاستقصاء ، على أن هذا ليس بمائع أن يحتوى النثر أحيانا على بدائع من آثار الضرب الذاتى ، وأن يشتمل الشعر على لطائف من آثار الضرب الموضوعى .

ولما كان الشعر أشبه بالضرب الذاتى من الأدب ، والنثر أقرب الى الموضوعى ، كان الشعراء بطبيعتهم أدباء ذاتيين أو أنانيين كما قد يلقبهم بعض المنكرين عليهم ، وكان الكتاب أدباء موضوعيين ، يتناولون من مجالات القول ما لا يمس أنفسهم وشخصياتهم الا قليلا ، بينما لا يكاد بعض الشعراء يخوض فى غير شؤون نفسه ، من طرب وشجن وغضب ورضى وحب وبغض ، حتى تلوح دواوين بعضهم كأنها صخب مستمر مزعج ، أو بكاء طفل مدلل وضحكه يتتابعان بلا انقطاع ، والبكاء أظهرهما جلبة والسخط والنقمة والشكوى أبين أثرا ، فاذا فرغ الشاعر من صخبه

وثورانه جاء الكاتب من بعده هادئا وقورا ، يصرف في شعره نظر الحكيم
التخبر ، ويحكم على شعره وخلقه وحياته وفهمه للدنيا حكم القياض
المتمكن ، فلا يزال الشعراء يلوحون كأنهم فريق من المتهورين الأغرار ،
ولا يزال النقاد يظهرون في مسرح الراشدين الأكبر منهم سنا وخبرة
بالأمور .

ولا يقتصر التفريق على الشعر والنثر في هذا الصدد ، بل هناك
أشكال من الأدب هي أصلح للذاتى وأخرى هي أوفق للموضوعى : فالقصة
والترجمة والتأريخ والملحمة كلها ضروب موضوعية يتحدث فيها المنشىء
عن غيره من رجال الحقيقة أو الخيال ، ومن أبناء الحاضر أو الماضي ،
ويدرس حوادث لم يساهم فيها ولم يختص بها ، وان تكن لذاته في كل
ذلك آثار تقل أو تكثر ، والرسائل الإخوانية والمذكرات ، والتراجم
الشخصية والاعترافات وما جرى مجراها ، كلها أشكال من الأدب ذاتية
يخصصها الأديب لتحليل ذاته وعرض صور من حياته ، وان خالط ذلك
سنتى النظرات الموضوعية ، أما المقالة فيتراوح حظها من كل من الضربين ،

وكما تفترق أشكال الأدب وتتميز في هذا الصدد ، كذلك تفترق
وتتميز موضوعاته : فالوصف والمدح والهجاء والحكمة أقرب الى الضرب
الموضوعى من الفخر والحماسة والنسيب والشكوى ، أما الرثاء فيجمع
الى وصف خلال المرثى وهو أمر موضوعى ، وصف مشاعر الزائى وهي
أشياء ذاتية ، على أن موضوعات الأدب هذه قلما ترد فى أثر الأديب
خالصة مستقلا ذاتيها عن موضوعيها ، بل يتمازج الضربان كما أن الأشكال
الأدبية كثيرا ما تختلط ، فيتصل بالأثر الأدبى الواحد الترجمة بالقصص
مثلا ، ويمتزج الوصف بالنسيب ، وتبدأ القصة أو القصيدة بوصف
منظر وتنتهى بخواطر وجدانية ، ومن ثم تمتزج الذاتية والموضوعية فى
أكثر الآثار الأدبية .

ومن التعسف تفضيل ضرب من الاثنين على الآخر : فللذاتى من آثار
الأدب معاسنه ، وللموضوعى مزاياه ، كما أن الشعر لا يفضل النثر
ولا الأخير يرجح الأول ، بل لكل فضائله ومواقفه ودواعيه ، فالعمل
الأدبى الذى ترين عليه مسحة الذاتية يروع بحرارة وإخلاصه وصراحته ،
ويشوق بكشفه عن نفس صاحبه وتحديد له لشخصيته ، كما تحدد خطوط
المصور شكل الصورة وجوانبها ، ويروع بقدرة صاحبه على التأمل فى
نفسه وتوضيح خلجاتها ، والضرب الموضوعى يسر اذ يعكس فى صفحة
القلن ما نشهد وتحس فى عالم المشاهدة والخبرة ويروع بقدرة الأديب

المنشئ على الملاحظة والتقصي والتجرد من أهواء نفسه والتوفر على ما هو
بصدده ، لكل من الضربين مكانته وروعته ما اتفقت له صفتان : الصدق
والعمق .

وكل من الأدبين العربى والانجليزى حافل بآثار الذاتية والموضوعية
فى مختلف نواحيه ، ترين هذه أو تلك على بعض آثاره أو تغلب على
أدبائه ، أو تظهر فى بعض عصوره ، أو تتجلى فى أشكال وموضوعات دون
أخرى ، بيد أنه لاختلاف تاريخى الأمتين واختلاف ظهورهما فى عصر
الحضارة والثقافة ، يحتل الطور الذى كان الأدب فيه ذاتيا عهدا مهما
من عهود تاريخ الأدب العربى قبل أن يظهر الضرب الموضوعى ويشيع فى
الأدب ، على حين لم يتخلف فى الأدب الانجليزى من ذلك العهد شيء
ذو بال ، وإنما يبدأ تاريخ الأدب الانجليزى الحديث من عهد اليزابث
والضربان الذاتى والموضوعى فرسا رهان فى حليته ، بل كاد الضرب
الموضوعى أن يستأثر بالصدارة فى ذلك العصر .

ففى عهد الجاهلية وحقبة من الاسلام كان الأدب العربى — اذا
استثنى القرآن الكريم والحديث الشريف — أغلبه ذاتى الصبغة ، وكانت
للشعر فيه المكانة العليا ، وكان الشعراء دائبين يبدون القول ويعيدونه
فيما خالج أنفسهم من خواطر ، أو مس حياتهم من قريب من حوادث
فامتلا قصيدهم بالحماسة والنسيب والمنافرة والمهاجاة والفخر والتمدح
بكريم السجايا ، فلما توطدت الحضارة وشاعت الثقافة اتسعت جوانب
الشعر وتعددت مجالاته ، وظهر بجانبه النثر الفنى ، وتناول كلاهما
موضوعى الشؤون بجانب ذاتيها ، فكان من الفنون التى جدت فى الشعر
أو توسعت فيه الوصف المسهب والمدح المطنب ، وتناول النثر رسائل
الأمراء ، كما جال الجاحظ والبديع وغيرهما فى نواحي الحياة ومذاهب
التفكير وأحوال الماضى وخصائص الأحياء وأخبار الأمم ووجوه النقد
الأدبى ، فأفرزت فى الأدب العربى منظومه ومنشوره فى هذا الطور آثار
الذاتية والموضوعية . يتحدث المتنبى مثلا عن عظمته وفتوته ومطامحه
وأشجانه ، فيجىء شعره ذاتيا صادقا رائعا ، ويمدح سيف الدولة أو
سواه ويصف مآثره ومواقفه فيميل الى الموضوعية ، والأرجح أن الموضوعية
كانت أظهر فى هذا العصر ، لرواج ضربين من القول موضوعيين عج
بهما الأدب : عج الشعر بمدح الأمراء ، وعج النثر بوسائل الدواوين

ذالك هما الطوران الأولان من أطوار الأدب العربى من جهة الذاتية
والموضوعية : الطور الأول هو عهد نشأة الأدب الذى كانت الذاتية فيه

الروايات التمثيلية التي ازدهرت اذ ذاك ازدهارا عظيما ، وتختص بالاول القصائد المرسلة طويلها وقصيرها ، وفي القرن الثامن عشر هبط فاضمخلت فيه النزعة الذاتية ، وأصبح أكثره موضوعيا مبهما ، واحتل مكانه النشر شمل شتى النواحي الذاتية والموضوعية ، ففي الاولى كتب كاولي واديسون وستيل كثيرا من مقالاتهم ، وفي الثانية كتب جيبسون وبوزويل ورتشاردسون وديفو وآخرون لا يحصون كتبهم في التاريخ والترجمة والقصص والمغامرات ، فلما كانت النهضة الرومانسية عادت للشعر أفضليته ، وحفل بشتى الآثار الذاتية والموضوعية بين وصف الطبيعة وسرد الخرافات الشائقة ، ووصف تأثر النفس بهذه وتلك ، وتمجيد الجمال وشرح أطوار الحب ، ولم يزل الشعر والنثر منذ ذلك العهد فرسي رهان ، يطرقان شتى المناحي بين ذاتيها وموضوعيها .

بيد أن الذاتية ما زالت منذ عهد شكسبير الى العصر المحاضر تغطي على الموضوعية رويدا ، وتستأثر شيئا فشيئا بالتفات الأدباء وتفوز بأشكال أدبية جديدة . ففي عهد شكسبير كان الروائي يحرك روايته حول أشخاص تاريخيين أو خرافيين بعيدين عنه بعدا كبيرا وفي القرن الثامن عشر عهد النثر الذهبي كان الأدباء يكتبون القصص يضمونها من طرف خفي صورا من حياتهم وجوانب من أنفسهم ، فيكتب سمولت الأفاق قصة كونت فاثوم المغامر ، ويكتب جولد سميث ابن القسيس قصة قس ويكفيلد التي ليست الا حكاية عهد نشأته في أسرته ، ثم يكتب تشارلز دكنز في القرن التالي قصة صباه في كتابه دافيد كوبرفيلد ، ثم تزداد الذاتية بروزا ويرفع الأدباء حجاب التخفي وينبذون الاسماء المستعارة ، فيكتبون قصص نشأتهم ومذكرات رجولتهم وينشرون رسائلهم وتراجهم الشخصية ، والأدب الانجليزي المعاصر حافل بآثار هذه الذاتية السافرة .

وقد امتاز بالذات الواضحة ، او الأنانية الأدبية ، كثير من الأدباء الانجليز ، كانوا لا يملون التأمل في نفوسهم والتحدث عن ذواتهم صراحة أو تحت غشاء شفاف : فملتون يعرض لكوارثه وعماه ومبادئه السياسية والدينية والاجتماعية في ملاحمة الثلاث ، ووردزورث يؤلف المطولات الشعرية في تصوير صباه وخواطره من طفولته الى كهولته ، وبيرون ينظم القصيدة تلو القصيدة ويصور البطل تلو البطل ، ولا يزيد أن يتحدث عن نفسه وميوله وآرائه ، وشلي يسمى نفسه « ارييل » باسم اله اغريقى ، ويكتب عن نفسه تحت ذلك العنوان أشعارا ، وكل من هازلت ولام يصور تصويرا دقيقا أمينا ما يحس عند خروجه للرياضة على الأقدام أو حين سماعه النواقيس تتجاوب مؤذنة بانتهاء العام أو نحو ذلك .

ومن جهة أخرى نرى أدباء من أمثال جرای وكولردج ورسكن يستترون وراء حجاب من الوقار والتفكير الهادئ الشامل ويتحدثون مصورين أو قاصين أو ناقلين ، عن غيرهم من رجال التاريخ والأساطير وأعلام الفن والأدب ، فأكثر آثار هؤلاء موضوعية ، وأكثر مؤلفات الأولين ذاتية . كما كان من الأدباء من أخذوا من كلا الضربين بنصيب وافر ، ومن برزوا في مجال الشعر والنثر ، ومن أنهوا حياتهم الأدبية بإصدار تراجمهم الشخصية ، ومن خلفوا في النقد آثارا تبارى آثارهم في النظم والانشاء ، أو تفوقها ، مثل دريدن وماكولي وماثيو أرنولد .

ويعد بعض المغالين تزايد هذه النزعة الذاتية في الأدب الانجليزي علامة ضعف وانحلال ، ولا شك في أن غلبة أحد العنصرين الذاتي أو الموضوعي على الأدب من ذلائل نقصه ، وإنما يكون رقيه مقترنا برقي العنصرين فيه معا . يدل ما فيه من آثار الذاتية على صدق الشعور وعمق التأمل وتميز الشخصيات ، ويدل ما فيه من آثار الموضوعية على شمول النظرة واتساع أفق التفكير وتناول الأدب لمختلف نواحي الحياة .

الشعر والنثر

في الأدبين العربي والانجليزى

الشعر أسبق ظهورا من النثر فى عالم الفن الذى يحتفى صاحبه بانشائه وتنميته ، ويتعمد ايداعه شعوره وأفكاره على نحو جميل يراد له السيورة والبقاء . فالشعر يظهر ويرتقى والأمة ما تزال متبدية قليلة الحظ من الثقافة وأسباب العمران ، أما النثر الفنى فلا تدعو الحاجة اليه. ولا تتم وسائله الا فى أمة متحضرة مستقرة واسعة الثقافة منتشرة فيها الكتابة الخطية ، فالكتابة الخطية تتيح للكاتب أن يتوفر على انشاء النثر المنمق ، الذى يحوى تعمقا فى التأمل واتصالا فى المجهود الأدبى وتدبيجا للفظ ، وتتيح أيضا للنثر الفنى أن يبقى ويذيع . أما الشعر فهو غنى بموسيقاه ورويه عن تقييد الطروس (١)، وهو أهل للمنهوض بحاجة الأمة المتبدية ، من التعبير عن عواطفها وأفكارها البسيطة ، ومن ثم ارتقى الشعر الاغريقى كما يتمثل فى ملاحم هوميروس رقيما عظيما ، والأمة ما تزال الى البداوة أقرب ، وتطور حتى تفرع منه فن جديد هو فن التمثيل ، كل ذلك قبل أن تتوطد قواعد النثر اليونانى ، وقبل أن يبلغ مبالغه على أيدي هيرودوت وتيوسيد وأفلاطون .

وكلا الشعر والنثر مدينان فى ظهورهما ورقيهما – كسائر الفنون – للدين والدولة بفضل عظيم : ينشأ الشعر مختلفا بالموسيقى مصاحبا للرقص فى الحفلات الدينية ، التى تحفلها الجماعات الأولى فى مواسم آلهتها ، وينفصل عن الموسيقى والرقص ويخرج من حظيرة الدين الى حظيرة الدولة ، فيمدح الملوك ويزين قصورهم كما كان يفعل الشعر الاغريقى فى عصر الطغاة ، وعلى أيدي الكهنة يتألف أول ما تعرف الأمة من مبادئ النثر الفنى ، من نبوءات مسجوعة وحكم وعقائد مدونة أو شفاهية وقصص عن الملوك والآلهة ، ثم ينحاز الكتاب الناثرون كما انحاز الشعراء الى بلاطات الملوك ودواوينهم ، يزجون بضائعهم وينزلون آمالهم ، ثم يستقل الشعر والنثر عن حظيرتى الديانة والدولة قليلا قليلا ، بشيوع الرقى العقلى وانتشار الثقافة وتميز شخصية الفرد عن شخصية الجماعة ،

(١) الطروس : الصحف .

فيصبح كل منهما فنا غايته التعبير الجميل عن شعور الانسان بالحياة ، وعلى قدر تحرر كل منهما من العلاقة بالكهان وبالحكام ، وتخلصه من الغرض المادى يكون رقيه الفنى وصدقته فى أداء رسالة الحياة .

فبانتشار الحضارة والثقافة يرتقى الشعر عما كان عليه فى عهد البداوة ، ويظهر بجانبه النثر فنا ثانيا مترجما بالألفاظ عن شعور الانسان وتفكيره ، منافسا له فى كثير من مواضعه ومعانيه . فيتقاسمان النهوض بمهمة الأدب ، ويظهر من الأدباء من يجمعون بين الفنين ، يبرزون فى كليهما أو يشتهرون بأحدهما فوق اشتهارهم بالثانى . ويشترك النثر الفنى الشعر فى كثير من خصائصه ، أى خصائص الفنون جميعا كال موسيقية ، والخيال ، والتقابل ، والتماثل ، والتجاوب ، بيد أنه وان تشترك الفنان فى شتى الخصائص والموضوعات ، فما يزالان متميزين فى خصائص مستقلة كل منهما دون الآخر بموضوعات هى به أشبه وهو على تأديتها أقدر . فللشعر قصب السبق فيما هو أدخل فى باب الخيال والعاطفة والشمول والغموض أحيانا ، وللنثر ما هو أقرب الى التفكير والمنطق والدقة والترتيب والاستقصاء ، ومن ثم يلجأ الشاعر النثر الى الشعر طورا وإلى النثر تارة .

فالشعر والنثر كلاهما قادران على تأدية أغراض الوصف والحكمة والعتاب والاعتذار والفكاهة ، وربما رق النثر فى كل ذلك وتشبع بالخيال حتى صار أشبه بالشعر ، لا يميزه عنه سوى انعدام الوزن وان ساواه فى الموسيقية ، أما الحماسة والنسيب مثلا فالشعر أمهد لهما سبيلا وأرحب مجالا ، الا أن يجيء النثر الحماسى خطابة فيكون له من رهبة الموقف وتعبير سيماء الخطيب وهيبة محضره عوض عما يمتاز به الشعر من خيال وروعة واستجابة للعواطف ، ومن ثم كانت الخطابة من أشبه فنون النثر بالشعر ، وأما فى سرد الوقائع التاريخية أو القصص الفردية ، أو تقرير الحقائق العلمية والأدبية ، فالنثر أرحب بكل ذلك صدرا وأطول باعا . ومن ثم كان نقد الشعر والأدب عامة وتسديد خطى الأدباء وإظهار محاسن الشعراء من أهم وظائف النثر التى يضطلع بها اذا ما توطد وسائر الشعر جنبا لجنب .

وقصارى القول أن موضوعات الشعر والنثر يتباعد طرفاها ، ويلتقى الطرفان الآخران حتى يختلطا ، وان الروح الشعرى قد يكون فى النثر الجيد كما قد ينعدم من النظم الردىء ، ولما كان الشعر والنثر يعبران مشتركين عن شتى خوالج النفس الانسانية ، فمن الطبيعى أن يرتقيا معا

فى عصور الرقى الانسانى وينحط معا فى عصور الانحطاط . بيد أنه يلاحظ بجانب ذلك أن أحدهما ربما ارتقى وفاز باحتفاء الأدباء والثانى فى انخزال وقعود ، تبعا لما تميل اليه نزعة الشعب فى عصر من عصوره ، فكما يختلف الفرد الواحد بين نزعة الخيال والعاطفة والخفة أحيانا ، وبين نزعة التأمل الوقور والاستقصاء الهادى للحقائق أحيانا حسب اختلاف أطوار النفس الانسانية الخفية الأغوار المتقلبة الأطوار ، كذلك تمر الأمم بعصور طموح ومغامرة يزدهر فيها الشعر والنثر الشعرى وبعصور هدوء وركود ، وتأمل علمى وفلسفى ، يثمر فيها النثر ويلعب دورا كبيرا ويخفت صوت الشعر .

فاذا نحن زسجنا لأطوار الشعر والنثر دورة ، كتلك التى رسمها أرسطو لنظم الحكم فى المدن اليونانية ، بين ملكية وأرستقراطية وهلم جرا ، كان أول أطوار تلك الدورة طورا شعريا طويلا ، يبلغ ذروته بنهضة الأمة بين الأمم ، ونيلها نصيبا وافرا من الحضارة والثقافة ، يلي ذلك طور نثرى يشتغل فيه النثر بنقد ما تجمع لديه من آثار الشعراء المتقدمين ، وينخذل الشعر فى أثنائه أو عقبه مباشرة ، فاذا ما انبثت فى الأمة روح جديدة جاء طور شعري جديد سابق أيضا ، يليه طور نثرى وهلم جرا . ولعل فى تاريخ الأدب الفرنسى مثلا لذلك واضحا : اذ سبق الشعر الفرنسى بالظهور على أيدي التروبادور ورونسار ، ثم نهض النثر على أيدي رابليه ومونتيني فى عهد النهضة الأوروبية ، ثم نهض الشعر مرة أخرى فى عهد لويس الرابع عشر على أيدي كورنى وراسين ، ثم كان القرن الثامن عشر عهد نشر طويلا ظهر فيه فولتير وروسو ، ثم كانت النهضة الرومانسية الشعرية فظهر لامرتين وهوجو ، ثم نهض النثر بانتشار الحركة العلمية وذيوع القصة ، وظهر القصاصون كبلزاك وموباسان ، والنقاد كرينان وتين :

يتشارك النثر والشعر – منذ ظهور النثر الفنى – فى تأدية رسالة الأدب ويتشابهان موضوعات وغايات ، وبتراوحيان صعودا وهبوطا مع تعاقب العصور ، ويظهر النوابع فى كل منهما ، وينال هؤلاء وأولئك حب المثقفين واعجابهم ، بيد أن الشعر يظل أثر لدى المثقفين وأكثر استئثارا بحفظهم واستشهادهم ، ويظل الشعراء أحظى بالرعاية والاهتمام ، وآثارهم أحظى بالدرس والنقد . وإلى الشعر والشعراء ينصرف الذهن أول ما ينصرف اذا تحدثنا عن الأدب أو فكرنا فى الأدباء ، أو أردنا الموازنة والاستشهاد أو التدليل على صحة نظرية . وبأسماء فحول الشعراء تسمى عصور الأدب المتتابعة فى تاريخ الأدب الانجليزى ، كل ذلك لما يمتاز به

الشعر من تضمين المعنى الشامل اللفظ الموجز ، والنظرة النافذة القول الرصين ، وما يتوفر عليه من شرح العواطف والذكريات ، والآمال والأشجان والأطراب ، وما زال الانسان أكثر انجذابا الى العاطفة منه الى الفكر ، وهو من ثم يؤثر الشعر على النثر .

نشأ الشعر العربى وارتقى فى البدايه ، سابقا للنثر ، اذ بلغ ما بلغه من الرقى على أيدي أصحاب المعلقات وأضرابهم ، والنثر لا يتعدى بعد الخطب القصص والحكم المنشورة والأسجاع الماثورة والوصايا المتفرقة . نعم كان للمقائل خطباء كما كان لها شعراء . ولكن العرب كانوا بالشعر أولع حتى عدوه معرض مفاخرهم ، وقالوا : « الشعر ديوان العرب » ، ولم يقولوا : « الأدب » ولا « الخطابة » . ولم تدع كلمة النثر حتى تحضروا وتثقفوا وانتشرت بينهم الكتب . وكان الشعر والنثر معا فى بدء امرهما مختلطين بالدين والدولة ، فشاعر القبيلة كان وزير دعايتها بتعبير العصر الحاضر ، والشعر والسحر والكهانة والعرافة والتنبؤ والسجع كانت معانى والفاظا متلاحمة الوشائج . وقد كان للدين بين العرب من أقدم عصورهم مكان ، وأخرجت جزيرتهم عددا من الأنبياء عديدا ، وكان الشعر الى ظهور الاسلام ينشد فى المواسم الدينية ، وتخطب به الآلهة ، من ذلك قول بعض اليمانيين فى طوافهم .

عك اليك عانية عبادك اليمانية

ولم يفصم الشعر والنثر العربيان يوما علاقتهما بالدين والدولة ، بل ظلا طول عصورهما على اتصال بهما متين ، بل بفضل الدين احتوى النثر العربى على أثر فنى لا يجارى بلاغة ، بل هو نموذج البلاغة الذى ظل يحتذى ويدرس ويقتبس فى النثر والشعر معا طول العصور ، وهو القرآن الكريم ، وبقيام الملك على أساس دينى اتصلت علاقة الأدب بكل الملك والدين ، وظل الشعر يتقرب الى الحكام بالمدح ، والنثر يعمل فى دواوينهم ، ولم يخرج الأدب العربى خروجا تاما من طور خدمة الملوك ، الى الطور الفنى الخالص المنزه عن كل غرض خارجى أو مطلب مادى ، وانما ظل الشعراء والكتاب يعتمدون على رعاية الأمراء ، ويسخرون فنهم لخدمتهم .

وتوالى أطوار الشعر والنثر فى تاريخ الادب العربى : فسبق الشعر فى الجاهلية ، وحل محله النثر فى صدر الاسلام متمثلا فى الكتاب الكريم وخطب الرسول وخلفائه وكتبهم وكتب عمالهم ، واستعاد

الشعر مكانه في عهد الأمويين على السنة جرير والفرزدق والأخطل وجميل وكثير وابن أبي ربيعة وأضرابهم ؟ وعند ذلك كان العرب قد تشربوا الحضارة والثقافة ، فظهر النثر الفني على أقلام عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ والبيديع ، وبلغ الشعر في الوقت نفسه أوجه على أيدي معاصري هؤلاء من الشعراء ، كبشار وأبي نواس والطائي والبحتري وابن الرومي والمنتبى والمعري ، ثم أقل نجم الشعر بدءا من القرن الخامس وأفسده التعميل ، وأعوزته روح الطموح والمغامرة التي غاضت من نفوس الأمة التي أرهقها المتسلطون ، وبقيت للنثر بقية من قوة مستمدة من نضج الثقافة الإسلامية ، فكان العصر التالي طور نشر طويلا أنجب من النقاد والمؤرخين والكتّاب أضراب ابن خلكان والنويرى والقلقشندي وابن رشيق وابن خلدون ، ممن كان هم أكثرهم جمع الآثار الأدبية والتاريخية المتخلفة من العصور السالفة ، وتنظيمها والتعليق عليها . ثم لحق الوهن والاسفاف النشر كما لحق الشعر . فلما كانت النهضة الحديثة ، كان الشعر أسبق الى النهوض والحياة والتخلص من شوائب الصنعة والتقليد ، فالشعر أسبق من النشر الى الازدهار وأسبق منه الى الذبول .

كان الشعر أسبق الى الظهور والرقى في الجاهلية ، وكان العرب يعدونه ديوانهم ، وكانت له لديهم مكانة عظيمة ، وقد ظلت له هذه المكانة على توالي العصور ، على رغم ظهور النثر الفني ورقيه وحصول الكتاب دون الشعراء على المراتب السامية كالوزارة ، وظل الشعر أعلق بالنفوس وأثر بالحفظ والذكر ، ولم يسايره في الحفظ والسيرورة من آثار النثر الا القرآن الكريم ، وهو مملوء بالروح الشعرى حافل بالتشبيهات والمجازات البليغة . ولما ارتقى النثر الفني راح يتتبع خطى الشعر : يقتبس أبياته ويضمن شطراته ، ويتناول موضوعاته ، ويحاكي موسيقاه ووزنه ، فاصطنع السجع والازدواج والجناس ، وأصبح السجع في النهاية للنثر لازما لزوم القافية للشعر . والحق أن الأدب العربي بفنیه الشعر والنثر اتسم دائما بالاحتفاء باللفظ وجرسه وتنميته ، والأسلوب وتقسيمه وتدبيجه ، وقد ظل ذلك مستساغا مقبولا حينما ثم أفرط وسمج . وظل الشعر العربي شديد الحرص على فخامة الموسيقى ووضوحها واطرادها بلا اخلال ، كالاخلال الذي يكثُر في الشعر الانجليزي ويلجأ اليه شعراء الانجليزية قصدا للتنويع واجتناب الاطراد الملل ، وظلت القافية في الشعر العربي كذلك واضحة جزلة مكونة في الواقع من قافيتين صوتيتين ، كما في « عانيه » و « مانيه » في البيت السالف الذكر ، وهذا ما يعرف في الانجليزية بالقافية المؤنثة ، وقد دخلت الانجليزية نقلا عن الايطالية ولكن الشعراء سرعان ما نبذوها ، لعدم

ملاءمتها لطبيعة اللغة الانجليزية التي تمج (١) الافراط في الموسيقية نثرا
أو نظما .

ولما ظهر النثر الفنى بجوار الشعر ، ونبع فيه الكتاب واحترفوا
انشاء الرسائل الديوانية ، وحرصوا على التزود بكل أسباب الثقافة ،
والتحلى بكل موجبات الفضل ، عالج أكثرهم الشعر طبعاً أو تكلفاً ،
فأثرت عن الحسن بن وهب وابن الزيات وابن الصولي وسعيد بن حميد
وابن العميد وابن عباد والخوارزمي والبديع والجرجاني والعسكري ،
أشعار قالها بعضهم نظراً ورياضة للقريحة ، وقالها بعضهم جادين فى
التعبير عن خوالج صميمة وآراء صادقة . وقد قيل ان الجاحظ عالج
قرض الشعر طويلاً ثم أقلع حين لم يفلح . وكان البديع والحريرى يخالفان
فى مقاماتهما بين شعر ونثر لا يكاد يتميز أحدهما عن الآخر الا بالعروض ،
وفيما عدا ذلك يتساويان تنميق لفظ وبلاغة انشاء ، ومن أجمل أشعار
الكتاب قول الجرجاني من أبيات هى من غرر الشعر العربى :

يقولون لى : فيك انقباض وانما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
إذا قيل : هذا مشرب قلت: قد أرى ولكن نفس الحر تحتل الظمما

وقد كانت المقابلة والمفاضلة بين الشعر والنثر من هم نقاد العربية
وكان أكثرهم يميل مع الشعر ، على أنها مفاضلة لا موضع لها : فليس
الشعر خيراً من النثر ولا النثر خيراً من الشعر ، وانما كلاهما ضروريان
وكل منهما جميل فى موضعه ، زد على ذلك أن أولئك النقاد كانوا
يدخلون فى حسابهم اعتبارات خارجية لا صلة لها بالفن الصميم ، بل
هى شئون اجتماعية أو سياسية أو فردية صاحبت الأدب فى بعض
العصور ، فأصحاب الشعر يستدلون على أفضليته بأن الشاعر يخاطب
الأمير باسمه مجرداً وباسم أمه وبصيغة المفرد ، وبأن الشعر رفع قبائل
كأنف الناقة ووضع أخرى كنمير ، وبأن الكذب ومدح النفس يقبلان فيه
ولا يستساغان نثراً ، وأصحاب النثر يؤيدون حجتهم بأن الرسول الكريم
لم يقرض الشعر ، وأن الشعراء يخدمون الكتاب ويأخذون هباتهم . وأن
الكاتب يجلس والشاعر ينشد وهو قائم وهلم جرا .

نشأ الشعر والنثر الانجليزيان كذلك على صلة بالدين والدولة ،
وكان من أولوهما الأوائل أمثال تشوسر وسبينسر وهوكر من رجال السياسة

(١) تمج : تلهف .

والدين والحرب ، أو كانوا على اتصال بالسياسة والمحاربين وعلماء الدين .
ومن الكنيسة خرج فن التمثيل ذو الصلة الوثيقة بالأدب ، فكان قوامه
الشعر أولا على عهد شكسبير ، ثم انحاز تدريجا الى النثر ، وكان للانجيل
أثر بليغ في اللغة الانجليزية ، غير أن الشعر والنثر ما لبثا بعد ذلك أن
انسلخا تدريجا عن الملك والكنيسة والأحزاب والأعيان ، واعتمد كلاهما
مكان أولئك جميعا على الجمهور القارىء ، ودخلا في طور الفنون الخالصة
التي لا غاية لها سوى وصف مشاعر الانسان وشعوره بجمال الحياة
وغبطاتها ، وهو الطور الذي لم يبلغه الشعر والنثر العربيان تماما ،
بل قام من الأدباء الانجليز من ناصبوا الملكية والكنيسة ، مثل شلي
وبيرون .

وكان الشعر الانجليزي أسبق الى الازدهار من النثر : فبلغ أوجه
في عهد اليزابث في آثار شكسبير ومعاصريه ، وتجلت الروح الشعرية
حتى في النثر القليل الذي خلفه ذلك العصر الحافل بروح الاقدام ،
فهوكر مثلا وهو يدرس مسائل دينية يعرج فيصف الموسيقى وصفا شعريا
رائقا ، وتلا ذلك طور نثرى طويل في القرن الثامن عشر ، بلغ فيه النثر
الغاية من السلاسة ورحب الجوانب ، ثم كانت هبة قومية جديدة فنهض
الشعر في العهد الرومانسي نهضة باهرة ، وكان كثير من شعرائها كتابا
حذاقا أيضا تفيض كتاباتهم النثرية بما تفيض به أشعارهم من روح
رومانسية ، ثم ارتقى النثر في أعقاب ذلك مرة أخرى ، فظهر من النقاد
ماكولي وارنولد ، ومن القصصيين ثكري ودكنز ، وما زالت القصة في
ازدهار مطرد .

وبلغ النثر الانجليزي من الرقى الشكلي والموضوعي ما لم يبلغه
النثر العربي : فظهرت فيه المقالة والصورة والترجمة والتأريخ والقصة
الفنية . وبهذا كله تهيأ له أن يزاحم الشعر على مكانته ، لا سيما بفضل
القصة والرواية التمثيلية ، بل هو انتزع الرواية التمثيلية من الشعر
واستأثر بها . والقصة اليوم تستقل بأسماء أعلام الأدب الانجليزي ،
وقد مارسها أكبر شاعرين محدثين : كبلنج وهاردي ، بل كانت ممارسة
النثر بجانب الشعر دائما من أدب شعراء الانجليزية ، يبسطون فيه
آراءهم في النقد الأدبي والأحوال الاجتماعية . فكان دريدن وكاولي
وبوب الشعراء مثلا من أوائل من كتبوا المقالات ، أما كبار شعراء العربية
فقلما روى لهم نثر مطنّب .

على أن الشعر الانجليزى وان زاحمه النشر فى العصر الحديث هذه
 المزاحمة • واستأثر دونه بأكثر احتفال الأدباء والقراء ، لم يفقد موضعه
 الأثير من نفوس المثقفين ، وانما هو يجتاز مثل عصر الركود الذى شهده
 فى القرن الثامن عشر ، اذ أن النشر والشعر كما تقدم يتجاذبان النفس
 الانسانية على اختلاف العصور ، بيد أن الناس حتى فى مثل هذا الطور
 لا ينزعون عن حبهم للشعر • بل يلتفتون الى الماضى يروون صداهم من
 عبايه الزاخر ، ولا تزال لشكسبير وملتون ووردزورث وشلى منازل فى
 قلوب قراء الانجليزية ، كما نزل ابن الرومى والمتنبنى والمعرى فى قلوب
 قرائهم ، لا يحتل مثلها الكتاب الناثرون فى كلا الأدبين •

الطور الفني

فى الأدبين العربى والانجليزى

مما عرف به الانسان أنه حيوان يتذوق الفن ، فحب الفن طبع فيه ، تبدو مظاهره حالما يأمن على نفسه وتتوفر له قوته وحاجاته ، فاذا ما فرغ من الضرورى من أموره التفت الى الكمالى ، وطاب الفن والجمال ، ومن ثم تظهر بعض الفنون بدائية بين الجماعات المتبدية ، وترتقى بينها وتتنوع بقدر ما تسمح به بيئتها ودرجتها من الرقى المادى والعقلى . والرقص والموسيقى والشعر من الفنون السابقة الى الظهور ، لقلة ما تحتاج اليه من المواد الأولية ، أما التصوير والنشر الفنى والنحت والعمارة ، فأكثر تأخرا عنها ، لما تحتاج اليه من تقدم الصناعة والمعرفة بالكتابة والاستقرار فى موطن .

ومهما بانغ الشعر من التقدم فى عهد البداوة فما يزال محدود الجوانب قريب الأغوار متشابه الآثار ، فاذا كانت الحضارة والاستقرار والثقافة والتدوين ، اتسعت مواضيع الشعر باتساع جوانب العمران ، وبعد غوره باستفادته من العلم ، وجاد أسلوبه باستخدامه التدوين والتروى ، واتصلت الجهود فيه وتكاثر الابتكار بتوفر الوقت للتفرغ والتفنن ، وظهر بجانب الشعر أخوه الأصغر سنا وهو النثر ، وظهر بجانب الشعراء الكتاب ، وبظهور النثر يمتد مجال الأدب حتى يتأخم مجال العلم أو يتداخل وياه ، واذا يدون الأدب يطلع عليه أبناء الأمم الأخرى ويطلع أدباؤه على آداب تلك الأمم ، فيتأثر بها ويؤثر فيها ، بعد أن كان الشعر فى عهد البداوة معزولا لا يحس به سواه ولا يعلم هو بوجود غيره ، وبتقييد الأدب يتوارثه جيل عن جيل ، ويزداد تراثه باطراد ، بعد أن كان فى عهد بداوته سريعا الى التلاشى فى ضباب النسيان ، لا يكاد يذكر منه جيل عن أجداده الا القليل المحرف غير المستيقن .

فحين تتحضر الأمة وتشقف ، يصبح شعرها فنيا ويظهر بجانبه النثر الفنى ، على أن هذا يستغرق زمنا ، ولا يجيء الفن الا متأخرا عن الصناعة وعن العلم . فالانسان يعتمد دائما الى الضرورى ، حتى اذا ما قضى منه وطره تحول الى الفن ، أو تحولات الصناعة ذات الغرض المادى الى فن

لا غرض له خارجا عن ذاته ، وهكذا ينشأ التصوير والنحت والعمارة والنشر جميعا ، تكون فى أول أمرها صناعات تخدم أغراضا مادية وتسد حاجات الانسان، من اتخاذ المسكن وزينته وتدوين المهيم من الأحكام والمواظ والأكبار ثم العلم ، فاذا ما أطرده سلم الرقى تخلص الفن من تلك الأغراض الخارجية وصار غرضا فى نفسه وممتعة فى ذاته ، وتعبيرا عن الشعور خالصا ، وعبادة للجمال منزهة .

اذا ما دخل الأدب هذا الطور الفنى ، صارت الصنعة الفنية فيه أظهر والتجويد أوضح ، وليس يخلو الشعر حتى فى بداوته من صنعة ومعالجة وتجويد ، وبغير هذه لا يتصور له وجود ولا لسلكه انتظام ، بيد أن الأديب فى الطور الفنى يصبح أكثر بصرا بتجويد اللفظ وتنسيق الأسلوب وتجميل المعنى ، لما يمتاز به دون شاعر البداوة من ترفه المعيشة ورقة الذوق وسعة القراءة ، والاطلاع على الآثار الأدبية والقواعد والآراء ، فكما أمعن الأدب فى طوره هذا زاد الأدباء لأفاهم تخيرا وتسهيلا ، ولأساليبهم تقسيما وتذليلا ، ولعانيهم استقصاء وتوضيحا .

وتزداد موضوعات الأدب اتساعا وبعدا عن أسباب الحياة الشخصية الحاضرة ، وتحليقا فى عنان الفكر وأجواز (١) الخيال وآفاق الماضي والمستقبل : فعلى حين يكون أكثر ما ينظم من شعر البداوة نتيجة حادث طارئ أو خاطر عابر ، يتوفر الأدب فى الطور الفنى على تقصى غايات التفكير ، ارضاء لنزعة التأمل والتفكير فى ذاتها ، وعلى توخى مناحى الفن حبا للفن وحده ، ويمسى الأديب ويصبح ولا هم له الا استقصاء الحس والمشاهدة وتصويرها فى أدبه ، وتكثر فى الشعر والنثر آثار التأمل الطويل والوصف الفنى .

واذا ما تكاثرت الآثار المتجمعة بالتدوين جيلا بعد جيل ، وزخر التراث الأدبى بما تجود به قرائح الأدباء من فيض ، اذا انقضت سحائب منه أعقبت بسحائب كما يقول الطائى ، وكثر نظر الأدباء فيها واستظهارهم لها وحذاؤهم إياها ، لم يعدوا أن ينتبهوا الى شواهد فيها تتكرر ، وحقائق تماثل ، وجزئيات تندرج تحت كليات ، فاستخلصوا من كل ذلك قواعد يجعلونها نصب أعينهم فى الانشاء ، ثم يحتفى بعضهم بجمعها وتبويبها والاستكثار من أمثلتها ، فتكون من ذلك علوم المعانى والبيان والبديع ، وكتب النقد والموازنة والتحليل ، وبرغم أن الفن سليقة والأدب ملكة

(١) أجزاء : الجزء من كل شيء وسطه والجمع (أجزاء) .

لا اكتساب ، والشعر طبع لا تطبع ، فان تلك العلوم وهاتيك الكتب المستحدثة تترك أثرها في تقويم السلائق ، وتوجيه الملكات وتحسين البصر بالأدب وأسبابه ، وجمع أشتاته ولم أطرافه ، ولا يستأثر النشر بهذا التبصر في الأدب ، بل ينظم الشعراء القصيد في مزايا الشعر وأطواره وأحوال الشعراء .

ومن ذلك التراث الأدبي الزاخر يكتسب الأدب شيئا آخر : يكتسب على مر الأجيال لغة أدبية خاصة ، والفاظا خاصة للشعر وأخرى للنثر ، قد صقلها الاستعمال الطويل ورفعها استخدام كبار الأدباء إياها الى مرتبة عالية ، وارتبطت بمعان سامية ، الأمر الذي يجعلها أهلا لما ينزع الى تصويره الأدباء من عواطف رفيعة ، فتصير للشعر والنثر من كل ذلك لغة خاصة متمسكية على لغة العصر المستعملة في الكلام ، الممتازة بسهولتها واسفافها أحيانا ، وتطورها المستمر بتطور الحضارة المادية ، وتظل لغة الشعر والنثر الخاصة تلك في ازدياد كلما أضاف إليها أقطاب الأدب ألفاظا من اختراعهم أو اشتقاقهم أو مما يرفعونه بعقرياتهم من لغة العامة ، أو يقتطفونه من لغات الأمم الأخرى ، وتتوارث في الأدب بجانب ذلك تعابير خاصة جارية ومجازات وأخيلة وأمثال ، يموت بعضها تدريجا ويحيى بعض ، ويزداد بمرور الزمان صقلا وانسياغا .

هذا الطور الفني لا شك طور نضج الأدب وبلوغه أشده : فيه يجمع بين حرارة الشعور وعمق الفكرة ، وبين طرافة الموضوع وجودة الأسلوب ، وفيه يتخلص من أقذاء (١) المادية وشوائب الصناعات ، وفي هذا الطور لا في طور البداوة يظهر أكبر أدبائه وفحولته شعرائه ، وما يزال الأدب في رقيه المطرد ، وتراثه في ازدياده المستمر ، مادامت في الأمة فورة الحياة وصدق الشعور وصحة النظرة ، فاذا خمدت النفوس وزاغت النظرات ، انقلب الفن صناعة ، والحرية قيودا ، وتمسك الأدباء بالقشور دون اللباب ، وبالألفاظ دون الحقائق .

كان أدب الجزيرة العربية في الجاهلية وصدر من الاسلام بدويا : الشعر قوامه والبساطة سمته والقريب الحاضر من شئون الحياة مادته ، محدود المواضيع ، غير متسق الأسلوب ولا منظم الأفكار ولا ظاهر الوحدة في القصيدة . وقد استعاض العرب عن التدوين بالرواية : يروي أشعار

(١) أقذاء : القذى ما يتكون في العين من رمص وغمص وغيرهما والجمع (أقذاء) .

مكل فحل ناشيء يقوم له مقام الديوان المخطوط ، ويقوم الشاعر من رايته مقام الأستاذ يبصره بالشعر ووجوه القول ، وبطريقة الرواية هذه حفظ من شعر العرب شيء كثير ، وبها ترعرت الصناعة الشعرية حتى بلغت في هذا العصر مبلغا من التقدم يعتد به ، وصارت لها تقاليد خاصة في الأوضاع والمعاني والألفاظ ، كتصريح البيت الأول من القصيدة وتقديم النسب في مستهلها ، تتجلى كل هذه الميزات في المعلقات ، التي يتحدث صاحب كل معلقة منها في نفس القصيدة ، عن أحبابه وشرابه ، وحربه وأسفاره ، وحكمته وآدابه وقبيلته وعزها وهام جرا .

وبازدياد حظ العرب من الرفاهية والتثقف والتهذب ، ازداد الشعر تهذيب لفظ واتساق أسلوب ، كما يتمثل في شعر ابن أبي ربيعة وجميل ، وظهر النثر يستخدم أولا في تدوين العلوم ورسائل الأمراء وأجراءات الحكومة ، ثم مازال حتى استحال على أيدي ابن المقفع والجاحظ والبيديع ، فنا يتطلب الجمال اللفظي والمعنوي ويتوخى نواحي الفن ومذاهب التفكير بعيدة عن النفع المادي والغرض الحاضر . وبلغ الشعر الغاية من الصناعة الفنية والحلاوة اللفظية ، والتقسيم الموضوعي ، والتقصي في المعاني ، والتفنن في الوصف . على أيدي أبي نواس وأبي تمام وابن المعتز وابن الرومي وغيرهم ، وهؤلاء وأضرابهم هم لا شك فحول شعراء العربية ، وإن ظل كثير من الأدباء لنزعتهم من المحافظة يقدمون أمرا القيس وأصحابه من الجاهليين . وظهرت كتب النقد وعلوم البلاغة ، ونظم الشعراء القصيدة في أطراء فنهم ، ودبجوا أشعارهم بالتشبيهات والأمثال يحتفون بطلبها ويكاثرون بعرضها ، كقول الطائي :

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيهما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقد سئل بشار فيما قيل : بم فقت أهل عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه ؟ فأجاب : بأني لم أقبل كل ما تورده على قريحتي ، ويناجيني به طبعي ، ونظرت الى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات ، فسرت اليها بفكر جيد وغريزة قوية ، فأحكمت سبورها وانتقيت حررها ، وكشفت عن حقائقها واحترزت (١) عن متكلفها . فهذا قول أديب صناع يروض المعاني والألفاظ ، ويعرف خطر التروى وأعمال الفكر ، ولا يرسل القول على عواهنه ، ولا يطمئن الى الارتجال الذي كان

(١) احترزت : توقيت .

شيمة الجاهليين . ومن أمثلة التدقيق فى انتقاء الألفاظ ونقدها ومراعاة تناسب حروفها ومخارجها أيضا ، أن ابن المعتز عاب على أبى تمام تكرار كلمة « أمدحه » مع الجمع بين الحاء والهاء ، وهما معا من حروف الحلق ، وذلك فى قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى واذا ما لمته لمته وحسدى

هكذا يجرى تاريخ أدب كل أمة : يبدأ بطور أولى ، الأدب فيه ظاهر البداوة ، يليه طور فنى تابع لتحضر الأمة وأخذها بأسباب الكتابة والعلم ، وقد استطال الطور الاول فى العربية وغزر ما حفظ من آثاره لظروف خاصة ، وان يكن الكثير مما أثر من ذلك موضع الشك . أما الأدب الانجليزى فلا يحتوى تاريخه على آثار ذات بال تمت الى الطور الأول المتبدى ، الا أساطير وشذورا اتخذها الأدب فيما بعد مادة لسبحاته الفنية ، وانما يبدأ تاريخ الأدب الانجليزى الصحيح بعصر اليزابيث الذى كانت الأمة فيه قد تشربت ثقافة اللاتين والاغريق ، واقتبست كثيرا من حضارة أوروبا ، وخمدت فيها الفتن واستتب السلام فى ظل آل تيودور . ومن ذلك العصر يبدأ الطور الفنى للأدب الانجليزى وهو طور تاريخه تاريخ رقى مطرد للأدب فى الأشكال والمواضيع والأفكار والأساليب ، وتخلص مستمر من شوائب الصناعة وتجرد تام فى عالم الفن الصحيح . والأدب الانجليزى فى هذا كله يمثل التطور الطبيعى المعقول لكل أدب : جرى الشعر الى غاياته وتلاه النشر ، وتوسعت جوانب كل منهما تدريجا ، وتعددت مجالاته وتميزت أشكاله وتبينت أغراضه .

تهيأت لكلا الأدبين العربى والانجليزى أسباب الدخول فى الطور الفنى . فازدهرت الحضارة وذاغت العاوم ودونت الكتب وانتشرت الرفاهية وتوفر الوقت للعمل الفنى المتصل ، بيد أن الأدب الانجليزى كان أبعد شوطا فى مضمار الفن الخالص ، وأكثر تجردا من شوائب الصناعة والمادة التى تلازم الأدب أو الفنون عامة فى بداعتها ، اذ أحاطت بالأدب العربى ظروف حالت بينه وبين التخلص من جميع هاتيك الشوائب، فجاء الأدب الانجليزى أكثر فنية فى الموضوع وفى الأسلوب .

ففى الموضوع احتوى الأدب الانجليزى من تصوير الطبيعة وسير الأبطال وخرافات الماضين وأوصاف الرحلات وآثار الفنون الأخرى كالتصوير ، ما يفيض جمالا وتنسم منه نسمات الفن الخالص والفكر البعيد والانسانية الشاملة ، وكل هاتيك مواضيع لم يولها الأدب العربى

مكانة أولى ، وفي الأسلوب توفر الأدباء الانجليز على استخدام اللفظ قدر المستطاع لأداء المعنى وتصوير المنظر مستعينين بجرس اللفظ ونغم الوزن في النظم ، في حين اهتم أدباء العربية للفظ في ذاته لا على كونه مجرد وسيلة للمعنى ، وظهرت الوحدة الفنية أو الفكرة الجامعة في القصيدة وفي المقالة وغيرهما من أشكال الأدب في الانجليزية ، على حين ظلت القصيدة في العربية وان أصبحت أكثر تقسيما وأجود ترتيبا مما كانت عليه من قبل ، عديمة الوحدة مختلطة الأجزاء ، تشب من قريب الى بعيد ومن نسيب الى مديح ، ومن مديح للغير الى فخر بالنفس ، ومن فخر الى شكوى .

ولم يتخلص الأدب العربي من شبهات الصناعة والغرض المادى قط : اذ ظل أكثر الشعراء والكتاب يخدمون الأمراء ويتوخون مواقع رضاهم . وليس يخرج الأدب من حيز الصناعة الى عالم الفن الحر مادام ذا غرض خارج نفسه ، وذلك ما لم ينكره أدباء العربية أنفسهم ، فظلوا يسمون الأدب صناعة أو حرفة أو آلة ، وكان النقاد يوازنون بينها وبين صناعة المغنين ، ويقول ابن رشيق في تعليقه على حكاية شاعر مدح علويا ثائرا فدفعه المنصور حيا : ان ذلك الشاعر قد جنت عليه حماقته ، اذ ما للشاعر وللزج بنفسه في أمثال تلك المآزق وانما هو « طالب فضل » ؟

واحتفى أدباء العربية بالألفاظ احتفاء متزايدا : فنشأ السجع والطباق والجناس والتورية وما اليها في الشعر والنثر معا ، حتى بدا اللفظ منافسا للمعنى مزاحما له على انتباه القارئ وفهمه ، بل صارت له في النهاية المكانة الأولى ، وتضاءل المعنى بين يديه واختفى ، وأصبحت مهمة الأدباء موجهة لا الى الغوص على حقائق الوجود وبواطن الشعور . بل الى اقتناص شوارد الكلم وبارع النكات اللفظية ، فعيسى بن هشام مثلا يقول انه كان يطوف البلدان « وقصارى لفظة شرود أصيدها ، وكلمة بليغة أستزيدها » وعيسى بن هشام أيضا يعيب على الجاحظ أنه « قليل الاستعارات قريب العبارات ، منقاد لريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ » .

وانما قصر بالأدب العربي عن غايات الفن المطلق ، ما قيد به من اتصال بالأمراء ، وما أرهق به من تقليد للمقدم : أدخلت الأولى فيه التكلف والصناعة ، وأبقت فيه غرضا خارجا عن نفسه وصرفت الثانية همه الى

اللفظ البليغ والعبارة الطنانة ، التي تدل على بصر باللغة وتمكن من آثار فحولها المتقدمين ، ويتجلى الفرق بين مدى الادب الانجليزى من الفنية الخالصة ، ومدى الادب العربى منها ، من موازنة حياة الفن الخالص والتأمل الدائب ، والمعالجة المستمرة لأشكال الادب ومواضيعه ، والطرق المتكرر لمذاهبه ومناحيه ، التي كان يحيها وردزورث وشلى وتنيسون مثلاً ، وبين حياة البحتري والطائي والمتنبى المتصلة أوثق اتصال بالأمراء ومناذمتهم وتملقهم ، كان الأولون كأنهم كهنة الفن المنقطعون الى آلهته فى محاريبه المقدسة المصونة ، وكان الآخرون يعيشون فى جلبه البلاطات وضجة المحافل والمواكب .

فالأدب الانجليزى بعد أن توفرت له أسباب الحضارة والثقافة والتدوين والفراغ ، التي لابد منها لبلوغ الأدب أوج رقيه ، توفرت له أيضاً مزيته الاستقلال بنفسه عن ارادة الحكام وخدمتهم ونزعة التجديد والحرية التي لا تقلد الماضى ولا نقف عند حدوده وبهاتين الميزتين الى تلك الأسباب تجمعت للأدب الانجليزى كل وسائل التطور الطبيعى وبلوغ آماذ الفن الخالص ، أما الأدب العربى فأعوزته هاتان الميزتان ، فقعد به اعوازهما فى مجال الفن ، وأبقى به بعض شوائب الصناعة ، ومن ثم أمكن القول بأن الأدب الانجليزى بلغ طور الفن ، أما الأدب العربى فى جملته فظل أقرب الى الصناعة الفنية .

القصص

فى الادبين العربى والانجليزى

الميل الى تأليف القصص والاستمتاع بسماعه طبيعيان فى الانسان ، فهو كما يميل تبعا لغريزة الاستطلاع الى مشاهدة حوادث الحياة تترى أمام عينيه ، يميل الى حكايتها لغيره كما رآها أو تخيلها ، ويميل الى الاستماع الى غيره يرويها له ، يشبع بها غريزة الاستطلاع وملكة الخيال من نفسه . والحياة ذاتها ليست سوى قصة متتابة الحوادث متوالية الفصول . وليس بد لمن شاء وصف بعض مظاهرها أو ظروفها من اللجوء الى القصص ، وإلى القصص يلجأ بداهة كل صديقين تلاقيا بعد طول فراق ، وبالقصص يشغف الأطفال أشد الشغف ، وبه شغف الانسان فى عهد طفولته التاريخية .

كان القصص أول صور الأدب ظهورا ، بل كان جماع الأدب والعلم والثقافة العامة لدى الجماعات الأولى ، يشمل معارفهم بالخلق والطبيعة والتاريخ وعقائدهم وتقاليدهم ، فما من شئ من ذلك كله الا حاكوا له قصة ، ولا مظهر الا اخترعوا له حكاية تعلله ، فكان قصص تلك العهود مملوءا بالخرافات والأوهام ، دائرا حول الآلهة والملوك والأبطال والقبائل ، وبالجملة كان قصصا رومانسيا تكثر فيه الخوارق والعظائم والمفاجآت والمخاطر . وقد تخلف من كل ذلك تراث حافل من نثر وشعر ، يتمثل فى أساطير الأولين من مصريين وفرس واغريق ورومان ، وبارتقاء الجماعة العقلية يتخلص العلم رويدا رويدا من آثار القصص والخرافة ويختص الأدب بتلك الآثار وتتمثل فى شعر الملاحم وما شاكله .

واذا ما ظهر النثر الفنى فقد ولت فى آثاره أساطير الأولين تلك ، وان بطل الاعتقاد فى كثير منها ، وخطا القصص الى المرحلة الثانية من مراحل تطوره ، فاتخذ وسيلة لاسداء المواعظ واذاعة التجارب وتحبيذ الفضيلة . أو لشرح النظريات العلمية أو الفلسفية ووضع لذلك على ألسنة الطير والحيوان ، أو أفواه الأرواح والجنان ، وصيغ أحيانا فى شكل حوار ، كما يرى فى قصص ايسوب وجمهورية أفلاطون وحكايات لافونتين وكتاب أميل لروسو ، ويتطور القصص الشعرى أيضا فتظهر الرواية

الشعرية التمثيلية ، وتحل محل الملحمة ، وينفصل التاريخ مستقلا عن الأدب متخلصا جهده من الأساطير ، وان ظل الاتصال بين التاريخ والأدب وشيخا طول العصور .

فاذا اطرده رقى الحضارة ونمو العلم وازدهار الأدب ورواج النشر الفني ، خطا القصص الى مرحلته الأخيرة نحو الكمال ، فصار فنا مستقلا من كل غاية خارجية ، غايته الوحيدة غاية كل الفنون ، وهى الجمال والشعور وتصوير النفس الانسانية ، وصارت له قواعده وتقاليده المفهومة ، وبلغ مكانة ضرب راق من ضروب الأدب كالمحمة والدراما والخطابة ، وسامى به النشر الشعر وباراه جولانا فى ميدان النفس الانسانية وأداء لوظيفة الأدب ، وظهر فى مضماره من فحول الكتاب من يضاهون فحول الشعر منزلة ونبوغا ، بل ظهر من الأدباء من يجمع بين الشعر والقصص ، وذهب الوهم الذى كان سائدا من قبل من أن القصص مطلب هين ، وقصص شهب البزاة سواء فيه والرخم (*) .

وللقصص ، اذا ما بلغ هذا الطور السامى من أطوار رقيه مزايا يختص بها دون غيره من ضروب الأدب منظومه ومنثوره فهو يمتاز برحب المجال رحبا يمكن من يمارسه من تناول أطراف الحياة المترامية ، بين جد وفكاهة ووصف وحكمة وعلم وأدب ، وهو يفسح للخيال متسعا بعيد الآفاق ، ويمتدح اللب بما يعرض من دقائق الحياة وتفاسيها الى جانب جلائها وبعيد أقطارها ، وبه يعرض من أحوال الحب وأطواره ما يضيق الشعر نفسه ذرعا باستقصائه الى لمحات خاطفة ، وقبل القصص كان النسيب وقفا على الشعر دون النشر ، والقصص لسهولة متناوله يذيع فى الخاصة والعامة على حد سواء ، على حين كان الشعر وقفا على خاصة المثقفين .

ولذويوع القصص فى الخاصة والعامة وجد فيه المصلحون وسيلة عديمة النظر لنشر آرائهم ودعائياتهم ، بتصوير الحال التى يكرهون وابراز

(*) قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم .

شهب : خالط بياض شعره سواد .

البزاة : البازى جنس من الصغور الصغيرة او المتوسطة الحجم تميل أجنتها الى القصر وتميل أرجلها وأذنانها الى الطول ومن أنواعه الباشق والبدق والجمع (بزاة) .
الرخم : طائر غزير الريش أبيض اللون مبقع بسواد له منقار طويل مدبب يبلغ طوله نحو نصف متر والذنب طويل .

« والمقصود بالعبارة أن الأمر سهل » .

مساوئها وعرض ضحاياها والتنديد بجناتها وتشخيص سبل ملاقاتها ، كان ذلك فى أسلوب قصصى شائق تقبله النفس وتستسيغه وتقتنع به اقتناعا كان صعب المنال لو عرض عليها الأمر صورة النصيح أو الوعظ . ومن أشهر القصصيين الدعاة تولستوى الذى كان له أكبر الأثر فى الفكر الحديث وأعظم الضلع فى التطور العقلى والمادى ، وهو أثر قل أن يجاريه أثر الشعر فى سالف العصور .

فالقصة ضرب من الأدب مرن ، يجمع مزايا الشعر كالخيال والعاطفة الى مزايا النثر كالرحب والدقة والاستقصاء والفائدة العملية ، وهى بهذا تلائم العصر الحديث أكبر ملاءمة ، وهذا سر ذيوعها حتى كادت تعطل ما عداها من ضروب القول ، فقد تهيأت الأسباب من القرن الثامن عشر الى اليوم لنهوض القصة الفنية ، التى تدرس نفس الفرد وحياة المجتمع وتحلل العواطف وتشرح الآراء والمبادئ ، وذلك برقى السواد الأعظم من الأمة بعد أن كان هملا فى غابر العصور ، وانتشار التعليم العام وبروز شخصية الفرد وذيوع مبادئ الحرية والديمقراطية ، هذا الى ارتقاء الطباعة واعتماد الأدباء على الجمهور القارىء لا على رعاية الأمراء والوجهاء .

ولم تقتصر القصة فى رقيها هذا الحديث على أن تميزت واستقلت ضربا قائما من ضروب الأدب ، يتوفر على ممارسته بعض أقطاب الأدب ، بل تطورت القصة تطورا داخليا ، وتميزت فيها ضروب من القصص يتوفر على كل منها بعض القصصيين : فهناك القصة التاريخية التى تدور حول الملوك والعظماء السابقين ، والقصة البيئية التى تصور المجتمع المتواضع تصويرا شائقا ، والقصة النفسية التى تحلل بواطن النفوس معتمدة على نظريات علم النفس الحديث أحيانا ، والقصة الاصلاحية التى تحاول تحسين حال العامل أو تعديل بعض النظم القانونية أو الاجتماعية ، أو تقويم بعض المعتقدات والتقاليد ، والقصة المستقبلية التى تتنبأ بما سيصير اليه الانسان وتحاول تسديد خطاه الى ما يجب أن ينزع اليه فى مستقبله ، والقصة البوليسية التى تعرض حيل المجرمين وخطط متعقبيهم من الشرطة ، وقصة المغامرات التى تصف أعمال بعض الأفاقيين ورحلاته فى المجاهل .

هكذا يتطور القصص ، من نوادر وأساطير بدائية واهية القصد منتشرة النظام ، الى صور فنية محكمة ، ومن أشباح مبهمه وحوادث متضاربة الى شخصيات ناطقة وسياق منطقى منسجم ، ومن الخرافى والخرق والبعيد الى الواقعى والعلمى والحاضر ، ومن الماضى بالهته وأبطاله

وعظائمه الى الحاضر بمشاكله العادية وأفراده المشهودين ، ومن اللفظ الطنان والخيال الشارد والعطفة الشائرة الى المعنى المتدبر والتأمل الهادئ والوصف المفصل ، وهذه الصفات التي تكتسبها القصة في طورها الراقى تكتسبها معها أو بعدها الرواية التمثيلية التي هى أسبق من صاحبيتها الى الظهور ، فتتهجر الشعر الى النثر ، والخيال الى الدقة ، وتدرس النفس والمجتمع دراسة القصة لهما ، لا تكادان تختلفان الا شكلا وطريقة تناول .

فصاحب الرواية التمثيلية يترك أبطاله يرسمون شخصياتهم وأخلاقهم بأفواههم ، وصاحب القصة لا يدعهم يفعلون ذلك الا الى مدى ، ثم هو يتولى عنهم الشرح ويحللهم تحليلا دقيقا ، ويكون من الأدباء من يجمعون بين كتابة الرواية التمثيلية والقصة المقروءة .

كان للانجليز قصصهم وأخبارهم وأساطيرهم قبل أن يتحضروا كما كان لغيزهم من الشعوب ، وكان كل ذلك يتداول شفاهها ، فلما تحضروا وعرفوا الكتابة كان الشعر كعادته أسبق الى الرقى ، فظهرت فيه قصص تشوسر المسماة حكايات كنتربرى ، ثم ارتقت الرواية التمثيلية فى عصر اليزابث على يد شكسبير ومعاصريه رقىا عظيما ، وبدأت القصة النثرية مرحلتها الثانية ، فاتخذت وسيلة لغيرها : اتخذها صاحب كتاب « يوفيواس » وسيلة لشرح آداب الجنتلمان ، واتخذها مؤلف « يوتوبيا » وسيلة لتصوير المدينة الفاضلة ، واتخذها كاثب « اطلانطس » وسيلة لبسط النظريات العلمية ، وفى كل هذه كان الفن هزيلا والشخصيات مضموسة أو معدومة والسياق متداعيا .

ثم تهيأت الأسباب الاجتماعية والمادية والمعنوية سالفه الذكر اللازمة لدخول القصة طورها الثالث ، طور الفن المنسجم المذهب الذى يتوفر على تحليل النفس ودرس المجتمع ، وذلك فى أوائل القرن الثامن عشر ، وقد بدا ذلك التطور تدريجيا كما هو الشأن فى كل تطورات الطبيعة والمجتمع الانسانى ، فانساخت القصة رويدا رويدا عن المقالة الاجتماعية التي كانت منتشرة اذ ذاك فى الصحف الدورية على أيدي ستيل وأديسون : كانت تلك المقالة تهتم بالأحوال الاجتماعية ، وتعرض لشخصيات المجتمع تحللها ، وأولعت بشخص واحد يدعى سير رودجر ، تتبعه فى شتى المواقف وتنقله بشتى الملاحظات وتحيطه بمختلف الشخصيات ، فكان من مجموع تلك المقالات قصة ذات تصميم وشخصيات وبطل وحوار ووسط اجتماعى وهلم جرا ، ولم يبق أمام الكتاب الذين جاءوا بعد أديسون وستيل ، الا أن يزيّدوا التصميم احكاما والحوار تسديدا والشخصيات بروزا .

وكان تاريخ القصة بعد ذلك خلال القرنين السالفين تاريخ تطور ورقى مستمرين ، أحكمت أوضاعها وتعمدت ضروبها وتتابعات أزيائها ، وظهر فيها كبار المؤلفين رجالا ونساء : منهم فيلدنج وديفو وسمولت كتاب قصص المغامرات ، وجين أوستن وشارلوت برونتي ومسز جاسكل مؤلفات قصص المجتمع ، وسكوت صاحب القصص التاريخية ، ودكنز وبتلر أصحاب القصص الإصلاحية ، وكونان دويل مخترع القصص البوليسية الذى صير اسم شرلوك هولمز علما على ذلك الضرب من القصص ، الى غير هؤلاء من القصصيين الذين لا يحصون ، والى غير تلك من ضروب القصص التى لا تستقصى . وفى تلك القصص تناول القصصيون أطراف الحياة المتباعدة وأمتعوا النفوس وأرضوا الفن ، وما زالت القصة فى صعود وكأنها لما تبلغ ذروتها .

وفى خلال ذلك الوقت كانت الرواية التمثيلية تتطور وتبعث بعثا جديدا ، على صورة مماثلة للقصة المقروءة ، قوامها النشر السهل المرسل والواقع الحاضر ، ومرهاها درس المجتمع والشخصيات وتحليل الآراء والمذاهب ، وظهر فى مجالها أرنولد بنيت وهرناد شو وجالزورذى وغيرهم . والى الآخرين يعزى الفضل فى كثير من الإصلاح الذى طرأ على النظم الاجتماعية والمذاهب الفكرية فى الجيل الأخير ، حتى شبه شو بمكنسة كهربائية ذهنية ، تنقى أوضاع (١) العقول من خرافات وتعصب وحماقات وتقالييد فاسدة .

وكان للعرب فى جاهليتهم قصصهم وأخبارهم وأيامهم وأساطيرهم ، متداخلا كل ذلك فى شعرهم ونثرهم ، مختلطا بثقافتهم ودينهم ، وقد تخلف كثير من ذلك بعد ذهاب الجاهلية ، وظل مختلطا بالأدب ممزجا بالتاريخ ، يظهر فى كتابات الجاحظ والأصمعي والطبري والأصبهاني ، وغيرهم من الكتاب والمؤرخين على السواء ، وحيكت نوادر جديدة حول أعلام الحب والحرب ، كابن أبى ربيعة وأبى نواس وعنترة ومهلهل ، وحوى القرآن الكريم طرفا جليلا من شائق القصص ، وما زالت السور المحتوية على قصص يوسف ومريم ونوح من أقرب سور القرآن الى نفوس الخاصة والعامة ، ثم انتشرت الكتابة وذاع النشر الفنى ، فدخل القصص طوره الثانى : الطور الذى فيه يستخدم وسيلة لغيره ، فاتخذ فى كليلته ودمنة وسيلة لبث الحكمة ، وفى رسالة حى بن يقطان ذريعة لشرح مسائل الفلسفة ، ولا حاجة الى القول بأن خصائص القصة الفنية فى هذه الكتب وأمثالها كانت ضعيفة واهية .

(١) أوضاع : وضر فهو وضر مثل وسخ وسخا فهو وسخ .

ثم تمهدت بعض أسباب دخول القصة فى طورها الثالث الفنى :
 باستقرار الحضارة والرفاهة ، ونضج الثقافة ورواج سوق الأدب وكان
 ذلك فى القرن الرابع ، فبدأت تنمو بذور القصة الفنية التى تدرس
 المجتمع وتحلل الشخصية وتهتم بالتصميم الفنى والفكرة الموحدة ، ويبدو
 كل ذلك فى مقامات بديع الزمان ، فهذا الكاتب يمثل فى العربية من هذه
 الوجهة مكان أديسون وسبيل فى الانجليزية ، وقد أبدى فى ثانيا مقاماته
 من نفاذ النظرة وبداعة الوصف وبراعة الفكاهة وتنوع الموضوعات ما هو
 جدير بأسمى أنواع القصص ، واخترع شخصية أبى الفتح الاسكندرى
 فكان على الأرجح المؤلف العربى الوحيد الذى اخترع شخصية شائعة
 واضحة من صنع الخيال المجرد . ولم تكن شخصيات المقامات التالية
 فيما بعد الا نسخا مكررة منه لا ابتكار فيها ، وشخصية أبى الفتح
 الاسكندرى تعين من مراحل تطور القصة العربية نفس المرحلة التى تعينها
 شخصية سير رودجر ديكفرى من تطور القصة الانجليزية .

فمقامات البديع فى الأدب العربى بمثابة مقولات أديسون وسبيل
 فى الأدب الانجليزى : تعين بدء ظهور القصة الفنية الاجتماعية التحليلية ،
 بيد أن تطور القصة العربية وقف عند هذا الحد لا يتخطاه . ولم يبلغ
 مرحلته التالية . لأن الأسباب اللازمة لذلك لم تكن مكتملة : فالمقامات
 ذاتها قد ظهرت متأخرة ، ظهرت فى أوج رقى الأدب العربى فى القرن
 الرابع . وكان أجدر أن تأتى متقدمة فى القرن الثانى مثلا ، فيليها باقى
 التطور المنشود الذى تلا مقولات أديسون وصاحبه فى الانجليزية ، وما ذاك
 الا لنزعة الجمود والتقليد التى كانت دائما مخيمة على الأدب العربى ،
 تمنع المغامرة الأدبية والابتكار والتنوع فى الأشكال والموضوعات ، وفقدت
 المقامات بعد بديع الزمان صبغتها الاجتماعية وأصبحت لعبا بالألفاظ
 والمعانى .

أضف الى نزعة الجمود تلك اسنمرار اعتماد الأدب على الأمراء دون
 جمهور الشعب ، قلما يصور رجاله مشاكل الشعب أو يحاولون الأخذ بيده
 وقيادة طريقه : فالحريرى مثلا حين تابع بديع الزمان وكتب مقاماته
 لم يكتبها بداع من داخل نفسه يدعو الى تناول مشاكل المجتمع ومطامع
 الشعب بالدرس والعرض والاصلاح والتوجيه ، بل امتثالا لشارة بعض
 الأمراء ممن « اشارته حكم ، وطاعته غنم » كما يقول هو فى مقدمته .
 ومحال أن ترقى القصة الاجتماعية فى مجتمع أدباؤه متنصلون من مشاكل
 شعبه لا يثرون بطل أمرائه .

زد على ذلك مكانة المرأة فى المجتمع ، التى كانت قد بلغت قبل أن
 يكتب البديع مقاماته حدا من التدهور بعيدا ، بعد ما كان من امتداد

الفتوح واختلاط الأجناس وتفشى التسرى والعبث • فضرب على المرأة
الحنجاب ، وخيم عليهما الجهل واعتزلت المجتمع ، والمجتمع بغير المرأة
لا يخرج القصة الفنية التي تدرس الحب وتقديس الزواج وتشرح العواطف،
وانما ينتج الشعر المستهتر البذيء كشعر بشار وأبى نواس • وقد كان
انهاض حال المرأة نصب عيني أديسون وستيل وغيرهما ممن تلاهما من
القصصيين كما كان الحب مدار أكثر القصص ، كما كان من النساء جم
غفير من القصصيات كما تقدم •

والى نزعة التقليد التي كانت تسود الأدب العربى ، كان ذلك الأدب
ينزع الى الصنعة اللفظية : فمقامات البديع ذاتها مثقلة بالصنعة والمحسنات،
ولا غرو ، فاذا كان الأدب قد تخلص الى حد بعيد عن مشاكل المجتمع ،
فام يبق له من مواد القول الا النزر اليسير ، فلما أعوزه الافتنان فى المعانى
التفت الى التلاعب باللفظ ، والى هذه الزر كشة اللفظية قصد الحريرى
أول ما قصد فى محاكاته للبديع ، ولم يفكر قط فى ابتكار جديد من جهة
المعانى والأفكار ولم يحاول الزيادة عليه من جهة تناول الموضوعات
الاجتماعية ، بل اكتفى بالتقليد الشكلى ، فجعل فى كل مقامة شخصين
يروى أحدهما عن الآخر ، وتنقسم المقامة بذلك الى قسمين : دهليز
للقصة كما يقول العامة ، والقصة ذاتها التي تبدأ بظهور البطل ، ولم تجىء
شخصية بطله فى وضوح شخصية أبى الفتح وتعدد نواحيها •

فحالة المجتمع العربى ، ونظام الحكم فيه ، ومنزع الأدب العربى ،
كل هاتيك لم تكن ملائمة لتطور القصص الى كماله ، فوقف عند بدء
الطور الثالث ، وهو الطور الفنى التصميم ، فعرف الأدب العربى النوادر
والأخبار والسير وما اليها ، وعرف الحكايات ذوات المغزى العلمى أو
الخلقى ، ولم يعرف القصة الاجتماعية والنفسية ذات التصميم المحكم
والشخصيات الواضحة ، والفكرة الموحدة والغاية المستقلة والموضع الفنى ،
ولم تسم القصة فى الأدب العربى الى منزلة عالية كالتى تمتع بها الشعر
والخطابة والنقد ، وظلت للشعر المكانة الأولى وبقي مستأثرا بأكثر ضروب
القول ، ولم يظهر فى القصة من الأعلام أمثال من ظهر فى الشعر
والنقد والخطابة ، وترك القصص الطول الحافل بالوصف الاجتماعى
والخيالى للعامة •

أثر المجتمع

فى الأدبين العربى والانجليزى

انما يقصد الأديب فيما ينشئ الى التعبير عن شعوره وأفكاره لأنه يحس حافزا يدفعه الى ذلك التعبير ، ويشعر براحة وغبطة اذا ما طأوع ذلك الحافز ، بيد أنه يتأثر فى كل ما يحس ويفكر ويكتب ببيئته الجغرافية ووسطه الاجتماعى وجيله الذى يحيا فيه ، لا ندحة له مهما بلغ من استقلال الشخصية والأصالة فى الابتكار عن التأثير بكل ذلك ، بل لا نغالى اذا قلنا ان عبقرية الأديب ليست الا مجموعة مؤلفه من تلك العوامل ، والأديب الذى يعتزل مجتمعه لا يتأثر به سائر أدبه الى الاضمحلال وان يكن سطحنيا ، وكلما كان الأدب حيا كانت صلته بمجتمعه شديدة التوثق ، وكان هو مرآة لذلك المجتمع واضحة ، وان لم يمنعه ذلك أن يزخر بآثار الفردية القوية والشخصيات المتميزة .

فالأديب يتأثر بالمجتمع تأثرا تلقائيا غير مقصود ولا محسوس أحيانا ، ثم هو يتأثر به تأثرا واعيا مقصودا ، وذلك حين يلجأ الأديب عمدا الى وصف ما يحيط به من أحوال المجتمع ، وما يحمد منها وما يذم ، ومن يعسادفهم ويخالطهم فى المجتمع من أفراد ذوى خلائق متباينة ، يلذ للأديب أحيانا عرض كل ذلك فى أدبه كما تعرض الصور والدمى فى المعارض والمتاحف ، ويغتنبط أى اغتباط بقدرته على تصوير ما رآه من تلك الحقائق والسلائق على ما هى عليه ، وقد يزيد فيجعلوها فى مجلى الفكاهة والسخرية ، أو يزيد فيندد بما يرى من مساوئ ويدعو الى الإصلاح ويوضح وسائله ، ويؤلف لنفسه مبادئ يرضاهها فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين وهلم جرا ، ولا يعود معبرا عن شعور الفرد فحسب ، بل يصبح قائد فكر بين الجماعة كذلك .

هكذا يصبح للأدب غرض اجتماعى اصلاحي ، ولا ريب فى أن غرض الأدب الأول هو غرض كل الفنون ، من التعبير الصحيح عن صادق الشعور بحقائق الحياة وجمالها ، فاذا ما ظهر بجانب ذلك غرض اجتماعى أصبح للأدب غرضان ، بيد أنهما لا يتنافران بل يأتلفان فى يد الأديب التقدير أحسن ائتلاف ، ويصوران الحياة أصدق تصوير وأجمله ، أما فى

يد الداعية المتحمس لدعوته الاجتماعية دون كبير احتفال بجمال الفن وروعة الأسلوب ، فيوشك أن يخرج الأثر المنشأ من عالم الأدب الى حيز العلم ، فيندرج تحت عنوان الاقتصاد أو التربية أو السياسة أو غير ذلك ، أما الأدب الصميم فلا غنى له عن الجمال والصبغة الفنية ، ووظيفته الكبرى فى بيان الشعور وما اتصل به من أفكار .

وتدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق بنيه لا شك مجال للأدب رحيب ، ومسرح لفن الأديب خصيب ، ومهما تغيرت أحوال المجتمعات على تتابع الأجيال ، فإن طباع الانسان المركبة فيه واحدة لا تتغير ، ومظاهره من كرم ولؤم ونبل وادعاء وغرور ونفاق ، وولع بالمظاهر وتفاخر بالنعمة المحدثه ، كل هاتيك أمور تتكرر ولا تتبدل ، وتبدو فى شتى الأشكال والأزياء وهى فى الصميم سواء ، ومن ثم نرى صوراً لها فى شتى آداب الأمم على تباعد عصورها ومنازلها : فالمسيو جوردان محدث النعمة الذى رسمه مولير متعشراً فى أذيال ثروته مكاثراً بها فى سذاجة ، هو أحد « النوابين » المحدثى النعمة الذين أولع بتصويرهم كتاب الدراما الانجليز فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهو هو ذلك المحدث النعمة الذى صدع رأس عيسى بن هشام فى المقامة المضيرية بتعداد محتويات بيته وأثمانها ومزاياها ، فالأديب الحاذق يفتن الى الخطوط الرئيسية فى الصورة الشخصية التى يرغب رسمها ، فاذا ما صورها لم تكن صورة فرد من الأفراد ، بل جاءت صورة ضرب من الناس فى شتى الأمم والعصور .

وقد ترك المجتمع آثاره الواضحة على تعاقب العصور فى الأدبين العربى والانجليزى ، واختلط أدباهما بتاريخيهما اختلاطاً شديداً ، ولا غرو فالأدب من بين الفنون أشدها بالحياة اليومية والأحوال الاجتماعية والأحداث السياسية ارتباطاً ، وتبينت فى ذينك الأدبين سمات الأجيال المتتابة ، وكثرت فيهما النظرات الاجتماعية كما كثرت التأملات الفردية ، وقام فيهما من الآثار ما قوامه تدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق أبنائه ، بجانب الآثار التى قوامها نظر الأديب فى ذات نفسه وبوجه بأشجانه واطرابه ، بيد أن الأدب الانجليزى كان أبعد فى تناول الشئون الاجتماعية مدى ، وكان أدباؤه أكثر شغلا بالدعوة الى الإصلاح ، وان لم يهملوا التعبير عن خوالجهم الفردية ، ولم يقصروا فى تصوير شخصياتهم المستقلة .

ترى طابع العصر الاليزابثى فى أدب شكسبير ومعاصريه ، فهو عهد فتوح ومغامرات ، فامتلت رواياته التمثيلية بذكر الشجعان والأسفار

والحماسة الوطنية وتاريخ إنجلترا ، وهو عصر لم تبدد الثقافة بعد أوهام
سواد أبنائه ، فمسرحياته تعج بذكر الشياطين والسحرة والأشباح
والعرافة والتطير ، ولم تكن نفوس أبناء ذلك العصر قد رقت ولا أذواقهم
قد صقلت ، ولذلك تكثر فى رواياته المذابح والمبارزات وسفك الدماء ،
وكان عهد تعصب دينى ، ومن ثم يستخر أدباؤه من أبناء النحل (١)
الأخرى كاليهود ، ولم يكن المحكم الدستورى قد توطد بعد ، وما تزال
للملك اليد الطولى والكلمة العليا فى السياسة الداخلية والخارجية ،
ومن ثم ينسج شكسبير لنفسه فى رواية هنرى الرابع وغيرها نظرية
سياسية قوامها الملكية المستبدة العادلة ، ويعدها أساس نظام الكون .

ونرى أثر عهد الإصلاح الدينى فى إنجلترا فى أدب عهد المطهرين :
اذ خفت صوت الأدب وغيره من الفنون التى لا يطمئن اليها عادة المتشددون
من المتدينين ، واتصف الأديبان الكبيران اللذان ظهرا اذ ذاك - ملتون
وبنيان - بالاهتمام بالشئون الدينية والتأثر بالكتاب المقدس موضوعا
وأسلوبا ، ونرى أثر عصر المجون الذى تلا ذلك فى مسرحياته المملوءة
بالسقاط ، حتى اذا ما أشرق العصر التالى وقد اطمأنت النظم الدستورية
وانتشرت الثقافة والثروة فى جمهور الشعب ، أوغل الأدب فى تناول
الشئون الاجتماعية ، ولم يقنع بالأشكال الموجودة أصلا ، فالتخذ لنفسه
شكلا أدبيا هو أليق لتصوير المجتمع ونقده وهو القصة ، وفى قصة
القرن الثامن عشر وفى شعره يتجلى ما كان يسود مجتمع ذلك العهد من
تأنق وتصنع ، وحرص على تعلم اللغات وممارسة بعض الفنون ، ويجرى
ذكر خروج الأرستقراط للصيد بخيولهم وكلابهم ، ويبدو مع ذلك ما كان
يتخلل المجتمع من نفاق ورذيلة وادمان للشراب وافراط فى الطعام وما كان
يعصف بالطرق العامة من عبث الأشقياء .

اتخذت القصة وسيلة لوصف المجتمع ، وقد أدت غرضها ذاك خبر
أداء ، وكيف لا تؤديه والقصة فى يد الأديب الحصيف ليست الا قطعة
من المجتمع الحى المتحرك منقولة على القرطاس ؟ قطعة من المجتمع طوع
بنان (٢) الأديب يؤلفها كيف شاء ويرسم بها من الأشخاص من شاء
ويبرز بها من الآراء ما يختار ، فلا غرو أن ازدادت القصة الاجتماعية رقيا
وذيوعا فى القرن التالى ، بازدياد المبادئ الديمقراطية انتشارا أعقب

(١) النحل : المذاهب والديانات .

(٢) بنان : أطراف الأصابع .

الثورة الفرنسية ، وانتشار التعليم العام ، وتعقبه مشاكل المجتمع بظهور الصناعة الكبيرة ، وانتشار المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة كالاشتراكية والشيوعية ، ونزاع الرأسماليين والعمال ، ونهضة المرأة ورقى علوم الاجتماع والنفس والتربية ، وخاض الأدباء غمار كل هاتيك الحركات والتيارات المتضاربة ، ونقلوا فى غضون قصصهم صور هاتيك المعارك الفكرية والأحوال المادية ، وفى قصص مريدث ودكنز وبنلر وهسكلى وبنيت من آثار كل ذلك ما لا يستقصى ، ومن تلك القصص تستخرج صور لتلك الحركات أوضح مما قد تعرضه التواريخ المنظمة .

وطمت هذه النزعة الاجتماعية الاصلاحية وهذه الصبغة العلمية التحليلية ، فى القصة المعاصرة ، فأقطب القصة والدراما المعاصرون أمثال شو وهاردى وولنر وجالزورذى ، كلهم متأثرون بالكشف العلمية الحديثة والنظريات الاقتصادية الجديدة ، والأحوال الاجتماعية الراهنة ، ولكل منهم مبادئه ودعواته حتى أصبح الأدباء يختلفون ويعتريكون ، لا على المذاهب الأدبية والآراء النقدية الفنية كما كان الشأن فيما مضى ، بل على المذاهب الفكرية والآراء السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى هذه المبادئ لا على مبادئ الفن والأدب ينقسمون شيعا ومدارس ، ويسرف بعض الكتاب كبرتراند رسل فى التعمس للدعوة الاجتماعية واطراح الأسلوب الأدبى ، حتى لتخرج بعض مؤلفاتهم من عداد كتب الأدب ، ولا تعد الا فى كتب العلم ان كانت لها قيمة هناك .

كان الشعر العربى فى الجاهلية حقا ديوان العرب كما دعوه : كانوا يقولونه فى شرح أحوالهم الفردية ، من حب وذكر للديار ومناجاة للمعطايا ، وفى شرح أمورهم الاجتماعية ، من التمدح بالقوى والتفاخر بالبلاء فى الحرب والتواعد بالثأر وإباء الضيم (١) ، يرسلون كل ذلك على السجية فيجىء رائعا بصدقته معجبا برجولته ، ويصوغونه فيما اتفق من لفظ وعر وأسلوب شديد ، فظل شعر ذلك العصر ممثلا صادقا له رغم عبث العابثين به ، بل لعله كان أهم مصادر تاريخ ذلك العهد حين دون تاريخه ، فقد ظل المؤرخون يذكرون ما يذكرون من حوادث وحقائق ويتبعونها أبيات الشعر مستشهدين .

وظهر أثر عهد الاستقرار والثروة والنجاح فى ظل الأمويين فى غزليات ابن أبى ربيعة وجميل وأضرابهما ، ومفاخر جرير والفرزدق وأشبياعهما ، ثم ظهر أثر الافراط فى تلك الثروة والفراغ والاسراف فى اجتناء لذات الحضارة ، فى شعر بشار وأبى نواس وأمثالهما ، ثم كان

(١) الضيم : الظلم والاذلال .

العهد التالي بدء التدهور والانحطاط المادى والخلقى : فهوت مكانة المرأة الى حضيض من القهر والازدراء والجهالة ، وفشت الرشوة والمحابة والمصادرة بين الحكام ، وكثر الفقر من جراء ذلك وادعاء الفقر والتسول والاحتياى باسم الدين والطب والادب والعلم ، وذاع الفساد وفاحش القول ومبتذل التندر ويبدو أثر كل هذا فى تنديد المعرى بالمرأة وسخر غيره من القراء منها ، وتلك الاقاصيص التى افتن الجاحظ والأصفهاني وابن دريد فى جمعها وتأليفها ، عن عبث النساء وغدرهن وخيانة الزوجات ووجوب تشديد الحجاب عليهن ، فكان ابن دريد مثلاً يخترع الحكايات يفسر بها الأمثال السائرة فيتخذ ذلك الضرب من حديث النساء مادة لها . وبدأ أثر تلك الحال السالف شرحها أيضا فى مقامات بديع الزمان والحريرى ، حيث لا يزال بطل المقامات يتنقل من تسول الى احتياى الى خديعة ، ولا يزال الحارث ابن همام يؤكد حرصه فى أسفاره اذا ما هبط بلدا أن يتعرف الى واليه أو قاضيه أو بعض ذوى الكلمة فيه ، يتقى بمعرفته ظلم الغاشمين والمرتشين من عمال الحكومة ، ويتحاشى غوائل الارهاق والمصادرة والسجن . ويقف كاتب المقامات المذكورة صفحات ملويلة على استعراض ضروب الشتم والبناء يتقاذفها أشخاص الاقصوية . ويقول ابن الرومى واصفا حال الموظفين والتجار وأضرابهم :

أترانى دون الالى بلغوا الآ مال من شرطة ومن كتاب ؟
أصبحو ذاهلين عن شجن النا س وان كان حبلهم ذا اضطراب
وتجار مثل البهائم فازوا بالمنى فى النفوس والأحباب
هذه لمحة خاطفة الى آثار أحوال المجتمع المتعاقبة فى الأدب العربى ، اذ كان من المحال تقصى تلك الآثار الاجتماعية التى تنعكس فى الأدب ، مادته وأشكاله ومذاهبه وألفاظه ، وما يزال الناظر فى مخلفات الشعراء والكتاب يطلع من آثار مجتمعهم على جديد . وفى نواذر أبى نواس وفكاهات الجاحظ وحكايات الأصبهاني دلائل متفرقة على شتى نواحي الحياة الاجتماعية فى عصرهم . واذا قرأنا فى مقامات البديع مثلاً أن أبا الفتح اصطنع فيما اصطنع من حيل لاقتناص الدراهم والدنانير حرفة القراءة ، فرآه عيسى بن هشام مرة وسط جمع من الغوغاء يضحكهم بالأعيب قرده ، علمنا أن تلك الحرفة التى ما تزال مشاهدة فى بعض البلدان حتى عصرنا هذا بعد انتشار حدائق الحيوان ، كانت تمارس منذ تلك العهود . وكذلك نعلم أن أبناء السند وفدوا فيمن وفدوا من أبناء الشعوب الى مقر الخلافة

يبتغون الرزق تارة بالصيرفة (١) اذ يقول الجاحظ انه لا يكاد يوجد ذو
تجارة رابحة الا وصاحب كيسه سندي ، وتارة باضحاك العامة - شأن
أبي الفتح الاسكندري - بالأعيب الفيل ، وذلك اذ يقول دعبل :

هذا السندي لا فضل ولا حسب يكلم الفيل تصعيدا وتصويبا

كل هذه الآثار الاجتماعية ما جل منها وما ضؤل ، واضحة في الأدب
العربي شعره ونثره ، بيد أن أغلبها قد جاء في الأدب عفوا أو عرضا ،
ولم يقصد لذاته ، ولم تنظم القصيدة أو لم يصنف الكتاب عمدا لوصفه
وبيانه ، بله نقده واصلاحه ، فأكثر أدباء العربية بعد الاسلام وبعد
استتباب الملك كانوا عن مجتمعهم في شغل ، قد يرون من أموره
ما لا يرضيهم ، وقد تكون لهم آراء في السياسة ومذاهب في الدين
لا ترضى أصحاب السلطان ، ولكنهم كانوا في أغلب الأحوال يكتمون
مثل تلك الآراء والنظريات ، وكيف يبوحدون بنقدااتهم وهم بين رجاء
لنوال السلطان واشغاق من غضبه ؟ ان النقد الصريح الحر والنظر
الاجتماعي الصادق لا يترعرعان بين ذهب المعز وسيفه ، انما كان يجهر
الأدباء بالنقد والمعارضة في الجاهلية وصدر من الاسلام ، وهما عهد الحرية
واستقلال الفرد ، فلما توطدت الملكية المطلقة خفتت أصوات الأدباء
وقطعت السننتهم . وكان شعراء الخوارج الكثيرون الذين أطاح الأمويون
رؤوسهم عبرة لسواهم من الشعراء وقد مدح سوييف الشاعر بعض
العلويين الثائرين فوأده المنصور ، وثار المتنبي في صباه يبتغي اصلاح
الأحوال المتفاقمة فزج في السجن .

فالملكية المطلقة قد فرضت على الشعب ألا يراجعها في أمر ، وانقلبت
بالأمة العربية بذلك من النقيض الى النقيض . كان العرب في جاهليتهم
مسرفين في الاستقلال والفردية ، فصاروا في ظل الملكية مسرفين في
الخضوع والاستسلام ، وفرضت تلك الملكية على الأدباء أن يعيشوا عالة
عليها وعلى المجتمع ، لا يشاركون الشعب آماله وأعماله ، ولا يقودون
أفكاره وحركاته ، فلم يكن المجال متسعا أمام الأديب العربي ، كما كان
متسعا أمام الأديب الانجليزى ، لوصف المجتمع ونقد أحواله والدعوة الى
اصلاحه . فان هو فعل عرض نفسه للتهلكة ولم يفد المجتمع فتيلا .
انما يؤمل الأديب الانجليزى أن يفيد مجتمعه بآرائه ، لأنه يخاطب بآثاره
الأدبية الراى العام في بلاده ، الذى هو فوق الحكومة يملى عليها ارادته ،

(١) بالصيرفة : مهنة الصراف .

أما فى ظل الملكية المطلقة فى الدولة الإسلامية ، فلم يك هناك رأى عام ، وكان رأى الحكومة الأعلى •

لذلك عاش أدباء العربية طالبى فضل ، يمدحون الأمير ويعيشون من عطايه ، وهى السبيل التى ألقى إليها المتنبى بعد محنة سجنه ، وعاش بها حياته على مضض باكيا مما هو به محسود ، واستوزروا للأمراء وكتبوا وعملوا لهم ، وطلبوا بذلك النجاح الشخصى لأنفسهم لا النفع الشامل لمجتمعهم • أما أدباء الانجليزية فقل منهم من عاش فى ركاب الملوك ومن فضلهم على هذا النحو ، وكان أكثرهم اما مشرين غانين عن العمل لكسب القوت متوفرين على فنهم وحده ، واما مساهمين فى الحياة العملية بجانب الحياة الفنية ، فكان منهم من ضربوا بسهم فى السياسة والدين والحرب والكشف الجغرافى وكبار وظائف الدولة ، ومن أولئك فيليب سيدنى وبيكون ورالى وملتون وبنيان وأديسون وبيرون ، وكان أكثرهم فى صف الشعب وجانب الحرية •

بل كان من أدباء الانجليز من عاف الاجتماع الانسانى قاطبة ، ونقم على أنظمة الملكية والكنيسة ، وكره التقاليد والأعراف السائدة ، وحاول انشاء مجتمع جديد تسوده البساطة والمساواة ومن هؤلاء شعراء عهد الثورة الفرنسية ، فالكتاب الفرنسيون الذين مهدوا لتلك الثورة أمثال فولتير وروسو اكتفوا بالعمل النظري وتركوا التنفيذ لغيرهم ، أما معاصروهم ومن جاءوا بعدهم من أدباء الانجليز ، فحاول بعضهم تنفيذ مبادئهم بأنفسهم ، ولهذا الغرض انتقل بركى الى أمريكا وشلى الى أيرلندة ، يريد كل منهما انشاء مدينته الفاضلة ، وان كانا قد منيا بالفشل لضخامة المشروع، وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لماداتها بمبادئها المعروفة حتى نقم على دولته اعلانها الحرب على فرنسا الثائرة ، وكاد ينتظم فى أحد أحزاب الثورة ، ويركب تيارها الخطر ، واستشهد بيرون فى حرب استقلال اليونان •

ولقد أبدى بعض أدباء العربية فى عهد نضج الحضارة والثقافة والأدب شغفا بتتبع أحوال الناس ومعايشهم وعاداتهم وأخلاقهم وظهر ذلك فى كتب الجاحظ ، على أنه كان يروى الأشياء على علاتها ويخلطها بفكاهاته ، وفى مقامات البديع ، ولم يكن أيضا يزيد على التصوير المجرد ، فاذا ما صرح بسخطه على بعض الأحوال والأحكام والأنظمة ، فتصريحا سريعا فيه تسليم واقتناع بعدم جدوى محاولة الإصلاح وعدم امكان أحسن مما كان • وظهر ذلك الميل أيضا فى شعر ابن الرومى ، الذى صور كثيرا

من الشخصيات الفكاهية ، على أنه كان يتناولها من ناحيته الفردية وينحى عادة على أعدائه الشخصيين ، وظهر نفس ذلك الميل الى تتبع أحوال المجتمع فى شعر المعرى خاصة ، وذلك من الأبواب التى تفرد بها أو كاد بين أدباء العربية ، وسبق فى التصريح بها عصره ، وله فى ذلك أبيات رائعة ليست الا خلاصة موجزة لبعض مذاهب السياسة والاقتصاد فى العصور الحديثة ، ومن ذلك اعتباره الحكام خدام الرعية ، ونقمتة على عدم تساوى توزيع الثروة ، وذلك قوله من لزومياته :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا حقها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقوله :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتة فقير معرى أو أمير متوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتا واحد وهو أحوج

على أن الشعر ليس بأصلح المجالات للنقد الاجتماعى والاصلاح الشعبى ، وانما مجال ذلك النشر الذى هو أكثر شيوعا وأقرب الى تناول القارئ ، والذى هو أرحب صدرا بالشرح والتفصيل والاسهاب ، والمقالة والقصة فرسا رهان هذا المضمار ، ولكن النشر العربى لم ينهض بهذا العبء ، ولم يزد أن خطأ الخطوة الأولى فى هذا السبيل فى كتابات الجاحظ ومقامات البديع ، وقد جاءت هذه الخطوة متأخرة . ولما جاء الجيل التالى لم تتبعها خطوة أخرى بل أعقبها تقهقر الى الوراء ، فلم تتطور المقامة الى قصة فنية اجتماعية تدرس المجتمع وتقوده فى سبيل الاصلاح ، بل تحولت فى يد الحريرى وغيره الى معارض للألفاظ المزركشة والألغاز المعماة والهيل الملفة ، فقد كانت الأمة فى طريقها الى الانحلال ، والأذهان فى انحسارها الى الخمود ، والحكام يزدادون على مرافق الأمة وطأة ، والأدب يتقلص رويدا رويدا ، ويهجر لباب الحياة الى قشور الألفاظ .

فالأدبان العربى والانجليزى قد تأثرا فى مختلف العصور تأثرا كبيرا بأحوال مجتمعيهما ، وهو أمر لم يكن منه بد ، بيد أن الأدب الانجليزى كان أكثر بالمجتمع تأثرا وأكثر فيه تأثيرا ، وأشد تشابكا وتفاعلا معه ، لما أحاط به من ظروف مساعدة ، مرجعها سيادة الحكم الديمقراطى وانتشار حرية القول والعمل وقوة الرأى العام ، أما الأدب العربى فلبلوغه أوج ازدهاره فى ظل الملكية المطلقة ، قد كاد يقتصر تأثيره بالمجتمع وتأثيره

فيه على ما جاء عرضا غير مقصود ، وما تم بحكم الظروف وطلبات الأشياء ،
وكان تناول أدبائه لشؤون مجتمعهم رفيقا محدودا ، وفيما عدا ذلك كان
كل منهم عاكفا على وصف خطرانه وأشجانه وصبراته ، مولعا بدم أعدائه
ومساجلة صحابته ، الى غير ذلك من الشؤون الفردية •

الوصف

فى الأدبين العربى والانجليزى

الوصف من صميم الفن وللباسب الأدب وأدل ضروب القول على صدق الشعور وذكاء القلب ، اذ أن روائع المشاهدات وطرائف المحسوسات وجديد المراثيات من أشد الأمور تأثيرا فى نفس الأديب ، واستجاشة (١) له الى التأمل ، ودفعها له الى القول ، وليس خير الوصف ما أحاط بكل حقائق الموصوف وأحصى كل دقائق أجزائه ، كما تحصى الصورة الشمسية كل صغيرة وكبيرة من الشيء المصور ، وانما خير الوصف ما أظهر المهم الرائع من أجزاء تلك الصورة ، وأبان عن أثرها فى النفس ، وما تبعثه فيها من ذكريات وأطراف وأشجان وأطراب ، وارتجال الأديب من صقع الى آخر ، ومن بلد الى سواه من دواعى لجوئه الى الوصف ، يعرض فيه ما يتوالى على عينيه وحواسه من آثار ومظاهر ، ومن ثم كانت الرحلة من أهم الأحداث فى حياة الأديب بل من أهم مكونات شخصيته .

والوصف من أشد آثار الأدب امتاعا للنفس واستدعاء لانتباهها وإرضاء لغرائزها : اذ هو يرضى من الانسان غريزة التقليد والحكاية لشتى المراثيات والمحسوسات ، ويروى منه الميل الى احساس صدى عواطفه لدى الآخرين ، فهو يستريح الى الأديب الذى يصف من المشاهدات ويروى ما قد يكون القارىء مر به فى مختلف أطوار حياته . والوصف أيضا يحرك الخيال ويمتعه ويفسح له مجال العمل ، ويبعد به وراء حدود الحياة اليومية الحاضرة . ومن ثم نرى البيت أو البيتين يعرضان فى القصيدة الطويلة مشتملين على وصف رائع لمنظر أو حادث أو احساس ، فيكونان غرة القصيدة وأحب أبياتها الى النفوس .

ولما كان الوصف ضربا من القول فنيا صميما ، وكان يحتاج لتجويده الى اطالة النظم وطول التقصى ورياضة الكلام ، وكانت موضوعاته أكثر من أن تعد وأوسع من أن تغنى كان الوصف يبلغ أوج ازدهاره حين يبلغ

(١) استجاشة : جاشت نفسه - جاشا : اضطربت من حزن أو فزع .

الأدب طوره الفنى ، باستقرار الأمة وتحضر مجتمعتها وذيوع الثقافة بين أبنائها ، واستعمال الكتابة الخطية وتوفير الفراغ للتروى والمعالجة والمعاودة للمنشآت الأدبية فالوصف من أهم أبواب القول التى تتسع وتترقى فى طور الأدب الفنى ذاك . ومصداق ذلك واضح فى الأدب اليونانى قبل ازدهار الحضارة وبعده : ففى أشعار هوميروس لا يأتى الوصف الا عرضا ولا يوصف من الأشياء الا ما دعت اليه الضرورة ، وأكثر الاهتمام مصروف الى القصص ، فلما جاء شعراء الدراما واستغلوا نفس موضوعات هوميروس أحيانا ، وشوها ببديع الأوصاف الفنية المقصودة لذاتها .

وفى الشعر العربى الجاهلى شذرات من الوصف رائعة ، اذ كان ذلك الشعر بلغ من الفنية حدا لا بأس به ، وكان لبعض الشعراء الملم بالموضوعات يبدوون فيه ما عرف به العربى من توفد القريحة ونفاذ البديهة وبلاغة الإيجاز ، ولهم أوصاف حسنة لبعض أنواع الحيوان ولا سيما الجياد والابل والظباء ، وللمواقع والأطلال والأنواء ، وفى المعلقة نماذج لكل ذلك ممتعة ، حيث يصف كل من عنتره وامرئ القيس جواده ويصف لبيد ناقته ، ويصفون جميعا أطلال ديار أحببتهم .

ومن أجود أوصاف الحرب فى الشعر الجاهلى قول القائل :

صريف أنيابها صوت الحديد اذا	قض الحديد بها أبنائها الوقر
فى جوها البيض والمادى مختلط	والجرد والمرد والخطية السمر
جاءت بكل كمى معلّم ذكر	فى كفه ذكر يسعى به ذكر
لهم سراويل من ماء الحديد ومن	نضح الدماء سراويل لهم آخر
مضاعفات عليهم يوم بأسهم	لونان جون وأخرى فوقهم حمر

وبانتشار الحضارة وذيوع الثقافة اتسع باب الوصف فى العربية أعظم اتساع ، ووصف الشعراء مظاهر العمران والترف وقصور الملوك ومواكبهم وحدائقهم وجيوشهم وسفائنهم ، ووصفوا الخمر ومجالس الشراب والطرب ، ووصفوا الجوارى والغلمان ، ووصفوا الصيد والسباق ، وأولع الجاحظ وبديع الزمان بوصف الأحوال الاجتماعية ، فصوروا مناظر فى الحمام وفى السوق ومواقف التخاصم والتقاضى ، وأجريا الحوار بين شتى الأشخاص عاليهم وسافلهم . واشتهر أبو نواس بوصف الخمر ، والبحتري بوصف القصور ، والمتنبى بوصف الحروب ، وابن الرومى بوصف الفواكه والمأكّل وتصوير الشخصيات الهزلية .

ولما تغلبت الصناعة وطلبت البراعة اللفظية والنكتة المعنوية والتأنق والتطرف ، انعدم الحس أو كاد فى الوصف ، وتعلق الأدباء بوصف توافه الأشياء أو الاسطرلاب أو القلم أو الكأس ، أو ما شابه ذلك مما هو فى غنى عن الوصف ، وما وصفه الا تحصيل حاصل واضاعة وقت ، فان الأصل فى الوصف الفنى كما تقدم أن يكون له باعث من شعور صميم ، لا أن يكون الغرض منه حكاية تفاصيل باردة فاترة • وقد أولع بذلك الضرب من الوصف النظرى ابن المعتز وابن خفاجة وكشاجم ، فلما أوغل الأدب فى التصنع وجانب الأدباء كل ذوق وكل معقول فى العمل والاعراب ، انقلب الوصف فى أيدي أكثرهم الغازا ، فألغزوا فى أنواع المأكول والأشياء والآلات ، وبأمثلة هذا الضرب من الأحاجى السقيمة تمتلئ مقامات الحريرى وأشعار ابن نباتة المصرى وأضرابه •

والأدب الانجليزى حافل منظومه ومنثوره بمحاسن الأوصاف ، بيد أن باب الوصف فيه مخالف للوصف فى الأدب العربى من وجوه شتى : فهما مختلفان فى الموضوعات التى اتخذها كل منهما مادة وأدمن طروقها ، فقد تناول الأدب العربى - كما تقدم - وصف أنواع من الحيوان ، ووصف مظاهر اللهو والرفاهية ، وتناول بعد ذلك قليلا من وصف الطبيعة والمجتمع ، أما الأدب الانجليزى فهو أحفل بوصف هذين الأخيرين منه بوصف أى شئ آخر ، فالطبيعة كانت قبلة أكبر شعرائه وكتابه وشغلهم الشاغل ، ووصفها كان دأبهم أيا طرقوا من موضوعات القول ، فامتلا الأدب الانجليزى بكنوز من أوصاف الطبيعة ، تكاثرت ما قيل فى أى باب آخر من أبواب الشعر والنثر ، فالوصف الطبيعى مادة جانب عظيم من الشعر الانجليزى ، كما أن الوصف الاجتماعى مادة جانب عظيم من القصص والدرامات •

وفى الأدب الانجليزى ضرب آخر من الوصف يستأثر به دون الأدب العربى ، على أنه من صميم الفن وأعلق نواحيه بالانسانية الشاملة والشعور العميق ، ذلك هو وصف آثار الأقدمين من عمائر وحصون وتماثيل وصور وأبناء وعظائم ، وفى ذلك كله منادح للخيال ومجال للابتداع ومذاهب للفكر ، وتأملات فى أحوال الانسان وتقلب العصور والأحداث ، وتعظيم لقدرة الانسان وتقدير للفنون ، وكل ذلك يكاد يكون معدوما فى الأدب العربى ، والمثل الرائع الفريد فى هذا الباب هو سينية البحترى الشى لو كثرت مثيلاتها فى الأدب العربى لكان أرفع قدرا ، وكان أعلامه أسير فى العالمين ذكرا •

ولم يقتصر أدباء الانجليزية على آثار التاريخ يستوحونها ما فيها من منادح الوصف الشائق والتصوير المجسم ، بل عمدوا الى الخرافة ولعلها أحفل بذلك من التاريخ ، اذ كانت أحفل منه بآثار الخيال وأحلام الانسانية ومثلها العليا فى القوة والجمال والسعادة ، فاتخذ الشعراء والقصاصون تلك الخرافات مادة وهيكلًا لمنشآتهم ، ورصعوها بما شاءت لهم براعتهم من أوصاف ووجدوا فى أشعار هوميروس وفرجيل وقصص العصور الوسطى وأساطير الشرق والغرب مجالاً لفنهم ، فأعادوا سرد ما راعهم من حوادثها ومواقفها سرداً فنياً مسهب الوصف مشبعاً بجميل المناظر والعواطف .

وكما يختلف الوصف فى الانجليزية عنه فى العربية فى الموضوع اختلافاً كبيراً ، يخالفه فى الوسيلة مخالفة معدودة ، ففي العربية أوصاف بالغة من الكمال والامتناع ، بيد أنها جميعها تعتمد على المعنى دون اللفظ ، وعلى التشبيهات والمجازات ، وتحتوى على كأن أو كاف التشبيهية ظاهرة أو مستترة ، أما فى الانجليزية فيستعين الشعراء بجانب هاتيك جميعاً بوسيلة أخرى ، ليست أقل أداء للغرض وتصويراً للمنظر واشباعاً للخيال والحواس ، تلك هى الملاءمة بين صيوت اللفظ وبين المعنى المصوغ فيه .

وهذه الطريقة التى ياجأ اليها الانسان عمداً وعن وعى فى طور الأدب الفنى ، قد لجأ اليها فى عهوده البدائية ، أيام كان يصوغ ألفاظ لغته ويطلق كلا منها على كائن من الكائنات ، أو صوت من الأصوات ، أو عمل من الأعمال ، أو غير ذلك . فألفاظ الرشاش والشواظ والسلسبيل والسكون وغيرها ، تدل بنطقها على مدلولها لأن الأقدمين انما اشتقوها من هيئة مدلولاتها ، فعلوا ذلك عفواً وبداهة ، حتى اذا ما بلغ الأدب الطور الفنى واستعان الشعراء والكتاب بالتدوين وأطالوا التجويد لما ينشئون استرعت الألفاظ انتباههم بعد أن كان جل اهتمامهم موجهاً الى المعانى ، وعند هذا الحد من التطور افترق الأدبان العربى والانجليزى فى طريقة استخدام الألفاظ . فأما الأدب العربى فجعل اللفظ غاية فى ذاته ، وجعل التألق فيه مطمحاً مستقلاً ، وأما الأدب الانجليزى فعالج اللفظ وراضه وتأنق فى صياغته ، ولكن لا على أنه غاية فى نفسه ، بل على أنه وسيلة للمعنى لا أكثر .

فان كان المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد ، استخدم الشاعر الانجليزى بحراً من بحور الشعر يلائم تلك الحركة ،

وإذا كان به صوت أو أصوات مختلطة كهدير الأمواج أو قصف المدافع ، اختار من الألفاظ تلك التى تحتوى على حروف خشنة قوية ، وإذا كان يصنف منظرا ساكنا وادعا لم يذكر ذلك فى القصيدة ذكرا ، وإنما استعمل الألفاظ ذات الحروف اللينة كالسين مثلا ، وهناك عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاءمة بين الصيغة والمعنى يفتن فيها الشاعر الوصاف ما شاء له فنه ، ككثرة العطف أو القطع ، وتكرار الحروف أو الكلمات أو التراكيب أو الشطور أو الأبيات الكاملة • وقد اشتهر بالتفنن فى هذا التصوير اللفظي تينسون وسبنسر وملتون ، بل سائر أقطاب الشعر الانجليزى ، بل جاراهم فى ذلك بعض الكتاب مثل ستيفنسون •

وقد وقع شيء من ذلك فى بعض أشعار الوصف فى العربية ، ولكنه كان الهاما مجضيا أو اتفاقا عارضا ساقط الشاعر اليه الصدفة السعيدة أو السليقة المجيدة ، دون أن يتعمده عن وعى أو يتكلف فيه عناء كالذى تكلفه فى استخراج ما به من تشبيه ومجاز • ويتجلى الفرق بين الأدبين فى هذا الصدد فى علم البديع فيهما : فالبديع فى العربية يشمل الجنس والسجع وهلم جرا ، وهى محسنات للفظ مستقلا بنفسه وليست لها علاقة بالمعنى ، أما علم البديع (١) فى الانجليزية فيشمل الملاءمة بين جرس الألفاظ وبين المعانى التى تؤدبها ، ويشمل تشابه الحروف الأولى فى جميع ألفاظ الجملة الواحدة لأداء المعنى بطريق الجرس أيضا ، وغير ذلك من حيل بلاغية ليست لها مصطلحات تترجم إليها فى العربية ، لأنها لم تكن من مألوف أدبائها •

واللغة العربية بغزارة مادتها وتلاطم عباها وتعدد أوزانها وقوافيها ، وجمعها بين وعى الألفاظ ولينها ، ودقيق الأوصاف وجليها ، وما لها من مرونة فى التراكيب ورحب فى الأساليب ومطاوعة لفن الأديب ، هى خير معوان له على إبراز شتى الصور من جرس الحروف وتتابع الألفاظ وتجاوز التراكيب ، وتدفع الأوزان ورنين القوافى • انظر الى الوزن كيف ساعد على إبراز المعنى فى قول بشار فى صوت مغنية :

تميت به أرواحنا وقلوبنا مرارا وتحيين بعد هجود

(١) ليس لى اللغات كلها أوسع ولا أدق من علم البديع فى اللغة العربية • والمحسنات المعنوية فيه ثلاثة أرباعه • والنوع الذى يصفه الكاتب الفاضل فى الانجليزية يشبهه (ائتلاف اللفظ والمعنى) فى العربية - (الرسالة) •

وقول ابن المعتز في خيل السباق :

خرجن وبعضهن قريب بعض سوى فوت العذار أو العنان
تري ذا السبق والمسبوق منها كما بسطت أناملها اليدان

ساعدت السليقة المواتية أو الجهد الموفق بشارا ، فجاء بيته ذاك
ببحره الطويل وحروف اللين المتتالية الوثيدة الحركة في « تميت »
و « أرواحنا » و « قلوبنا » و « مرارا » و « تحييهن » و « هجود » أصدق
مصور لصوت المغنية اذا هي مددته وخالفت بين المدات فيه والقصرات ،
ويبدو ذلك جليا اذا قرئ البيت على مهل . كذلك حالف التوفيق ابن
المعتز فاختر لبنيته البحر الوافر المتدفق تدفق الخيل في مجالها ،
وحالفه التوفيق مرة أخرى فذكر العذار والعنان ، فضلا عن أن تتابع
هذين اللفظين مما يزيد الحركة جلاء فان ذكرهما مما يزيد الصورة
تجسما ، فان ذكر جزء من الصورة دون بقية الأجزاء كثيرا ما يزيد الصورة
وضوحا ، ويبعث من تلقاء نفسه باقي الأجزاء الى الخيال . ولذلك مثال
آخر في قول جميل :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو مسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

فذكر الأعناق هنا بلاغة فائقة ، فهو يستتبع الى المخيلة منظر الابل
والأباطح والركب ، ويرسم حركة المطى معا . ومما يزيد الحركة تصويرا
أيضا اختيار الشاعر البحر الطويل البطيء النغم . وهناك وسائل أخرى
لتجسيم الحركة البطيئة ، منها كثرة العطف ففيها دلالة على التطاول
والتواني ، ومنها كثرة الألفاظ القصيرة فانها تستغرق نفس القارئ حتى
يكاد يلهث بعد قراءتها ، ومن ثم يشعر بالبطء في المعنى تبعا للبطء في
اللفظ . ومثال الوسيلة الأولى قول امرئ القيس في تطاول الليل :

فقلت له لما تمطى بصسلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

ومثال الثانية قول المتنبي :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم.

فقد احتوى بيت امرئ القيس على ثلاث جمل معطوفة ، واحتوت
السطرة الأولى من بيت المتنبي على خمس كلمات كلها قصيرة ، اذا قراها

القارىء مترويا جاءت بطيئة مشعرة ببطء الجيش أو موحية بضخامته ، فلم يذكر المتنبي صراحة ومباشرة أن الجيش كان ضخما ، فيعتمد على المعنى وحده فى إعطائنا الصورة ، بل أوحى إلينا بمعنى الفخامة بوساطة كلمات الشرق والغرب والزحف ، ولا علاقة لهذه الكلمات فى غير هذا البيت بالضخامة قط ، وبذلك استخدم المتنبي اللفظ ونطقه لأداء المعنى وهى هى الوسيلة التى استغلها أدباء الانجليزية قصدا وعمدا أكبر استغلال وأبدعه . أما الحركة السريعة فيؤديها البحر الكامل المتدفع ، وهو لذلك خير ما يصور فيه عدو الجياد ، كما فى قول المتنبي :

أقبلت تبسم والجياد عوابس يخبىن بالخلق المضاعف والقنا

وقول ابن هانئ الأندلسى :

وفوارس لا الهضب يوم مغارها هضب ولا الوعر الحزون حزون

ففى هذين البيتين تصوير رائع لعدو الخيل . وقد ساعد التوفيق الشعارين فى الفاظهما بجانب الوزن الذى اختاراه ، فتكرار حرف الباء فى بيت أبى الطيب مما يزيد وقع حوافر الخيل فى بيته جلبة ووضوحا ، وتكرار كلمتى الهضب والحزون فى بيت ابن هانئ يوحى الى المخيلة تتابع الهضاب والروابي أثناء عدو الفوارس ، حتى يكاد يتخيل الانسان سيقان الخيل وهى تنهب تلك الحزون وتقفز من ربوة الى ربوة . ويكاد البيت يعرض أمامك شريطا سينمائيا متحركا ، ومتى بلغ الشاعر هذا المدى من دقة التصوير وروعته ، فقد أوفى على الغاية من الفن والشاعرية ، كذلك نرى الوزن واللفظ قد اصطلحا على إبراز المعانى فى قول مسلم بن الوليد فى مفازة :

تمشى الرياح بها حيرى مولهة حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

وقول ابن حمديس :

وراقصة لقطت رجلها حساب يد نقرت طارها

وقول المتنبي :

فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

ففى بيت مسلم تكاد تحس الرياح المحرقة تافح وجوهنا ونتمثلها
تضرب جوانب الصخور ، وفى بيت الصقلي تتمثل حركة الراقصة السريعة
الخاطفة ، وفى البيت الثالث تتمثل المتنبي على ظهر ناقته وهى تخالف
بين أظلالها (١) ممعنة فى الذهاب ، لما يمتاز به بحر المنسرح من اضطراب
الحركة واندفاعها ، على حين يمتاز بحر الخفيف بالتؤدة ورنه الحزن ،
مما يجعله أليق البحور بالمراثى والوجدانيات ، وهو من أهم أسباب
سيماء الوقار والشجن التى تتسم بها دالية المعرى المشهورة التى
مطلعها :

غير مجد فى ملتي واعتقادی نوح باك ولا ترنم شاد

وصفوة القول أن الأدبين العربى والانجليزى قد احتويا على بدائع
من الوصف ، هى غذاء اللب ومتاع الخيال ، بيد أن آثارها فى الأدب
الانجليزى أغزر ، ونواحيها أكثر تعددا ، ونصيب الطبيعة منها أوفر ،
ووسائلها أكثر عددا واختلافا ، وأدباء الانجليزية كانوا أكثر بصرا بها
وأطول رياضة لها ، وكان نجاحهم فيها راجعا الى المجهود المتبصر الواعى ،
بجانب الطبع الصادق المواتى ، على حين كان نجاح أدباء العربية الذى مرت
بعض أمثلته راجعا فى أكثر الأحيان الى عفو الخاطر وهداية البديهة ، وما ذاك
الا لأن أدباء الانجليزية كانوا أكثر عكوفاً على فنهم ، وتفرغاً لأدبهم ،
على حين كان أدباء العربية يولون الأمراء وذوى الهبات من اهتمامهم
وتفرغهم ما كان فنهم به أحق ، وشاعريتهم به أولى .

(١) أظلالها : الظل هو الظفر المشقوق للبقرة والشاة والظبي ونحوها والجمع
(أظلال) .

الخيال

فى الأدبين العربى والانجليزى

الخيال ، أو القدرة على انتزاع شتى الصور الذهنية من الواقع واستحضارها والتصرف فيها ، من المواهب التى يمتاز بها الانسان على سائر الأحياء ، ويمتاز بها النابغة على سائر الناس . رقى العلم رهين برقيه ، واتساع الأدب متصل باتساعه ، وهو بين الجماعات الأولى مصدر تلك الأساطير والأوهام التى تسود بينهم ، كما أنه مصدر ما تغص به اللغات من مجازات وتشبيهات ، بها تتسع جوانب اللغة وجوانب التفكير معا أيما اتساع ، ولولا الخيال لالتزم الفكر الانسانى الواقع المشحور أى التزام .

والخيال قوام جانب عظيم من الأدب ، ان لم يكن قوام الجانب الأرقى فيه ، ان لم يكن قوام الأدب جميعا : فالمجازات والتشبيهات يتأتى للأديب أن يصور شعوره ويبرز تفكيره ، اذ يمثل لنضرة الخد بنضرة الورد ، ولطلعة البطل بهيبة الأسد ولجيشان المعركة بتدافع الأذى ، وهلم جرا . وبالخيال يستطيع الأديب أن يسبك موضوعه ويجمع أطرافه ، ويتبذ ما لا حاجة به اليه من تفصيلات قد تشوه ما هو بسبيله ، ويضفى ثوبا من الجمال والانسجام على ما ينشئ . والخيال أظهر ملكات الشاعر وأول مميزات الشعر التى تفرق بينه وبين النثر .

وارتقاء الخيال واتساعه وكثرة آثاره أهم ظواهر دخول الأدب فى طوره الفنى : فانه اذا خرجت الأمة من بداوتها وعزلتها وبسطت سيادتها واتصلت بجيرانها القريبين والبعيدين ، وتحضرت وثقفت ، اتسعت أذهان أبنائها وتراعى خيالهم وتصوروا من الحقائق والمعانى والممكنات ما لم يكونوا يتصورون ، وغزر المعين الذى يستمدون منه التشبيهات والاستعارات ، وينتزعون منه الحكم والأمثال ، ويتوفر الفراغ ويتسع للمجهود الأدبى المتصل ، فتظهر القصة والدراما والقصيدة الطويلة ، ويخلق الأدباء فى أجواز (١) الخيال وآماد الماضى والمستقبل ، مبتعدين عن دواعى الحاضر

(١) أجواز : الجوز من كل شيء وسطه والجمع (أجواز) .

الحازبة (١) ومجالاته الضيقة ، ولا يبلغ الأدب أوج رقيه حتى يرتقى الخيال فيه هذا الارتقاء وحتى يشغل أكثر جوانبه .

وللخيال فى الأدب الانجليزى مكان رفيع وأثر بعيد شامل يتمثل فى موضوعات الأدب وأشكاله وطرائق تناول الأدباء لما هم بسبيله : فالأديب الانجليزى غزير العاطفة ، اذا جاشت أطلق لها العنان واسترسل مع خياله ، وأثار به منظر طبيعى أو غناء طائر أو ذكرى طارئة أو أثر من آثار الغابرين أو أسطورة من أساطيرهم شتى الأحلام والأطياف ، وتناهت به عاطفته الى حدود الأمنى وآفاق الماضى والمستقبل ، وهذا الاسترسال مع الخيال اذا أثارته فكرة رئيسية هو مرجع وحدة القصيدة فى الانجليزية .

وهناك عدا هذا الخيال المنبث فى كل مناحى الأدب أشكال خاصة من الأدب قوامها الخيال ، ينهض بكيانها ويوثق وشائجها . وهذه هى الملاحم الطوال فى الشعر والقصص الممثلة أو المقروءة شعرا أو نثرا ، وفى هذه لا يلتزم الأديب الواقع المجرد بل يفترق عنه افتراقا جسيما ، ويؤلف من شتى أفكاره وتجاريبه وأمانيه وصور الحياة التى مرت به ، عالما بجيش الحياة والحركة ويموج بالعواطف والنوازع ويفيض بالجمال والامتناع ، بهذه الضروب القائمة على أساس من التخيل المحض يحفل الأدب الانجليزى .

فقد عالج الملاحم والمطولات من القصائد ملتون وسبنسر وهاردى ووردزورث وكثيرون غيرهم . وأستعار الملاحم تعج بالبطولة ، وهى على رغم هذا لا تخرج عن عالمنا الانسانى ولا تغفل النفس الانسانية ، بل تظل نوازع تلك النفس ومشاعلها هى الهدف الذى يرمى اليه ناظموها : اذ فيها يتخذ أولئك الأرباب والجبابرة طبائع الناس وميول الأفراد ، وان فاقوا البشر قوة وعظما ، ومن هنا يتأتى للمشاعر أن يبسط آراءه فى ميدان متسع والى هدى فسيح ، فيستعرض مشاغل عصره ويبث خوالج نفسه ، فالخيال هنا لا يعدو الحقيقة وانما يوضحها أحسن توضيح ، فضلا عما يمتع النفس به من قصص متسق وجمال وجلال .

وفى الأدب الانجليزى ما لا يعد من قصص فى الشعر والنثر ممثلة ومقروءة ، وقوام القصة بطبيعتها الخيال ، وان تراوح نصيبها منه ،

(١) الحازبة : حزب الامر حزبا ، أى اشتد .

فهناك القصص التي ترمى الى أغوار الماضي وتدور حول عظماء التاريخ والأساطير ، من طموح يبيع نفسه للشيطان كي يعينه الشيطان على ادراك مطامحه ، الى دائن يتقاضى دينه من لحم غريمه ودمه ، كما في روايات مارلو وشكسبير . وهناك القصص الواقعية التي تلتزم الحقيقة الى حد بعيد ، وتصور المجتمع الحاضر تصويرا دقيقا لا يدع شاردة ولا واردة ، كقصص هاردي ، ودرامات جالزوردي ، ولكل من الضربين متعته .

ولشغف الانجليز بسبعحات الخيال ، وميلهم الى اطلاق الفكر في أجوازه ، لجأوا في شعرهم ونثرهم الى تصوير حوادث التاريخ وغرائب الأساطير ، فاستقى شعراؤهم وكتابهم عذب القصص وممتعته من تاريخ انجلترا وتواريخ اليونان والرومان وبني اسرائيل وغيرهم ، واتخذوا من خرافات الأمم مجالا لفنهم ، فعرض سبنسر وتينيسون وكولردج وغيرهم تلك الخرافات عرضا شعريا رائقا مرصعا بجميل الوصف وبدائع المناظر الطبيعية ، وشائق مواقف الحب والبطولة .

ومن ثم امتلأ الأدب الانجليزي بأسماء الشخصيات الخيالية التي اخترعها الأدباء من مخيلاتهم ولم يكن لها قباهم وجود أو كان لها وجود سبهم في عالم الخرافة فأخرجوها بعقرياتهم الى عالم النور والوضوح ، وألبسوها ثوبا من الجمال والجاذبية ، وأصبح بعض هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين امتلأت بذكرهم وأخبارهم الملاحم والقصص والشعر والنثر ، أعلاما على طبائع في الانسان معروفة ، ورموزا على حقائق في النفس البشرية مشهودة ، فشكسبير مثلا لم يكن يدع خلقا انسانيا نبلا أو ضيعا الا صورته في رواياته وخلق ما لا يعد من الشخصيات الحية . مثل هاملت وروميو وجولييت وياجو وشيلوك ، وغيرهم ممن صار لهم وجود قائم في عالم الأدب كوجود أعلام الماضي في عالم التاريخ .

لم يجر الأدب العربي الى هذا المدى من الخيال ، فلم تكن فيه ملاحم ولم تكن المطولات من هم شعرائه ، ولم يرتق فيه القصص ولم يحتو على شخصيات متخيلة من خلق الأدباء ، وظل الحاضر القريب والواقع المحقق ديدن (١) أدبائه ، فالأديب العربي كان شديد الإيجاز في مقاله وتعبيره عما يحس ، يعبر عن أفكاره أشتاتا كلما عن له حافز الى الكتابة ، لا يدخر أفكاره ولا يربط منها حاضرا بماض ، بل يرسلها الشاعر على السجية أبياتا محكمة النسيج موجزة البيان ، ويرسلها الكاتب روايات

(١) ديدن : العادة والدأب .

قصيرة متتابعة منسوبة كل رواية منها الى صاحبها أو راويها أو شهودها ، فأحسن أشعار المتنبي حكم موجزة متتابعة مستقل كل منها ببيت لا تكاد تجمعها علاقة ، وقوام كتب كثيرة كمؤلفات الجاحظ والتهالبي وابن عبد ربه روايات وشواهد متتابعة ، لا يكاد يكون للأديب فضل غير جمعها وتبويبها .

كان الشعر الجاهلي محدود الخيال قريب المأخذ لمكان أربابه من البداوة وبعدهم عن الثقافة ، فلما تحضر العرب وثقفوا واختلطوا بالأمم واطلعوا على أحوال الأقطار البعيدة ، اتسع من جراء ذلك خيالهم وبان أثره في شعرهم ونثرهم ، فالمحدثون من الشعراء لا شك أبعد خيالا وأكثر تفننا في التشبيهات من الجاهليين ، وظهر ضرب من القصص الخيالي يتجلى في مقامات بديع الزمان ، ورسالة الغفران ، ففي هذه وتلك مواقف وحوادث محلها من اختراع الخيال ، ثم هناك الروايات والأخبار العديدة التي كان يخرعها الرواة والكتاب يطلبون الاغراب والتطرف والرواج ، أو يؤيدون الحجاج والمذاهب .

بيد أن هاتيك جميعا آثار ضئيلة الشأن ، وهي اذا قيسست بما في الانجليزية من سبحات الخيال ، لم تكن الا شبيهة بطيران الدجاجة الخفيف مقيسا بتحليق البازي الكاسر . ورسالة الغفران على جمال فكرتها ومشابقتها لما في آداب الأمم الكبيرة في جريان حوادثها في عالم الخلد وامتلائها بممتع المواقف والمحاورات ، مكتظة بمسائل النحو والأدب النظرية العقيمة ، التي كان كثير من الأدباء ينفقون أعمارهم في غياهاها غافلين عما هو أهم منها من حقائق الحياة وجمالها ، ولم يكن الخيال ولا الجمال ولا القصص غرض المعري الصحيح حين أملاها ، وانما كانت تلك المسائل اللغوية هي مقصده الأول : ومقامات البديع على جمالها واهتمام البديع الى اختراع شخصية أبي الفتح فيها مكتظة كذلك باللاعيب اللفظية والبراعات اللغوية ، فالمقامات ورسالة الغفران جميلتان على أن تكونا خطوتين الى ما بعدهما ، ومرحلتين في طريق نمو القصص الصحيح وازدهار الخيال الراقى ، بيد أن ذلك النمو لم يطرد وذلك الرقى وقف في أول الطريق وان من العجائب حقا أن يكون أعظم أثر خيال في الأدب العربي من صنع شاعر كفيف محجوب عن آفاق الحياة ومباهجها ! فكبح عنان الخيال كان دأب أدباء العربية حتى بعد دخول الأدب عصره الفني ، فالفكرة التي تخطر للأديب الانجليزي فيؤلف حولها قصة تموج بشئ الصور المنتزعة من الحياة ، أو ينظم حولها قصيدة طويلة تجمع أشنات الأفكار والمعاني ، يكتفى الأديب العربي بصوغها في بيت شعر محكم يذهب

مثلا ويروع بايجازه وشموله ، لا بتقصيه واستيعابه ، فكل بيت من أبيات المتنبي الساثرة يحوى نظرة نافذة الى حقائق الحياة ، هى بنفسها محور صالح أن تدور حوله قصة أو دراما ، بينما الأديب العربى قد أودعها أوجز لفظ وأعمه .

وقد نظم شلى قصيدة فى قرابة مائة بيت ، حين استرعى تفكيره هبوب ريح الشتاء الباردة فى ايطاليا ، فصور عصفها بالأوراق الجافة ، ودفعها البذور الى حيث تنام فى التربة حتى ينهبها الربيع بدفته وطيب أوانه ، وشبه ثوران عاصفتها على الأفق بالشعور المتبدلة عن رأس مايناد احدى العرائس الخرافية ووصف اقشعرار النبات المائى فى قاع المحيط لدى احساسه مرور تلك الرياح ، ثم طلب الى الريح أن ترفعه كما ترفع تلك الأوراق وتدفعه كما تدفع تلك البذور ، وتنفع فيه من قوتها ، وتتخذة نايها علىه يستطيع أن يطير بأجنحتها ، ويبذر بين الخلق بذور أفكاره الاصلاحية التى كان أمينا لها طول حياته .

ولشكسبير مقطوعة عن ريح الشتاء أيضا فى رواية « كما تشاء » يسترسل فيها فى التأمل على ذلك النحو ، أما الشاعر العربى فاذا استرعى انتباهه ، هبوب الريح فانه يودع خاطره أوجز لفظ ، واصفا تهيج الريح لذكرياته أو محملا اياها سلاما الى أحبائه كما قال بشار :

هوى صاحبي ريح الشمال وانما أحب لقلبي أن تهب جنوب
وما ذاك الا أنها حين تنهى تناهى وفيها من عميدة طيب

والغريب انه برغم غنى الادب الانجليزى بآثار الخيال وندرة تلك الآثار فى الادب العربى ، نرى كلمات الخيال وخیال الشعراء والمخيلة وغيرها كثيرة التداول فى العربية نادرة الورد فى النقد الانجليزى ، وانما كان نقاد العربية يطلقون اسم الخيال على أبعد الأقوال عن مجال الخيال الصحيح ، يطلقونه على ما درج عليه الشعراء المداخون من اختراع مواقف الغرام فى استهلال قصائدهم وتلفيق صفات الجود والبأس لممدوحيههم ، ومن ثم اشتهر المبحر بالخيال لا لأنه دبع القصص المحكم أو نظم المطولات الرائعات، بل لأنه كان من أمضى الشعراء فى بابى المديح والغزل الاستهلالى ومن أكثرهم ذكرا للأطراف والوداع واللقاء ، وليس تحت مثل هذا الخيال طائل ، اذ قوامه التكلف والمحال والايقال فى البعد عن حقائق الحياة والشعور ، بينما اخص خصائص الخيال الفنى الصحيح صدق البيان للشعور فى أعماق أعماقه وأرحب آفاقه ، فاذا قال بشار ان الجود من كف ممدوحه يعدى ، وقال أبو تمام ان ممدوحه

لا يستطيع قبض أنامله لأنه تعود بسطها بالعطاء ، وقال المتنبي أن أسنان صواحيبه برد خشى أن يذيبه من حر أنفاسه فكان هو الذائب من حر أنشواقه ، وإذا شبه ابن المعتز الهلال بمنجل يحصد نجوم الليل حصدا ، أو شبه ابن خفاجة النهر وعبت ضفافه بهذب يحف بمقلة زرقاء ، فقد باعدوا جميعا وأغربوا وخالفوا حقائق المنطق والشعور وجاءوا بما هو أشبه بعث الصبيبان وهذر المخمورين وكان قولهم أبعد الأشياء عن الخيال ، فالخيال ليس هو تجاهل حقائق الحياة ونحديها والتفنن في منافضتها ، وإنما هو قدرة الفكر على استيعابها والاشتمال على قريبتها وبعيدها ، والتصرف فيها والتفنن في عرضها ، ولا غرو إذا كانت تلك نظرة نقاد العربية الى الخيال أن قالوا ان أعذب الشعر أكذبه ، والحق أن أعذب الشعر أصدق وأجود الخيال أكثره اشتمالا على الحقيقة وغزارة آثار الخيال في الأدب الانجليزي ترجع لا شك الى اختلاف مناظر الطبيعة في انجلترا وتعددتها وتقلب أحوال الجو ، ثم ترجع الى اتساع أذهان الانجليز باقتباسهم حضارة أوربا ومساهماتهم فيها ، وإلى الكشف الجغرافية العظيمة التي عاصرت نهوض الأدب الانجليزي ، وهي ترجع أيضا الى اطلاع الانجليز على الأدب اليوناني الحافل بروائع الحوادث والاساطير ، المملوء بأشعار الملاحم والدرامات .

فقد كان لشعراء الانجليزية ، وكتابها من ذلك معين لا يفنى وكان الاطلاع على التراث الكلاسي بمثابة كشف جغرافي آخر واطلاع على عالم ثان غير هذا العالم المعهود مما أطلق الأذهان الى غايات الخيال ، وكان للأدب العامي في ذلك أثره أيضا . وترجع ضالة حظ الأدب العربي من الخيال الصحيح السامي وكثرة ما به من آثار التخيل الزائف الى نزعة الجمود التي كانت تسوده وتقره دائما على محاكاة الأقدمين واحتذاء الأدب الجاهلي ، وهذا لطبيعته المتبدية وبيئته الصحراوية التي ترعرع فيها أدب أولى قليل الحظ من الخيال كثير الالتزام للواقع الحاضر ، هذا الى استغلال الأدباء بمدح ذوى السلطان واجتهادهم في تخيل كل منقبة واضافتها اليهم ، أضف الى ذلك أن الأدب العربي لم ينتفع كما انتفع الأدب الانجليزي بأدب الاغريق ، فحجبت عنه تلك العوالم الزاخرة بالحقائق والخيالات . وقد اطلع العرب على فلسفة الاغريق فحاكى غير واحد من فلاسفتهم جمهورية أفلاطون يتخيل المدينة الفاضلة ولو اطلعوا كذلك على أدبهم لاستفادوا منه فائدته المحتومة .

ظل الأدب العربي مكبوح الخيال ملتزما للواقع مؤثرا للايجاز متشبها بالرواية التاريخية المسندة ، وترك الخيال الواسع للعمامة

يسبحون في عوالمه التي تستهوى النفس الانسانية ، فجالوا في نواحي القصص يودعون أفكارهم على ما بها من قصور ، وآمالهم على ما بها من سذاجة وما يشوبها من شهوات الحس ، وثقافتهم على ما يخالفها من جهل واضطراب ، وجاء الأدب العربي الفصيح في أزهر عصوره مشتملا على ضروب من التخيل الفج لا يستسيغها لب ولا يقرها فن ، مشتملا بجانب ذلك على وجدانيات صادقة وحكم وأمثال رائعة موجزة ، هي خير ما في الأدب العربي من لباب الفكر والشعور ، فالأدب العربي يبلغ قمة مجده بما فيه من آثار الحكمة لا بما يحويه من صور الخيال *

التاريخ

فى الأدين العربى والانجليزى

التاريخ قصة الانسانية وحكاية ماضيها ، يصف حياة الانسان من قديم عهوده ، وتقلب أحواله على مرزور العصور ، وكفاحه فى سبيل التقدم والسعادة ، ويعرض أعمال الأمم وعظائم الأفراد وتعاون الشعوب حيناً وتعاديها أحياناً ، ويشرح سريان الحضارة والثقافة من صقع الى صقع ، ومن جيل الى جيل ، ومن أمة الى أخرى ، وما أضافته اليهما عبقرية كل شعب ، من مستحدثات العلوم والفنون والصناعات ، فالتاريخ سجل مليء بالعظات والدروس ، حافل بالمتعات والطرائف ، يمتع اللب سياقه القصصى ، وينبه الخيال بعده الزمنى ، ويملا النفس أحياناً بالفخار الوطنى ، ويشقف الانسان فى حاضره ويبصره بما بين يديه ، حين يعرض عليه أنباء الماضى ووقائعه .

ولا يستمد التاريخ مما دونه المؤرخون فى كتبهم فقط ، بل يستمد بجانب ذلك من آثار الفنون المتخلفة عن الأمم ، من عمارة ونحت وتصوير وأدب ، ففى كل هاتيك صور من عقلياتها ومذاهبها ومجتمعاتها ومنازعتها ، فتاريخ الحضارة المصرية القديمة لا يستمد الا أقله مما دونه المصريون أنفسهم أو من جاء بعد عهدهم من مؤرخى الأمم التالية ، أما أكثر ما يعرف عن حياتهم الاجتماعية وتقاليدهم وديانتهم وعلومهم ، فمستقى من مخلفاتهم فى عالم البناء والنحت والنقش والصناعة ، وقل مثل ذلك فى تاريخ اليونان والرومان ، وغيرهم من الأمم التى أنشأت الحضارات وكان لها فى العلم والفن شأن يذكر .

فتاريخ الأمة وفنونها متصلان أوثق اتصال ، فالعوامل النفسية التى تسيطر على المجتمع والحكومة وتؤدى الى الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية ، هى هى العوامل النفسية التى تسيطر على فنون الأمة ، فيميل أبناؤها الى فنون دون أخرى ، وينحون بفنونهم أنحاء خاصة دون غيرها ، فقدماء المصريين الذين كانوا يخضعون للملكية مطلقة دينية انصبغة ويؤلهون ملوكهم ، نبغوا فى عالم العمارة فى بناء المعابد والمقابر دون القصور ، ونحتوا التماثيل للملوك والآلهة ، لا للأبطال والزعماء

والخطباء والرياضيين كما فعل الاغريق ، ولم يرتق فيهم الأدب الذى يترجم عن مشاعر الفرد ، ويعبر عن خوالج المجتمع .

والأدب أشده الفنون اتصالا بتاريخ الأمة وارتباطا بتطورات المجتمع ، اذ كان صدى ناطقا دقيقا لما يحس به الفرد والمجتمع ، بل الأدب مصاحب فى بدئه للتاريخ فى ظهوره ، يتمازجان لدى الجماعات البدائية فى محاولتها تفسير ظواهر الكون والنغنى بمفاخر أسلافها ، ويشاب كل ذلك بالخرافات ، ويظل الأدب والتاريخ مختلطين على ذلك النحو ما دامت الأمة فى عهد بداوتها ، فاذا ما تحضرت ودونت الكتب بدأت العلوم تتفرق وتتميز ويستقل كل منها بنفسه ، فظهر المؤرخون واستقلوا بأمرهم عن الأدباء ، بيد أن الصلات بين الأدب والتاريخ تظل محكمة ، اذ كان كل منها مرآة للمجتمع تعكس صورته من زاوية مختلفة .

فالأديب لا غنى له عن درس تاريخ الماضين والتبصر فى تاريخ عصره ، كى يتشقف عقله ويحصف فكره لأحوال البشر ، والمؤرخ لا غنى له عن النظر فى كتب الأدباء ليفهم روح العصر الذى يؤرخ له ومثله العليا ، ولا غنى له اذا أراد أن يجيء تاريخه كاملا عن أن يفرد جانبا منه لدرس الحياة الأدبية لذلك العصر ، والمؤرخ للأدب لا غنى له عن درس التاريخ السياسى للمصور الأدبية ، والبيئات السياسية والاجتماعية التى عاش فيها الأدباء الذين يترجم لهم ، وقد كان من عظماء اليونان والرومان أمثال ديموستين وتيوسيديد وقيصر وشيشرون من جمعوا بين البلاغة الأدبية والتأليف التاريخى ، أو بين حرفة الأدب وحرفة السياسة وصناعة الحرب .

اذا ما بلغت الأمة طور الحضارة والاستقرار والثقافة ، ودخل الأدب فى طوره الفنى ، وتميز التاريخ وقام علما مستقلا بنفسه كما تقدم والتفت اليه الأدباء فوجدوا به مجالا لفنهم رحيبا ومرتعيا لابتكارهم خصيبا ، فهم لا يكتفون باستيعاب حقائقه واجتناء فوائده ، بل يتخذون من مشاهدته وأحداثه ورجاله مادة وغذاء لأقلامهم ، ومسارح لخيالهم ومناوح لبيان آرائهم فى الانسان والحياة ، وشواهد لدعائم حججهم فى المذاهب والمشاكل ، فيتخذونه الشعراء موضوعات لقصصيدهم ، والقصاصيون هياكل لقصصهم ، ويجدون فى عوالمه البعيدة وحوادثه القريبة وعظمائه النابهين ، مهربا للنفوس من عقال الحاضر القريب ، وأحداثه العادية .

كان الشعر فى الجاهلية ديوان العرب لانه - هو والقصص - كانا يحويان أخبار العرب ، ويحفظان مشهور حوادثهم وأيامهم ، ويحكيان أخبار رحلاتهم واستقرارهم ، ويشيران الى ما وراء ذلك من عوامل اقتصادية واجتماعية وعصبية ، فلم يكن العرب اذ ذاك يعرفون من التاريخ الا حفظ الأنساب ، فلما تحضروا واستقروا فى المدن تضاعف شأن النسابة وظهر التاريخ المدون ، ظهر أولا لغرض عملى شأن كل العلوم والفنون ، لحفظ أخبار الفتوح وسيرة النبى الكريم وصحابته وتفسير بعض آيات الذكر الحكيم ، وارتقى التاريخ شيئا فشيئا وصارت له أغراض غير هذه وتناول موضوعات أخرى أرحب وأعم .

بيد أن التاريخ لدى العرب - كالأدب - ترعرع فى ظل الملكية المطلقة ، فجاء كلاهما مشتملا على نفس النقائص : احتفى كلاهما بأمر الملوك وأغفل جانب الشعوب ، واهتم بالأحداث السياسية والحروب وتجاهل التطورات الاجتماعية والاقتصادية ، واتسم كلاهما بالمحافظة والتقليد والنقل فى غير نقد ، لأن وطأة الملكية كانت تضطر كلا منهما الى الاطراق (١) والاغضاء والتغافل عن مواطن الضعف ودواعى الإصلاح ، وكما كان الشعراء يقرضون الشعر ليتقدموا به الى الأمراء متزلفين (٢) ، فيملأونه بالمدح المغالى فيه ، كان بعض المؤرخين يصنفون أسفارهم ليرفعوها الى بعض الخلفاء والسلاطين بغية الثواب والخطوة ، فيملأونها بمدح ومديح أسرته وتعداد مآثره ومفاخر دولته ، ويؤيدون دعواه وينحون على عداه ، ويتغاضون عما عدا ذلك .

وقد ظل الاتصال قائما بين الأدب والتاريخ بعد تدوين الكتب واستقلال علم التاريخ بنفسه ، فظلت كتب الأدب تحوى كثيرا من أخبار الجاهلية والاسلام ، بل كانت تلك السير والأخبار والشذرات والنوادر من أهم مواد كتب الأدب العربى ، ووردت فى أشعار الشعراء شتى الاشارات الى أحداث الماضى ورجاله ، كما أن المؤرخين وكتاب التراجم والمعاجم كثيرا ما كانوا يلجأون الى الشعر مستشهدين لما هم بصددده من تحقيق حادثة ، أو تصويب رواية ، وكان بعضهم يعيرون الشعراء اهتمامهم فيترجمون حياتهم ترجمة موجزة ، وكان بعض الشعراء ينظم فى أحداث جيله ، كما فعل ابن الرومى فى ثورة الزنج وفى مقتل بعض العلويين الخارجين . وكان كتاب الأمراء يتناولون مسائل السياسة فى رسائلهم ،

(١) الاطراق : أطرق : سكت لحيرة أو خوف أو نحوهما .

(٢) متزلفين : تزلف : تقدم وتقرب .

فتندرج أشعار أولئك وكتابات هؤلاء فى تراث التاريخ اندماجها فى كنسوز الأدب •

بيد أن الأدب العربى الذى أغفل كثيرا من موضوعات القول الذى ينهافت عليها الأدب اذا ما بلغ طويه الفنى ، أهمل التاريخ اهمالا كبيرا ، فلم يتخذ من حوادثه وحيا للنظم ، ولا من أعاجيبه مدارا للقصص ، ولا من أبطاله أمثلة للتمجيد ، فليس من بين أدباء العربية الكبار من استهزه حادث تاريخى قرأه ، أو أثر تاريخى وقف به ، الى نظم قصيدة أو انشاء رسالة يستجلى فيها عبر التاريخ ويمجد قوة الانسان ، أو يندب ضعف حيلته ازاء جبروت المقادير • وليس من كتاب العربية ذوى الأساليب الجزلة من شمر عن ساعد الجذع والبحث والاطلاع حتى كتب تاريخا رفيعا لبعض العصور أو الرجال ، تاريخا يعد تحفة فى عالم الأدب كما قد يعد مرجعا فى عالم التاريخ ، وانما كان بعض الشعراء يتنصلون من الشؤون الاجتماعية والسياسية ، ويتبرءون من الاشتغال بمسائل التاريخ ، كما قال ابن المعتز :

قليل هموم القلب الا للذة
ينعم نفسها آذنت بالثقل
ولست تسراه سائلا عن خليفة
ولا قائلا : من يعزلون ؟ ومن يلى ؟
ولا صائحا كالعبر فى يوم لذة
يُنَظَرُ فى تفضيل عثمان أو على

أما فى الانجليزية حيث كان الأدباء والمؤرخون كغيرهم من أفران الشعب يشاركون فى الحياة الاجتماعية والسياسية بآرائهم ومذاهبهم ، بل بأعمالهم ومساعيهم ، فقد جاء كل من الأدب والتاريخ أكثر حرية وأقرب الى جانب الشعب ، وأكثر طروقا لمواضيع المجتمع ومشاكل بنيه ، وجاء الاتصال بين الأدب والتاريخ شديد التوثق ، وجاء الأدب الانجليزى أحفلى بآثار المجتمع الذى قيل فيه من الأدب العربى ، ومن ثم تدرس النصوص الأدبية الكثيرة فى أثناء دراسة التاريخ فى الجامعات ، فتدرس آثار ملتون مثلا عند دراسته عهد المطهرين فى انجلترا •

ووجد أدباء الانجليزية فى التاريخ مجالا واسعا لفنهم وابتداعهم ، فجال فيه شكسبير ومعاصروه جولات عديدة ، واتخذوا مشاهد رواياتهم

فى بلاد اليونان أو ايطاليا أو الدانمارك أو انجلترا القديمة ، واشتق ملتون ودريدن موضوعات كثيرة من قصيدهم من تاريخ اليهود وأبناء ملوكهم وأنبيائهم ، فلما ظهر النثر الفنى بجوار الشعر لم يغفل التاريخ ولم يكن أقل لموضوعاته طرقا من الشعر ، بل كان أخرى أن يشتمل على حقائقه ودقائقه ويعالج مسأله ودروبه ، بما يمتاز به على الشعر من ربح جوانبه ودقة تعبيره ، فعالج جييون وهيوم وآدم سميث وكارليل وغيرهم التاريخ والاجتماع وفلسفتيهما فى أسلوب أدبى شائق وجمع بعض الأدباء أمثال ماكولى وأرنولد بين الكتابة فى الأدب والتأليف فى التاريخ فكان الأدب والتاريخ لديهم كلا واحدا يجولون فى نواحيه بلا تفريق ، وبقيت كتاباتهم يدرسها طلاب الأدب كما يدرسها باحثو التاريخ .

بل بلغ غرام بعض الأدباء بالماضى ، وشغفهم بتقاليده وأزيائه ومحبتهم لأفذاذه وعظماؤه حدا بعيدا ، وقد كان سكوت من ذلك الضرب الذى يحيا فى الماضى وبجلالته ولألائه وبطولته ، ولا يكاد يلتفت الى الحاضر أو يعنى بالمستقبل ، وفى ذلك العالم السالف كتب سكوت أحسن قصصه . وممن كتب فى الروايات والقصص التاريخية أيضا تينيسون وبرواننج ودرنكورتروشو ، وقد نرى موضوعا تاريخيا حديثا كالثورة الفرنسية ، وقد تناوله المؤلفون الانجليز من شتى النواحي : فمحلل لحوادث الثورة وشخصياتها ككارليل ، مندد بمبادئها كبرك ، ومرحب بشك المبادئ مترنم بها كوردزورث ، ومتخذ من قصة وليد تلك الثورة نابليون موضوعا للمحمة طويلة كهاردى ، وهكذا تحيا حوادث التاريخ فى أذهان مطالعى الأدب مصورة من شتى النواحي .

ولا شك فى أن هذا التاريخ الأدبى ، اذا سميناه كذلك ، أجدر بالقراءة وأحق باهتمام المثقف من التاريخ المجرد ، اذ فى آثار الأدباء تحيا حقائق التاريخ وتذب فيها روح انسانية جديدة وتمتلىء بالامتناع ، ويعود التاريخ والأدب وكلاهما مظهر لحياة الانسان المطردة التطور والتغير ، وتفكيره الدائب الحركة والتقلب ، وفى هذا التاريخ الأدبى يرتبط الحاضر بالماضى ، والقريب من الأمم بالبعيد ، وتتقاصر مسافات الزمان والمكان ، ولا يبقى الا الانسانية الشاملة ، وهذه الانسانية هى مجال كل فن صميم .

هذا التاريخ الأدبى لم يعرف فى العربية ، فكان هناك المؤرخون وكان هناك الأدباء ، ولكن كلا منهما كان مستقلا عن الآخر استقلا كبيرا ، ولم يكن الأدباء يعدون التاريخ مجالا من مجالات أدبهم ، أو مطمحا من مطامح فنهم ، ينتكرون فى مجاله وينشئون ، وما ذاك الا لانشغالهم

بالقريب الحاضر من شؤون العيش ، عن البعيد المترامي من أمور الحياة
وآفاق الفكر لأن الأدب ظل أكثره مرتبطا بالبلاط يمدح الأمير ويحرر
رسائله ، وكان الفوز بتلك الخطوة مطمح الأديب ووسيلته الكبرى الى
الظهور فاذا ما بلغ ذلك المكان لازم ذلك الضرب الوحيد من القول ، ولم
يعترف أدبه الى التأمل في شئون الماضي والمستقبل ، وهكذا أغفل الأدب
العربي التاريخ فيما أغفل من موضوعات هي صميم الفن ، لوثيق صلتها
بالانسانية •

بيئات الأدباء

فى الأدبين العربى والانجليزى

أثر البيئة فى الانسان ومجتمعه وعلومه وفنونه من النواميس النى
اهتم العلم الحديث بكشفها وتتبع مظاهرها والرجوع اليها فى شنى
الدراسات . وأثر البيئة فى أدب كل أمة على اطلاقه واضح مشاهد ،
بيد أن لكل أديب بيئة خاصة داخل البيئة العامة التى تحيط به وبغيره من
أدباء أمته ، ولهذه البيئة الخاصة أثر بعيد فى تكييف عبقريته وتوجيه
ميوله وصبغ نظرتة الى الحياة وتكوين فهمه للأدب ، ولهذه البيئة فى
أكثر الأحيان فضل توجيه عبقريته الى الأدب دون غيره من الفنون
والحرف الانسانية .

فالوراثة لها أثر فى فن الأديب ، لاشتراكها فى تكوين مزاجه
وميوله ، وذلك الأثر الوراثى ملحوظ فى أدب شلى وبيرون من شعراء
الانجليز ، بل فى حياتهما اذ عاش كل منهما ساخطا قلق المقام مضطربا
بين البلدان مساجلا المجتمع حربا لاتهدأ ، وقد كان كلاهما منحدرًا من
أسرة أرسقراطية عرفت صفات الجماح والتمرد فى غير واحد من
أسلافها . وللوراثة أثرها الواضح فى أدب ابن الرومى الذى جاء لانتمائه
الى الروم مخالفا أدب غيره من فحول العربية ، فى النظرة الى الحياة
والطبيعة ، وفى استقصاء المعانى وتوليدها .

ولتكوين جسم الأديب ، بين الصحة والمرض والكمال والنقص
والوسامة والدمامة أثره كذلك فى أدبه ، فالأديب سليم الجسم يكون
صافى المزاج معتدل النظرة الى الحياة ، والآخر المعتل الصحة المنهوك
بالأوصاب (١) ، كالمعرى وابن الرومى فى العربية ، وبوب وسويقت
وجراى فى الانجليزية ، يكون ضيق العطن أو قائم النظرة الى الحياة
أو كثير النقمة على معاصريه شديد الشغب معهم . وقد قيل قديما ان للأدب
ضريبة على محترفه يتقاضاه اياها من ذات جسمه أو ذات نفسه ، فلا تكاد
ترى أديبا الا محروبا أو شقيا أو معسرا ، ولعل فقدان الأديب لبعض

(١) بالأوصاب : الوصب : الرجى والمرضى والجمع (أوصاب) .

ما يتمتع به سواء من بهجة الحياة من دواعي ارهاق حسه وصرفه الى التأمل وعطفه الى الأدب ، ولعل المعرى لولا عماه وانجباسه عن متع الدنيا على ذلك الوجه ، لما حفل بالنفكير فى الأرض والسماء وأصل الخلق ومصير الانسان وهلم جرا .

والتربية والنشأة المنزلية أثرهما فى تكوين الأديب ، فكثيرا ما تنجحه عبقرية الناشئ الى الأدب لأن أباه أو كافله مشغول بالأدب ، وقد كان ذلك شائعا بين العرب ، اذ كان الآباء يقومون بتأديب أبنائهم ، فنشأ كثير من الأدباء كالصاحب وابن العميد وابن المعتز وابن زيدون فى بيوت فضل وأدب . وقال ياقوت فى ترجمة المعرى : « وكان فى آبائه وأعمامه ، ومن تقدمه من أهله وتأخر عنه من ولد أبيه ونسله ، فضل ، وقضاة وشعراء ، أنا ذاكر منهم من حضرنى لتعلم نسبه فى العلم » . ولحظ البيئة المنزلية من الرقى أو الحطة أثره كذلك فى أخلاق الناشئ ومنازعه ، ومن ثم يتسم أدب الشريف الرضى فى العربية وتنبسون فى الانجليزية بنزعة التسامى والتدين ، لانتمائهما الى أرومة شريفة دينية ، بينما تبدو لوثنة العامة والتبذل فى أشعار بشار وأبى نواس .

ولنصيب الأديب من الغنى أو الفقر أثر بعيد فى حياته وعقليته وأدبه ، فلا بد للأديب من حظ من المال يستطيع معه أن يتفرغ الى فنه أو يتفنن فى ابتكاره ، أما اذا كان لا يكسب رزقه الا بجهد جهيد فتهيأت أن يوفى الأدب حقه . والأديب المعسر المخفق كابن الرومى لا ينفك شاكيا نى شعره متحرقا ، ولا يشكو هذه الشكوى أديب نشأ فى بيت نعمة كابن المعتز أو نجح فى ادراك الغنى كالبحتري ، فشعر هذين أكثر امتلاء بوصف اللذات وأوقات الصفاء . وقد وجد ابن الرومى على البحتري وهجاء حسدا وغيظا ، فرد عليه البحتري ردا هادئا وأتحفه بهدية ، فعل المظمئن الى نفسه الراضى فى بحبوخته ، ولم يطلب الطغرائى شططا حين قال :

أريد بسطة كف أستعين بها

على قضاء حقوق للعلى قبلى

ولنوع الثقافة التى يتلقاها الناشئ ، والأدب الذى يقرأ ، والأستاذ الذى يأخذ عنه ، والأديب الذى يقدمه ويشغف بآثاره ، والأدب الأجنبى الذى يدرسه ، لكل ذلك أثره فى توجيه أدبه وفلسفته فى الحياة . فأراء المتزندقة التى فشيت فى صدر العصر العباسى ظاهرة الأثر فى شعر

بشار وحماة وأبي نواس ، والآراء الفلسفية التي ذاعت بعد ذلك ظاهرة في أشعار الطائي والمعري والمتنبي ، ولم يتأثر أدباء العربية بأدب اجنبي تأثرا ذا بال ، أما أدباء الانجليزية ففضلا عن اغترافهم جميعا من مناهل الأدب اليوناني ، كان منهم من تأثر بالأدب الايطالي كسبنسر ، وبالالماني كشلي وسكوت وكارليل ، وبالفرنسي ككثير من كتاب القرن الثامن عشر وشعراء القرن السابع عشر ، وكما أثر مذهب أبي تمام الشعري في تلميذه البحتري وفي المتنبي وغيرهما ، كان الملثون أثر بعيد في كثير من شعراء الانجليز منهم وردزورت وتنيسون .

ولجيل الأديب ، سياسته وأدبه وأخلاقه وأزيائه وفنونه ، أعظم أثر في أدبه : فبعض الأدباء ينحاز الى حزب سياسي ويخصص جانباً من كتاباته للدفاع عنه ، كما كان الكميت ودعبل وعمارة اليماني شيعيين ينتصرون لآل البيت ، وكما كان بشار عقلياً بالولاء ينتصر لمضر ويفخر بغضبته التي تهتك حجاب الشمس ، وكما كان ابن الرومي علوي بالولاء أيضا . وكان أدباء الانجليزية أكثر اتصالاً بشئون المجتمع والسياسة وتأثرا بها ، فعرضوا لمشاكل عصورهم في أشعارهم وقصصهم ، وحين ملأ دكنز قصصه بوصف أحوال الطبقات العاملة ، انما كان متأثرا بأحوال عصره الصناعي ، واذا امتلأ شعر المتنبي بذكر القنا والصواري والفتكة البكر وتضريب أعناق الملوك ، فانما كان ذلك صدى عصر التناسخ والقلقل الذي عاش فيه .

وتؤثر حرفة الأديب كذلك في أدبه ، موضوعه ولغته وتشبيهاته : فالأديب الجندى كعنترة وأبي فراس لا يكاد يخوض في غير حديث النجدة والهمة والباس واطاحة الرؤوس عن الأجسام ، والأدباء الوزراء الذين عرفوا في الدول الإسلامية تتعلّق خير كتاباتهم بالسياسة والولاية والعزل وهلم جرا ، والشاعر المداح كالبحثري لا ينفك عن ذكر أحوال الملك ومظاهر أبيهته ، وتوماس هاردي الذي كان مهندساً معمارياً مشغولاً بفن العمارة لا يزال يبدى ويعيد في وصف العماثر والصروح في شعره وقصصه ، ويستخدم في ذلك من المصطلحات العلمية ما لا يكاد يفقهه الا خبير مثله بتلك الشئون ، أما الأديب المنقطع الى الأدب فلا يكاد يخوض في غير شئون الأدب وسير الأدباء . وقد أورد الجاحظ هذه الحقائق مورد الفكاهة في رسالة صناعات القواد ، اذ جعل الطبيب والخياط والخباز المؤدب وصاحب الحمام وغيرهم ، يتحدثون في الأدب وينظمون الشعر فيستخدم كل منهم مصطلحات حرفته في استعاراته وتشبيهاته .

وللاقليم الذر يختاره الأديب مستقرا ومقاما ، والأقاليم التي يرحل إليها في أدوار حياته ، أثر عظيم في موضوعاته وأسلوبه : اذ هو يشتق أسباب القول مما يحيط به في حله وترحاله ، ولا ريب في أن الأديب كثير الرحلة يكون أوسع أفقا وأغزر مادة وأعمق فكرة من الأديب القاعد ، اذ كان من يعيش يرى ومن يسير يرى أكثر كما يقول المثل العامي . وقد كان وردزورث يقطن مقاطعة البحيرات في إنجلترا وكان كثير التجوال بين الجبال والروابي ، فجاء لفظه مجردا عاريا عرى الصخور وتجردها ، وكثرت فيه ألفاظ الوحشة والوحدة وهلم جرا . ونشأ كبلنج في الهند فامتلا شعره وقصصه بوصف غياضها وأدغالها ، وحفل بالتعصب الجنسي المتطرف ، وتركت رحلات المتنبي بعض الآثار في أشعاره ، من وصف الطبيعة كوصف بحيرة طبرية وشعب بوان ، الى وصف الأحوال السياسية في مثل قوله :

بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم

فالى البيئة التي ينشأ فيها الأديب وتضطرب في محيطها حياته ، مرد ما يمتاز به أدبه من اتجاه خاص وطرق موضوعات دون غيرها ، ونناول لها على نحو خاص ، وما يتصف به من سمو أو ضعة ، وورع أو استهتار ، وفكاهة أو انقباض ، وتفاؤل أو تشاؤم ، وعمق أو سطحية ، يختلف حظه من كل ذلك عن حظوظ أبناء أمته بل أبناء جيله بل أصحابه وخلفائه ، وبسبب عوامل البيئة تلك يختلف عنقرة وعمر بن أبي ربيعة والشريف الرضي والمتنبي في العربية في الموضوع والنزعة واللفظ والأسلوب ، كما يختلف وردزورث وبيرون وسكوت وشلي في الانجليزية . حتى يستغث الثاني شعر الأول أى استغثات ، ويحمل الثاني رأيه في الأخير في قوله : ذلك الملهد شلي ! وما ذاك الا لاختلاف ما يحمل رأس كل منهم من آثار الوراثة والثقافة والعقيدة والتربية والنشأة ، على تعاصرهم وتشاركهم في وجوه أخرى ، وعلى كونهم يعسدون اليوم أبناء مدرسة واحدة .

على أن اختلاف بيئات الأدباء أشد ظهورا في الانجليزية منه في العربية ، لأن أدباء الانجليزية أكثر اضطرابا في المجتمع وادخلا له في أدبهم وأكثر ارتحالا في البلدان وذهابا في آفاق الفكر واعرابا عن أفكارهم الصميمة وآثار تجاربهم ، ولأن المجتمع الانجليزي تغير وتجدد على توالى العصور من عهد اليزابث الى الوقت الحاضر ما لم يتغيره المجتمع الاسلامي ، والثقافة الانجليزية تطورت بتقدم العلوم ما لم تتطوره الثقافة العربية ،

المحافظة كانت أغلب على المجتمع والفكر العربيين ، وهي أيضا كانت
سمة الأدب العربي وديدن أدباء العربية ، ومن ثم تشابهوا كثيرا في
الموضوعات والأساليب على تباعد المواطن والعصور .

فأدباء العربية بعد قيام الدولة الإسلامية ودخول الأدب طوره الفني
الراقي ، كانوا يأخذون أنفسهم بضروب من القول يطلبون بها البراعة
الفنية أو الشهرة أو الحظوة والنجاح ، كالتمدح بجليل الصفات والتفاخر
بتالد (١) المجد ومدح الأمراء . وجروا في ذلك على سنن مألوفة واغترفوا
من مناهل مطروقة ، حتى تشابه أولهم وآخرهم وبعيدهم وقريبهم . فاذا
قرأت مئات القصائد التي نظمها مروان بن أبي حفصة وبشار وأبو تمام
والبحتري وغيرهم في مدح الخلفاء ، كى ترى أثر البيئة الخاصة للشاعر
في كل ذلك فلن تظهر بطائل ، لأنهم إنما نظموها لأغراض مادية وعلى
أنماط ماثورة ، لا دخل للنفس ولا لثقافتها الفكرية فيها . واذا قرأت
قول أبي نواس :

ومستعبد أخوانه بثرائه لبست له كبرا أبر على الكبر
لقد زادني تيبها على الناس أننى أرانى أغناهم وإن كنت ذا فقر
فوالله لا يبدى لسانى حاجة إلى أحد حتى أغيب في القبر
فلا يطمعن في ذاك منى سوقة ولا ملك الدنيا المحجب في القصر

كدت تحسب قائل هذا الشعر شريفا حسيبا عفيفا ، يزهد في
غرور الدنيا ويقنع بالقليل استمساكا بالأنفة والكبرياء ، ولم تعز هذا
الفخر المغرق الى ذلك المداح السال الذي أنفق العمر في اجتداء عطايا
الحكام ليبذرهما في انتهاب اللذات الجسدية ، وما ذاك الا أن أبا نواس
اقتفى في نظم هذا الشعر الطنان أثر أشرف الجاهلية الذين كانوا يتمدحون
بالأنفة ، وأراد أن يظهر أنه لا يقصر عن شأوهم في ذلك الباب من أبواب
القول . والأدب العربي حافل بهذا الضرب من الانشياء التقليدى الذي
لا أثر فيه يذكر للشخصية المستقلة والبيئة الخاصة *

هذا ، ونشأة كثير من أدباء العربية مجهولة ، وبيئتهم الأولى غامضة ،
وأكثرهم لا يظهرون في ضوء تاريخ الأدب الا حين يصلون الى ذرا الأمير ،
وقد كان ذلك الوصول غاية أكثرهم ، ومن ثم نرى في تاريخ الأدب العربي
بيئتين كبيرتين تتلو احدهما الأخرى وتشملان أكثر اعلام الأدب العربي :
الأولى بيئة القتال التي كانت بيئته الجاهلية ، وكان الجلال فيها هم

(١) بتالد : يقدم .

الأشراف ، والتمدح بالبلاء فى الوغى هم الشعراء ، وكان الأشراف فى كثير من الأحوال هم الشعراء وهم الخطباء الفحول ، يشفقون بلاءهم فى الهيجاء ببلاغتهم فى القصيد والارتجال ، والبيئة الثانية بيئة البلاط التى اضطرب فى محيطها أكثر الشعراء والكتاب بعد الاسلام وقيام الدولة ، ونأثروا بها ونظموا فيها ونثروا .

فبيئات أدباء العربية المادية والذهنية كانت كثيرة التشابه من وجوه ، والبيئات الأولى التى شب فيها كثير منهم مبهمة غامضة ، وقد كان نقاد العربية قليلي العناية بأمر البيئة وأثرها فى تكوين الأديب ، انما كانوا يعرضون لبعض التواريخ الجافة المتعلقة بمولد الأديب ووفاته ورحلته الى بعض العواصم واتصاله ببعض الحكام ، ويستحسنون بعض ما أنشأ أو يستهجنونه ، ويفضلونه أو يفضلون عليه ما قال أديب غيره فى نفس الباب ، ولهم فى ذلك بعض العذر ، اذ كانت للقول كما تقدم أوضاع وأنماط معروفة ، يأخذ الأديب بها نفسه ما استطاع ، ويحاكى الأقدمين فيها ما أمكنته براعته . أما بيئته الخاصة وتراثه الذهني والنفسي ، فيذر جانبا وقلما يدخله فى أدبه .

ولا يرد ذكر البيئة وأثرها فى كتب النقد العربى الا عرضا ، كالذى ورد من أن ابن الرومى سئل لم لا يشبه كتشبيهات ابن المعتز ، فقال لسائله : أنشدنى شيئا من قوله الذى استعجزتنى عن مثله ، فأنشدته بعض أشعار ابن المعتز التى يشبه فيها النجوم والأزهار بالفضة والعنبر ومداهن الغالية وهلم جرا ، فصاح ابن الرومى : واغوثاه ! لا يكلف الله نفسا الا وسعها ! ذاك انما يصف ماعون بيته ، وأنا أى شىء أصف ؟ ووضع الجاحظ رسالته سالفة الذكر على لسان أرباب المهن ، فأجرى القول فيها مجرى الدعابة والمغالاة ، وكان أولى لو عرض للأمر من ناحيته الجديدة . واستعرض بديع الزمان فى بعض مقاماته عددا من فحول الشعراء المتقدمين . فقال ان أحدهم أشعر الناس اذا غضب ، والآخر أشعرهم اذا رهب ، والثالث اذا شرب وهلم جرا ، فلم ير الا أن هذه جبلتهم التى فطروا عليها ، ولم يتخيل لبيئة كل منهم فى ذلك أثرا .

أما فى الأدب الانجيزى ، ولا سيما فى العصر الحديث ، فدرس أثر البيئة وعواملها من وراثة وتربية وثقافة وعقيدة ، أساس كل دراسة أدبية وكل نقد وترجمة ، والوسيلة الأولى لفهم الأديب وقدر آثاره حق قدرها ، وما ذاك الا نتيجة ارتقاء العلوم والاجتماعيات فى العصور الحديثة ،

واستفادة الأدب الانجليزي بمجهودات أدباء الأمم الأخرى ، كأدباء الايطالية
الذين ارتقوا بعلم تاريخ الأدب ، وأدباء الفرنسية الذين هذبوا أصول
النقد ، وقدم درس الأدب الانجليزي وترجم أدباؤه على ضوء هذه القواعد
والأصول ، فبلغ من الوضوح والترتيب ما لم يبلغه تاريخ الأدب
العربي بعد *

المعنى والأسلوب

فى الأدبين العربى والانجليزى

المعنى الصادق الرفيع والأسلوب المحكم الجميل هما قوام كل أدب خليق بهذا الاسم ، لا يغنى أحدهما اذا غاب الثانى ، فلا بد من شعور عميق ، أو تفكير ثاقب جدير بعناء الانشاء والقراءة ، ولا بد بجانب ذلك من عبارة منسجمة جميلة تعرض المعنى على احسن وجه وأحبه الى النفوس ، وكبار الأدباء فى شتى الأمم يجمعون دائماً بين الفكر الواسع المتصرف فى شؤون الحياة ، وبين المقدرة اللغوية التى تدلل لهم أعنة البيان ، ويتصرفون بها فى اللفاظ والتراكيب ، ويكون لكثير منهم فضل ترحيب جوانب اللغة واكتساب تعبيراتها جادة ومرونة ، واعطاء بعض ألفاظها منزلة سامية لورودها موردا حسنا فى بعض آثارهم ، وشأن الأديب الكبير فى ذلك شأن غيره من رجال الفنون ، فالمصور مثلا لا يبلغ الذروة فى فنه حتى يجمع الى خصب مشاعره بصرا بتأليف الألوان والأصباغ ، وكل فنان لابد له من الجمع بين رقة الشعور وبين البصر بالآلات التى يكون بها أداء ذلك الشعور .

والفكر واللغة ، أو المعنى واللفظ ، شديد التوثق والتوشج ، فلا ندحة للأديب عن التأثير بروح اللغة التى يكتب فيها وتراثها على مدى الأجيال ، ولا سبيل له الا الانشاء والنظم فيها حتى يختلط بروحها ، وتمتزج أفكاره بالمفردات والأساليب التى تهيئها له اللغة ، والأديب الصانع يختار من المفردات تلك التى تنهض بأفكاره ومشاعره فى أوجز لفظ وأحكمه وأوضحه بيانا ، بما تمتاز به تلك المفردات من أجواء من المعانى رحيبة تجمعت حولها على مرور الأجيال وتوالى الاستعمال ، حتى غدت يثيرها مجرد ذكر تلك المفردات على نحو خاص ، وذلك ما يجعل آثار بعض الأدباء المفتنين والشعراء المجودين متعذرة الترجمة الى غير لغتها ، لتعذر نقل هذه الأجواء المعنوية برمتها من لسان الى لسان ، بل يتعذر أحيانا التفريق بين المعانى والأساليب التى هى مفرغة فيها . لتمازجها تمازج الروح والجسد .

ويبلغ الأدب كماله حيث يسود القصد والاعتدال بين اللفظ والمعنى ، فاذا استبد المعنى بالأهمية كلها وتحيف اللفظ خرج الأثر النشأ من حظيرة

الأدب الى حيز العلم ، واذا تحيف اللفظ المعنى وصار غاية في ذاته هبطت قيمة الأثر الأدبي ، وأصبح أشبه بالزخرف والصناعة منه بالفن السامي . ويغلب الاحتفاء بالزخرف اللفظي في عهد طفولة الأدب ، اذ يكون الشعر مجرد أهازيج وقواف موسيقية تافهة المعاني، وفي عهود انحطاط الأدب حين ينصرف الأدباء عن لباب الحياة الى القشور ، وبالزخرف اللفظي والبراعة اللغوية والأسجاع والايقاع الموسيقي يكلف الأديب الناشئ أول عهده بالأدب ، وكلما نضجت نفسه وحسب ذهنه بتجربة الحياة واستيعاب المعارف تحول اهتمامه الى المعاني والحقائق والتزم اللفظ في آثاره منزلته الصحيحة ، وهي كونه وسيلة للمعنى لا غاية في ذاته .

وقد عرف أقطاب الأدب الانجليزي بواسع بصرهم بأسرار لغتهم ، واليههم يرجع فضل توطئة جوانبها وتعبيد مسالكها ، ولكل منهم في هذا الباب أثر : فشكسبير قد استخدم في رواياته أكبر عدد من مفردات اللغة استخدمه أديب ، وصرف تلك المفردات على شتى الوجوه ، وسببسر أغنى اللغة بما أدخل فيها من ألفاظ جديدة لم تعرفها قبله ، وملئون أصبح اسمه علما على ضرب من النظم عذب الموسيقى فخم الرنين ، وبوب بلغ الغاية من احكام الصناعة وجزالة الأسلوب ، ووردزورث كان دائم التجارب في الأساليب يحاول أن يشق للشعر أسلوبا جديدا ، وتنيسون تفنن في استخدام الألفاظ وتحوير التراكييب يؤلف بها روائع الصور الشعرية ، ولا تزال مخطوطات بعض أولئك الأدباء موضع دراسة النقاد والأدباء ، يتفقهون بها في أسرار اللغة ويزدادون بصرًا بخصائص الألفاظ والتراكييب . ويرون كيف يحل لفظ محل لفظ فتشرق به ديباجة البيت من الشعر ويسفر به وجه المعنى جميلا بعد خفاء والتيث (١) .

على أن أولئك الأدباء برغم احتفائهم بالأسلوب ذلك الاحتفاء لم يغلبوه على المعنى ولم يجعلوه غاية في ذاته ، ولم يصبح الأدب في أيديهم براعة في اللفظ وتأنقا في النسيج ، بل ظل اللفظ لديهم دائما خادما للمعنى ، وظل غرضهم الأول من الانشاء الافصاح عن الفكر والشعور . ولم يسرف الأدباء في الاحتفاء باللفظ الا في عهد انحطاط الشعر في بعض القرن الثامن عشر ، في حقبة لم تنجب شاعرا كبيرا ، ولم يحظ بالشهرة في حياته والذكر بعد موته من أدباء الانجليزية الا من أهله لذلك نظيرة في الحياة صادقة عميقة ، ولم تكن كل بضاعته أسلوبا مزخرفا ، منمقا ، بل عرف من كبار الشعراء من لم يكن يولى أسلوبه كبير احتفاء ، ومع ذلك رفعه

(١) التيث : لاث بالشئ أي خلطه به ومرسه .

فكره الجوال فى آفاق الحياة ، ونفسيته الجياشة بأشتات الأحاسيس الى قمة المجد ، فيرون كان كما قال عن نفسه لا يعاود النظر فى بيت شعر خطه ، ووردزورث نظم كثيرا من بدائع شعره فى أبسط لفظ يستعمل فى النشر والتحدث ، وهاردى لم يكن شعيره الا نثرا جيد النظم عاريا مجردا من تلك الألفاظ الشعرية ذات الأجواء المعنوية ، ومن ثم لا يسمو به النقاد الى طبقة الفحول كشكسبير وملتون ، بل ينزلونه الطبقة الثانية بين الشعراء ، وهذا الأسلوب العارى المجرد يزداد شيوعا فى العصر الحديث .

أما فى العربية فكان الأمر على نقيض ذلك : فلم يكن يكون بين كبار أدبائها بعد دخول الأدب طوره الفنى من أهمل الأسلوب واحتفى بالمعنى وحده ، وان كان أكثرهم ليقدم الأسلوب على المعنى ويحتفى للفظ ورنينه أى احتفاء وان تضاعف المعنى وتفه ، فاذا كان النثر العربى يبلغ ذروته من الكمال على أيدي ابن المقفع والباحظ ، والشعر العربى يجرى الى غايته فى آثار المتنبى وابن الرومى والمعري ، حيث يجتمع صدق النظرة وجمال الأسلوب ، فان غيرهم من مشهورى أدباء العربية انما نبه ذكرهم لبلاغتهم اللفظية ، لا لفلسفة فى الحياة معدودة ، ولا لرسالة فى الأدب عتيده . ومن أولئك البحترى ومن نحا نحوه من الشعراء والمداحين ، والصاحب بن عباد ومن سلك دربه من المنشئين المسجعين ، فالناظر فى الأبيات الآتية من نظم أشهر شعراء العربية ، يرى أن حظها من المعنى ضئيل ونصيبها من جزالة الأسلوب ورنين اللفظ وعذوبة الموسيقى كبير ، قال أبو نواس فى مدح بعض الوزراء :

عباس عباس اذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع

وقال البحترى فى النسيب :

لما مشين بذى الأراك تشابهت أعطاف قضبان به وقدود
ومتى يساءلنا الوصال ودهرنا يومان يوم نوى ويوم صددود

وقال أبو تمام فى رثاء طفلي .

ما زالت الأيام تخبر جاهلا أن سوف تفجع مسهلا أو عاقلا
بدران شاء الله أن لا يطلعا الا ارتداد الطرف حتى يأفلا
ان السجعة بالرياض نواضرا لأجل منها بالرياض ذوابلا

نصيب هذه الأبيات جميعها من الفكرة البعيدة أو النظرة المستقلة أو الشعور الصميم ضئيل . وماذا فى قول أبى نواس ان العباس

عباس والفضل فضل والربيع ربيع ، الا أنه ظرف وأحسن نظم تلك
الأسماء مزدوجة في سلك البيت ؟ وأي الناس لا يعبس اذا احتدم الوغى ؟
ولو قال : عباس بسام لكان وصفه بالشجاعة التي لا تحفل بالموت المحدث .
ثم ماذا من جديد في جمع البحترى بين الغصون والقودود وشكواه النوى
والصدود ، أو في تشبيهه أبي تمام للطفلين بالبدرين الآفلين مرة وبالروضين
المصوحين أخرى ؟ انما فضيلة هذا الشعر كله حسن اختيار اللفظ النقي
وجمال الموسيقى ولطافة التقسيم والمقابلة ، أما المعنى فلا عمق فيه
ولا ابتكار .

فبالاحتفاء باللفظ ولو على حساب المعنى قد تزايد في العربية تدريجا
مع دخول الأدب طوره الفني ، طور التمدوين والتجويد ، وتزايد الولع
بالتسجييع والمطابقة وغيرهما من المحسنات اللفظية . وكاد الولع
بالسجع عند صاحب بن عباد فيما روى يبلغ حد الجنون ، حتى قيل انه
عزل قاضيا بناحية يقال لها (قم) لأنه أراد أن يتم سجعة فقال : أيها
القاضي بقم ، قد عزلناك فقم . وتكلف في بعض أسفاره كما حدث عنه
ابن العميد أن يذهب الى قرية غامرة ذات ماء ملح يقال لها النوبهار لا شيء
الا ليكتب اليه : كتابي هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار ،
وما زال اللفظ يستبد باحتفال الأدباء ويطغى على المعنى ، حتى ارتد الأدب
في عصور التدهور زخرفا لفظيا صرفا ، ولم يبق من المعنى الا هذيان
كهذيان المخالطين .

فلا نبالغ اذا قلنا ان المعنى كان في ازهر عصور الأدب العربي يحتل
المكان الثاني بعد اللفظ ، وهذا واضح في أقوال النقاد . قال الآمدي في
موازنته بين الطائيين : « وليس الشعر عند أهل العلم به الا حسن التأني
وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها . . فان اتفق
مع هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة أو أدب حسن فذلك زائد في بهاء
الكلام ، وان لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه » . وقال
الخليل في سياق حديث له أورده ياقوت في ترجمة صاحب بن عباد :
« الشاعر يطلب لفظا حرا ومعنى بديعا ونظما حلوا وكلمة رشيقة ومثلا
سهلا ووزنا مقبولا » ، فكل الاهتمام هنا موجه الى لطافة النسيج والتجويد
لا الى عمق الفكرة والشعور .

كان الشعراء في الجاهلية وصدر الاسلام يرسلون القول على
سجيته في نسيج محكم يرمون به الى بيان أفكارهم وشعورهم على أقصد
سبيل وأقربه ، فلما كان عهد التحضر والتثقف أحاطت بالأدب عوامل

أدت الى تقديم اللفظ على المعنى ، منها فساد اللغة بمخالطة الأعاجم فاشتد الحرص على طلب اللغة الصحيحة واتفق أساليب العرب الأقحاح وتقليد فحول المتقدمين . وزاد هذا الحرص شدة اشتغال الأعاجم أنفسهم بالأدب وجدهم فى تحصيل لغة العرب ولسان الكتاب المنزل ، وسبقهم فى العلوم والتأليف ، وتفاسيحهم بمحاكاة أدب الجاهلية وصدر الاسلام ، وتظاهروا بالقدرة على التصرف فى الألفاظ والتراكيب ، فكان همهم صحة التعبير وبلاغته قبل صدق المعنى وعمقه .

ومما زاد الأدباء انصرافا الى اللفظ وتجويده واختيار الأسلوب والافتنان فى صياغته وتجويره ، انتشار المدح والتكسب بالأدب ، فانه لما كانت الفضائل الانسانية ، ولا سيما تلك التى كانت مشهورة مطلوبة فى المجتمع الاسلامى ، محدودة معروفة ، كان مجال القول فيها محدودا ومجال الابتكار ضيقا ، فطلب الشعراء المداحون السعة فى جانب اللفظ ، يتأنقون فى تزويقه وترصيعه ، ويعتاضون عن الابتكار فى المعانى بالأوزان الرشيقية والقوافى الرخيمة والتشبيهات اللبيقية ، والتقسيم والمقابلة والسجع والتجنيس . وبهذه المحسنات البديعية - ما راق منها وما سمح - تحفل مدائح أبى نواس وأبى تمام والبحتري والمتنبي وابن الرومى ، اذا جردت من زيناتها اللفظية لم يبق من نسيبها الاستهلال ومدحها المغرق شئ ذو بال ، من ذلك قول أبى تمام فى مدح بعض القواد ، ولا داعى لذكر اسم ذلك القائد أو صفته ، فما كان لكل ذلك أى دخل فى نظام مثل ذلك القصيد :

وجرد من آرائه حين أضمرت به الحرب حدا مثل حد المناصل
وسارت به بين القنابل والقنسا عزائم كانت كالقنا والقنابل
وقد ظلمت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير فى الدماء نواهل

فكل هذه المعانى الدائرة حول شجاعة القائد وأمراه التى تفوق الجيوش ، وعزائمه التى تفل السيوف ، والعقبان التى تتبع أعلامه لتنهل من دماء أعدائه ، كل هذه المعانى مطروقة من قبل أبى تمام ، مذكورة بعده فى ميمية المتنبي المشهورة وغيره من مدائحه لسيف الدولة ، ولا غرو فقد غدت أكثر معانى الأدب فى أبواب المدح والهجاء والفخر والوصف والحكمة وغيرها ، تراثا متداولاً بين الشعراء من جيل الى جيل ، اذا تفنن الشاعر صاغ بعضه صياغة جديدة أو ولد منه بعض التوليد ، فاذا اتفق له أن صاغ معنى قديما صياغة جديدة يفوق صياغة صاحبه الأول صفق له النقاد

وقالوا سرقة مغفورة ولص ظريف هو أولى بالمعنى من صاحبه .لأنه أجود لفظا ، كما قيل فى بيت البحتري فى مدح المتوكل :

فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لمشى اليك المنبر

أخذه وتصرف فيه من قول أبى تمام :

تكاد مغانيه تهش عراصدها فتركب من شوق الى كل راكب

كان الشعراء اذا صرفوا القول الى المديح اتوا بالمعاني الجوفاء الهزيلة ، واحتفوا باللفظ يدارون بزخارفه ركافة المعنى ، وكان اكابر شعراء العربية فى طور الأدب الفنى مداحين ، فامتلا الأدب العربى بذلك الضرب السقيم المعانى الطنان الألفاظ ، وانما كان الشعراء يبتكرون المعانى الجيدة يلبسونها من اللفظ أجمل لبوس حين ينظمون فى غير المديح من الوجوه التى يدفع الى النظم فيها شعور صحيح وفكر ثاقب ، فكانت من ذلك حكم المتنبي وأوصاف ابن الرومى ونظرات المعرى ، كما ظهرت فى الأدب العربى تلك الظاهرة الفريدة ، وهى أن أشعار كثير من المقلين وممن يعدون فى الطبقة الثانية من الشعراء كالصولى والامام الشافعى ، تروغ النفس بصدقها وحصافتها أكثر مما تروعها أشعار المكثرين المشهورين ، لأن أولئك المقلين كانوا لا ينظمون الشعر الا تلبية لحافز نفسى ، وهؤلاء المكثرين كانوا ينظمون ابتغاء النوال .

ومن عوامل احتفاء أدباء العربية باللفظ أيضا ، أن الأدب العربى فى ظل الدولة الاسلامية كان أكثره أدبا بلاطيا وأرستقراطيا ، مكفوا عن شؤون المجتمع ، منزويا عن أكثر مباحث القول ومجالات الفن ومسارح الأدب ، من وصف الطبيعة والتأليف التاريخى الفنى ووصف آثار الأقدمين فى عالم الحضارة والفنون ، وسبحات الخيال فى عوالم الحقيقة والخرافة ، وتصوير آثار الرحلات والمغامرات ، فلما حرم الأدب طرق هذه المواضيع الجملة الخصبة المحافلة بمناوح التفكير والشعور والقول ، لم يبق لديه كبير مجال للابتكار فى المعانى ، فتوفر على الافتنان فى الألفاظ يدور بها فى مجالاته المحدودة الموروثة عن المتقدمين .

وزاد مجال القول ضيقا حرمان الأدب العربى من الاطلاع على الأدب اليونانى ، فلو كان على اتصال مستمر بذلك الأدب لتمهدت أمامه منادح للقول من جهة ، ولانصرف اهتمامه من جهة أخرى الى المعانى دون

الألفاظ ، لأن المعانى دون الألفاظ هى التى تتشارك فيها آداب الأمم المختلفة ، أما أدباء العربية الذين لم يطلعوا على أدب أجنبى راق ، فكان اعتمادهم يتفوق اللغة العربية على اللغات شديدا ، وكانت ألفاظهم وتعبيراتها تقوم فى مخيلتهم مقام الحقائق المتحجرة ، وكان التجويد فى استخدام تلك الألفاظ والتعبيرات فى الأبواب المطروقة من قديم غاية الأديب ، فظل بيت زهير بن أبى سلمى الذى قاله فى عهد البداوة ، يصدق على شعراء العربية فى أوج عهد الحضارة والثقافة :

ما أرانا نقول الا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً

ثم لاشك فى أن حياة الترف وزخارف العيش التى انغمس فيها العرب بعد الفتوح ، وأبهة البلاط التى كان الأدباء يحومون حولها ويتزاحمون فى مراكبها ، كانت من أسباب شيوع الزخرف فى الأدب الذى هو مرآة للحياة المحيطة به ، فاذا كان الأدب الفارسى قد كان فى ذلك العهد من الضالة بحيث لم يؤثر كثيرا فى أدب العرب ، فقد أثر الفرس فى الأدب العربى بمظاهر الترف والبذخ المادية التى نقلها عنهم الساسانيون وتركت آثارها فى الأدب ، وهذا الترف الأدبى كالترف المادى دليل الرخاوة والضعف ، والسير الى الانحلال .

وقد ساعدت طبيعة اللغة العربية ذلك الميل الذى غلب على أدبائها ، الميل الى التأنق فى اللفظ ، وتشقيقه بالمحسنات التى ينوء المعنى تحتها ويتضاءل ، وذلك لما للغة العربية من بلاغة أصيلة وموسيقى فخمة ، وما لألفاظها وتراكيبها فى النفوس من روعة وبهاء ، وما لأوزان الشعر العربى وقوافيه من رصانة وجلال ، وما للغة من ثروة طائلة وغنى بطرف الاشتقاق وامتلاء بالمترادفات ، واتساع لصنوف التشبيهات والمجازات ، بحيث يستطيع المتمكن من كل هذا أن يجمع حوله المستجدين ويستولى على الألباب ، دون أن يبتدع فى المعنى أو يتعمق فى الشعور . كما تصرفك عنوبة اللحن الموسيقى عن تفاهة المعنى المتغنى به ، وقد استغل كتاب العربية كابن العميد والصاحب والبديع والحريرى ثروة اللغة هذه أبعد استغلال ، وجاءت رسائلهم ومقاماتهم معارض ماثجة بتلك الكنوز العظيمة .

ففى الأدبين العربى والانجليزى آثار بالغة حد الفن من الصديق والعمق والجمال ، تجمع بين حرارة الشعور وجودة الأسلوب ، غير أن الأدب العربى لاحاطة تلك الظروف والعوامل به ، أحفل من الأدب

الانجليزى بالآثار التى يغلب فيها اللفظ على المعنى ، وتظهر الصنعة على الطبع ، وتبدو فيه دلائل الاحتفاء بالأسلوب واضحة ، حتى فى مخلفات أكبر أدبائه وأعظمهم حظا من النبوغ والشاعرية . ويعد بين أقطابه أفراد لم تؤثر عنهم فلسفة فى الحياة خاصة أو شخصية مستقلة ، ولم يرفع ذكرهم الا اقتدارهم على تصريف الكلام ، ويسمى الأدب بآثار أولئك الأدباء التى تعجب بحلاوة أسلوبها وان لم تعجب بمعنى كارتها ، فليسنا نسرف اذا قلنا فى الجملة ان الأدب العربى كان أدب أسلوب ، والأدب الانجليزى أدب معنى .

أثر الأخلاق

فى الأدبين العربى والانجليزى

التخلق من صفات الانسان الذى يحيا فى الجماعة ، تضطرم الحياة الاجتماعية الى تعديل كثير من طباعه الفطرية التى يجبل عليها ، وكبح ما يتنافى منها مع مصلحة المجتمع ، والأخذ بما فيه تلك المصلحة ، فالأخلاق الحسنة أو الفضائل هى الصفات التى بها يكون صلاح الفرد والمجتمع ، ومن أجل هذا الصلاح يحمى الصدق والشجاعة والعفة ، ويذم الكذب والجبن والفجور ، وهذه الأخلاق الحسنة التى هى مزيج من طباع الانسان المركبة فيه ، ومقتضيات المجتمع التى يفرضها عليه ، تكاد تتفق بين جميع الأمم فى شتى الأصقاع والعصور ، فما من أمة لا يحمى فيها الكرم والايثار والقباعة وتذم الرذائل المضادة لهذه الفضائل ، معايير الأخلاق هذه يكاد يتحد فيها الجميع ، انما تختلف الأمم والأفراد فى مدى مراعاتها حقا واتباعها عملا ، باختلاف الجبلات والأوساط الجغرافية والاجتماعية .

وللأخلاق أثرها المحقق فى آداب الأمة وأدب الفرد . تنعكس الأخلاق فى مرآة الأدب كما تنعكس العقليات ، ويكون ظهور آثارها فى الأدب أحيانا بدهيا تلقائيا غير مقصود ، كما يكون أحيانا مقصودا معنينا ، اذ يلجأ الأديب الى تصوير أخلاقه الذاتية وأخلاق غيره من أفراد مجتمعه ، وتختلف صبغة أدب الأمة الأخلاقية من جيل الى جيل ، حسب ما يتوالى على المجتمع من عوامل الفضيلة والرذيلة ، ومتانة العقيدة الدينية أو انحلالها ، وارتفاع المثل العليا التى يتوخاها المجتمع أو انحطاطها ، أثر كل ذلك واضح فى آداب الأمة المكتوبة وفى أقاصيصها الشعبية وأناشيدها المتداولة .

وفى الأخلاق الفاضلة كما تقدم صلاح المجتمع ، بيد أن تعجيبا الفضيلة وذم الرذيلة ليسا وظيفة الأدب الأولى ، انما وظيفته تصوير الجمال ووصف الشعور وبيان الحقائق على ما هى عليه غير مموهة ، والعبقرية الفنية والفضيلة ليستا دائما توءمين ، بل ربما كان الكثير من رجال الفن أميل الى الافراط والتفريط فى حياتهم ، وأبعد عن القصد

والاعتدال من عامة الناس ، وقد ترقى الفنون وتزدهر فى عصور الادبار الخلقى ، كما كانت الحال فى ايطاليا فى عهد النهضة الاوربية ، على أن الأدب وان لم تكن غايته نشر الفضيلة ، ولا وظيفته ترقية الأخلاق ، ان هو الا مظهر من مظاهر رقى الانسان وتحضره ، وناحية من نواحي حياته الاجتماعية يجب عليه أن يخضع لما يخضع له سائر مناحى تلك الحياة من مقاييس خلقية فيها صلاح المجموع •

فاذا لم يكن واجب الأدب الوعظ والارشاد الى الخلق القويم فواجبه الذى لا شك فيه ألا يصادم الخلق القويم ولا يتحدى تقاليد المجتمع الصالحة ، وواجبه أن يتجه ما استطاع وجهة الخير ويتنكب (١) مواضيع الفساد ودواعى التبذل ، وكل أثر أدبى مهما بلغت براعته وصدقه ودل على عبقرية صاحبه ، اذا خالطه الفجور والافحاش واتسم بالاستهتار وتوخى الهنات والسوءات ، لابد أن يمحى الذوق السليم وينفر منه الطبع الكريم ، لما فيه من منافاة للأخلاق السامية التى يأخذ نفسه بها كل متحضر متعذب مثقف ويدرج عليها حتى تتأصل فيه وتصير له طباعا ثانية •

وكانت للعرب فى الجاهلية أمثلة عليا من الأخلاق الفاضلة التى تملئها حياة البادية كالشجاعة والذود عن الذمار والدفاع عن المحريم والجود والقناعة واجارة المستجير ، وحول التمدح بتلك الأخلاق يدور جانب عظيم من الشعر الجاهلى ، يعزو الشاعر تلك الفضائل الى نفسه تارة كما فعل عنتره فى معلقته ، وإلى قومه عامة كما فعل عمرو بن كلثوم ولبيد والسموأل ، وإلى ممدوحه كما كان يفعل زهير والأعشى ، ول بعض اشراف الجاهلية كالأفوه الأودى وحاتم الطائي وذى الأصبع العدواني ، آثار فى ذلك رائعة ببلاغتها وقوة أسرها وسمو منزعها ، ويرسلها بعضهم قصيدا رصينا ، وبعضهم يرسلها نصائح للمخاطب ، ويصوغها بعضهم وصايا الى أبنائهم ، وبعضهم يجعلها حوارا بينه وبين زوجه على تلك الطريقة العربية الجميلة ، وطلب العرب حسن الأحذوثة وطيب الأثر ، ولم يدسروا فى ذلك قولا أو فعلا ، قال حاتم الطائي :

وتذكر أخلاق الفتى وعظامه مغيبه فى اللحد بال رميمها

وبدهى أن التمسك بكل هاتيك المثل العليا الخلقية لم يكن ديدن جميع العرب ولا التغنى بها دأب جميع الشعراء ، بل كانت أسباب الشر

(١) يتنكب : يتجنب •

والفجور موفورة ، ودواعي المجون والخلاعة عديدة ، تتجلى في سيرة امرئ القيس الذي لم يكن يكاد يفيق غراما أو خمارا ، وحياة طرفه التي صورها في معلقته ، حيث وصف ثلاث حاجاته في الحياة ، فمنهن سبقه لعاذلات بشربة كميت (١) ، وتقصير يوم الدجن ببهكنة (٢) تحت الخباء (٣) المعمد ، وتراه اذا نادى المضاف محنبا (٤) ، وكان ذبوع المفاسد قبيل ظهور الاسلام سبب ظهور كثير من الحكماء الذين أخذوا أنفسهم بالزهد ودعوا اليه ، كما أخذ كثير من أشرف العرب أنفسهم بمجانبة الخمر والقمار ونحوهما ، ومن أولئك عامر بن الظرب الذي يقول وقد حرم في جماعة من السادة الخمر على أنفسهم :

أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرق ترب القبر أوصالي
مورثة القوم أضغانا بلا احن مزرية بالفتى ذى النجدة الحالى

وظل أكثر المثل العليا الأخلاقية في الاسلام كما كان في الجاهلية ، بعد أن هذب الاسلام من حواشيها وكفكف من غلوائها ، فتمدح شعراء الاسلام بالفضائل كالكرم والوفاء وحسن الجوار وكتمان السر والحلم عن السفية والتصون عن الفحشاء والترفيع عن المماراة والمجازاة بالحسنة عن السيئة ، كما فعل مسكين الدارمي وأوس بن معن ، والمقنع الكندي والشريف الرضى ، وتفاخروا بالبلاء فى الحروب والاباء على الضيم والتعالى على الجهال وطلب السيادة والمعالي ، كما فعل أبو فراس والمتنبى ، ومدح الشعراء ممدوحهم بهذا وذاك ، ورموا مهجويهم بأضداد تلك الفضائل ، وتهكموا فى مداعباتهم بالبخلاء والجبناء والمنهزمين والأدعياء والمتطفلين . ومن محاسن أشعار امتداح الخلق الكريم قول سالم بن وابصة الذى يتمثل فيه الروح الاسلامى :

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسطا أذى ولا مانعا خيرا ولا قائلا هجرا
إذا ما أثت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذرا

(١) كميت : الخمر .

(٢) ببهكنة : أى المرأة البضة الناعمة .

(٣) الخباء : بيت من وبر أو شعر أو صوف يكون على عمودين أو ثلاثة ويشير

هنا الى بيت طرفه بن العبد :

ويقصر يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد

(٤) محنبا : حنط الفرس ، أى اعوجت ساقاه ، والمحنط : المقوس والمنحنى .

وقول الشريف الرضى :

يصول على الجاهلون وأعتلى
لساني حصاة يقرع الجهل بالحجى
ولا أعرف الفحشاء الا بوصفها
ولا أنطق العوراء والقلب مغضب
ويعجم فى أنقائلون وأعرب
إذا نال منى العاضه المتأوب

وكان احتواء الشعر على تلك الآداب النفسية من أسباب ضن العرب الشديد به ، وتسميتهم اياه ديوانهم ، وأخذهم أبناءهم بحفظه . وكانت دراسة آثار أبطال العرب وأشرفهم تلك تقوم فى التربية العربية مقام دراسة أشعار هوميروس فى التربية اليونانية القديمة ، كل منهما تقدم للناسى نماذج من الفضيلة وأمثلة من الشخصيات العظيمة يحاكيها ويتشبه بها ، وهذا الباب من أكرم أبواب الشعر العربى وأجمعه لخير ميزات الأدب العربى ، من البلاغة والصراحة والايجاز ونفاذ النظرة .

على أنه بجانب هذه النزعة الخلقية السامية المتخلفة عن أشرف الجاهلية ، والتي رفعتها فضائل الاسلام درجات من الرقة والسمو ظهرت رويدا رويدا نزعة مضادة لها كانت ذات أثر فى الأدب واضح وضوح نزعة التسامى تلك أو هو أوضح ، وتلك هى نزعة الاستهتار والمجون والاباحية التى كانت نتيجة محتومة لاتساع الفتوح واختلاط العرب بأشبات الأجناس واستفحال الترف واتساع الثروة وتفاقم دواعى الشهوات ، ثم انحطاط مكانة المرأة من جراء ذلك واختفائها من المجتمع . حتى ذاعت فيه الآداب الحسنة والألفاظ الفاحشة ، بدل أن يتهدب مع الحضارة ، ويتخلص من جفوة البداوة الجاهلية .

وانعكس أثر كل هذا الفساد فى الأدب العربى ، فجاءت كتب الأدب محملة بالحكايات المخزية والعبارات النابية والاشارات المنذية ، وشبهب الشعراء بالذكر ، وتمدحوا بالتسلل الى الخدور ، وتفاخروا بالاسراف فى الشراب والعكوف على سماع الألحان ، وجاهر بعضهم بالزندقة وتهكموا بعقائد المجتمع الدينية ، ووقع بعضهم فى خصومهم بأقذع الهجساء وتهجموا على أعراضهم واتهموا حلائلهم . وفى أشعار جرير والفرزدق وبشار وأبى نواس والمتنبى وابن الرومى من ذلك الشئ الكثير .

أوغل الشعراء فى تلك الأبواب ايغالا لا يكاد يصدقه العقل ، ومن العجيب أن الطريقة التقليدية التى يجرى عليها تاريخ الأدب العربى

لاتزال تعد من فحول العربية شعراء لم يكد يؤثر عنهم مقال فى سوى تلك الأغراض الحيوانية . ومن البدهى أنه مهما تفنن الناظم فى وصف الخمر وتصوير الشهوات ، فلن يرفعه ذلك الى مصاف الشعراء العظام . ودواوين ابن أبى ربيعة وبشار وحماد وأبى نواس وأمثالهم ان هى الا استهتار وتمدح بالمخازى ومجاهرة بالفسوق محكمة الديباجة بارعة النظم ، فاذا كان هؤلاء من فحول الأدب العربى فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب الراقى . ومن أيسر مجون أبى نواس قوله :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى : هى الخمر

ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

فهو لا يقنع أن يفرط فى الشراب ما شاء ، بل يأبى الا الامعان فى الفجور والا أن يتم لذته بالجهر بالعريضة .

ولئن خمدت الحرية الفكرية التى كان يتمتع بها الفلاسفة والعلماء فى كثير من الدول الاسلامية ، فما كذلك هذه الحرية التى استباحها المجان من الأدباء : الأولى حرية تساعد تقدم الفكر ورقى العلم ، والثانية تؤدى الى انحطاط الخلق وتضرب فى دعائم المجتمع . الأولى حرية فكرية نافعة ، والثانية اباحية خلقية ضارة ، والأدب يرسم للمجتمع - وان لم يقصد - مثلا عليا يتوخاها ، فاذا تمادى فى تصوير دنىء النوازع فانه يهبط بالنفوس الى مستوى منحط لا تريد عنه ارتفاعا . وليس شك فى أن أشعار أبى نواس وأمثاله كانت من أكبر أسباب انحطاط المجتمع الاسلامى ، وقد كانت حياة الصعلكة التى كان يحيها ، وأشعار العريضة التى نظمها ، نموذجا للأدباء فى عصور الادبار ، فكان الأدب والصعلكة وادمان الشراب ووصف الخمر فى نظريهم توائم لابد أن تجتمع .

ففى الأدب العربى آثار من الخلق الكريم وتمدح بالفضيله ، بجانبها آثار من الأخلاق المنحطة ومجاهرة بالاستهتار ، وفى الانجليزية طرف من هذه وطرف من تلك أيضا : فقد تأثر بعض شعراء الانجليزية بالمثل العليا الأخلاقية التى سنتها المسيحية ، بجانب تلك التى أثرت عن الوثنية ، وظهر أثر ذلك فى أشعار سبنسر الذى جعل كل فارس فى ملحمتيه « الملكة الحسناء » عنوانا على فضيلة من الفضائل المسيحية . وبدا ذلك أيضا فى أدب عهد المطهرين ، ففى كتاب « رحلة الحاج » لبنيان تتشخص الفضائل والرذائل على ذلك النحو ، ثم كان تينيسون وكبلنج يمزجان النزعة المسيحية بالنزعة الوطنية ، وظهرت فى الأدب الانجليزى بجانب

ذلك نزعة الاستهتار والمجون فى بعض الفترات ، كما حدث فى بعض القرن السابع عشر من جراء التأثير بالبلاط الفرنسى المترف ، وفى أواخر القرن التاسع عشر من جراء التأثير بالأدب الفرنسى أيضا ، الا نزاع بعض القصصيين الانجليز كأوسكار وايلد الى ذلك الضرب التحليلى من القصص الذى يسرف فى تصوير اللذات ، واستكناه دنىء العواطف وخسيس النزعات .

على أن كلا الأمرين - أعنى التمدح بكريم الأخلاق والمجاهرة بالاستهتار والتبذل - كانا ضئيلى الأثر قصيرى العمر قليلى الأتباع فى تاريخ المجتمع والأدب الانجليزيين ، فالتشديد بالمحامد والمكارم ليس يعجب الذوق الانجليزى الذى يؤثر الصمت ويفضل العمل على القول ، ومن ثم لم تنفق أخلاقيات تنيسون وأضرابه بين صفوف المثقفين ، بل كانت من أسباب خمبول ذلك الشعاع بعد وفاته ، والتمادى فى التحدث بالشهوات بعيد كذلك عن طبع الانجليزى والاجترأ على قواعد الفضيلة ومراسيم الحشمة وتقاليده المجتمع لا يحظى منه بغير الإنكار والاعراض ، ومن ثم ثار بالمتهورين من الشعراء والكتاب أمثال بيرون وشلى وأوسكار وايلد ، فألجأ الأولين الى حياة المنفى وزج بالثالث فى غيابة السجن ، ولم تشفع لهم لديه مواهبهم الممتازة ولا صيتهم خارج انجلترا ، بل قد يغلو المجتمع الانجليزى فى الغيرة على تقاليده الى حد يسميه بعض الناس نفاقا اجتماعيا ، فيغضب على أدباء كرام سليمى الطوية ، كما غضب على هاردى ولورانس من القصصيين المحدثين .

فالطبع الانجليزى يأبى أن يكون الأدب مطية للفلسف الخلقى والفخر الطنان ، كما يأبى أن يكون الأدب معرضا للتبذل والتوقع ، وانما رسالة الأدب الانجليزى التى ورثها عن الأدب الاغريقى هى الجمال والشعور الصادق ، يحوط ذلك جو من الوقار والتسامى كان يعوز حتى الأدب الاغريقى ذاته أحيانا ، وانما احتفظ الانجليز بصفات الرجولة والرزانة تلك لأنهم - فضلا عن طبيعتهم الهادئة التى هى وليدة جوههم البارد - لم ينساقوا فى تيار من الترف الموبق بانتشار فتوحهم وتراهم أملاكهم ، كما فعل غيرهم من الأمم التى شادت الامبراطوريات فى عصور التاريخ ، لأن تشييد الامبراطورية البريطانية جاء تدريجيا هادئا كالنمو الطبيعى ، وبنجاة الانجليز من مفاسد الترف والثروة المفاجئة سلمت لهم أخلاقهم القوية .

أضف الى ذلك تمتعهم بالحكم الديمقراطى ، اى بحكمهم أنفسهم وخضوع الشعب لمشئته الشعب وحدها ، مما جعل للرأى العام الكلمة

العليا في المحافظة على الأخلاق والذب عن تقاليد المجتمع اذا تحداه متحد. وقع عليه الغرم المادى والأدبى، وطاشت دعوته قبل أن يتأثر بها سواء ، على حين كان رأى العام فى الأمم الاسلاميه ضعيفا مستخزيا أمام جبروت الملكية المطلقة ، فكان أفاضل القوم ينقمون على حركات الاستهتار فى المجتمع وآثار المجون فى الأدب ، ولكنهم كانوا مغلولي الأيدي لا يستطيعون عن عقيدتهم دفاعا ، وآلف بعضهم حيناً جمعيات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والضرب على أيدي العابثين فأصابهم من بطش السلطان وتعبه ما لم يصب أولئك العابثين .

وكانت الملكية فى الدول الاسلاميه أحيانا تشجع التهاجى بالمقذعات بين الشعراء شغلا لهم وللجمهور عن شؤون السياسة وظل بشار يتحدى عقائد الناس ويسخر من فضائلهم وينال من أعراضهم وهو آمن معافى ، حتى تطاول على عرض الخليفة ذاته فكان فى ذلك تلفه . ولما لم يكن للناس من قوة الرأى العام حارس ومدافع ، عمد من استطاع منهم بحول أو مكيدة الى الانتقام بنفسه ممن تعرض له بالفحش ، فلقى كل من المتنبى وابن الرومى حتفه على يد مهجوه . هكذا استفحل المنكر فى المجتمع والاباحية فى الأدب من أثر ذبوع الشرف وتحكم الملكية المطلقة ، رغم أن المجتمع كان مجتمعا اسلاميا والدولة كان أساسها دينيا ، وكان الأجدر أن أدبا يزدهر فى ظل الدين الاسلامى الحنيف ، يكون أعف الآداب لفظا وأشرفها قصدا .

وقد تقدم القول أن سريان ذلك الفساد فى كيان المجتمع الاسلامى. عقب الفتوح أدى الى انحطاط المرأة واختفائها من المجتمع ، وكان ذلك من دواعى انتشار هجر القول فى الأدب فان وجود المرأة فى المجتمع عامل تجميل وتوقر وتعفف فى المسلك والمقال ، وهو عامل ساعد به الأدب الانجليزى فكان من أسباب تساميه الخلقى ، وظلت النظرة الى المرأة فى الانجليزية سامية عفيفة ، وظلت صحبتها منبع وحى وداعية تكرم لدى الأدباء ، وقد قال ستيل عن صاحبة له فاضلة ان محادثتها هى ثقافة قائمة بذاتها .

فالأديب الانجليزى لا يتمدح بالمحامد ولا يجاهر بالمبازل ، لأن طبعه لا يستسيغ هذا ولا ذاك ، ومجتمعه لا يقبلهما منه ، ثم هو لا يهجو غيره، ولا يفحش فى الهجاء . وانما يصور أخلاق أفراد المجتمع بما فيها من فضائل ومعايب ، ويتهمك بالمتشدين بالفضائل والمتظاهرين بالعلم

أو بالثروة أو بالعظمة ، أى بالمسرفين فى كل شئ المجاوزين حد القصد
والاعتدال ، والتوسط الذى هو خير الأمور ، فالاعتدال شعار الانجليزى
فى مسلكه وفى أدبه والتطرف ينير سمخريته واحتقاره ، وهذا الميل منه
واضح فى مواضع الأدب الفكاهية وضوحه فى أغراضه الجدية .

الحكمة

فى الادبين العربى والانجليزى

يولد المرء جاهلا ثم لا تزال التجارب تبصره بحقائق الحياة ولا يزال الدهر يعلمه ويؤدبه ، ولا يزال هو بثاقب فكره ، يتعظ بماضيه وينتفع بمشاهداته ، ويصوغ من جزئيات التجارب التى يمر بها كليات يلخص فيها نواميس الحياة وطباع الأشياء ، التى يجدر بالعاقل أن يسايرها ويحتال لها ، لا أن يصادمها ويجرى على غير سننها ، وتلك هى الحكم التى هى لباب التجارب وثمار المعرفة ، والتى يغتبط الأديب أى اغتباط حين يستخلص عصارته من مرير الشدائد وعصيب الأزمات ، ويتجلى له ضياؤها بعد أن تنقشع غيوم المطامع وعواصف المخاوف ، ويتوارثها الناس جيلا بعد جيل ، وتتشكل مع اختلاف بيئاتهم وتقاليدهم ، ويشهدو بها الصغار وهم ناشئون ولا يعرف صدقها الا الكبار ، بعد أن يخوضوا أتون (١) التجارب الذى ينضج النفوس .

فالحكمة خلاصة التجربة العملية ، ولا تقرأ فى الكتب ولا تؤخذ عن المؤدبين . ومن ثم يستوى فيها الخاصة المثقفون والعامة الأميون ، إذ كان كلاهما يستقى من معين الحياة المشهوددة ، وتذيع بين العامة أمثال وحكم هى غاية فى الصدق ونفاذ النظرة وبلاغة التعبير . وقد يطابق بعضها أمثال الخاصة والحكماء فى كتبهم ، وتدل تلك الحكم السائرة بين الشعب على الكثير من أخلاقه وأعماله ، من سعى وتوان ، ووقار واستهتار ، وامعان فى الحروب واستراحة الى السلم والدعة ، ومن ثم نرى كثيرا من الأمثال المتخلفة عن جيل الانحطاط الماضى ، رغم صدقها وعمقها مصوغة فى أبدا لفظ وأفحش صورة ، ونرى كثيرا منها يبحث على القناعة والتواكل والعودة .

ومن الحكم ما ترسل موجزة مستقلة كأنها القضايا المنطقية مبدوءة ببعض حروف الشرط أو أسمائه ، ومنها ما تصاغ فى قصة محكمة ذات مغزى ، ومن تلك القصص ما ينسب الى حكيم من الأقدمين كلقمان ، أو الى

(١) أتون : الاتون : الموقد الكبير .

شخص خيالى مثل جحا الذى صاغ العامة حوله قصصا بالغة غاية الحكمة والمتعة والفكاهة ، ومن تلك القصص ما يجرى على السنة الحيوان ، ويقوم الأسد فيها بدور السلطان ويلعب الثعلب دور المكر والاحتياى ، ويمثل الذئب دور الغدر والافتئات ، وقد كان للأمم القديمة كالمصريين والفرس والهنود ، من كل هذه الضروب حظ رفير ، وفيها يبسط الحكماء المجربون لأبناء جلدتهم ثمار تجاربهم ، ويحضون على حسن المعاملة ويدعون الى الفضيلة .

والشرق ، مهد المدنيات القديمة والامبراطوريات العظيمة ، والملوكيات المطلقة ذات الحول والأبهة والبذخ ، والموارد الواسعة والكنوز الطائلة ، هو مهد الحكمة ومطلع الحكماء والأنبياء ، فيه تتجلى طباع الأشياء على جهارتها ، ويتجاور البذخ المفرط والبؤس المرمض ، وتتابع السعود والنحوس ، وتتقلب الأيام والدولت وتقلب عصور الرخاء والازدهار عهود الشدائد والادبار ، ومن كل ذلك تستخلص عبر الحياة وعظاتها ، ويتجلى لدوى النفوس العالية غرودها وبهارجها ، وتنصرف همه الحكماء والفضلاء الى هداية مواطنيهم الى سبيل الخير والسلامة وتلقينهم كيف يعيشون فى أمن من جور الغاشمين وبطش الأقدار ويسعون جهدهم لتخفيف ما حولهم من آثار البؤس والبلاء ، واصلاح مايرون من أسباب الفوضى والفساد ، وهكذا كان يظهر المصلحون والأنبياء بين اليهود والهنود وغيرهم من أهم الشرق ، بين الفترة والفترة .

للحكمة الصادقة المصوغة فى اللفظ البليغ المحكم مكانها فى أدب كل لغة : ففى كل أدب ما لا يعد من الحكم المتواترة يقتبسها الأدباء فى مواطنها ، وقد نسييت أسماء قائلتيها وضاعت نسبتها وصارت من تراث الأدب المشاع ، وفيه كذلك ما لا يعد من آثار الشعراء والكتاب التى أساسها الحكمة وقوامها خلاصات التجارب التى عركتهم ، وفى الأدبين العربى والانجليزى تراث حافل من الحكم والأمثال ، وفى كل منهما أدباء اشتهروا خاصة بصوغ الحكم وجرت آثارهم على الأقلام والأفواه ، لما تمتاز به من صدق النظرة وشمول الفكرة وإيجاز اللفظ .

ففى الانجليزية اشتهر شكسبير أولا وبوب ثانيا بروائع حكمهما . وسارت كثير من أبياتهما مسير الأمثال ، لما امتاز به كلاهما من التمكن من اللغة وبلاغة الأداء ووجازة التعبير ، رغم اختلافهما فيما عدا ذلك من نظرة الى الحياة ومذهب فى الفن ، وندر من كبار أدباء الانجليزية من لم يسر له مثل أو أكثر فيما توفر عليه من موضوع كالطبيعة والجمال،

والاجتماع والمرأة وهلم جرا . ومن الانجيل سرت في اللغة الانجليزية المكتوبة والمتكلمة أمثال وحكم عديدة ، لاتزال تحمل طابعها الاسرائيلي وتدل بأسماء أعلامها ومواطنها على نشأتها الشرقية ، وسرت في الانجليزية كذلك أمثال عديدة من الاغريقية واللاتينية يترجمها الأدباء اذا استعملوها وقد يثبتونها في لغتها الأصلية .

بيد أن ذلك هو كل ما هنالك ، والحكمة في الانجليزية نادرة الى حد بعيد ، وهي لم تكن من مطلوب أدبائها ولا من هم شعرائها يتوخونها عمدا ويودعونها اللفظ البليغ الموجز ، ولم يكن الايجاز من دأبهم كما كان من دأب شعراء العربية وأدبائها في أحسن آثارها وأزهر عصورها ، فالأديب الانجليزي اذا أخذ في الكتابة أرسل لخياله العنان ، وأبرز فكرته الواحدة في شتى الصور متسلسلة مستتبعة غيرها من الأفكار ، أما الأديب العربي فيؤثر الايجاز البليغ ويودع المعنى الواسع الشامل البيت الموجز أو العبارة المحكمة وينتجعه الى غيره ، وهذا الايجاز المشهود في جيد الشعر الجاهلي راجع بلاشك الى أمية العرب وحاجتهم الى الاستغناء بالقول الجامع ، والاجتزاء بالحكمة الشاملة ، وقد توورت هذه الخلة من خلال الأدب الجاهلي فيما تلا ذلك من عصور الأدب العربي كما توورت غيرها من خلال .

ومما حجب العرب في جاهليتهم في الحكمة أخذهم بحياة الحل والترحال ، واشتغالهم أبدا بالقتال وادراك الثارات : فتلك حياة شديدة كانت تتطلب كثيرا من العمل وقليلًا من الكلام المفيد مع قلته . وكان الانتفاع بالتجارب من أكبر أسباب النجاح فيها ، والاشتهار بالحكمة والدراية من صفات الشيوخ والرؤساء ، ومنهم كان كثير من فحول الشعر ورجال البيان ومصاقع (١) الخطباء كالأفوه الأودي وأكثم بن صيفي وقس بن ساعدة الأيادي . ومن ثم أثر عن الجاهليين ما لا يعد من روائع الحكم نظما ونثرا . ومن أمثلتها خطبة قس بن ساعدة وحكم زهير بن أبي سلمى في معلقته . وقد أعجب المتأخرون من الشعراء والأدباء بهاتيك الحكم أيما إعجاب ، وشمروا عن ساعد الجدل للاتيان بأمثالها ، وعدوها محك قدرة الشاعر وبرهان الشاعر الصادقة ، وكاد يلهمهم الاشتداد في طلبها عن ابتكار شيء جديد في الشعر .

(١) مصاقع : المصقع : البليغ يتفنن في مذاهب القول .

وكان العرب في الجاهلية لا يعدون الشاعر فحلا حتى ينطق بالحكمة . فما لم يأت بشيء منها فهو عبد عر لم ينضجه نور (١) التجارب ولم تتكشف له حقائق الحياة ، وظل الأعشى فيما قبل مزويا عن مرتبة الفحول ، رغم ضربه بسهم في مجالات المدح والهجاء والاعتذار ووصف الخمر ، حتى قال في مدحه سلامة ذو فائش : « والشئ حينما جعل » فرفعت هذه الجملة الموجزة الى مصاف النابغة وامرئ القيس . وروى حكايات كهذه عن شعراء الاسلام : فقد قيل ان جريرا سمع داليلة عمر بن أبي ربيعة التي يقول فيها : « انما العاجز من لا يستبده » فقال : « ما زال هذا الفتى يهذى حتى قال الشعر » . فهو لم يحتفل بل بالماله والحق في التسمييب ، حتى ضرب على وتر الحكمة واستثار انتجابه .

وادب الجاهلية وصدر الاسلام حاول بذلك الحدم البليغة المستعملة على نجارب قائلها من سادة القبائل واشرافها . الجامعية لنظرائهم في الحياة وخطتهم وسنتهم فيها . وتمدحهم بما رسخوه لأنفسهم من مناهج وما أخذوها به من فضائل ، وهذا الباب من أكرم أبواب الأدب العربي وادعائها الى الانتجاب . ومن أجله كان العرب في تلك العهود يغالون بالشعر وينسبون أبناءهم الى مدارسهم . وكانوا يسمون هذا الباب من الشعر بالأدب ، لأن حفظ أناره والعدل بها يؤدبان النفس ويهذبان الخلق ، وذلك هو الاسم الذي أطلقه أبو تمام في حماسه على ذلك الضرب من القول الشامل للحكمة والتمدح بالفضيلة . وقد استمع معنى هذا المفظ فبعد أن كان اسم جزء صار اسم كل وأطلق على الشعر حماسه والنثر معا . وليس شك في أن هذا التطور الطبيعي البسيط هو منطوق كلمة أدب اللغة ، وان يكن بعض المشرقين قد سخلق وزعم أنها مقلوبة عن كلمة داب ، فذلك من قبل النظريات المخفضة التي لا تبلغ مبالغ اليقين أبدا ، وليست الا من قبيل التطرف العلمي والمظاهر بالعمق في البحث . وان لم يجد ذلك العالم فتيل (٢) ، ولم يدرك يوما منزلة الاتقان .

كانت الحكمة من أظهر أبواب الأدب في الجاهلية وصدر الاسلام ، وكان من أقطابها في الجاهلية من ذكر ، وفي الاسلام الامام علي والأحنف ابن قيس وكثير من الصحابة ، وبطبيعة الاسلام ثم توطد الدولة زاد العرب كلفا بالحكمة وزاد الداعي اليها أهمية ، فقد جاء القرآن الكريم والحديث

(١) تنور : القنور فمن يخبر فيه .
(٢) فتيل : الخيط الذي في شق الدواة .

حافلين بروائع الحكم وجوامع الكلم ، التي أربت (١) على الغاية من البلاغة والسمو ، وحثا على طلب الحكمة التي هي ضالة المؤمن ، وقد ظل الكتاب والحديث دائما نموذجا للأدباء ومستقاهم ، فلما فرضت الملكية المطلقة سلطتها كاملة ، وأخرست الأفواه وأسكتت النقد ، عادلة حيننا وجائرة أحيانا ، وجد الناس في الحكمة الشاملة المعمة سلوة للنفوس المقهورة ، وعزاء عن المآرب المحظورة ، وتنقيسا عن المطامع المستورة ، واتقاء لشبهات السلطان ، فأجريت الأمثال والمواعظ على ألسنة السلف الصالح ، وملوك الأمم الغابرة وحكمائها وفلاسفتها ، ووضعت على أفواه الحيوان والأرواح ، وأرسلت شعرا ونثرا . وترجمت عن اللغات ، وكان من ذلك مترجمات ابن المقفع .

وكانت الصبغة الدينية التي لازمت توطد الدولة الإسلامية وتطور المجتمع الإسلامي ، داعيا آخر إلى انتشار الحكمة في الأدب وفي الحكمة كتب ونظم كثير من رجال الدين ، ومن آثار الحكمة التي مبعثها الشعور الديني أشعار أبي العتاهية وابن عبد القدوس والامام الشافعي ، ومما زاد هذه النزعة الدينية احساسا ، وهذه الحكم الدينية ذيوعا ، ما كان يجاورها من مظاهر الترف المغرق وآثار اللذات والمفاسد ، فكانت تلك رد فعل لهذه ، وكان من الشعراء المغرقين في المجون والتبذل كأبي نواس وبشار ، من تعاودهم رجعات من التبصر في الحياة وغرورها ، حين تسممهم اللذات ويرهقهم بشمها (كثرتها) وخمارها ، فيرسلون في أشعارهم من الحكم ما قد ينسب إلى أزهد الزهاد وأحكم الحكماء .

وبدخول الأدب العربي طوره الفني طلب الشعراء البراعة والتفنن بصوغ الحكم وضرب الأمثال محاكاة للأقدمين وتوليدا من معانيهم ، وكانوا يشفعون الحكمة الانسانية أحيانا بصداقها من عالم الطبيعة والحيوان والجماد ، فاذا أرسل أبو تمام حكمة في ظهور فضل المحسود على بد الحاسد ضرب لذلك مثلا اشتعال النار فيما جاورت واعلانها بذلك طيب عرف العود ، ويقول في موضع آخر منتزعا مصداق كلامه من ظواهر الطبيعة :

واذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيكون بدرا كاملا

ويقول غيره :

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء

(١) أربت : أرب الشيء : عقده وأحكمه .

واشتغل المسلمون بدراسة الفلسفة اليونانية دون الأدب اليوناني ، فتأثر أدباؤهم بتلك الدراسة ، وازداد ولعهم بالحكمة ، واتخذت حكمتهم صبغة فلسفية أقرب الى القضايا المنطقية وأشبه بالاستقراء العلمي ، وذلك واضح في أشعار المتنبي والمعري اللذين انحرفا بذلك بعض الانحراف عن الأسلوب العربي الأصيل ، الذي يمتاز بالبلاغة والوضوح والاطلاق ، وبلغ من تأثر شعر الحكمة في العربية بروح الفلسفة اليونانية ، أن أبا علي الجاثمي وضع رسالة يرد فيها أكثر حكم المتنبي الى كلام أرسطو . وفي شعر المتنبي بلغت الحكمة العربية أوج رقيها ، أو بالأحرى بلغ الشعر العربي ذروة عظمته ، وبلغ من احتفاء الشعراء بتضمين الحكمة أشعارهم أن قيل في الموازنة بين أبي تمام والمتنبي والبحترى أن الأولين حكيمان ، والشاعر البحتري ، لكثرة ما في شعرهما من الحكم ، وأبو تمام هو القائل في ذلك الضرب من الشعر :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
ولولا خلا سنها الشعر ما درى بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فالولع بالحكمة ظاهر في الأدب العربي : فاقتباس المأثور من كلام المتقدمين أكثر ذيوفا في العربية منه في الانجليزية ، والحكمة مادة جانب عظيم من كتب الأدب التي تحفل بما أثر عن الحكماء والخلفاء والفقهاء من جوامع الكلم ، وهي موضوع مطولات كثيرة كمقصورة ابن دريد ولاميه ابن الوردى وأرجوزة صاحب كتاب الصادح والباغم ، وبها تمتلئ الخطب المنسوبة الى وفود العرب الى كسرى والى أهل بيت المهدي عند مشاورته لهم في حرب خراسان . وقد أولع الكتاب بنثر حكم الشعراء في رسائلهم مسجوعة منمقة ، كما أولع الشعراء بنظم الحكم السائرة وأمثال العامة ، وكان الشعراء أكثر لجوء الى نظم الحكم وسرد العبر والاستشهاد بعظات التاريخ خاصة في قصائد الرثاء ورسائل التعزية وأشعار الشكوى والوجدانيات ، وكثيرا ما كانت تساق الحكم في هيئة نصائح . ويقول ابن عبد القدوس : « والنصح أغلى ما يباع ويوهب » ومن شعر النصيحة جيمية محمد بن بشير التي يقول منها :

قدم لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غرة زلجا

أما الموضوعات التي طرقتها الحكمة في الأدب العربي فلا تحصر ، فقد جالت في شتى نواحي الحياة : من غرور الدنيا وتقلبها ووجوب الحذر منها وتوقع زوالها ، الى مزايا الشدائد وامتحانها للرجال ، الى ندرة

الصديق الصدوق ، ومن شؤون الحياة اليومية الى سياسة الدول وحكم الشعوب ، ومن آداب الحوار الى آداب مصاحبة السلطان وكان بعض الشعراء يتوفرون على ضروب دون غيرها من الحكمة ، حسب ما توجههم اليه ببيئاتهم ونفسياتهم ، فأبو العتاهية كان دائم الذكر للموت ، والمتنبي كان يشتق حكمه من حياة التناحر والمطامع والمعارك الأدبية والسياسية التي كان يحياها ، والمعري كان يستقي حكمته ويستخرج عبره من ظواهر الكون التي كان دائم الاشتغال بها ، فهذان البيتان من نظمه يحملان طابع تفكيره ولا يمكن أن ينسبا الى سواء :

ينازع ظبي رمل في كناس
سجايا كلها غدر ولؤم

فكثير من الظروف التي أحاطت بالأدب العربي في الجاهلية والاسلام كانت تدعو الى انتشار آثار الحكمة فيه ، فجاء حافلا بها منشوره ومنظومه على متعدد الصور ومختلف الأوضاع ، ومثل هاتيك الظروف لم تصاحب الأدب الانجليزي ، ومن ثم كانت الحكمة فيه أندر كثيرا ، فلا البدأة ولا الملكية المطلقة ولا رد الفعل المنعكس من الترف المفرط ، ولا الروح الديني المتغلغل في المجتمع ، لم يؤثر شيء من ذلك في الانجليزية تأثيره في العربية ولم يقتصر الانجليز على دراسة الفلسفة الاغريقية بل درسوا معها الأدب الاغريقي ، وعنه تلقوا رسالته وهي الجمال ، فصارت هذه رسالة الأدب الانجليزي أيضا ، فكان الأديب الانجليزي يتوخى الجمال فيما يشاهده ويحس ويكتب ، في حين كانت الحكمة والعبرة والموعظة قبله الأديب العربي في كل ذلك ، ومن الأدب الاغريقي تعلم الأديب الانجليزي أيضا أن يطلق لفكره العنان ويفسح لبيانه المجال ، على حين ظل رائد الأديب العربي بلاغة الايجاز ، وكبح جمحات الخيال .

ومن ثم تمثل خير ما في الأدب العربي في حكم الشعراء والخطباء والكتاب ، وجوامع كلمهم وموجز بيانهم ، وتمثل خير ما في الأدب الانجليزي في سبحات الخيال المطلق المطنب ، من درامات وملاحم وقصص ، فالعيب الاجتماعي أو النقص السياسي الذي كان يراه الأديب العربي ، فتحمله الظروف سالفة الذكر على أن يصوغه حكمة موجزة عامة لا تشير ريبة السلطان ، كان يحوك حوله الأديب الانجليزي في قصة

اجتماعية رحيبة الجوانب تشخص موضع الداء تشخيصا ، وتعين الدواء ،
ويتجلى الفرق بين الأدبين ، فى هذا الصدد فى نوع عبقرية شاعريهما
الفذين : فقد بلغت العبقرية الشعرية الانجليزية ذروتها فى آثار شكسبير
صاحب الدوامات المثلثة بالخيال المطلق ، وبلغت العبقرية الشعرية
العربية أوجها فى قصيد المتنبى الحافل بالحكمة البليغة .

التشابه والاختلاف

فى الأدبين العربى والانجليزى

يرجع الناظر فى الأدبين العربى والانجليزى شدة ما بينهما من تباعد ، وكثرة ما هنالك من وجوه الاختلاف ، وقلة ما فيهما من وجوه التشابه والانفاق ، ولا غرو فان الظروف الجغرافية والتاريخية التى أحاطت بنشأة كل منهما ونموه وازدهاره ، كانت متباينة أى تباين ، والعوامل الاجتماعية والسياسية التى تترك آثارها فى الأدب كانت متضادة أى تضاد ، فجاء الأدبان اللذان هما وليدا تلك الظروف والعوامل مختلفين أعظم اختلاف ، فى الموضوعات والأساليب والأشكال والأغراض ، ولم يتفقا الا فى كل عام من الوجوه التى يستوى فيها جميع الآداب لشيوعها بين جميع شعوب الانسانية .

فالأمة العربية أمة سامية ضربت فى فيافى الجزيرة أحقابا ، وترعرع أدبها تحت سماء البادية ، ثم خرجت من جزيرتها فورثت حضارات الأمم الشرقية ، وأخضعت لسلطانها أغنى بلاد الشرق وسيرت تحت لوائها شعوبا أرقى منها مدنية وأعرق فى العلم والصناعة ودانت لحكومة ملكية مطلقة ، وكان الدين أساس دولتها وشارة مجتمعتها ، والأمة الانجليزية أمة آرية خرجت من جزيرتها المنعزلة فجولت فى البحار ، وشاركت فى تراث الاغريق والرومان ، واعتنقت المسيحية ، وساهمت فى الحضارة الاوربية ، وتمسكت بنظام الحكم الديمقراطي ، فهما أمتان مختلفتان فى الجبلية ونوع المجتمع ومتجه التفكير ، فاختلف أدباهما تبعا لذلك ، ولم يتفقا كما تقدم الا فى وجوه عامة ومناح عارضة :

فعصر الجاهلية فى تاريخ الأدب العربى شبيه بعصر ما قبل اليزابث فى التاريخ والأدب الانجليزين : ففي ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته فى عزلة كبيرة عن العالم . على حال شبيه بعصر الأبطال فى بلاد اليونان الذى أنتج ملاحم هوميروس ، وكان الأدبان تبعه لذلك جافيين ، وعرى اللفظ والأسلوب ، ساذجى المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكانا أقل رقيا من الأدب الفنى الذى جاء فى العصر التالى ، وان يكن الأدب العربى بلغ فى عهد الجاهلية والبداءة والعزلة

مبلغا من الرقى أعلى كثيرا مما بلغه الأدب الانجليزى قبل أن يتصل اتصالا وثيقا بثقافات الأمم الأخرى وآدابها .

ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز فى عصر اليزابث ، بوصول النهضة الأوروبية الى انجلترا ، واتجاه نظر الانجليز الى ما وراء البحر ، وفى كل من هذين العصرين بدأت الامه تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها ، وتتصل بالعالم وتتصطنع حضارته ، وتبنى لنفسها امبراطورية مترامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتقاء عظيما ، ورقت ديباجته ودخل فى طوره الفنى ، طور الانشاء المحكم والمجهود الأدبى المتصل ، وانتشرت كلتا اللغتين فى بقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيرا من الأمم : فاللسان العربى الذى لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة فى الجاهلية ، صار يتكلم (بضم الميم) من تخوم الصين الى المحيط الأطلسى ، وأثر فى لغات وأزال غيرها وحل محلها ، واللغة الانجليزية التى لم يكن يتكلمها الا ملايين معدودة فى عهد شكسبير أصبحت تتكلم وتدرس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالميا كما كان أدب العرب عالميا على عهد عظمتهم .

ولم تكن كل من الأمتين توطد أركان امبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلا حتى طاولها فى النفوذ والسلطان ، ودانها فى ازدهار العلوم والآداب : فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية ، استقلت الولايات الأمريكية عن الامبراطورية البريطانية ، بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول المدى : فلم تنجب الأندلس من الأدباء من بذوا فحول العباسيين ، ولا ظهر فى أمريكا ولا غيرها من أنحاء الامبراطورية البريطانية من دانى شكسبير وملتون ، فعمل التراث الثقافى الحافل ، والماضى التاريخى المؤثر من ضروريات ازدهار الأدب الأساسية ، وذلك ما كان يعوز الأندلس الاسلامية ، وما يعوز أمريكا الحديثة ، فظلت كلتاهما تلتفتان الى الوطن الاول فى ظل النموذج والمنهاج والوحى .

وكلا الأدبين العربى والانجليزى تأثر الى حد بعيد بالكتاب السماوى الذى تدين به أمته : فآثر القرآن فى المجتمع العربى وتاريخ اللغة العربية وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم شامل ، فقد كان منذ جاء مثلا أعلى فى البلاغة وثقافة قائمة بذاتها ، والانجيل منذ ترجم الى الانجليزية فى عهد الاصلاح الدينى كانت له اليد الطولى فى تثبيت الأسلوب النثرى الانجليزى ، وتثبيت مفردات اللغة وادخال مفردات جديدة ، واشتقاق

غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت الى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائما قدوة للأدباء يحتذونها في اسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلي في كتابين هما من ذخائر الأدب الانجليزي ، أحدهما « رحلة الحاج » لبيان والثاني « الفردوس المفقود » للمتون ، ففي كليهما يقوم أساس القصصة على ما ورد في الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل ان دراسة الانجيل كانت هي الثقافة الوحيدة التي نالها بنيان ، الذي كان قسا ضئيل الحظ من العلم ، ومع ذلك يغد أسلوبه المبني على أسلوب الانجيل في الذروة في أدب اللغة .

تلك امثلة من وجوه التشابه في الأدبين ، وظاهر أنه تشابه عام نارض محدود ، أما وجوه التناقض فمديدة تشمل نواحي الأدب وتضرب جذورها في صميمه : فالأدب العربي ازدهر في كل دولة اسلامية فهو أشد تأثرا واصطباغا بالنزعة الدينية من الأدب الانجليزي ، ومع ذلك قد جرى العرب الى غايات من الترف واجتباء اللذات لم يبلغ بعضها الانجليز ، وبدا أثر ذلك الترف المغرق بجانب ذلك الروح الديني في أدبهم ، وقضت التقاليد التي نمت في المجتمع الاسلامي باسئال الحجاب على المرأة ، فتقلص ظلها من المجتمع وضؤل أثرها في الأدب ، وازداد ضالة بمرور الأيام بدل أن يزداد جسامة بتوطء الحضارة وذيوع التعليم واتساع جوانب الأدب ، فكانت المرأة الانجليزية أبين أثرا في أدبها - كاتبة ومكتوبا عنها - من المرأة العربية .

وعرف الانجليز فنونا لم يحمل بها العرب كثيرا كالتصوير والنحت ، وأغرموا بما اطلعوا عليه من آثار تلك الفنون من مخلفات الأمم القديمة ، وامتلأ أدبهم بوصف كل ذلك وتقديره والأدب العربي يكاد يكون خلوا من ذلك ، وانكب أدباء الانجليزية على دراسة الآداب الأوروبية المعاصرة وأفادوا منها كثيرا ، وتوفروا خاصة على دراسة الأدب الاغريقي القديم ، فكان لهذا الأدب أبعد الآثار وأشملها في الأدب الانجليزي : رحب آفاقه وبسط أساليبه وأشكاله ، ومد أمامه منادح القول ووجه نظره الى جمال الحياة الذي تصويره غرض الأدب والفن جميعا واكتسب الأدب الانجليزي صبغة اغريقية ظل الأدب العربي بعيدا عنها ، فان هذا الأخير لشديد اعتداده بنفسه لم يحاول أن يطلع على آداب غيره ، أو يستفيد من تراث اليونان الأدبي الحافل فكان ذلك الاقبال على الأدب الاغريقي من جانب الانجليز ، وذلك الاعراض عنه من جانب العرب من أكبر دواعي اختلاف الأدبين وتباعدهما .

وفى عهد الدولة والحضارة والثقافة ، عهد الطور الفنى للأدب حين بلغ أوج رقيه ، رضى العرب للملكية المطلقة ، والملكية تكف الشعب عن الحكم وتكف الأدب عن النقد والاصلاح وتلحق الأدباء بحاشيتها ، فجاء الأدب العربى بلاطيا فى جملته ، يتمدح بمآثر الملوك ويصف مواكبهم ومظاهر عظمتهم ، ويفغل الشعب وأحواله وآماله الى حد بعيد ، على حين اعتمد الأدب الانجليزى فى أكثر عصوره على استجلاب رضى الشعب ، وتصوير أحواله ونشيدان آماله ، فامتلا الأدب الانجليزى بالنظرات النقدية والقصص الاجتماعية والبحوث السياسية ، وحفل بتمجيد الحرية والديمقراطية واحترام الفردية والرأى العام ، على حين امتلا الأدب العربى بالمدائح والرسائل الديوانية ، فمن أكبر مظاهر اختلاف الادبين العربى والانجليزى ، صبغة الأخير الشعبية الفردية وصبغة الأول البلاطية الرسمية .

وهذا الانضواء تحت لواء الملكية اكسب الأدب العربى صفات وخصائص ظل الأدب الانجليزى خلوا منها : فغلبت على الأدب العربى — الذى تعود الاغضاء والرضا بالكائن وعدم محاولة الاصلاح — نزعة المحافظة والتقليد ، على حين سادت الأدب الانجليزى روح التجديد ، وتجدد على طول العصور لفظا وأسلوبا وموضوعا ، وكان من دواعى تلك المحافظة أيضا اشتغال غير العرب بالأدب العربى ، بل ظهورهم على العرب فى جمال الصناعة الأدبية ، وقدم من جراء ذلك كله الأسلوب على المعنى . وكان يعد أديبا من تمكن من أصول اللغة وأحكم انشاء الجمل البليغة . لا من لطف حسه وأرهف شعوره ، واتسعت نظرتة وسامت فكرته فى الحياة ، وكان من أثر نزعة المحافظة والجمود التى سادت الأدب العربى أن عجمت أشكاله وموضوعاته ، فلم تتطور أشكاله وتتميز وتعدد ، ولم تتجدد موضوعاته وتتكاثر وتتوالد ، على حين كان تاريخ الأدب الانجليزى تاريخ تجدد مستمر واخصاب متزايد فى هذه الدواحي جميعا .

ولسير الأدب العربى فى ركاب الأمراء ، واعتماده على عطفهم دون عطف الجمهور ، أهمل الأدب موضوعات كثيرة هى من صميم الفن ولباب الحياة ، وهى هم الأديب المفكر المحس ، كعبادة مفاتن الطبيعة والتفنن فى عرضها ، واستلهاهم حكم التاريخ والتألق فى وصفها ، واستيحاء جلائل البطولة وتصوير روائعها ، واستخلاص مواضع الفتنة والمتعة والجمال من خرافات الأقدمين ، وارضاء الفن بنظمها وتجديد شبابها ، وعرض آثار الرحلات التى يقوم بها الأديب ووقعها فى نفسه ، والسبح فى عوالم الخيال البعيدة الساحرة ، والضرب فى أعماق الماضى وآماله .

المستقبل وآفاق الانسانية الواسعة . كان الأدب العربى - لاعتماده على صلات الأمراء - فى شغل شاغل بحاضر العيش وقريب المطلب عن كل تلك العوالم الزاخرة بالفن والحياة والشعور والمتعة ، فأهمـل بعضها ولم يمس بعضها الا مساً رقيقاً ، وبكل هاتيك العوالم وذخايرها وأصدائها يحفل الأدب الانجليزى .

هذا الاختلاف المطرد الشامل فى البيئة والمجتمع والموضوع والأسلوب ، مرجع ذلك الاختلاف الرائع الملحوظ بين كتب الأدب العرب وكتب الأدب الانجليزى ، وفحول هذا وأقطاب ذاك ، وسيرهم وآثارهم وعقائياتهم وشخصياتهم ، حتى ما نكاد نرى فى الأدبين شاعرين متماثلين أو كاتبين يذكرنا أحدهما بالآخر ، من جهة العقلية والأسلوب أو الموضوعات ، أو يتشابه موضوع كتاب هنا وموضوع كتاب هناك . أو تخال فكرة قصيدة فى هذا الأدب صادرة عن نفس الحالة النفسية المصادرة عنها أخرى فى الأدب الآخر ، ليس هناك شئ من ذلك ، وليس بين الأدبين الا التباعد والتناكر ، كما يتباعد ويتناكر شخصان غريبان مختلفا الموطن والنشأة والتربية ، والعقيدة الدينية والثقافة ، والنزعة فى الحياة والمتجه فى التفكير .

فاذا وازنا بين كبيرى شعراء الأدبين ، المتنبى وشكسبير ، بدا لنا الاختلاف والبون العظيم : فجانب كبير من شعر المتنبى موقوف على المدح والهجاء ، ولم يقل فيهما شكسبير حرقاً ، وشعر المتنبى مليء بالحكم البليغة الموجزة المتجاوزة يزاحم بعضها بعضاً وشعر شكسبير حافل بوصف الشخصيات وتحليل النفوس تحليلاً مسهباً لا يتوخى بلاغة الإيجاز فى شئ ، وبجانب المدح والهجاء والحكمة وما يتصل بذلك لم يكد المتنبى يطرق موضوعاً آخر بعيداً عن دائرة حياته الشخصية ، بينما روايات شكسبير وقصائده تعج بوصف الطبيعة وتقديس الفنون كالموسيقى وتمجيد الأبطال ، وتضرب فى شعاب الخرافة وأرجاء التاريخ ، وشكسبير يراوح فى نظمه بين أشكال الشعر المختلفة ، بين الشعر المرسل والدوبيت والسونيت ، والفقرات المتراوحة طولاً ، المتداخلة القوافى ، وقد دعى ضرب السونيت باسمه لما أكسبه بعبقريته من مرونة ، على حين ظل المتنبى - وهو الشاعر العظيم المتمكن من اللغة والأدب المطلع على حقائق الحياة - متمسكاً بالشكل الشعري الوحيد الذى وصل اليه من المتقدمين ، وهو القصيدة المصرفة المطلع الموحدة الوزن والقافية غير الموحدة الفكرة ، فامـنـح الأدب العربى شكلاً ولا موضوعاً لم يكن من قبله ، وعاش المتنبى ومات دالماً إلى الملك وتضريب الأعناق ، ساخطاً على تبريزه فى

مضممار الأدب الذى كان يحسد عليه ويكاد له من أجله ، ولم يكن شىء من ذلك مما يخطر لشكسبير على بال •

وجلى واضح أن هذه الفروق بين الشعارين العظمين انما ترجع الى العوامل الاجتماعية والسياسية ، التى كانت تحيط بكل منهما وتكون نفسيته وعقليته ، وإلى هذه العوامل ذاتها يرجع التباين الشديد بين أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن العميد وبديع الزمان من جهة ، وبين ملتون وبيرون وشلى وكيثس وجيبون وكارليل وماكولى من جهة أخرى ، وهو تباين يجعل من المحال تشبيه واحد من الفريق الأول بواحد من الفريق الثانى ، فى سيرته فى الحياة أو فلسفته الفكرية أو مذهبه الأدبى ، وان كان من أسهل الأمور استخراج العديد من أوجه الاختلاف والتضاد •

هذا الاختلاف فى البيئتين الجغرافية والظروف التاريخية ، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية ، والجميلة والتقاليد والمنازع ، وهذا التباين بين الأدبين فى المشرب والأسلوب والموضوع وشخصيات الادباء وسيرهم ، كل ذلك يجعل الموازنة بين الأدبين من أمتع الدراسات الأدبية وأحفلها بالدروس والعبر ، وأدعاهما الى استخلاص المبادئ والنظريات الأدبية ، وإلى التفطن الى العوامل المؤثرة فى الآداب ونتائجها ، وقديما قيل : وبضدها تتميز الأشياء ولو كان الأدبان شديدى التشابه وليدى ظروف متقاربة وعوامل مؤثرة متماثلة ، لما كان فى الموازنة بينهما كبير طائل ، ولا كان تتبع ظواهرهما يستحق طويل عناء ، ولأشبهها أن يكونا أدبا واحدا مشتركا بين أمتين ، موزعا بين لسانين •

ثانيا : مقالات أخرى

تشسترتون

زعيم الرجعية فى عصر التطور

شهدت اواخر القرن الماضى واوائل الحاضر تحولا عاما فى المبادئ السياسية والاجتماعية والأدبية فى انجلترا : اذ نفر الناس تدريجا من المبادئ التى كانت تسود تلك المناحى فى العصر الفكتورى : كانت النزعة الاستعمارية فى العصر الفكتورى تسود السياسة حتى ساقط انجلترا الى حرب جنوبى أفريقيا التى كبدتها خسائر فادحة ، وكان للفكتوريين اعتداد شديد بحالتهم الراهنة ومبادئهم السائدة ، تجعلهم يشيخون عن كل جديد ويتمسكون بما لديهم ، وكان الفرق الاجتماعى فى ذلك العهد بين الطبقات كبيرا ، وكان مركز المرأة تثقله القيود ، وكانت الاخلاق تتسم بالتزمت والتحرج المفرق ، وكانت معايير الأدب تتمثل فى اشعار تينيسون وقصص دكنز ، حتى مل الناس تلك المبادئ والمعايير كما هو دأب المجتمعات الحية من دوام التطور والتبديل .

وكان زعيما التطور الفكرى الذى تجلى فى مستهل القرن الحاضر هما برنارد شو وهـ . جـ . ولز ، هذان الكاتبان العظيمان أوسعا الأحوال الراهنة والآراء المعتقدة نقدا وتفنيدا وتجريحا ، وفتحوا للناس أبوابا من الفكر لم تكن معروفة ، وحثا الجمهور القارىء على اصلاح مساوئ المجتمع الراهن والتطلع الى مجتمع فى المستقبل أقرب الى المثل الأعلى يحيا فيه انسان هو أقرب الى السوبرمان ، فبينما كان الفكتوريون يعتقدون أن مجتمعهم هو المثل الأعلى للحضارة ، اذا ولز يقول ان الحضارة الانسانية لم تبدأ بعد لأن تاريخ البشرية فى الماضى لم يكن الا سلسلة أخطاء ومجازر وجرائم ، واذا شو ينادى بانسان أعلى ، نسبة الانسان الحاضر اليه كنسبة القردة الينا .

فوجئ الناس بهذه الآراء الجريئة وهذه العوالم الجديدة يعرضها على أبصارها ذاك الكاتبان القديران ومن ماثلهما فكرا وقل عنهما عبقرية وشهرة ، وكان حريا أن يفاجأ الناس ويعجبوا فى مجتمع كالمجتمع الانجليزى معروف بمحافظته واجلاله للتقاليد ، وكان حريا بجانب الاعجاب الذى قوبل به المذهب الجديد أن يقابل من كثيرين بالبغض والنفور

والنقد والهجوم ، وهذا ما كان ، بل ان شو نفسه لم ينل مكانته الحاضرة لقمة سائغة بل اضطر الى أن يسلك اليها شتى الطرق ويتذرع بشتى الوسائل . أما الحملة المضادة للمذهب الجديد التي كان حتما ظهورها فقد كان فارسها المعلم جلبرت كيث تشسترتون زعيم الرجعية في عصر التقدم السريع والتطور المطرد .

ولد ج . ك . تشسترتون في لندن عام ١٨٧٤ ، ومات منذ نحو ثلاث سنين ، ونشأ عظيم الجسم ، مديد القامة ، حتى قال عنه شو : انك حين تخاطبه يظل نصف منه خارجا عن متناول بصرك ! ويقول هو عن نفسه في ترجمة حياته بقلمه : انه كان أكولا محبا للطعام مشغوقا بشرب البيرة ، وهو في ذلك يناقض شو البيوريتاني النزعة الذي لا يشرب الخمر ولا يقرب اللحم ويتجنب أشعثات اللذات ، والتحق تشسترتون بمدرسة للفنون لميله الى التصوير ، ولكنه لم يتم دراسته بها ، واحترف الصحافة والنقد الفني والأدبي ، وظل ذلك عمله الى آخر حياته الخالية من مهم الأحداث ، وزار ألمانيا وأسبانيا وبولندة والولايات المتحدة وغيرها للمحاضرة في الأدب الانجليزي .

لم يكن تشسترتون تلميذا نجيبا ، بل هو يعترف في ترجمته لنفسه بأنه كان غبيا ، وقد هجر الدراسة قبل أن ينال شهادة ما ، بيد أنه كان منذ صغره محبا للأدب بارعا فيه ، فأنشأ هو ورفقة من زملائه في المدرسة الابتدائية مجلة جذبت اليهم الأنظار ونالت تشجيع ناظر مدرسته ، وفي مدرسة الفنون سألقة الذكر بلغ تشسترتون مبالغ الرجال ونضجت أفكاره وهاجمته شتى مسائل الحياة ، حتى استولى عليه القنوط ، وتملكه التشاؤم وتزعزعت عقيدته الدينية ، بيد أنه ما زال في بحثه وتفكيره حتى اهتدى الى العقيدة التي استراح اليها ضميره واستقرت بها بلائله، ولم تكن تلك الا العقيدة المسيحية ذاتها ، تلك العقيدة التي هجرها منذ مدة باحثا عن الحقيقة فما لبث أن عاد اليها مهتديا .

قال في هذا الصدد في مقدمة كتاب « السنة » : « لقد كانت نفسي تحدثني دائما بكتابة قصة خيالية عن بحار انجليزي أخطأ في قياس طريقه حتى اكتشف انجلترا وهو يحسبها جزيرة من جزر البحار الجنوبية » ويستطرد فيبين أن ذلك مثله هو نفسه : اذ خرج طائفا باحثا عن الحقيقة فاهتدى الى القانون الكنسي الذي كان يعرفه حق المعرفة قبل ذلك المطاف ، ذلك بأن التشاؤم الذي ران على نفسه حقبة كان قد أرهقها وهي الميالة بطبيعتها الى المرح ، فوجدت نفسه ضالتها في المسيحية التي

تدعو الى قبول الحياة على علاقتها في بشر ، ومنذ ذلك الحين صار تشسترتون زعيم التفاؤل وعدو نزعة التشاؤم السائدة في كتابات بعض معاصريه كتوماس هاردى وهاوسمن ، فهو يقول عن هاردى في كتابه عن الادب الفكتوري انه « ملحد ريفي قابع في اكتئاب يلعن ويجدف في احتفائه بأجلاف القرويين » .

ففي عصر الشك والمروق تمسك تشسترتون بعقيدته الدينية، وتعلق بأهداب مسيحيته وعاب على معاصريه في مقدمة ما عاب زينغ عقيدتهم ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل مازال وهو البروتستانتى النشأة يميل رويدا رويدا الى الكاثوليكية في آرائه ، حتى اعتنقها رسميا وهو في الثامنة والخمسين من عمره * ولعل صديقه الحميم هيليريلوك هو الذى ساقه الى اتخاذ هذه الخطوة ، وبيلوك هذا كاتب مؤرخ فرنسى الأب كاثوليكي المذهب تعرف به تشسترتون في مطعم — وهذا شبيه بتشسترتون الكثير الارتياح للمطاعم — فسرعان ما توافقا في الرأي والمزاج ، وأعجب المترجم بصاحبه أشد اعجاب ، وكانا بعد ذلك يدا واحدة في الحملة على شو ، حتى عدهما ، شخصا واحدا أو غولا واحدا يقوم هو بمجالدتهما ، كان الفرسان في القديم يجالدون الغيلان والوحوش ، ويجالد شو ذلك الغول « تشستربيلوك » .

أحب تشسترتون الكاثوليكية لما فيها من روح البشر والتفاؤل الذى يلائم طبعه ، وتولى الدفاع عنها ازاء حملات البروتستانت الذين يصمونهم بالرمزية والوثنية ، ودافع عن تقاليد الاعتراف والكفارة وغفران الذنوب، وقال ان المذهب الكاثوليكي الرومانى يحل كل مسائل الفكر التى كانت نعترضه ويرضى نزعته الى الحرية ، وله في كل ذلك كتابات طويلة ولما كتب في هذا الصدد أول كتبه دهش القراء ولم يكادوا يصدقون أنه جاد ، وانما ظنوه يبغى الطرافة وينوخي الاغراب ، ولكنه لزم موقفه ذاك في اخلاص وشجاعة وحماسة الى آخر حياته ، واصطبغت كتاباته بهذه النزعة الدينية الغالبة : فهو كثير الطرق لمواضيع الدين ، ومعظم أبطال قصصه قسس أو فلاسفة متدينون ، حتى انه لما كتب جملة قصص بوليسية على نمط قصص شرلوك هولمز جعل بطلها المحقق قسيسا حلالا للمعضلات كشافا للغوامض * ومن آثار نزعته الدينية هذه قصيدة له طويلة عن موقعة « ليبنتو » البحرية بين العثمانيين وبين أساطيل أوروبا المتحدة ، فهو يرى في تلك الموقعة نصرا للمسيحية حمى بيضها .

ورغم هذه المسيحية المتأصلة لم يكن تشستر تون في نظرته السياسية داعية سلام ولا مؤمنا بالسلام ، نعم انه كان من كبار معارضي حرب البوير في منصرم القرن الماضي ، ولكن تلك المعارضة لم تكن لحب في السلام بل لاعتقاد بخطأ البواعث التي دفعت بالانجليز الى غمارها . كان يرى البوير على صواب والانجليز على خطأ ، لأن البوير انما كانوا يدافعون عن استقلالهم وحماهم ، وقد كان تشستر تون من أكبر المؤمنين بالوطنية - وفي هذا أيضا مناقضة لمبادئ المسيحية التي تسوى بين البشر - وكما كان يحب انجلترا ويغار على وطنيته ، كان لا يحب الاعتداء على وطنية الآخرين ، وهو لذلك كان يمتق الامبراطورية لأن الامبراطورية لا تقوم الا باهدار بعض الوطنيات والحريات .

انما كان تشستر تون يحب انجلترا وحدها دون امبراطورية ولا مستعمرات : انجلترا كما كانت في عهد اليزابث وشكسبير ، وكما كانت في العصور الوسطى ، وهنا تلتقى آراء تشستر تون الدينية وآراؤه السياسية معا : فهو يعشق العصور الوسطى التي كانت للمسيحية فيها الدولة والسلطان ، كما يعشقها لان انجلترا في عهدها كانت جزيرة مستقلة بشأنها غير ذات مشاكل خارجية ولا امبراطورية مبنية على اهدار قوميات شعوب أخرى . وقد كانت الحماسة التي دافع بها تشستر تون عن وجهة نظره في مسألة الحرب البويرية بدء ترامي شهرته وارتفاع مكانته ، وقد تولى هو ونخبة من أصحابه اصدار جريدة لهذا الغرض وانتهى الأمر بهم الى شراء جريدة الديلي نيوز لنشر آرائهم ، فكان تشستر تون وكبلنج في هذه الحرب على طرفي نقيض يقود كل منهما معسكرا ، وظلت هذه الخصومة الفكرية بينهما قائمة فيما بعد .

أما حين نشبت الحرب الكبرى فكان لتشستر تون موقف آخر ، اذ عدها حربا ضرورية للدفاع عن القومية الانجليزية والثقافة الانجليزية ضد « بربرية برلين » وقام بمجهود عظيم في نشر الدعوة هذه المرة تحبيذا لمواصلة الحرب ، فكان يكتب في الصحف وينشر الكتب ويعمل على توزيعها في الداخل والخارج ، وكان يكتب في صحف حزب الأحرار حتى اختلف معها فصار يكتب صحيفة العمال ، حتى انقلبت ورحى الحرب دائرة الى تحبيذ السلام ، فهجرها وهجر الأحزاب جميعا ، وبعد الحرب خرج من ميدان السياسة جمعا بعد أن جال فيها جولات مشهودة ، وكانت له مقابلات مع ملك الانجليز وكبار الوزراء أمثال كيرزون وهيوسيسل وبلفور وماكدونالد وغيرهم .

وانما انحاز تشسرتون الى الأحرار دون المحافظين حقبنة بحكم طبقته ، اذ نشأ في أسرة متوسطة الحال ، وكان معظم أبناء الطبقة الوسطى يشايعون حزب الأحرار ، أما تشسرتون ذاته فكان أميل الى المحافظة بل الى الرجعية : كان في طباعه رجلا عاديا يحب الحياة العادية في المدينة ، ولا يرى من وجوه النقص في الحياة الراهنة مثل ما يجد شو الدائب النقد والطن ، فهو يعيب على شو أنه صعب ارضاؤه ، واذا وجد تشسرتون للحياة الحاضرة عيوباً فهي مخالفة للعيوب التي تتفدى بها عين شو ، بل هي مضادة لها : شو يرى المجتمع الانساني الحاضر متأخرا عما يجب ويقول : اما أن ينهض الانسان بالعب الذي اختارته له الطبيعة ، عبء تعمير هذه الأرض ونشر المدنية الصحيحة فيها ، واما أن الطبيعة تنحيه وتختار لهذا العمل حيوانا سواه أصليح . أما تشسرتون فلا ينظر الى المستقبل على هذا النحو بل ينظر الى الماضي ، ولا يرى المجتمع متأخرا عن المدى الذي يجب أن يقطعه ، بل يراه قد جاوز الحد في سيره وعليه أن يقفل راجعا ، الى أين ؟

الى العصور الوسطى : حين كانت الحياة بسيطة غير معقدة ، حين لم تكن الآلات تتخم المدن وتخلق الحياة الروحية ، حين كانت القرية الصغيرة لا المدينة الرحبة وحدة المجتمع ، وحين كانت المسيحية هي الوطن وهي الدولة ، وهي نبراس الناس في تفكيرهم وفي فنونهم وآدابهم ، وهو يشمر عن ساعد العزم للدفاع عن العصور الوسطى ضد من يتهمونها بالنوحش أو بالجهل أو بعقم الفن أو الأدب ، ومما كتبه في هذا الصدد كتاب عن القس المشهور القديس فرانسيس آسيسي ، والفيلسوف المسيحي المشهور أيضا توماس أكويناس ، فاذا وجد كل من شو وولز « طوباه » أو مدينته الفاضلة في المستقبل ، فان تشسرتون يجدونها في الماضي .

يدافع تشسرتون بهذه الحماسة عن العصور الوسطى التي تسمى أحيانا بالعصور المظلمة ، لفرط ما نفر الناس منها ومن ذكراها . وبمثل هذه الحماسة يدافع عن العصر الفكتوري الذي أمعن شو وولز وأمثالهما في التهكم عليه والتحقيق له والكشف عن مساوئه ، فهو يدافع عن فضائل الفكتوريين من حب الاحتشام والوقار والاعتزاز بالمهنة والاعتداد بالطبقة التي يمت إليها المرء ، والتي كان التعليم يطبعها بطابع خاص . ويدافع عن المعلم في العصر الفكتوري الذي كثرت حملات الحاميين عليه ، فيقول ان معلميه اكتشفوا مواهبه الأدبية ، وشجعوها وتعهدها ، حين لم يكن هو نفسه يظن إليها أو يهتم بها ، ولغرامه بذلك العصر كتب

ترجمة لاثنين من فحول أدبائه ، هما الشاعر براوننج والقصصى دكنز ، وكلاهما يشبهانه فى نزعة التفاؤل ، ويشبهه دكنز خاصة فى ديمقراطية نظرتة والتفاته الى حياة الرجل العادى ، واعتقاده أن تلك الحياة العادية تقدم أكبر الفرصة لصوغ المأساة .

وكان حريا أن يقع الصدام بين تشيسترتون وبين ممبلى نزعه التطور والتجديد ، وكان تشيسترتون البادى ، اذ نشر كتابا سماه « الهراطقة » نقد فيه مذهب العصريين وعاب تهورهم فى كسر الحواجز وهدم الحدود ، ونيل العقائد ، فالمرء فى نظره لا يحيا بغير عقيدة ، والمادية عقيدة من يعتقدون ألا عقيدة لهم ، وأنهم تحرروا من جميع القيود والأنيار . وكان شو وولز خاصة هدف سهامه فى هذا الكتاب ، رغم ما كان بينهما وبينه من صداقة واعجاب كل واحد من الثلاثة بالآخرين كل اعجاب ، فلما دعاهما وأتباعهما بالهرطقة سألوه اذ لم ترقه عقيدتهم أن يبدى لهم ما عنده هو من عقيدة وفلسفة ، فما كان اسرعه فى اخراج كتاب « السنة » يشرح فيه مذهبه المستند الى الدين المصطنع بالكاثوليكية المعتمد على التفاؤل القائل بحرية الاختيار المنادى بالرجوع عن الطريق المادى المهور الذى اندفع فيه العالم منذ القرن الثامن عشر .

ومن أقوال تشيسترتون الجامعة لمذهبه فى هذا الصراع الذى دار بين القديم والجديد ، بين دعاة التطور وزعيم المحافظة على التقاليد ، بين الداعين الى المستقبل والداعى الى الماضى ، قوله فى وصف أتباعه أتباع التطور السريع والهدم الذى لا يبقى ولا يذر : « فاللحاد نفسه فى نظره نا اليوم ذو صبغة دينية لا تطاق ، والثورة ذاتها نظام لا يحتمل ، والحركة نفسها تشمل قيودا لا صبر لنا عليها ، ولسنا نقبل احكاما عامة . وقد عبر مستر برنارد شو عن هذا المذهب فى صيغة محكمة قال : « ان القاعدة الذهبية أنه ليست هناك قاعدة ذهبية » ، ونحن نزداد كل يوم مالا الى مناقشة التفاصيل فى الفن والسياسة والأدب ، ونهتم مثلا برأى المرء فى الترام أو فى المصور بوتيتشيللى ، أما رأيه فى كل شىء فلا يهم ، وندعه يسحب وينقب فى مليون من الأشياء ، ولكن لا نرضى أن يهتدى الى ذلك الشىء الغريب - الكون ! لأنه ان فعل صبار له دين وبذلك يضل ، فكل شىء يهم - ما عدا كل شىء .

وكان انتاج تشيسترتون الأدبى متنوعا تنوعا بعيدا المدى ، كتب الأشعار والقصص القصيرة والطويلة والمقالات والتراجم الأدبية والتاريخية وقد ظل منذ سنة ١٩٠٥ الى مماته - أى زهاء ثلاثين سنة - يكتب مقالا

كل أسبوع بلا انقطاع لمجلة خاصة هي « أخبار لندن المصورة » ، وأسلوبه الأدبي جزل ممتع فكه يشوق القارئ حتى من غير المعتنقين لآرائه سالفة الذكر ، وكان له ولع خاص بصوغ ضرب من الجمل المتناقضة المعنى في الظاهر ، يريد بذلك الاغراب وأدخال الروعة في قلوب قارئيه ، كقوله في النبذة سالفة الذكر : « فكل شيء يهم ما عدا كل شيء » وقوله وهو يريد اثبات أن العقل وحده لا يجدي المرء دون الاعتماد على المحسوسات وانتزاع النظريات والأمثلة من الواقع المتحجر : « ان الرجل المجنون هو رجل قد فقد كل شيء الا عقله » ، ومن توخيه المبادهة والاغراب قوله وقد عجب بعض الناس من عدم تخلييف الرومان آثارا في انجلترا : « كيف لا ؟ اننا معشر الانجليز كلنا آثار رومانية » وقد طغت هذه النزعة الى الاغراب والتناقض على كتاباته في آخر أيامه حتى ردت كثيرا منها مستثغلا محققا .

والحق أن كتابات تشستر تون فوق شتى المناحي سالفة الذكر كثيرة جدا مترامية الأطراف ، ولكن كثيرا منها صحافي الصبغة زائل الألوهية ، يموت - بل قد مات - بمضى ظروفه الأدبية أو السياسية ، وكثير من الباقي هراء ممجوج ، ولكن كثيرا جدا مما كتب يحوى فكرا صائبا وأدبا جما وأسلوبا رفيعا ، وبعضه يستحق الخلود . وتشستر تون فوق هذا له فضل عظيم على الجيل الذي عاش فيه : بحمله لواء المحافظة بل الرجعية في وجه دعاة التجديد المغرق والهدم الذريع ، اذ كان لمواقفه وحملاته أثر عظيم في تخفيف غلواء المجددين والاشارة الى أخطائهم والاعراب عن موقف جانب من الشعب تجاههم . ولعل تشستر تون وان لم يبلغ عبقرية شو ولا ولز قد كان أحب الى قلوب أكثرية الانجليز من أي منهما ، لما يمتاز به درنهما من الطبع الانجليزى الأصيل وما ينفرد به عنهما من تمثيل جبلات الشعب الانجليزى الوئيد الحركة المحافظ النزعة .

الفن يعيد نفسه

من الأمثال السائرة أن التاريخ يعيد نفسه ، وذلك أن الناظر في صفحات التاريخ لا يزال يعثر بظواهر متشابهة وحوادث متماثلة ، من عصر الى عصر ومن اقليم الى اقليم ، وهذه الظواهر المتماثلة هي التي تقوم عليها قوانين فلسفة التاريخ ، كتلك القوانين التي يحفل بها كتاب مقدمة ابن خلدون ، فكثير مما ذكره ذلك المؤرخ الكبير من نظريات عن الدولة ونشوتها وتطورها وعوامل ارتقائها وانحطاطها وما تمر به من أطوار الحضارة والثقافة والعمران - كل ذلك يصدق على شتى الأمم التي عرفها ابن خلدون وأرخ لها ، وتلك التي لم يؤرخ لها ولم تكن قد ظهرت بعد في عهده . والقول السائر بأن أغريقيا (بلاد الاغريق) المقهورة في الحرب قهرت الرومان قاهريها في ميدان العلم والحضارة والفن ، قول يصدق. أتم الصديق على ما كان بين العرب والفرس بعد الفتح الاسلامي الفارس .

وانما تتماثل ظواهر التاريخ وتكرر حوادثه لأن الطبيعة البشرية واحدة في أى عصر كانت وبأى اقليم استوطنت ، والمجتمعات البشرية التي هي نتيجة لهذه الطبيعة البشرية تتماثل الظواهر التي تبدو فيها في شتى مناحى العمل والفكر والنزعات والصناعات والفنون ، ودواعي السلام والحرب ، ولا يختلف جيل عن جيل ، ولا شعب عن شعب الا اختلافات عرضية والجوهر واحد ، وهذا التماثل في الظواهر والأحداث هو ما يشير اليه ذلك المثل السائر ، وان كان مصوغا في صيغة عليها سيماء الاغراب، مما نجعل بعض الناس يتخذون صحته ويتشككون في صدقه ، وهكذا شأن الانسان اذا استخلص الحكمة أو العبرة من تجاربه ومشاهداته مال بطبعه الى صوغها في أوجز لفظ وأروع ، ولو بدت الحكمة اذ ذاك في صورة قريبة من الاغراب أو المفارقة ، وهذه السيماء تدعو أحيانا الى رفضه أو التشكك في قيمته ، بيد أنه مما لا شك فيه أن التاريخ يعيد نفسه على النحو الذي فسرناه .

ويحق لنا أيضا أن نقول ان الفن يعيد نفسه على ذلك النحو أيضا ، ولمثل هذا السبب المتقدم ذكره ، وهو تماثل النفس البشرية في طباعها في شتى العصور والشعوب ، وهل يعبر الفن في أى عصر أو قبيل الا عن الحب

والآلام والكراهية واللذة والذكريات والأمانى والتساؤل والتعجب والتفكير في شؤون الكون والحياة ، وما يدخل تحت هذه الموضوعات من أمثالها وما يلحق بها من أشباهها ؟ واذ كان شعور النفس الانسانية في كل العصور وعكسها لتأثير البيئة المحيطة بها واحدا ، وكان الفن هو المعبر عن هذه المشاعر ، كان حريا أن يعيد نفسه من جيل الى آخر ومن أمة الى سواها ، رغم تطور الأحوال قليلا وتغيير الأزياء ، وتبدل طرق التعبير واوضاع الفنون .

فكم من شاعر مثلا وأديب وقصصى تحدث عن جمال الطبيعة أو لوعات الحب أو حركات فقد الأمل والأحباب ، أو شكوا خطوب الدهر ، وندب تبدل الأحوال وعدم دوام الصفاء واغارة البلى والفناء على كل شيء ، وكم أديب أو مفكر صرف مقلتيه في هذا الكون المترامي الأطراف ، يحاول النفاذ الى اسراره وبواطنه ، وأطال التفكير في مصير الانسانية ومآل العالم ، ووازن بين قصر حياة الانسان وخلود معالم الكون وآثار الطبيعة ! هذه كلها موضوعات خبت فيها وأوضحت السنة الشعراء وأقلام الكاتبين من قديم ، ولم يكد المتأخر يعدو أن يقول ما قال المتقدم في صورة جديدة وزى قشيب .

وأحظى الغرائز باحتفاء الأدباء من قديم هو الحب طبعاً ، وموضوعاته ومعانيه المترددة المتكررة أشهر من أن يشار اليها أو يقتبس منها ، ولكن هناك غرائز وعواطف أخرى أطلع الأدباء بعرضها في شتى الصور ، ومنها الغيرة والحسد والسعاية والبخل والتفاخر بالنعمة المجددة ، فالبخل أوسع شعراء العربية وصفا وتهكما وتفصيلا كلما خاب ظنهم في ممدوحهم المتصفين بتلك الخلقة ، وقد صور الجاحظ صورا من البخل في كتابه المعروف ، وصور مولير صورة أخرى لبخيل آخر ، ورسوم شكسبير الصورة المشهورة لليهودى شايلاوك في تاجر البندقية ، وللقصصى دكنز بخيل ذاع أمره في المجتمع الانجليزى حتى غدا مثلا سائرا في البخل ، فيقال : فلان ان هو الا « سكروج » آخر ، فيعرف المخاطب لفوره ماذا يعنى صاحبه .

والغيرة قد صورها شكسبير واضحة في رواية « عطيسل » حيث تنفث سمومها المهلكة في نفس القائد المغربى حتى تنتهى الى خنق زوجته وهى أظفر النساء وأوفى الأزواج . وصور أناطول فرانس تأثير تلك الغريزة القائدة في روايته « الزنبقة الحمراء » حيث يغار بطل الرواية

من منافس له قديم قد نبذته حبيبته نبذا نهائيا ، وتوفرت على حبيبها الجديد بكل روحها مخلصا ، وصور توماس هاردي نفس تلك الأزمه النفسية في روايته « عينان زرقاوان » حيث لا يكاد « نايت » يعلم أن محبوبته التي كان افترض فيها النقاء التام ، كانت قد عرفت شابا آخر قبله - وان كانت معرفة عابرة غير ذات أثر - حتى يهجرها هجرا قاسيا تهتز له أركان نفس الفتاة الوفية ولا تبيل من عقابيله حتى يحملها الداء الى قبر باكر . وقد عبر الشاعر العربي القديم عن شعور الغيرة الكريه في أبيات ساذجة لا تطاول تلك الآثار الفنية سالفة الذكر ، ولكنها ليست دونها صدقا وروعة تصوير قال :

نبأوها بأننى قد تزوجـ	ت فظلت تكاتم الأمر سرا
ثم قالت لجارة وللأخرى	كمدا : ليته تزوج عشرا
وأسرت الى نساء لديها	لا ترى دونهن للسرا سيرا
ما نلقى كأنه ليس منى ؟	وعظامى كأن فيهن فترا ؟
من حديث نساء الى فظيع	خلت فى القلب من تلطيه جمرا

وحلول البلى وجفاف الجمال وسقوط الجبابرة ونزول الهرم والعودة الى الشرى - هذه كلها موضوعات دارت على أقلام الكتاب والشعراء فى شتى العصور ، وأبدع كل منهم فيها على طريقته وطرازه ، وما تزال رغم ذلك التكرار جديدة تسترعى الاهتمام والتأمل ، لأن دواعيها فى النفس مازالت يقظة ثائرة ، تحسر كثير من الشعراء على جفاف جمال عهدوه فى صباهم أو طفولتهم رائعا ناضرا ، ثم التفتوا به بعد غياب سنين فاذا هو ذاو ذابل ، ومن ذلك الباب قصة صغيرة لموباسان على ما أذكر يصف فيها فتاة عرفها كاعبا رشيقة تطفز كالغزال ، ثم لقيها بعد سنوات ، فاذا هى امرأة ذات بعل وبنين بدينة ثقيلة الفهم والجراك ، وهو يعجب لقيمة ذلك الجمال الذى لا يدوم من عهد نضجه الى عهد ذبوله أكثر من عشر سنوات . وفى كتاب « صديقى » يصف أناتول فرانس فتاة جميلة أخرى عرفها "ى صغره وضاعة الجمال ، وعرف أمها تلبس السواد ، وكانت عجوزا شمطاء ، ودار البهر دورته ، ولقى أناتول السيدة ذات الرداء الأسود وعرفته ، واذا هى الفتاة الفاتنة بالأمس غدت اليوم عجوزا شمطاء ترتدى السواد ، وقد سكنت أمها اللحد منذ زمان .

وربما عيات عمر الخيام حافلة بهذا التأمل فى دوران الفلك وهرم الصغير وجفاف كل حسن نضير ، وللمعرى فى ذلك أشعار كثيرة منها تلك

التي فيها يتحسر على كل صائن خده عن قبلة قد سلطت الأرض على خده ،
ولكل حامل جيده ثقل الثرى ، وكان يشكو جيده ذاك ثقل العقد ،
ولتوماس هاردى قصيدة في هذا الموضوع اسمها « أمابل » يقول منها :
« راقبت ضوءها الخابى وآراءها العتيقة المتزمتة ، وتساءلت : أيمن أن
تسكن أمابل فى ذلك الشبح ؟ ونظرت الى ثيابها التي كانت فيما مضى
وردية ، فاذا هى اليوم دانية قاتمة ، كلون الأرض ، فخيّل الى ان ذلك
البدل ينعى الى أمابل ، وقد فقدت خطاها الآلية نشاط عهد الربيع ،
وغدت ضحكاتها التي كانت قدما ترن رنينا عذبا ، كريهة ممجوجة من
أمابل ، فسألت نفسى : منذ الذى يترنم اليوم بالنشيد الذى كنت
أترنم به قبل أن تخبو حرارة هذه الحياة ، ومنذ الذى يظن أن شعره
يصنف محبوبته أمابل ؟ » .

وهناك عدا هذه موضوعات أخرى كثيرة تداولتها أفكار الكاتبين
وأقلامهم من قديم كشتى ضروب الغرور والادعاء ، من تفاخر محدثي النعمة
بنعمتهم تفاخرا ساذجا ثقيلا ، الى ادعاء المدعين العلم أو الفن والبصر
باللغات ، الى المتباهين برحلاتهم فى الأقطار ورؤيتهم الآثار ، الى تكلف
الأناقة فى الحديث والذلاقة فى الخطاب – لن يخلو من ذاك وأشباهه
أدب راق فى الشرق والغرب مكررا على أقلام كتاب كثيرين يمتون الى متتابع
العصور ، وان عالجه كل منهم معالجة مخالفة لسواه باختلاف مشربه
واحوال عصره .

وكم من موضوع أو فكرة عولجت على شتى الأشكال فركزها شاعر
متبلورة موجزة فى بيت شعر ، وجعلها كاتب موضوع مقالة ضافية ،
وأنشأ منها مؤلف مسرحى رواية ذات فصول ، وحاك حولها قصصى قصة
تجيش بالحركة والحياة ، كل حسب ما تنزع اليه عبقريته وتتجه اليه
ميوله وتؤهله له ثقافته ، ومن العصور ما يحفل بأحدى هذه الصور من
الأدب ، ومنها ما يتجه الى شكل منها آخر يصوغ فيه أفكاره ونظراته ،
والأفكار فى جواهرها واحدة وان اختلفت الأشكال والصور ، ومن الأدب
ما تحفل بأحد هذه الأشكال الأدبية دون غيره ، كان للشعر فى الأدب
العربى الصدارة فخص بخير انتاج الفكر العربى فى عالم الأدب ، وكان
للدراما فى الأدب الاغريقى مثل تلك المكانة ، وزادت الآداب الأوربية
الحديثة على هذه وذاك القصة المقروءة ، ففيها يسجل الكتاب اليوم كثيرا
من خواطرهم وبقواعدها يتقيدون عدا قواعد الشعر والدراما .

واذ كان الأمر على هذا النحو من التشابه بين منتجات الآداب في شتى العصور والأمم ، لتشابه دواعيها وخوافيها من الطبائع الانسانية ، كانت مهمة أولئك النقاد الذين لا يحتفلون بشيء احتفالهم باتهام منقود بهم بالسرقة الأدبية وتتبع آثار جرائمهم الى مصادرها الأولى .

كانت مهمة أولئك النقاد أسهل المهمات ، فلن يعدموا تشابها بين آثار من ينقدون وبين آثار كثيرين جدا ممن تقدموه ، اذ كانت الطبيعة البشرية مستقي الجميع ومورد الأول والأخير ، وانما يحكم على الأديب بالاصالة أو التقليد بمجموع آثار ، فان كانت الآثار تنم عن شخصية قوية واضحة مستقلة فهي آثار عبقرية صادقة مهما كان هناك من تشابه بينها وبين آثار المتقدمين أو المتأخرين .

ومن أعجب ما يروى في هذا الباب ما ذكره الشاب الانجليزى رديارد كبلنج في ترجمته بقلمه من أنه في بعض أسفاره في أمريكا لقي شابا انجليزيا راقيا لا شك في صدقه ، فقص عليه هذا الشاب قصة رائعة اتفقت له هو نفسه في بعض تلك البقاع ، وتأثر كبلنج بتلك القصة الرائعة ، واتجه ذهنه توا كعادته الى صوغ قصة منها لقرائه ، ثم شغلته عن عزمه أمور ، حتى كان يوما يتصفح مجلة قديمة العهد جدا ، فاذا هو يقع فيها على قصة مماثلة لقصة الشاب في جوهرها وتفصيلها ، يقول كبلنج متأملا : منذا الذى كان يحجم عن اتهامى بالسرقة الأدبية لو اننى كنت نفذت عزمى وحررت تلك القصة التى سمعتها من الشاب ؟

وما يصدق على الأدب من تكراره لنفسه من جيل الى جيل ، يصدق على غيره من الفنون كالتصوير والنحت ، اذ كان شأن تلك الفنون كشأن الأدب ، تستمد وحيها وموضوعها من الغرائز والطبائع الانسانية الثابتة على توالى العصور ، فكم من صورة قد صورت أو تمثال أقيم أو نقش لبيان جمال الجسم الانسانى ، أو جمال الطبيعة من شروق وغروب وروض وزهر وغدير وبحيرة ، وللأعراب عن حالات النفس من أمل أو يأس وحبور ، أو شجن وحنق ، أو حذب واشفاق ، تكاد تكون كل صورة أو كل تمثال لاحق نسخة جديدة من أخرى قديمة ، لولا عبقرية الفنان الكامنة ، وشخصيته المتميزة ، التى تخلع على كل ما يمس جدوة ولذة

ويكفى لكنى تبين جيدا تكرار الفن نفسه على مدى العصور أن نوازنه في هذا الشأن بالعلم ، فالعلم لا يكرر نفسه أبدا الا أن تندثر حضارة بأكملها ، وتندك معالم علومها ، ويلزم البناء من جديد . أما فيما

عدا هذه الحالة النادرة فالعلم فى تقدم مستمر ، ينظر دائما الى الأمام ، ويتنكر دائما لماضيه ، وبينما يعود الفنانون عمدا من حين الى آخر الى آثار السالفين يحاكونها ويستلهمونها ، نرى العلم كلما تقدم استغنى عن ماضيه ، وغدا أصغر المبتدئين فى دراسته ، يعلمون من شتى حقائقه وقوانينه ، ما كان يجهله أرسخ علماء القديم وأعظمهم عبقرية ، أما الفن فلا يعدو أن يتبدل طرازا بعد طراز وزيا بعد زى كالشعبان ينفص ثوبا قديما ويستجد آخر .

انما يتكرر الفن لأنه يترجم عن مشاعر النفس الانسانية المتكررة ، وعن تأثر تلك النفس بظواهر الطبيعة المتكررة هى أيضا . ليست الطبيعة ذاتها دائبة التكرار لنفسها كالعجوز التى كملت ذاكرتها ، فلم تعد تذكر الا أحاديث بعينها تبدى فيها وتعيد ، فنهار يتلوه خريف ، وشروق بعده غروب ، وجيل من الأزهار والنبات يخرج كل عام ويتلوه جيل جديد فى العام التالى ، وجيل من الناس يولد ويهزم ويندثر ، ويتلوه جيل جديد يحاكيه فى جل أعماله ، وجيل من الحسان الفاتنات يملأ الأرض نضرة وبهاء ، ثم يذوى كما يذوى القضييب من الرند ويهرم ويرتد بشعا ثم يذهب ويأتى سواه ، وجيل من الأطيار الصادحة تفتح عيونها كل عام لنور وتخفق بالحياة وتهزج بالأناشيد ، ثم تذهب وتحل محلها على نفس الغصون أطياف أخرى تثرثر مثل ثرثرتها فى عبادتها للضوء والحياة .

ولست أرى جيلا من الأدب يذهب وجيلا يتلوه أمام المكاتب والأوراق والكتب والمحابر ، الا كذلك الجيل من الأطيار القصير الأعمار قائما على منابر غصونه ، كلاهما يثرثر بشعوره عن الحياة الجديدة التى أتى إليها وتفتحت عيناه فى نورها الساطع ، ثم يغفى اغفاءة أبدية ، وكأنه ما كان ، وكأنه ما ثرثر ، جيل الأطيار وجيل الأناسى شبيهان فى هذا ، وهما كذلك شبيهان فى أن الجيل المتأخر لا يكاد يزيد عما قال السابق له ، وان خيل أنه فى طريقه وحبوره بالحياة الجديدة أنه يبتدع ما يقول ويرتجل ما ينشد ، وانما هو الفن الخالد يعبد نفسه على السنة جيل من الوحش والأناسى بعد جيل .

السياسة في الأدب العربي

العرب من أشد الأمم استخداما للأدب في شؤون السياسة ، وما سمي الشعر « ديوان العرب » إلا لاحتوائه منذ الجاهلية على أيامهم ومفاخراتهم وخصوماتهم ، ومن روائع الشعر السياسي في الجاهلية أبيات الأعشى في يوم ذي قار ، وأبيات زهير في حرب عبس وذبيان ، وأبيات الأفوه الأودي في حكومة السادة ودولة الطغام . وقد كان أمثال الأفوه . وذى الأصبع العدواني ، وهانيء بن قبيصة الشيباني سادة في عشائريهم يقودونها يوم الهيجاء ويخطبونهم في الحادث الجلل ، ويفصحون عن مشاعرهم نظما ، ومن ذلك الشعر المعبر عن مشاعر القبيلة قصيدة السموأل التي يقول منها :

إذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول
وما أخدمت نار لنا دون طارق ولا ذمنا في النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة في عدونا لها غرر معلومة وحجول

فلما كان الاسلام تطور الأدب السياسي لتأثر العرب بالدين والفتوح العظيمة وحياة الحضارة ، ورغم بقاء العصبية القبلية وعودتها الى الاشتداد بعد حين ، لم تعد وحدها محور الخصومات ، بل اختلط بها العنصر الديني والنزاع على الخلافة ، وصحبتها التنافر بين العرب من جهة وبين الشعوب المفتوحة من جهة أخرى .

ومن ثم حفل الأدب العربي في الاسلام بالضرب السياسي ، بعضه يتعلق بإدارة الدولة وسياسة الرعية ، وبعضه يدعو الى الدولة القائمة والخليفة القائم ويناجز أعداءهما ، وبعضه يهاجم تلك الدولة ويؤلب عليها ، واتسع ديوان الرسائل في الدولة الاسلامية ما لم يتسع في غيرها ، واختار الخلفاء كتابهم ووزراءهم من بين الفصحاء المقاول (١) ، وكان هؤلاء يتألقون في صوغ رسائلهم الديوانية تألقهم في الكتابات الاخوانية ،

(١) جمع مقول وهو اللسان والمقصود بها البلغاء .

على حين تكون الرسائل الرسمية في الدول الأخرى ملأى بالرموز والتعقيدات .

كان الجيل الأول من الخلفاء والولاة يتولون بأنفسهم انشاء كتبهم ، ويخطبون الناس في مهمات الأحداث في أيسر لفظ وأجزله ، فكان على ابن أبي طالب رضى الله عنه مثلاً ينظر في شئون الرعية ، ويقود بنفسه الجند ، ويخطب الناس مبيناً حجته داعياً الى الجهاد ، ويملى الكتب الى ولاته أو الى معاوية أو غيره من مشاغبيه ، فأثر عنه من كل ذلك تراث أدبي سياسى رائع .

أما الأمويون فكانوا أقل خوضاً لمعالم القتال والبيان ، وبذلك عيرهم عبد الله بن الزبير في خطبة له عقب مقتل أخيه ، وكان أفصحهم عبد الملك الذى قال ان ارتقاء المنابر هو الذى شيب فوديه . على أن الخطابة ظلت قوية الى عهد أوائل العباسيين ، وكان المنصور من أخطب الناس وأقواهم حجة ، كما ظهر فى الخوارج خطباء مصاقع (١) وشعراء فحول ، وما اضمحل أمر الخطابة باستقرار الدولة ، الا وقد ارتفع أمر الكتابة وظهر أكابر الكتاب والوزراء .

ومن روائع الخطب السياسية قول أبي بكر :

« أيها الناس انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فسدّدونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا ان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

ومن محاسن الكتب السياسية كتاب على الى معاوية يحاجه ويدعوه :

« سلام عليك . أما بعد فان بيعتى بالمدينة لزمته وأنت فى الشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ، وانما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فاذا اجتمعوا على رجل وسموه اماماً ، كان ذلك لله رضى ، وان خرج عن أمرهم خارج ردوه الى ما خرج عنه ، فاذا أبى قتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وبئست مصيراً » .

(١) البلغاء .

ومن نماذج تلك الكتب قول أبي جعفر المنصور من رسالة في الرد على محمد النفس الزكية الشائر بالحجاز :

« ولقد خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية ، وحرقوكم بالنار ووصلبنوكم على جذوع النخل ، حتى خرجنا عليهم فأدركنا بشاركم اذ لم تدركوه ، ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم » . وهى معان رددتها فى خطبة له يقول منها : « وان أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب ، تركناهم والله الذى لا اله الا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل أو كثير ، فقام فيها على بن أبى طالب فتناطح وحكم عليه الحكمان ، فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة » .

ونظم ابن المعتز نفس المعانى فى أبيات يقول منها :

عقاب على الأقدار يا آل طالب	أبى الله الا ما ترون فما لكم
تراث النبى بالقنا والقواضب ؟	تركناكم حيناً فهلا أخذتمو
أعنة ملك جائر الحكم غاصب	زمان بنو حرب ومروان ممسكو
من الضرب فى الهامات حمر الذوائب	الا رب يوم قد كسبوكم عمائما
أبيننا ولم نملك حنين الأقارب	فلمما أراقوا بالسيف دماءكم
قعدتم لنا تورون نار الحياحب	فحين أخذنا ثأركم من عدوكم

وكانت للعباسيين حجج أخرى برع فى صياغتها والاستشهاد لها بآيات من القرآن الكريم مروان بن أبى حفصة ، قال من قصيدة يخاطب العلويين :

هل تعلمسون من السماء نجومها	بأكفكم ؟ أو تحجبون هلالها ؟
أو تجحدون مقالة من ربكم	جبريل بلغها النبى فقالها ؟
نزلت من الأنفال آخر آية	بثرائهم فأردتمو ابطالها

وقال يخاطب المهدي :

يا ابن الذى ورث النبى محمدا	دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم	قطع الخصام فلات حين خصام
ها المنساء مع الرجال فريضة	نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون - وليس ذاك بكائن -	لبنى البنات وراثة الأعمام ؟
ألغى سهامهم الكتاب فحاولوا	أن يشرعوا فيها بغير سهام
ظفرت بنو ساقى الحجيج بحقهم	وغررتم بثوهم الأحلام

وقد رد شعراء العلويين عليه دعواه قالوا :

لم لا يكون - وان ذاك لكائن - لبنى البنات وراثة الأعمام ؟
 للبنت نصف كامل من ماله والعصم متروك بغير سهام
 يا للطلاق وللتراث ! وانما صلى الطليق مخافة الضم

فلم نر برع من هذا سجلا ، ولا أعجب حوارا . يحتج صاحب
 العباسيين بسقى العباس للحجيج ، فيرد عليه صاحب العلويين بتسميته
 بالطلاق وتعييره بالتأخر عن الدخول فى الاسلام ، ويقول الأول ان بنى
 البنات لا يرتون شيئا دون الأعمام ، فيرد عليه الثانى محورا الكلام ببراعة
 من بنى البنات الى البنات ، ويقول ان البنت توث النصف وتوجب العم .

وكان الأدب المناصر للعلويين أنفوس الآداب السياسية وأصدقها
 شعورا وأغزرها مادة ، لأن قضية العلويين ظلت منشورة الصحائف فى
 عالم السياسة الاسلامية قرونا طويلة ، ولأن جمهور الأمة كان ميالا اليهم ،
 ولأنهم طول ذلك الكفاح لم يلقوا الا الاضطهاد الشديد ، ولم يظفروا
 كالأيوبيين والعباسيين بالحكم فترة من الزمن تتبين فيها للناس أخطاؤهم ،
 ومن أشهر الشعراء والكتاب لهم الفرزدق والكميت والسيد الحميرى ودعبل
 وابن الرومى والخوارزمى .

لقى الفرزدق الحسين بن على فى مسيره الى الكوفة خارجا على
 يزيد ، فسأله الحسين عن حال أهلها فقال : تركت قلوب الناس معك
 وسيوفهم عليك ، ونصحه بالرجوع ، فأبى وتابع سيره الى كربلاء ، وكان
 الفرزدق بعد ذلك بسنين طويلة يطوف بالبيت الحرام ، وكان فى الطائفتين
 الخليفة هشام بن عبد الملك ، وعلى بن الحسين المعروف بزين العابدين
 الذى كان أسرا فى كربلاء صبيا ، ونشأ سيد الناس جمالا وخصالا وعفة ،
 ورأى هشام الناس تفسخ الطريق لزين العابدين وتلقاه بالاجلال ، فغار
 وتساهل متجاهلا : من هذا ؟ فنظم الفرزدق ميميته التى مطلعها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
 ومنها :

فايس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم
 أما الكميت فالف ديوانا كاملا فى آل البيت تعرف قصائده
 بالهاشميات ، نظم فيها ولاء لهم وأيد حقهم فى الخلافة ، وندد بغاصبيها

الأمويين ، ومدح رجالهم وذكر أيامهم وتفجع لمآسيهم ، ومن محاسن أقواله
فيهم بآئته الطويلة التي يقول منها :

بخاتمكم غصبا تجوز أمورهم	فلم أر غصبا مثله يتغصب
بحقكم أمسيت قريش تقودنا	وبالفد منها والرديفين تركب
إذا اتضعنونا كارهين لبيعة	أناخوا لأخرى والأزمة تجذب
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا	ومما ورثهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم حقا على الناس واجبا	سناها وحق الهاشميين أوجب

وكان دعبيل الخزاعي يمقت العباسيين ويهجوهم جهارا ، هجا الرشيد
وعجب من أن قبره وهو قبر شر الناس يجاور بطوس قبر موسى الرضى
العلوى وهو خيرهم ، وهجا المأمون وفخر عليه بأن قبيلته قتلت أخاه
وشرفته بمقعد ، وذلك لأن طاهر بن الحسين قائد المأمون كان مولى لخزاعة ،
وهجا المعتصم ثامن العباسيين وشبهه بكلب أهل الكهف ، كما سلب
لواذع سخره على إبراهيم بن المهدي وعلى المتوكل ، وفي الوقت نفسه
كان لا يالو العلويين مدحا وولاء ، ولا ينفك يتحسر على مصايرهم المفجعة ،
فمن ذلك قوله :

وليس حى من الأحياء نعلمه	من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
الا وهم شركاء فى دمائهم	كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة	فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين ان قتلوا	ولا أرى لبنى العباس من عذر

ومع أن ابن الرومى كان مولى لبعض بنى العباس كان هواه مع
العلويين ، وأروع ما نظم فى الولاء لهم جيميته الفاخرة التي رثى بها فى
شبيته علويا خارجا يدعى الحسين أبا يحيى ظفر به العباسيون ونكلوا
به ، فتجددت لنكبته أشجان المسلمين من أجل العلويين ، ومن هذه
القصيدة يقول ابن الرومى :

بنى المصطفى اكم يأكل الناس شلوكم؟	لبلواكم عما قليل مفرج
أما فيهم راع لحق نبينه	ولا خائف من ربه يتحرج ؟
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكم	كأن كتاب الله فيهم ممجج
الا خاب من أنساه منكم نصيبه	متاع من الدنيا قليل وزبرج

ولأبى بكر الخوارزمى رسالة بايغة فى التفجع لآل على والنقمة
على العباسيين يقول منها عن هؤلاء : « يقتلون بنى عمهم جوعا وسغبا ،
ويملأون ديار الترك والديلم فضة وذهبا ، يستنصرون المغربى والفرغانى ،
ويجفون المهاجرى والأنصارى ، ويولون أنباط السواد وزارتهم ، وقلق
العجم والطماطم قيادتهم ، ويمنعون آل أبى طالب ميراث أمهم وفىء
جدهم » .

وكان من العباسيين من يعنف على العلويين كأبى جعفر والمتوكل ،
ومنهم من يحسن اليهم كالسفاح والمهدى ، ومال الخلفاء منذ تدهور الخلافة
الى استصلاح الطالبين ومنحوهم حقوقا ، وجعلوا لهم نقابة كان صاحبها
الشريف الرضى على عهد الخليفة الطائع ، وكانت للشريف فيه مدائح
يعتز فيها بنسبه فى الوقت عينه ، ومنها قوله :

مهلا امير المؤمنين فأنسا	فى دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت	أبدا كلانا فى المعالى معرق
الا خلافة ميزتك ، فأننى	أنا عاطل منها وأنت مطوق

وترى للشريف أبياتا أخرى يحن فيها الى الخليفة العلوى الفاطمى
بمصر . والحق أن قيام الدولة الفاطمية بمصر تعين حدا فاصلا فى تطور
الأدب السياسى الشيعى ، كان هذا الأدب الى هذا العهد حزينا باكيا
لما طال على العلويين من اضطهاد وتنكيل ، ثم تغيرت هذه النغمة بظفر
الفاطميين وتأسيسهم دولة تناهض دولة العباسيين ، فتغنى مادحوهم
بالظفر والغلب ، يتجلى ذلك فى قول ابن هانىء الأندلسى :

يقول بنو العباس قد فتحت مصر	فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
فلا تكثروا ذكر الزمان الذى مضى	فذلك عصر قد تولى وذا عصر

وكانت الدعوة العلوية لما عانتها من كبت وقسوة قد اندفعت الى
الغلو وامتزجت بالسرية ، واتسمت عقائد الشيعة بالجموح ، وبذلك
انسمت أشعار مداح الفاطميين وأولهم ابن هانىء الأندلسى وآخرهم عمارة
اليمنى ، وفى أشعارهم نظم لكثير من عقائد الشيعة فى الامامة والرجعة
وغيرها .

وقد لجأ الشعراء منذ صدر الاسلام الى نظم عقائدهم الدينية
والسياسية ، فنظم الشيعة والمرجئة والمعتزلة غير قليل من آرائهم فى

ديباجة راثلة معجبة ، قال كثير عزة يروى عقيدة الشيعة في حصر الخلافة في علي وأبنائه الثلاثة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وقولهم ان مجمدا هذا لم يمت ، وانما هو متغيب ، وسيرجع فيكون هو المهدي الذي يملأ الأرض عدلا :

ولا الحق أربعة سواء	ألا ان الأئمة من قریش
هم الأسباط ليس بهم خفاء	علي والثلاثة من بنيہ
وسببط غيبته كربلاء	فسببط سببط ايمان وبر
يقود الخيل يقدمها اللواء	وسببط لا يذوق الموت حتى
برضوى عنده غسل وماء	تغيب لا يرى فيهم زمانا

وقال ثابت قطنة في مبادئ المرجئة :

ونصدق القول فيمن جار أو عندا	نرجى الأمور اذا كانت مشبهة
والمشركون استتوا في دينهم قددا	المسلمون على الاسلام كلهم
م الناس شركا اذا ما وحدوا الصمدا	ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا
سفك الدماء طريقا واحدا جددا	لا نسفك الدم الا أن يراد بنا

وقال صفوان الأنصاري يصف أحوال المعتزلة ومساعيهم لنشر دعوتهم ويمدح زعيمهم واصل بن عطاء :

الى سوسها الأقصى وخلف البرابر	له خلف شعب الصين في كل ثغرة
تهكم جبار ولا كيد ماكر	رجال دعاة لا يفل عزيمهم
وان كان صيفا لم يخف شهر ناجر	اذا قال مروا في الشتاء تطاوعوا
وشدة أخطار وكد المسافر	بهجرة أوطان وبذل وكلفة

وبينا أتباع هذه المذاهب يهتمون بالمبادئ الدينية ويجدون في تأييدها ، كان آخرون مشغولين بالمنافرات العصبية التي احتدمت على عهد الأمويين ، وكان فرسانها المجلون جريرا والفرزدق والاخلطل ، وكان العرب من جانب والشعوب الأخرى ولا سيما الفرس يتفانخرون ويتخاصمون ، وكان شعراء الفرس أشد احتداما في تلك المعركة لانتمائهم

الى الشعب المغلوب على أمره ، ومن أجمع ما قالوه فى هذا الباب قول
المتوكلى الشاعر :

أنا ابن الأكارم من نسل جم	وحائز ارث ملوك العجم
ومخينى الذى باد من عزهم	وعفى عليه ظنوال القدم
وطالب أوتارهم جهرة	فمن نام عن حقهم لم أنم
معى علم الكايبان الذى	به أرتجى أن أسود الأمم
فقل لبنى هاشم أجمعين	هلموا الى الخلع قبل الندم

وكان العرب من جانبهم يحسون بالخطر من تدخل الفرس أولا
والترك ثانيا فى شؤون الدولة ، وكان منهم من يتهمون البرامكة بالكيد
للدين والرغبة فى إعادة ملك الفرس ، وبذلك اتهم الفضل بن سهل ،
ودبر قواد المعتصم العرب مؤامرة لاغتياله هو وقواده الترك ، ويتمثل
تململ العرب من تغلغل النفوذ الأجنبى فى دولتهم فى قول يزيد المهلبى
يخاطب العباسيين من مرثية للمتوكل :

لما اعتقدتم أناسا لا حلوم لهم	ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم	حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والأنساب تجمعهم	والدين والمجد والأرحام والبلد
إذا قرئش أرادوا شد ملكهم	بغير قحطان لم يبرح بها أود

ان للدولة الاسلامية خصائص تميزها فى الحضارة والثقافة والتاريخ
عن سائر الدول ، ومن تلك الخصائص اختلاط الدين بالسياسة فيها
أشد اختلاط ، واختلاط الدين من جهة أخرى بالفلسفة واختلاطه بالدولة ،
واختلاط الأدب بهذا جميعه ، فكان الأدب بعد الاسلام كما كان قبله
ديوان العرب •

وهذا الاختلاط بين الدين والسياسة والأدب والفلسفة يجعل
الباحث فى أحد تلك المناحي يلم بباقيها ، وكثيرا ما يرى أن أعلام هذا
المنحى من النشاط الفكرى هم أعلام بعض المناحي الأخرى ، فشخصية
على بن أبى طالب رضى الله عنه مثلا تصادف الدارس للأدب العربى ،
كما تصادف الدارس للتاريخ الاسلامى ، كما تصادف الناظر فى السياسة
والفرق والمذاهب •

ولهذا كان الأدب العربى من أدل الآداب على تواريخ الشعوب ،
 وكانت الحقائق التى يمكن استخلاصها من كتبه عن سياسة العرب
 ومجتمعهم من أمتع الحقائق وأنفعها ، وقلما تجد ملكا فى أمة أخرى يوصى
 عامله بمثل ذلك الكتاب البليغ الذى أوصى به عمر بن الخطاب رضى الله
 عنه أبا موسى الأشعرى ، أو تجد واليا يستنهض ملىكه الى مسائل السياسة
 والحرب بمثل الشعر الرصين الذى استنهض به نصر بن سيار مروان
 ابن محمد الى قتال أهل خراسان ، ومن ثم كانت كتب الأدب العربى كتب
 تاريخ وأدب معا .

فن الحياة

فطن الناس من قديم الى ما فى الحياة من مظاهر الجمال وأولعوا به ، وتغنوا بحبه المركب فى نفوسهم ، وقصروا على ذلك الشغنى بجمال الحياة فنونا عرفت بالفنون الجميلة ، هى الشعر والموسيقى والتصوير والرقص والنحت وما جاراها ، اليها يفرعون كلما نفضوا أيديهم من طلب الرزق ، والى مناجاتها يستريحون كلما أثقلتهم هموم الحياة ، فالفن عندهم جزء من الحياة ، وان كان أحب أجزائها الى نفوسهم ، والجمال جانب واحد من الحياة ، وقد شأهت لها جوانب أخرى عديدة ، والفن كمالى يستأثر من وقتهم بساعة ، وان كانت أحب الساعات .

تلك كانت فى أغلب الأحوال نظرة الناس الى الفن ، وتلك كانت نظرة أكثر كبار رجال الفن أنفسهم ، كانوا مهما سمت آثارهم فى عالم الفن وتعددت ، تعج حياتهم العادية بمناحي البؤس وأسباب الشقاء ، ويحفل الوسط الذى يضطربون فيه بمظاهر القبح والسوء ، وتركت تلك الحياة الشقية القبيحة أثرها فى مخلفاتهم التى تحفل بالشكوى والتوجع والقنوط ، وانتهت أيام كثير منهم انتهاء فاجعا ، وما ذاك الا لأنهم عرفوا الفن وجهلوا الحياة ، لأنهم قصروا الفن على جانب واحد من شتى جوانب الحياة ، لأنهم حصروا جمال الحياة فى باب أو أبواب معدودة ، جعلوها موضوع فنهم ، ثم أهملوا بقية الجوانب ، فلم يروا فى الحياة بعد ذلك الا قبحا وشقاء .

أجل ، لقد اصطلح أرباب الفنون من قديم على منح من الحياة ، عدوها مظاهر الجمال ، وتوفروا على تصويرها وأهملوا أو كادوا ما عداها . وكم حفلت أشعار الشعراء وصور المصورين بأوصاف الطبيعة والجسم الانسانى ، وبأواعج الحب والحنين والذكريات ! فهل حب المرأة والشغف بمحاسن الطبيعة هما كل ما يتحرك له وجدان الانسان ؟ وهل العيون والشغور والنجوم والأزهار قد استبدت بالجمال ، فلا تستريح النفوس الى سواها ، ولا يتغذى الشعور بغيرها ؟ ان الجمال الذى تهوى اليه الأفئدة ليتجسم فى هذه المجالى حقا ، ولكنه غير مقصور عليها ، وانما

هو منبث في كل مظاهر الطبيعة ومناحي الحياة ، كائن حيث أراد .
الانسان وسعى اليه .

الجمال كائن في كل مظاهر الحياة ، والحياة كلها جميلة في عيني
من أرادها ، وتهدى الى محاسنها بنفاذ البصيرة ، وعمل على تجميلها
وتدارك هوائها بثاقب نظر ولطافة حس ، والفنان الحق من لم يقصر عنه
على قصيد ينظمه ، أو لحن يردده ، أو لوحة يصورها ، بل شمل الحياة
كلها بنظرته وشعوره ، ونشر رواق الجمال على أيامه كلها حيث أقبل
في الحياة وأدبر ، واتخذ الحياة كلها قصيدة يعالجها ، أو نغمة يؤلفها ،
أو منظرا يتفنن في ابداعه . الفنان الحق هو من عرف فن الحياة ، أي
من عاش عيشة فنية يشملها الجمال ، وان لم ينظم بيتا ولم يخرج للناس
لحنا ولا صورة في قرطاس .

وللفن أصول معروفة ، فهو يقصد الى الجمال دائما ، وهو عملية
واعية مقصودة لذاتها ، يتصرف فيها الفنان بما يدور في نفسه وتحت
حسه من مشاهد ومشاعر ، فعلى من أراد الحياة الفنية أن يتبع هذه
الأصول : ينزع الى الجمال في كل ما يمارس من شؤون الحياة ، ويؤلف
عناصر حياته تأليفا واعيا مقصودا ، يستبعد كل بغيض وناب ، ولا يستبقى
الا كل متسق ملتئم ، وهذا التبصر الدائم في تنسيق أجزاء حياة المرء
والملاءمة بين عناصرها ، هو أول شروط النجاح في الحياة ، وليس يرجع
شقاء الكثيرين في حياتهم أو ملالهم منها الا الى اغفالهم ذلك التبصر الدائم
والتنسيق المتتالي لعناصر حياتهم المادية والفكرية وتركهم الأمور على
غواربها .

والجمال الذي يروعنا في الطبيعة ويقوم الفن على أساس منه ،
انما يتألف من عناصر الانسجام والائتلاف ، والتقابل والبساطة ،
والاستقامة والصحة ، والحيوية والقوة ، ومماشاة الطبيعة ، والسليقة
القوية . فاذا نحن أشعنا هذه العناصر في حياتنا أشربناها الجمال ،
ونشرنا عليها سمة الفن ونهجننا بها سبيل السعادة . ولن تكون سعادة
صحيحة بغير جمال ، ولن ترى شقيا متعشرا الا لأنه أغفل بعض عناصر
الجمال هاتيك ، فأقفرت منها حياته ، فأشقاء ما فيها من قبح ونبو
وشذوذ ، وقاسى من جراء ما بها من منادح افراط أو تفريط .

لكي تكون حياتنا سعيدة يجب أن نجعلها فنا ، يجب أن نعالجها
معالجة الفنان قطعة فنية ، يجب أن نقصد فيها الى الجمال دائما ، وأن
ننشر عناصره في نواحيها المادية والمعنوية ، يجب ألا نفكر الا فيما هو

جميل وسام ونبيل ، يجب أن نترفع عن الهين والصغير ، ونعزف بأنفسنا عن كل ما هو مناقض لعناصر الجمال سالفة الذكر ، ونصد عما من شأنه أن يخرج بنا عن نهج البساطة والاستقامة والصحة والقوة ، أو يميل بنا الى التواكل والرخاوة والشذوذ والنبو .

واذا كان التناسب والتقابل والائتلاف من عناصر الجمال وأسس الفن ، كان علينا أن نتوخاها في حياتنا ، نال من كل غرض نبيل بقدر ونلزم سبيل القصد ، نوازن بين العمل والاستجمام ، ونناسب بين التفكير والعمل ، ونؤلف بين اللذة والألم ، ونقصد في الإجتماع بالناس وطلب الوحدة والبعد عنهم ، ونقسط في قسمة رعايتنا واهتمامنا بين العقل والجسم ، وبين الحاسة والذهن ، ونتوسط في الميل بين العقل والعاطفة ، ونعتدل بين مشاركة الناس شعورهم والاستقلال عنهم بآرائنا ، ونلزم الحزم في طلب المال الذي هو قوام الحياة ، وفي انفاقه في وجوهه ، نؤلف بين هاتيك العناصر التي تتكون منها حياتنا ، فتجىء حياتنا كالقطعة الفنية المجودة المنسجمة ، وما نتيجة ذلك الا أن تكون سعيدة .

وكثير من الناس توفرت لهم عناصر الحياة وأسباب السعادة ، وهم مع ذلك أشقياء ، لأنهم جهلوا فن الحياة وعجزوا عن تأليف قطعة الحياة الفنية والمناسبة بين عناصرها ، فاذا فيها اقواء أو استطراد كالذى يعيب القصيدة ، واذا فيها نشاز ونبر كالذى يعيب اللحن ، فمنهم من شقى لأنه أسرف في العمل وأهمل الاستجمام ، فكده ذهنه وأعل جسمه ولم يغن عنه جده ، ومنهم من شقى لأنه أهمل العمل واستناب الى الراحة ، فملكه الضجر وتولاه القنوط ، ومنهم أشقياء لأنهم انصرفوا سراة (معظم) حياتهم الى حياة الفكر وحدها ، حتى اكتظت أذهانهم ، وترهلت أبدانهم ، وحسدوا رجال العمل على نشاطهم واقتدارهم على الخلق والتنفيذ .

ومن الناس أشقياء ما تزال الأحزان تلاحقهم ، وكأنما تلح عليهم عن قصد وعمد ونكاية ، وما ذاك الا لأنهم استناموا اليها واستسلموا لها ، وكان أولى اذا نزل بهم خطب أن يتدبروا العزم ويستخلصوا ما فيه من درس وعبرة ، فلا يخرجوا منه الا أبصر بالحياة وأقدر على كفاحها ، فلما استناموا الى الأحزان صارت الذلة لها والمسكنة طبيعة فيهم ، وصار لهم خدنا لهم ، يفتقدونه اذا غاب عنهم ويكادون يسعون اليه سعيا ، ويغتمطون بعودة أسبابه اغتباطا ، وأكثر من هؤلاء شقوة من أرادوا العيش كله لذة ومتاعا ، فسرعان ما بشموا (أتخموا) من اللذات وما يريدون عنها

اقلاعا ، انما يمنعون فيها تماديا ، ويتكلفونها تكلفا ممقوتا ، لا يرد عنهم
الملال طويلا .

وأسرف كثيرون — منذ تحضر الانسان وسكن المدن — فى رعاية
العقل ونبد الجسم وتحقيره ، حتى تعاورته العلل والأسقام ، واحتاجوا
الى الاستكثار من الثياب لا ليدفعوا بها حرا ولا بردا ، ولكن ليستروا
جسوما ألوى بها الاهمال ، فارتد منظرها مشوها منفرا ، بعيدا كل البعد
عن الجمال والفن ، ومن التناقض البين أن يزعم المرء أنه كلف بالجمال ،
معنى به فى مظاهر الأرض والسما ، وفى آثار الفنانين ، وقد حرم بدنه
هو نفسه أبسط أسباب الجمال والصحة والاستقامة ، وما ذاك الا اثر
من آثار الحياة غير الفنية التى يحيها أكثر الناس مهما نالوا من تثقيف
وتهذيب .

ومن أظهر أسباب الشقاء التنازع بين العقل والعاطفة ، فكثير من
الناس ولا سيما البسطاء ، ومن لم ينالوا حظا من التعليم ينقادون
للعاطفة انقيادا يوردهم موارد العطب ، وآخرون ممن أصابوا غاية من
التثقيف وطمحوا الى التسامى فى كل الأمور ، يحاولون تحكيم العقل فى
كل أمر وكبت العاطفة ، وتسلك التقاليد فى هذا الصدد أحيانا سبيل
التعسف ، تنقاد لعواطف بلهاء أحجى أن تقمع ويغلب عليها العقل ،
وتضرب الحجب والأسداد على عواطف هى أجدر بالتعهد والرعاية ، وفنان
الحياة الحق من أحسن التوفيق بين أوامر العقل ومطالب العاطفة ، فمال
مع ذاك مرة ومع هذه أخرى وفق ما يقضى به الطبع السليم ويتطلبه فن
الحياة ، فان حياة يتحكم فيها العقل وحده لجافة مقفرة ، كما أن حياة
منساققة فى تيار من العواطف متدافع ، هيهات أن تكون سعيدة أو ناجحة
ثمرة .

وما أكثر من يشقون لاستعباد المال نفوسهم حتى يلوى وجوههم
عما عداه من مطالب الحياة ، فهم من أجله مضطربون بالوقت والجهد ،
مهملون حق أنفسهم على أنفسهم وحق الناس عليهم ، وهم يجدون فى ذلك
ولا شك بعض اللذة والسعادة ، ولكنها لذة منغصة ، وسعادة ولا شك
ناقصة أفحش نقص ، واذا كانت عبادة المال تشقى هؤلاء فان الجهل
بقدره يشقى قوما آخرين لا يقلون عددا ، فان المال قوام الحياة وأساس
النجاح ودعامة الاستقلال الفردى وحصن الكرامة الشخصية ، ولا مجد
فى الدنيا لمن قل ماله كما قال المتنبى ، والجاهل بقدر المال المبذر له فى
غير وجوهه لن ينال السعادة ولا النجاح ، وسيقعد يوما ملوما محسورا ،

انما يقتضى فن الحياة التوسط فى الحرص على المال والزهد فيه ،
والاعتدال فى طلب النفع المادى والغنى الأدبى .

وتنظيم علاقة المرء بمجتمعه خير محك لمقدرة فنان الحياة . فالإنسان
حيوان اجتماعى ، والراهب أو المتشائم الذى يعتزل المجتمع أو لا يواصل
الناس الا لما هو رجل مخفق فى الحياة لم يحذق فيها ، كما ان الرجل
المنغمر فى المجتمع الغائب فى ثناياه ناقص أسباب السعادة والنجاح ،
اذ لابد من الخلوة ليرجع المرء الى دخيلة نفسه ويتدبر صفحة حياته ويجدد
عزماته وينظم آراءه ويوجه خططه ، وبالجمله يتبصر فى هذه القطعة الفنية
التي يقوم على تأليفها تأليفا منسجما : قطعة الحياة .

ولكى تظل عناصر الجمال نصب أعيننا وملء نفوسنا لابد أن نحيط
بها أنفسنا فى حلنا ورحيلنا ، فى عملنا ولهونا ، فى كل مظاهر المادة
المحيطة بنا ، يجب أن تكون مظاهر الائتلاف والانسجام والبساطة والصحة
والحيوية ماثلة فى المسكن والمكتب ودار الاجتماع والسمير والاستجمام ،
وفى الملبس وفى المطعم وفى الأشخاص المحيطين بنا فى كل هؤلاء ، فان من
نحيط به مظاهر الجمال المادية حيث يدور وينظر، لن يكون الا هادى النفس
رضى البال .

وليس يكفى ان يكون المسكن والملبس والمطعم والندى جميلة
متناسقة محبة اذا كان كل ذلك من صنع الآخرين ، ان الجمال والفن
والسعادة واللذة فى أن نقوم نحن بتنسيقها وتحبيبها الى أنفسنا ، أو
نشارك فى ذلك بعض المشاركة على الأقل ، فصاحب الدار المشبعة الاثاث
القبیحة النظام الصاخبة المضطربة ، يكون بلا شك مشوش الفكر على
ذلك النحو ناقص أسباب السعادة ، ولكن ليس خيرا منه بكثير من تبدو
داره منظمة منظفة بفضل الخدم الأجراء ، فان مشاركته هو نفسه فى
ذلك تزيد مظاهر المادة حوله بهاء وتزيد تمتعه بما يرى من مظاهر
الجمال .

ان الخبير بفن الحياة يشارك أتم المشاركة فى تنضيد داره وغرفته ،
وفى انتقاء ثيابه وصنعها ، وفى اختيار مأكله واعدادها وتهيئة الخوان ،
لا يرمى فى شئ من ذلك الى السرف والبذخ والتظاهر والتكثر والتخمة ،
بل الى البساطة والانسجام والاستقامة والصحة والحيوية، وتتغذى نفسه
متى جلس الى الخوان بشعوره بحسن اختياره واعداده ، وبما هناك
من رونق وتناسق ، أضعاف ما يتغذى جسمه بما ثمة من مأكلا
ومشرب .

والخبير بفن الحياة يعرف كيف يستخلص أعظم المتاع من قليل الحطام ، وكيف يحل الجمال والسعادة حيث يتوهم غيره القبح والشقاء ، وكيف يدخل الفن على أشد تفاصيل عمله اليومى الراتب املا ، فاذا هو محبب غير ممل ، وكيف يدخل الجمال والبهجة على كل حديث يطارحه صاحباً حميماً أو طارئاً عابراً ، وكيف يوغل عنصر الجمال على شتى التجارب القاسية والأحداث المؤلمة ، بأن يتدبر ما فيها من منادح للعبارة ومعارض للدرس ومجال لنفوس البشر وطبائع الأشياء ، وكيف يستغنى تمام الاستغناء بما يكون عما لا يكون ، مع تملى الحياة ملء نفسه دون تزهد أو تقشف أو رفض لها .

ان الحياة فن جميل ، والسعادة فى اتقان ذلك الفن ، وخير للمرء أن يتقنه من أن يبرع فى أى فن من الفنون الجميلة المتعارفة ، خير له أن يبسط الجمال فى كل مناحى حياته من أن يحصر الجمال فى نواح خاصة ، يعبر عنها بصور وأساليب خاصة ، ثم يترك بقية حياته نهبا للقبح والاضطراب والشقاء ، وهل كانت الا كذاك حياة كثير من الفنانين المفلوكن (الفقراء) كآبى نواس وبشار وجولد سميث وبايرون وموباسان وفرلين ؟

خير للمرء أن تكون حياته ذاتها فنا يحياه فى صمت ، وجمالا يستوعبه فى سكون ، من أن يملأ طباق الجو بدعوى فنه ، وحياته تجيش بأسباب القبح والشقاء كأولئك ، أو أن يستعبده فنه الجميل استعباده ، ويسترقه حب الاشتهار به استرقاقا ، فيحرم نفسه لذات الرياضة والحديث والاضطلاع والحركة والرحلة ، حرصا منه على التزود من أسباب فنه والاستمرار على الانتاج فيه انتاجا يديم ذكره فى أخلاق الناس وعلى شفاههم ، كما آلت اليه حياة الناقد سانت بييف والقصى بروست اللذين غدوا بفضل التوفر على الأدب رهن محابس كثيرة لا محبسين اثنين .

واذ كانت السعادة فى أن تكون الحياة فنا يتوفر عليه صاحبها كان الخير فى أن ننشئ الجيل الصغير على عقيدة أن الحياة فن ، ونعلمهم منذ حداثتهم كيف يتملون حياتهم على هذا النحو الفنى ، وكيف يتوخون الجمال فى كل قصة وكل عمل ، فقد قال قوم ان غاية التربية هى تزويد الناشئ بالعلوم التى تعينه على اكتساب حياته ، ودرس ذلك المذهب وظهرت أهمية تهذيب الخلق بجانب ذلك ، ثم امتد الاهتمام الى الناحية الجسمية ، ولكن كل ذلك غير مغن حتى يسود التربية مذهب فنى ، حتى

تشمل النزعة الفنية كل غايات التعليم ووسائله ، وليس يغنى أن تلقن الحدث كثيرا من العلوم وبعض الفنون حتى نلقنه فن الحياة .

وانما أشرت الى وجوب تلقين هذا الفن للنشء ، لأن هذا الفن لخطره وشموله الحياة بأجمعها لا يتلقن على كبرة ولا يحذقه كل من أراد ، وأكثر من نشأ فى حياة متنافرة العناصر قبيحة المظاهر يصعب عليه متى كبر أن يفقه الحياة الفنية أو يمارسها مهما نال من العلم والثروة والجاه ، ويظل — وان أعجب بالحياة الفنية الجميلة التى يحياها غيره — عاجزا عن ضم شئ من حياته وتقليد غيره فيما يصنع ، ذاك بأنه تلقن فى صغره علوما كثيرة وفنونا ، وحرم أهمها وأجلها : وهو فن الحياة .

الأجناس والقوميات

بزغ فجر التاريخ وقد انشعب البشر قبائل وشعوبا ، تستوطن
 ممتدائي بقاع الأرض ، وتفصلها في كثير من الأحوال تضاريس اليايس
 وفجوات الماء ، وقد تطبعت كل قبيلة أو أمة بطباع اقليمها التي تفرضها
 عليها ظروفها المناخية ووسطها الجغرافي ، وتوارثت تلك الطباع والعادات
 والميول والتقاليد ، حتى اتسعت شقات الخلاف بين الأمم والشعوب
 في صفاتها الجسدية والعقلية ، وأصبحت اذا اتصل بعضها ببعض في
 حرب أو تجارة أو رحلة ، راعتها تلك الفروق ، حتى كادت تنسيها ما بين
 البشر جميعا من اتفاق في الأرومة واشتراك في العنصر والمنشأ ، ولم يدر
 في خلد كل أمة نالت نصيبا من الحضارة مهما قل الا أنها خير الأمم ،
 وأنها الشعب المختار . وكانت تلك العقيدة ، وتلك الفروق ، وما ساد بين
 الأمم من جهل بعضها ببعض ، أكبر أسباب اشتعال الحروب بينها في
 قديم العصور .

تختلف شعوب الأرض في شتى الوجوه : في ألوانها التي تتراوح
 بين البياض والسواد ، والسمرة والصفرة والاحمرار ، وفي قامتها التي
 تتراوح طولا ، وفي أشكال رؤوسها التي تميل تارة الى الاستعراض ،
 وطورا الى الاستطالة ، وأحيانا الى البيضوية ، وفي ألوان شعورها
 وعيونها وأشكال أنوفها ، وتختلف الشعوب في لهجاتها ولغاتها ، وفي
 أديانها وعقائدها ، وفي عاداتها وتقاليدها ، وفي أخلاقها وأزيائها ، وطرقها
 في الحديث والحركة والمشية . وقد عملت الحضارة الحديثة ، ذات
 الصبغة القريبة من العالمية ، على محو بعض الفروق القابلة للمحو ، وما يزال
 أكثرها باقيا واضحا .

تنبعت الأمم المتحضرة الى تلك الفروق من قديم الزمن ، واهتمت
 بتسجيلها كتابة وتصويرا ، فخلف المصورون والنحاتون ، والكتاب
 والشعراء ، والمؤرخون والجغرافيون ، والرحالون والسفراء ، آثارا غزيرة
 في التحدث عن شعوب الأرض المختلفة وعاداتها المتباينة ، فكان قدماء
 المصريين أنفسهم باللون الأحمر ، ويصورون بالأصفر أعداءهم الآسيويين ،
 وبالأسود زنوج أفريقيا ، ولما عرفوا أهل الشمال صوروهم باللون

الأبيض . وأفاض الرحالة هيرودوت فى وصف أحوال الأمم التى طاف
ببلادها ، وكذلك فعل مؤرخو الرومان ، ومنهم تاسيتوس الذى ترك وصفاً
مسهباً لأحوال البرابرة القاطنين على حدود الامبراطورية ، وهو يمدح
أخلاق الجرمان القوية ، ويوازن بينها وبين أخلاق الرومان المترفين ،
ويشير الى صلابه أجسادهم ، وامتداد قاماتهم ، وزرقة أعينهم ، وشراسة
نظرتهم .

وفى العصور الوسطى أوالع العرب بجوب الأقطار والممالك ، واجتياز
المفاوز والمسالك ، وكتب كبار رحالتهم كتباً قيمة تجمع بين التاريخ
والجغرافيا ، وبين وصف الأرض ووصف الجماعات التى تقطنها ، واشتهر
منهم ابن جبير وابن بطوطة والمسعودى والادريسي وآخرون كثيرون ، كما
ظهر رجالون أوروبيون فى أواخر تلك العصور ، أشهرهم ماركو بولو الذى
ترك وصفاً شائقاً لأحوال الصين ، وبقيام النهضة الأوروبية دخل الأوروبيون
عصراً من الرحلات والاستكشافات عديم النظير ، ومن أوائل من اهتموا
بالرحلة وتدوين ملاحظاتهم عن الشعوب وعاداتهم الطبيب الانجليزى
أندرو بورد من أهالى القرن السادس عشر ، فقد طاف فى أوربا والشرق
الأدنى ، وهو فى كتاباته شديد الاعتداد بالانجليز والتنويه بصفاتهم ،
شديد الحملة على من عداهم ، وان اعترف لهم أحيانا ببعض الحسنات .

ومنذ توشجت العلاقات بين الشعوب ولا سيما شعوب أوربا والشرق
الأدنى من أواخر العصور الوسطى ، نشأت عادة ارسال السفراء والقناصل
الى الخارج ، وكانت البندقية وغيرها من مدن ايطاليا التجارية أسبق
الدول الى ذلك ، وكان السفراء فى ذلك العهد يقومون بتعريف الشعوب
التي يمثلونها بالشعوب التى يسفرون لديها ، فيكتبون التقارير الضافية
عن أمزجة تلك الشعوب وعاداتها وأزيائها ، وتقاريرات سفراء البندقية الى
حكومتهم ماتزال من أمتع الوثائق فى هذا الصدد ، ومن أهم مراجع تاريخ
تلك العصور .

كان أولئك الرحالة والجغرافيون والسياسيون يدونون ما يرون دون
كبير تعليق أو تحليل . ثم كان العلماء من قديم الزمان يحاولون دراسة
الانسان جسماً وعقلاً وجنساً ومنشأً ، وكان أسبقهم الى ذلك أبو الطب
بقراط ، فقد أشار الى اختلاف أجسام الأجناس ، ولا سيما فى أشكال
رؤوسها ، وذكر أن رؤوس بعضها شديد الاستطالة ، ورجح أن مرجع
ذلك أمر صناعى ، وتكلم عن تأثير المناخ على الجسم والخلق ، وتبعه .

أرسطو الذى جعل الانسان فى زمرة الحيوان ، ولاحظ ما بينهما من وجوه الشبه ووجوه الاختلاف ، وأشار الى امتياز الانسان بكبر حجم مخه ، واختلاف شكله .

وجاء العالم الرومانى لوقريطس فكان أول من فطن الى فكرة تطور الانسان والأحياء عامة ، فسفه تفسير الخرافات الاغريقية والرومانية لخلق العالم ونشأة الانسان ، ورفض الفكرة الذائعة من أن الانسان عاش قديما فى عصر ذهبي انحدر منه ، ورأى بالعكس أن تاريخ البشر تاريخ رقى متصل ، فكان الانسان فى أول أمره وحشا ضاريا عاريا يسكن الكهوف ، لا يعرف قانونا ولا خلقا ولا فنا ولا علما ، وليدفع الحيوان عن نفسه استعمل الحجارة ، ثم صنع أسلحة ساذجة من النحاس ثم عرف النار صدفة لاندلاع حريق من صاعقة أو ظاهرة جغرافية أخرى ، وتكونت على لسانه اللغة تدريجا بحكم الضرورة ، ومن العجيب أن هذه الصورة التى رسمها لوقريطس للانسان البدائي استنباطا دون كبير بحث علمي وتنقيب ، ما تزال صادقة فى جملتها لم يزد بها البحث ألا توطيدا .

وفطن علماء العرب فى العصور الوسطى الى تأثير الوسط الجغرافى فى بنية الانسان وطباعه وحضارته ، ولحظوا ما بينه وبين القردة العليا من تشابه ، ولمحوا آثار تطور الانسان والأحياء عامة . والمقدمة لابن خلدون حافلة بآثار هذه النظرة العلمية الى الانسان والمجتمعات الانسانية . قال يفند الفكرة الذائعة فى تلك العصور عن مرجع أجناس البشر : « وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح ، اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه ، وفيما جعل الله من الرق فى عقبه ، وينقلون فى ذلك حكاية من خرافات القصص ، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة ، وليس فيه ذكر السواد . . . وفى القول بنسبة السودان الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء ، وفيما يتكون فيه من الحيوانات » .

وكتب ابن طفيل قصة حى بن يقظان فزعم أن حيا هذا تولد فى جزيرة حارة من تفاعل العناصر ، ونشأ وحيدا جاهلا حاله كحال الانسان البدائي الذى وصفه لوقريطس ، فما زال يتعلم بالتجربة حتى تثقف : اتخذ من غصون الشجر عصيا يذب بها الوحوش . ثم مازال حتى تضلع

فى تشريح الحيوان ، واهتدى بذلك الى وحدة الأحياء رغم اختلافها الظاهرى ، والى وحدة الوجود جميعا .

وعبر القزوينى فى « عجائب المخلوقات » عن هذه الفكرة وذلك التطور قال : « أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة ، فإن المعادن متصلة أولها بالتراب وآخرها بالنبات ، والنبات منصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان ، والحيوان منصل أوله بالنبات وآخره بالانسان ، والنفس الانسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية » .

وكان المعرى شديد الشعور بتلك الوحدة بين المخلوقات ، يدل على ذلك اقوال له منها قوله :

ولا يرى حيوان لا يكون له فوق البسيطة أعداء وحساد
وقوله :

يغادر غايه الضرغام كيما ينزع ظبى رمل فى كناس
سجايا كلها غدر ولؤم توارثها أناس عن أناس

وكان ابن سينا كأستاذ أرسطو معنيا بأحوال البشر وأجناسهم ، وكان ينظم الشعر فى الفلسفة والطب ، قال من أرجوزة فى الأخير يشير الى اثر المناخ فى البشرية :

بالزنج حر غير الأجسادا حتى غدا كسا جلودها سوادا
واكتست الصقالب البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

ولما كانت النهضة الأوروبية كان الاهتمام بالانسان ودراسته من أخص صفاتها ، ظهر ذلك فى عالم الفن ، اذ التفت المصورون والنحاتون الى درس الجسم الانسانى ، وتأديته تأدية دقيقة وتصوير محاسنه ، فحرص رافائيل وميكلائجلو وليوناردو دافنشى ودورر وغيرهم من الفنانين على دراسة تركيب الجسم الانسانى ، وترك دافنشى آثارا ما تزال لها قيمتها فى علمى التشريح والنبات ، كما أن دورر استدرك خطأ كان النحاتون قبله ماضين عليه ، اذ كانوا يمثلون رؤوس نبلاء الألمان الذين يطلبون اليهم صنع تماثيل لهم مستديرة ، على حين أصر دورر على تصوير الرأس الألماني كما هو فى حقيقته مستعرضا مسطحا من الخلف بعض التسطح .

وفي القرن التالي وهو القرن السادس عشر ظهر أبو علم الأجناس الحديث العالم البلجيكي أندرياس فيسالياس الأستاذ بجامعة بادوا بإيطاليا ، وطبيب شرلكان بعد ذلك ، وقد قام بأبحاث وملاحظات خاصة في الاختلافات الجسمية بين الشعوب المختلفة ، ولا سيما في شكل الرأس ، ولاحظ أن كثيرا من أهل البحر المتوسط ، ومنهم أهل جنوة واليونان والترك ، مستديرو الرؤوس ، وقال ان ذلك عندهم من أسباب الجمال ، وهو ملائم لعاداتهم من لف الرؤوس بالعمائم ، على حين رؤوس الألمان عريضة مسطحة المؤخرة كما تقدم القول ، بينما رؤوس مواطنيه البلجيكيين أميل الى الاستطالة . بيد أن فيسالياس لا يرد ذلك الى عواهل طبيعية والى تطور الأجناس البشرية ، بل يرجعه الى عامل صناعى موضحى هو معاملة القوابل والأمهات للأطفال فى مهودهم .

كانت الأراضى المنخفضة فى عصور النهضة وما وليها من أنشط بلدان أوربا وأرقاها ، وقد أنجبت لأوربا طائفة من خير علمائها ، منهم أرمس عميد النهضة ، وجروتياس واضع القانون الدولى ، وفيسالياس ، هذا الذى قيل انه أدى فى تلك العصور من الخدمات لعلم الأجناس ما أداه جاليليو وكوبرنيق لعلم الفلك ، ثم جاء بعده العالم الهولندى أندريان فون سبيجل ، فكان أول مبتدع لمقياس تقاس بها اختلافات الأجناس والأفراد الجسمية ، اذ وضع طريقة « الخطوط الرأسية » فمد خطوطا أربعة فى اتجاهات معينة داخل الجمجمة ، فاذا كانت هذه الخطوط متساوية كان الرأس المقيس بها منتظم التكوين .

وفي القرن السابع عشر خطا علم الأجناس خطوة أخرى على أيدي الأطباء أيضا ، اذ بدأ الطبيب الانجليزى ادوارد تيسون تشريح القردة العليا ، وفي القرن التالي ظهر العالم الألمانى بلومنباخ ، الذى وضع التقسيمات الجنسية البشرية على أساس من القياس ، فكان من أوائل من جعلوا علم الأجناس مستقلا عن الطب ، ونادى بوحدة الأجناس البشرية قاطبة جسما وعقلا ، وان اختلفت درجة لا نوعا ، حتى قيل ان الجنس البشرى كان قد نسي وحدة أصله حتى أذكره بلومنباخ اياها ، وبلومنباخ أول من استعمل لفظة القوقازى للتعبير عن الجنس الأبيض الأوروبى .

وفي القرن التاسع عشر ترقى علوم الأحياء عامة رقىا بعيد المدى ، وغزر البحث فى علم الأجناس ، فاستنبط العالم السويدى أندرس رذرياس « النسبة الجمجمية » أى نسبة النهاية القصوى لطول الجمجمة الى النهاية القصوى لعرضها ، للاستعانة بذلك فى التفريق بين شتى

الأجناس ، ولم يعد العلماء يقصرون ملاحظاتهم وتجاربهم على جماجم الموتى ، بل التفتوا الى دراسة جماجم الأحياء وأحوالهم الجسدية الأخرى ، وكان أسبقهم الى ذلك العالم الانجليزى جون بيدو الذى طاف طويلا فى أنحاء بريطانيا العظمى ، ثم نشر فى أواسط القرن الماضى كتابا حافلا عن سكان الجزر البريطانية مايزال مرجعا فى الجغرافيا البشرية لتلك البلاد .

وادت تلك الدراسات للجنس البشرى الى النظر فى منشئه وتطوره ، وكان من أوائل من قال بأن الانسان تطور فى سالف العصور ، ولم يكن دائما على حالته الراهنة ، العالم الانجليزى لورد مونبودو ، من أهل القرن الثامن عشر ، واشتغل بتتبع العلاقات بين الانسان والقردة العليا ، ثم تابع تلك البحوث العالمان الفرنسيان لامارك وسنت هيلير ، فمهدا السبيل لداروين ، الذين وضع نظريته المفصلة فى كتابيه عن أصل الانسان ، وسلالة الانسان ، وزاد هكسلى تلك النظرية شرحا وتطبيقا على الانسان من بين الأحياء ، وتلاه سبنسر ، فطبق النظرية على المجتمع الانسانى قاطبة ، ومن ثم ذاعت نظرية التطور وطبقت فى شتى العلوم .

ترقى علم الأجناس فى القرنين الماضى والحاضر ، وتوفر عليه علماء كثيرون ، واستقل بنفسه ، وان كان من الصعب أن تنقطع العلاقات الوثيقة بينه وبين الطب والتشريح وعلم الأحياء والجيولوجيا وغيرها من العلوم ، وظهرت فيه نظريات كثيرة ، ودأب علماءه على البحث والاستقراء واجراء التجارب على أجساد الموتى والأحياء ، وحفروا الحفائر ، وعثروا على بقايا الانسان فى شتى العصور القديمة .

على أن علم الأحياء مايزال غير وطيء الأسس ، ولا ثابت النظريات ، ماتزال حقائقه فى تبدل كل حين ، وماتزال نظرياته لكثرة ما يجرى من البحوث تتبدل وتبلى قبل أن تطبع ، ويحل محلها غيرها قبل أن تضيع ، ومايزال علماءه فى حيرة من أمرهم فى كثير من فروع هذا العلم ومسائله ، لأن دراسة الانسان أصعب جدا من دراسة أشنيات الحيوان ، لما يمتاز به دونها من أنه أكثر تطورا ، وأنه أشدها هجرة واختلاطا ، وأنه من دونها يورث أجياله المتعاقبة ثمار تجاربه ، فتتكون من تراكمها الحضارات والثقافات ، وتختلف العقليات والبيئات ، حتى عجز العلم عن تقسيم البشر الى أجناس مستقلة محددة ، الا أن تكون التقسيمات عامة مبهمة

تحتوي من دونها على تقسيمات أخرى واستثناءات ، بل ذهب بعضهم الى القول باستحالة تقسيم الناس الى أجناس بعد ما كان من اختلاط الأجيال والشعوب .

هذه كلمة العلم الذي يحرص على الحقيقة وينبذ التعصب والوهم ، بيد أن التعصب والوهم كانا سائدين في العصور القديمة ، وما تزال لهما الى اليوم سيطرة في عقول عامة الشعوب ، كان كل شعب كما تقدم القول في صدر هذه الكلمة يعد نفسه أرقى الشعوب ، ويراه الشعب المختار ، اصطفته الآلهة ليسود ويحكم الشعوب الأخرى ، ويخلق على الأمم الأخرى صفات البربرية والأعجمية وما عداها ، وكانت ديانتها ذاتها تشجعه على ذلك ، لاختصاص كل أمة أو قبيل بآلهة يعبدونها دون غيره ، ولم يكن يخالجه شك في اختلافه في الجبل والطبيعة عن سائر الشعوب ، وامتنياز عنصره بفضائل حرم منها غيره .

كان قدماء المصريين يقولون لرواد الاغريق كما روى هيرودوت : انكم معشر الاغريق لستم الا أطفالا ، وما تعلمون من العلم شيئا . وكان الاغريق يعتقدون بهلينيتههم ، حتى أيام كانت تجتاحهم جحافل روما ، وكذلك كان شأن بنى اسرائيل ونكبات الأجانب تتوالى عليهم ، وقل مثل ذلك في شأن الرومان والعرب والترك وكل دولة شادت حضارة أو بنت سلطانا ، ولما ظهرت دول أوربا الحديثة كانت كل منها — وما يزال أكثرها — لا ترى الصدارة الا لنفسها دون الأمم ، وفي آداب لغات تلك الأمم شواهد تتمثل في كتابات دانتي الايطالي ونييتشه الألماني وهوجو الفرنسي وكبلنج الانجليزى وغيرهم .

وأحدث حركات التعصب الجنسي والكبرياء القومية فكرة تقسيم البشر الى آريين وساميين ، فأما الساميون فمنسوبون الى سام بن نوح ، اذ ورد في الكتب المقدسة أن أبناء نوح — ساما هذا وحاما أبا السود ويافتا — انتشروا في الأرض وتناسلوا ، وأما الآريون فهم في نظر أصحاب تلك النظرية سكان أوراسيا القاطنون شمالى الساميين ، فهم يحلون في هذه النظرية محل اليافتيين في النظرية القديمة ، والى يافت ينسبون أحيانا في النظرية الحديثة ، كما يسمون أحيانا بالشسماليين ، وتارة بالهندوآريين ، وطورا بالجرمان ، وانما يسمون بالآريين لزعم أصحاب تلك النظرية أنهم انتشروا من آريا ، ومحلها أفغانستان الحالية ، فكان منهم الهنود والفرس ، ومن آريا اشتق اسم ايران ، وكان منهم الأوروبيون المحدثون أيضا .

وكان أول مدخل لكلمة الآرية في عالم الفكر الأوربي الحديث المستشرق الانجليزى سير ويليام جونز الذى درس اللغة السنسكريتية وغيرها من اللغات الهندية المقاربة لها ، أيام كان قاضيا فى الهند ، وترجم عنها الى الانجليزية ، وأشار الى التشابه بينها وبين كثير من اللغات الأوربية ، ووردت كلمة الآرية فى بعض تراجمه تلك ، وكان ذلك فى أواخر القرن الثامن عشر ، وفى أوائل القرن التالى تابع العلماء أبحاثه ، وتبين لهم تقارب اللغات السنسكريتية والبهلوية والأرمنية واللاتينية والاغريقية والتيوتونية والسلافية وغيرها ، وسميت هذه اللغات بالآرية ، ثم سرى الاسم بالمجاز الى الأمم التى تتكلمها .

وكانت ألمانيا اذ ذاك تعج بحركة قومية شديدة متأثرة بالثورة الفرنسية ومبادئها وحروب نابليون ، وكانت تطمح الى الحرية والوحدة والاستقلال والسيادة ، وكان يمثل تلك المشاعر والأمانى أدباء الحركة الرومانسية بها ، وكان أولئك الأدباء مهتمين بالدراسات الشرقية ، فشغفوا بمباحث سير ويليام جونز وترجماته ودراسات العلماء من بعده ، ورأوا فى فكرة الآرية مركزا صالحا تتبلور حوله النهضة القومية ، اذ كانت الأمم فى نهضاتها تلتفت الى مجد غابر تثسبت به ، ولم يكن لألمانيا مثل ذلك الماضى المجيد ، فعمل أدباؤها على خلقه ، فزيفوا كثيرا من حقائق العلم ، ومن أشهرهم فردريش فون شليجل وأخوه أوجست ولهم فون شليجل الذى تولى تدريس السنسكريتية فى جامعة بون ، وكذلك ماكس مولر .

وانتشرت فكرة الآرية فى ممالك أوربا الأخرى . ففى فرنسا كتب الكونت جوزيف دى جوبينو « رسالة عن عدم تساوى الأجناس البشرية » ، ونادى بتفوق الجنس الآرى ، وكتب مواطنه لابوج كتاب « الآرى » فكان أشد إيغالا فى الوهم والتعصب ، وتأثر بالفكرة من أدباء انجلترا توماس كارلايل ، غير أن العلم رفض تلك النظرية ، ودحضها بما لم تبق بعده أثارة للشك ، اذ لم يقد دليل على أن « آريا » هى منشأ الشعوب التى تتكلم تلك اللغات المتشابهة ، ولا على أن تلك الشعوب ترجع الى أصل واحد ، ولا على أن تلك اللغات على تشابهها تفرعت عن لغة أصلية واحدة ، وإنما يشهد العلم بأن اللغات يكتسبها شعب عن شعب بالمخالطة ، وأن الشعب النقى تمام النقاء لم يجد له وجود بعد ما توالى على سطح البسيطة من مهاجرات وامتزاج فى الدماء .

كانت الأديان الوثنية القديمة كما تقدم القول من أسباب التعصب بين الشعوب ، لاختصاص كل قوم بآلهة ، حتى جاءت الأديان السماوية تدعو الناس جميعا بلا تفرقة الى السلام والاخاء ، فعبرت عما كان يشعر به عقلاء الناس ومتعلموهم فى شتى العصور ومختلف الشعوب ، من أخوة البشر ، وتمائلهم على ما بينهم من فروق عرضية . جاء فى التوراة : « فليكن الأجنبى الذى يحل بينكم بمنزلة من ولد بين ظهرانيكم ، ولتحبوه كما تحبون أنفسكم ، فقد كنتم أنتم غرباء فى أرض مصر وأنا الله ربكم أجمعين » ، وجاء عن السيد المسيح أنه قال : « ليس هنا يهودى ولا أغريقى ، ولا حر ولا عبد ، فانكم جميعا تتحدون فى ذاتى » ، وقال القديس بولس : « الله خلق الشعوب من دم واحد ليعمروا الأرض » ، وجاء الاسلام للناس كافة لا يفضل عربى فيه أعجميا الا بالتقوى ، وجاء فى الذكر الحكيم أن الله خلق الناس قبائل وشعوبا ليتعارفوا .

بيد أن الجهل فى تلك الأزمنة القديمة كان ما يزال فاشيا ، والتعصب ما يزال متمكنا من النفوس ، فلم تع تلك الحكم البالغة التى جاءت بها الأديان المنزلة ، واذا الدين الذى انما جاء لمحو الفروق بين الناس ، اذا هو من أكبر وجوه الاختلاف بينها والصراع ، يصارع دين دينا وينشق أبناء الدين الواحد على أنفسهم مذاهب متناحرة . حتى انجلت عصور الظلمة وانتشر شعاع العلم الحديث ، ولم يعد العلم وقفا على طبقة من الناس محدودة ، وبدأ الناس يفرقون بين حقائق الحياة وبين جهالات التعصب ، فنبذوا كثيرا من عصبيتهم واعتدادهم بأنفسهم واحتقارهم لغيرهم ، فخطوا فى سبيل السلم خطوات واسعة .

أثبت العلم الحديث وحدة الناس أصلا وتطورا وجسما وعقلا ، على اختلافهم أشكالا وعادات ، وأثبت أن اختلاف أمة عن أمة لا يرجع الى ارتقاء هذه وانحطاط تلك ، ولا يرجع الى الأصل الطبيعى والتركيب الفسيولوجى ، بمقدار ما يرجع الى الوسط الاجتماعى ، والعقلية السائدة فيه والتقاليد والثقافة والتربية ، وأن صفات الانسان العقلية والجسمية معا قابلة للتغير بمرور الزمن وتطور البيئة ، وأرى الناس جهرة أن الأمة ليست وحدة جنسية ، بل هى مزيج من الأجناس ، وانما أهم مشخصاتها اللغة والدين والثقافة واشتراك المصالح ، والتعاون على دفاع كل طارئ يهدد الجماعة ، والنظر الى الأمة من هذه الوجهة يقضى على الاعتقاد بأنها وحدة قائمة لا تلتئم مع غيرها ، ويقوى الأمل فى أن تتحد الأمم فى المستقبل مع احتفاظ كل منها بتلك الشخصيات المحلية ، لتكون جميعا نواة الدولة العالمية .

علم السياسة عند العرب

لم يكن لعرب الحجاز في الجاهلية بصر بالعلوم المدونة ، ولكنهم كانوا في حالة اجتماعية متقدمة ، وحالة فكرية راقية ، يشهد بها رقى اللغة العربية ، ويشهد بها تهيؤ العرب لفهم القرآن الكريم ، وكانوا ذوي نظام سياسى محكم يوافق حياتهم نصف المتبدية ، وكان أشرفهم يتغنون في أشعارهم بحسن الرأى وتدبير الأمور وسيادة العشيرة ، ومن أحسن ما وصل إلينا من ذلك قول الأفوه الأودى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلحت فان تولت فبالأشرار تنقاد

فلما جاء الاسلام خطا العرب في نضجهم السياسى خطوة فسيحة ، اذ كانت سيرة النبی صلى الله عليه وسلم وصحابته وخلفائه أمثلة عليا في الحكم ، ووسع القرآن الكريم من روائع الأحكام وجوامع الكلم ما وسع افق العقلية العربية ، وحث على استصلاح أمور الرعية ، ثم اطلع العرب على نظم الروم والفرس ، ودرسوا التراث الفكرى لليونان والهنود وغيرهم من الأمم الخالية ، ولما نشطت الحركة الفكرية اشتغلوا باستنباط الأحكام من القرآن والسنة ، كما اشتغلوا بالفلسفة والمنطق ، وعالجوا السياسة فيما عالجوا من بحوث ، وقد اجتمع لهم من تراثهم الفكرى الحافل مادة غزيرة للبحث .

ففى القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بسياسة الرعية كان يلجأ اليها الباحثون فى السياسة الاسلامية ، كقوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** » وقوله : « **وشاورهم فى الأمر** » وقوله : « **الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** » ومن الأحاديث التى جرت فى غضون الأبحاث السياسية قوله عليه الصلاة والسلام : « **الأئمة من قريش** » وقوله لعلى رضى الله عنه فيما روى : « **أنت منى بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي** » ومن حكمه الاجتماعية البالغة قوله : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا** » وقوله : « **كلكم راع** »

وكل راع مسئول عن رعيته » وقوله : **« عدل ساعة في حكومة خير من عبادة ستين سنة »** .

وكانت خطب الخلفاء الراشدين ووصاياهم وكتبهم الى العمال والقواد والقضاة نماذج من حسن السياسة ، ومنها كتاب أبي بكر الى عمرو ابن العاص اذ وجهه الى فلسطين وكتاب عمر بن الخطاب الى أبي موسى الأشعري في القضاء ، وكتاب علي بن أبي طالب الى الأشتر النخعي اذ ولاه مصر . وتتابع الخلفاء من بني أمية وبني العباس فكان لهم في الحكم ابتداءات ومآثر ، فكان معاوية اذا اراد أن يولي رجلا عملا بدأ فولاه الطائف ، فان أجاد العمل ضم اليها المدينة . وقال الوزير ابن الفرات سمعت أبا العباس أخى يقول : من استقل ببادوريا استقل بديوان الخراج ، ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة .

وأنجبت الدولتان العباسية والأموية طائفة كبيرة من حذاق الولاة والقادة ، والوزراء والكتاب ، أثرت عنهم غرر من الحكم السياسية ، ومنهم زياد بن أبيه ، والحجاج ، وعبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، والبرامكة ، والفضل والحسن ابنا سهل ، وطاهر بن الحسين وابنه عبد الله ، ويفضل « موير » في كتابه عن الخلافة زبادا على الحجاج ويعده أعظم رجل سياسى فى عصره ، وقد رويت عنه آثار سياسية منها خطبته البتراء المشهورة ، ومنها قوله : « هلاك السلطان أربع خلال : العفاف عن المال ، والقرب من المحسن ، والشدة على المسيء » ، وصدق اللسان .

وكتب طاهر بن الحسين عهدا الى ابنه عبد الله تدارسه الناس وبلغ أمره المأمون ، فاشتد إعجابه به ، وأمر فأرسل الى أنحاء البلاد ، وهو طويل ، ومنه يقول : « واعلم أن الأموال اذا كثرت وذخرت فى الخزائن لا تثمر ، واذا كانت فى اصلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف المؤونة عنهم ، نمت وربت ، واصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العز والمنفعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الاسلام وأهله » ، وهو مبدأ يقول به علم الاقتصاد الحديث ويؤيده .

ومما تدوول بين المسلمين من حكم الفرس السياسية ، كتاب ابرويز من السجن الى ابنه شيرويه : « اعلم أن كلمة منك تسفك دماء وأخرى تحقن دماء ، وأن سخطك سيف مسلول على من سخطت عليه ، وأن رضاك بركة مستفيضة على من رضيت عنه ، وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك ، فاحترس فى غضبك من قولك أن يخطيء ، ومن لؤنك أن يتغير ، ومن

جسدك أن يجف ، فان الملوك تعاقب حذرا وتعفو حلما ، واعلم أنك تجل عن الغضب ، وأن ملكك يصغر عن رضاك ، فقدّر لسخطك من العقاب كما تقدّر لرضاك من الثواب .

واطلع العرب كذلك على كتابات يونانية في السياسة منها كتاب «الجمهورية» لأفلاطون الذي كان له عظيم الأثر في فلاسفتهم ، وكتاب في الحكم السياسية لأرسطو سموه « السياسة » نقله حنين بن اسحاق ، وجرت على أقلامهم حكم كثيرة لأرسطو وسقراط وزينون وغيرهم ، منها نصيحة أرسطو فيما قيل الى تلميذه الاسكندر حين خروجه لغزو الشرق : « املك الرعية بالاحسان اليها تظفر بالمحبة منها ، فان طلبك ذلك باحسانك أدوم بقاء منه باعتسافك ، واعلم أنك انما تملك الأبدان ، فاجمع لها القلوب بالمعروف ، واعلم أن الرعية اذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم أن تفعل . »

وعلى هذا الكلام وأمثاله من مسحة الحكم الملكي الفردي ما يشكك في نسبته الى أرسطو الاغريقى ، والحق أن المسلمين كما لم يتعمقوا في درس الأدب اليونانى لم يتعمقوا في درس النظم الحكومية اليونانية ، ولم يأخذوا عن اليونان في هذا الباب بعض ما أخذوا عن الفرس ، لأسباب: منها بعد ما بين المشربين ، واستغناء العرب بما عندهم من الأحكام متمثلا في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وكون النظم الاغريقية القديمة قد بادت واندثرت ، وحلت محلها في بلاد اليونان ذاتها دولة ملكية مستبدة هى الدولة البيزنطية الشرقية الصبغة من وجوه كثيرة ، على حين كانت نظم الفرس الحكومية مازال قائمة المعالم والرسوم ، وقد استولى المسلمون على بلاد الفرس جميعا ، واستقروا في حاضرتها واختلطوا بالفرس أعظم اختلاط ، وساهم الفرس في انشاء الدواوين الاسلامية ، وشاركوا في انشاء الدولة العباسية .

من ذلك التراث الفكرى المتشعب استمد الكتاب مادتهم حين انصرفوا الى التأليف النظرى في السياسة ، فانشعبوا فرقا حسب نصيب كل منهم من ذلك التراث ، وحسب اتجاه حياتهم العملية ، فهناك المؤلفون الذين عالجوا الكتابة أو الوزارة أو الولاية قبل توفرهم على البحث العلمى ، فجاءت كتابتهم عملية المنحى ، ومنهم عبد الحميد الكاتب ، وعبد الله بن المقفع ، ونظام الملك ، وابن خلدون ، وعبد الحميد وان لم يعتمد الكتابة في علم السياسة فان في كتبه كثيرا من مبادئ هذا الموضوع ، ومنها كتابه الى ولى عهد مروان الثانى .

ثم كانت هناك طبقة ثانية هي طبقة الفقهاء الذين درسوا علوم الدين ، وبحثوا في الخلافة عقب بحثهم في علم الكلام ، ومن أشهرهم ابن حزم الأندلسي صاحب كتاب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » والماوردي صاحب « الأحكام السلطانية » وفيه يستعرض تاريخ البيعة لأبي بكر وغيره من الراشدين . ثم يذكر شروط الخلافة التي يجب توفرها فيمن يترشح لها ، ثم يتكلم على واجبات الخليفة الدينية والدنيوية .

ثم كانت هناك طبقة الفلاسفة الذين تشربوا حكمة الاغريق وفتنوا بجمهورية أفلاطون ، فتداولوا فكرة الدولة المثالية ، ومنهم الكندي والفارابي وابن باجه وابن رشد واخوان الصفا ، ثم كان هناك أدباء ومفكرون متفرقون ، وكثير منهم يمت الى المعتزلة ، صنفوا في هذا الموضوع ، وسارت بعض حججهم على السنة الفقهاء والباحثين من بعدهم ، وخير ممثل لهذا الفريق الجاحظ الذي كتب فصولا في استحقاق الامامة ، وفي حجج النبوة ، وفي بنى أمية ، وفي فضل هاشم على عبد شمس وهلم جرا ، ويمتاز كلامه ككلام المعتزلة بحرية الرأي واستعمال القياس والبرهان .

وهناك كتاب وأدباء خلطوا الأبحاث السياسية بغيرها من الموضوعات في كتبهم أدبية كانت أو تاريخية ، لأن كثيرا من العلوم كانت ما تزال سديما مختلطا لم يتميز كل منها بنفسه ، ويستقل بمباحثه ، فجاء كثير من الأبحاث السياسية مشتتا في كتب ، كالأدب الكبير لابن المقفع ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والفخرى لابن الطقطقي .

وابن المقفع أول من عنى بالكتابة في سياسة الملك مستقلة عن غيرها ، متميزة بذاتها ، اذ كان ينتمي الى دولة فارس ذات المجد التليد ، والمغلوبة على أمرها لعهد ، ونشأ في بيت ذي صلة بالسلطان ، اذ كان أبوه عاملا للحاج ، والتحق هو نفسه بالأعمال ، وكان في آخر حياته كاتباً لعيسى بن علي العباسي ، وكان صديقا لعبد الحميد . وشهد زوال الدولة الأموية وحلول العباسية محلها ، ومن ذلك كله كان ابن المقفع شديد التفات الذهن الى أمور السياسة .

فنقل ابن المقفع كثيرا من قصص الفرس وتواريخهم ونظمهم ، وترجم خاصة كتاب «كليلة ودمنة» الذي يزخر بمسائل الحكمة والسياسة ، ويحتل

الأسد فيه مكان الملك ، اذ كان ابن المقفع على الأرجح يخشى التصريح بما يخامر من نظرات سياسية ، حتى خطأ خطوة أخرى نحو الصراحة ، فنبت ذلك الأسلوب « الحيواني » وتكلم عن « السلطان » كلما صريحا في أول كتاب الأدب الكبير ، ويبدو من فقراته أن ابن المقفع كان ينتزع أحكامه من عصره الحاضر ، ويقصد بخطابه السفاح أو المنصور ، اذ يتكلم مثلا على الدولة الجديدة العهد ، والسلطان المعتمد على أقوام قد لا يشق في اخلاصهم ، وكلامه هناك قسمان : أحدهما في الصفات التي يجب أن يتحلى بها السلطان والآخر في الصفات التي تجب لمصاحبه من وزير أو كاتب أو مناصح .

ثم خطا ابن المقفع الى الصراحة خطوة أخرى ، فخطب المنصور في كتابه « الصحابة » رأسا لم يكن بالأسد ، ولم يعبر بلفظ السلطان ، وهو يوصيه في ذلك الكتاب بحسن اختيار صحابته ومشيريه ، لما يترتب على أخلاقهم من اصلاح الأمور أو فسادها ، ويلفت نظره الى اضطراب أحوال الخراج . ويدعوه الى توحيد نظم الدولة المالية حسب الكتاب والسنة ، والى توحيد النظم القضائية أيضا ، والى تحسين حال الجند وتعليمهم ، والفصل بين الجندية والادارة ، وكان ابن المقفع في كل ذلك معبرا عن شعور سائد في عصره ، وبهذه الأمور اهتم المنصور فعلا واهتم خلفاؤه من أوائل العباسيين ، وكان من نتيجة ذلك ظهور كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف والموطأ للإمام مالك .

وقد كانت الخلافة أول موضوع اختلف فيه المسلمون وتفرقوا فرقا بين شيعة وسنية ومعتزلة وخوارج ، وقد تناول الخلافة بالبحث فقهاء منهم ابن حزم الأندلسي ، والبيروني ، ونظام عروضي ، وشهاب الدين سهرارودي ، فعالجوها على العموم من تسعة وجوه : بحثوا في هل هي انتخابية أو وراثية ، وجمهورهم على أنها انتخابية ، وبحثوا في الخلاف الذي وقع بين الصحابة عند انتخاب أبي بكر ، ثم في أواخر عهد عثمان ، والسنيون يرون صحة انتخاب الراشدين والحسين بن علي رضي الله عنهما ثم معاوية بعده .

ثم أفاضوا القول في واجبات الخليفة ، وتحدثوا عن ولاية العهد ، وهل يجوز للخليفة أن يعهد الى من بعده ، واستعرضوا ما كان من ذلك في عهد الراشدين ، وجوزوا للخليفة أن يعهد متى كان محمود السيرة ، وعلى أن يستشير أولى الراي ، فان جاز الخليفة وبذل وجب عزله .

أما الفلاسفة فكانوا لا يقصرون القول على البحث في رئيس الدولة الأعلى ، بل يبحثون في الدولة جميعا على طراز مثالي أفلاطوني ، جاء في كتاب « عيون الأنبياء وأخبار الحكماء » أن الفارابي في كتاباته « ووصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة ، واحتياج المدينة الى السيرة الملكية والنواميس النبوية ، ثم انه أتى على العناصر المختلفة المكونة للطبيعة البشرية وخواص النفس ، وبين الفرق بين الوحي والحكمة ، ووصف الهيئات المنظمة والجماعات غير المنظمة » .

والم ابن باجه بذلك الموضوع في كتابه « تدبير المتوحد » وفيه يقول : « ومن علامات الحكومة الفاضلة ألا يكون بها أطباء وقضاة ، فان أهل المدينة الكاملة ليسوا في حاجة الى المداواة ، لأنهم لا يتناولون من الغذاء الا ما يوافقهم . أما الاستغناء عن القضاة فلأن العلاقات بين أبناء البلد يكون أساسها المحبة ، فلا يقع الخلاف بين الأصدقاء ، ثم ان الحكومة الفاضلة كفيفة بأن يبلغ الفرد فيها أرقى ما يمكن بلوغ الفرد اليه من مراتب الكمال » .

وأفرغ ابن الطفيل فلسفته في قالب قصصي ، فكتب قصة « حي ابن يقظان » وفيها يذكر أنه علم من السلف الصالح أن جزيرة من جزر الهند التي تحت خط الاستواء ، وهي الجزيرة التي يتولد فيها الانسان من غير أم ولا أب ، تكون بها الحرارة شديدة بسبب الحركة وملاقاة الأجسام الحارة والاضاءة ، ثم يصف كيف تولد بطله بها ، وكيف نشأ وحيدا ثم تعلم بالتجربة كيف يتغلب على الحيوان ، ويسود الطبيعة ، ويلتفت الى فهم الوجود ، والتفكير في الخالق ، وهي طريقة في البحث تلتفت من جهة الى التراث الفكري الاغريقي ، وتسبق من جهة أخرى البحث الأوزبي الحديث .

ولا بن رشد كذلك آراء في الحكومة الفاضلة ، وهو يرى أن الحكومة الاسلامية لعهد الراشدين كانت على نظام جمهورية أفلاطون ، ولكن معاوية هدم نظامها وأتلف جمالها بأن ردها ملكا عظمودا ، وكان من وراء ذلك انتشار الفوضى في بلاد الاسلام ، ويرى ابن رشد أن المرأة تستطيع القيام بكل ما يقوم به الرجل ، ويرثي لحالها في المجتمع الاسلامي ، حيث تعيش عالة على الرجل فيتجمل ثلثا الجماعة

أما ابن خلدون فقد جمع بين مزايا كل من ذكرنا من الكتاب السياسيين ، كان كابين المقفع من رجال العمل اذ تقلب في شتى الوزارات

فى أفريقيا والأندلس ، وكان فقيها فى الدين ، تولى القضاء بمصر أعواما ، وكان محيطا بالفلسفة اليونانية وان تنكر لها فى أواخر أيامه ، ووعى ابن خلدون تراث الدولة الإسلامية التى بلغت لعهد غاية رقيها وبدأت فى الانحلال ، فجاءت كتاباته فى السياسة وال عمران فى مقدمته فريدة فى بابها .

عقد فى المقدمة فصولا فى الخلافة تناول فيها مسائلها المعهودة ، فكان أحيانا يكرر ما قال سابقوه وأحيانا يخالفهم ويزيد أو ينقص ، وينفرد عنهم بالبرهان المبتكر ، وهو يرى كما يرون أن القوانين السماوية خير القوانين ، يقول : ان صلاح البشر رهن بقيام قوانين تعين الحقوق والواجبات » فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية ، وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها ، كانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا والآخرة .

فالملك عنده ثلاثة ضروب : الملك الطبيعى ، والملك السياسى ، والملك الدينى . فالطبيعى هو ما يعبر عنه كتاب العصور الحديثة « بالحالة الطبيعية » حيث تسود الفوضى ويتحكم القوى . والسياسى هو الذى تدبره قوانين أرضية وضعها عقلاء الأمة كما كانت الحال عند الفرس الأقدمين . والدينى هو الذى يقوم على أساس من دعوة دينية أى نبوة ، ويتبع النبى من بعده خليفة ، وهذا الأخير أحسن الأنواع وأرقاها .

على أن ابن خلدون لم يقتصر على النظر فى المجتمع الإسلامى ، بل نظر الى الجماعة البشرية بأكملها ، فرأى أن البشر على اختلاف أجناسهم نوع واحد ، يخضعون للنواميس طبيعية خاصة ، وهذه النواميس هى التى تؤثر فى أبدانهم وسحناتهم ومجتمعاتهم وصناعاتهم ، وأهم العوامل المؤثرة فى كل ذلك الاقليم والمناخ والدين ونظام الحكم ، وكان يرى كغيره من علماء المسلمين متابعة لأرسطو ، أن الانسان مدنى بالطبع وأن الغرض من المجتمع هو مصلحة الفرد ، وإذا قام المجتمع من بثلاثة أطوار : البدوى والغزوى والحضرى .

فيكون المجتمع فى أول أمره قبيلة متبدية تدفعها أخلاقها البدوية القوية الى غزو جيرانها ، والاستقرار فى بلادهم ، وترقى فى معارج الرقى ، وتزدهر بينها الحضارة والثقافة ، ثم يفسدها لين العيش ، وتستسلم

للذات ، وتأخذ في الانحلال ، فيطمع فيها جيرانها المتبدون ، وتبدأ الدورة من جديد .

ليس ابن خلدون أعظم مفكر سياسى فى الاسلام فحسب ، بل هو فى مقدمة مفكرى العالم وأشدهم ابتكارا ، وهو اذا قوبل بكتاب السياسة المحدثين ، كمكيافيلى ومونتسكيو وهوبز ، لم يقصر عنهم ، بل فاقهم سعة مجال فى البحث وشمول نظرة ، وله عليهم فضل التقدم فى الزمن ، والتفرد بين أبناء جيله ، بل بين أمتة جميعا ، على حين كان أولئك الكتاب يستمدون مادتهم من حركة فكرية عامة ، لم يكونوا الا بعض المعبرين عنها .

وجملة القول أن العرب قد بلغوا شأوا بعيدا فى السياسة العملية ، وغاية عظيمة من البحث فى السياسة النظرية ، وكما شادوا فى الشرق والغرب دولا زهت فى أكنافها الحضارة ، وأنجبت عظماء الملوك والولاة والقواد والوزراء ، كذلك ناقشوا شتى مسائل السياسة فى كتاباتهم من واجبات السلطان وحقوقه ، وواجب الرعية نحوه ، ووسائل سعادة المجتمع ، واستقرار الدولة ، كما بحثوا فى أطوار الأمم والدول عامة ، وخصصوا بعنايتهم الخلافة ، وهى النظام الخاص بهم الممتزج بتاريخهم .

قصة المرأة في المجتمع

أثبت العلم الحديث في منتصف القرن الماضي ، أن للمرأة من النصيب في تكوين الجنين مثل ما للرجل ، وكان الاعتقاد قبل ذلك أن الرجل هو الذي يستقل وحده بذلك العمل ، وأن المرأة ليست إلا « ماعونا » يحافظ فيه على جراثيم اللقاح حتى تنمو وتتطور ، وكان لذلك الكشف أثره في رفع منزلة المرأة إلى قدم المساواة مع الرجل ، وبهذا وذاك أثبت العلم ما هناك من وجوه التماثل وما هناك من وجوه الاختلاف بين الرجل والمرأة ، وبين الوجوه التي يرجع الاختلاف فيها إلى الطبيعة المقطوعة ، وما يرجع إلى تأثير المدنية والعادات والتقاليد الخاطئة ، فأبدى أن المرأة ليست منحطة عن الرجل كما اعتقد الإنسان إلى زمن قريب ، كما بين أنها ليست مماثلة للرجل في كل شيء ، قادرة على محاكاته في كل عمل إذا منحت مثل تعليمه كما ادعى بعض أنصار الحركة النسوية الحديثة .

لم يفهم الإنسان الأول أن الاختلاف الجنسي ان هو إلا تقسيم لعمل الطبيعة في المحافظة على النوع وترقيته ، بل حكم بالظواهر التي تبدو لعينيه ، فقد رأى الرجل المرأة أضعف منه بنية ، فكانت تلك أول خطوة في سبيل اعتبارها أحمط منه ، والإنسان بطبعه نزاع إلى اعتقاد التفوق في نفسه على غيره ، فأرضى تعالىه على المرأة وغروره ، ثم رأى ما يعتام المرأة من طمث ومن حمل ووضع ، وما يخامرها من أطوار دورية جسمية ونفسية، فاعتبر المرأة مخلوقا دنسا يتجنب وتضرب حوله أنواع التبو (١) أثناء زمن الطمث والوضع وبعده ، ثم رأى ما يجذبه نحوها رغم ذلك من ميل جنسي ، وأدرك ما يحل به بعد الإفراط في علاقته بها من خور وقنوط - وقد كان الإنسان الأول بالطبع لا يعرف الاعتدال - فاعتبر المرأة كائنا مريبا خطرا ، يجب على الرجل الحذر منها وعزلها والابتعاد عنها بقدر الامكان .

فالمرأة في المجتمع البدائي تكبح كثيرا وتقيد حريتها كثيرا ، ولكنها

(١) المحرمات الدينية .

ليست من الشقاء بحيث يتصور الانسان المتمددين ، لأنها من جهة متعودة ذلك الوسط الذى تحيا فيه ، مؤمنة بأن منزلتها هي حيث يضعها الرجل ، بل حيث تضعها عقائدها الدينية التي تعتنقها ، ولأنها من جهة أخرى حائزة لشروطين كبيرين من شروط السعادة ، كثيرا ما تحرهما المرأة المتمددينة التي قد تعد نفسها أسعد حالا من أختها المتوحشة ، فالمرأة المتوحشة تعمل دائما كما يعمل الرجل وان اختص كل منهما بعمله ، والعمل يكسبها صحة كثيرا ما تعوز أختها المتمددينة ، ويحميها السأم الذى كثيرا ما تشكوه المرأة المتمددينة وتعانى المرض بسببه ، وينيلها مكانة اجتماعية محدودة لم تكن لتطمح فيها لو أنها كانت عالة على المجتمع لا تعمل شيئا .

ثم ان المرأة الهمجية تؤدي وظيفتها الطبيعية التي هيئت لها ، والتي من أجلها كان الاختلاف كما تقدم القول بين الجنسين ، وظيفة التناسل ، فهي دائما زوج وأم ، فالمرأة الهمجية تتزوج حالما تراهق ، والرجل والمرأة معا يسعيان لاحتراز الأطفال حالما يخرجان هما عن طور الطفولة ، والعزوبة والعقم عاران لا يبالان عند المتوحشين الا الاحتقار والاذلال ، ولا ريب في أن قيام المرأة بتلك الوظيفة المهمة فيه صحة لجسدها وراحة لنفسها ، على حين تقل نسبة الزواج في المجتمعات المتحضرة لشدتي الأسباب ، فهي في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها من الأمم المتحضرة اليوم تتراوح حول الخمسين في المائة من الفتيات والنساء البالغات مبالغ الزواج .

واعتقاد الخصوبة في المرأة ، هو مرجع قيامها وحدها في بعض الجهات كبلاد أورينو في أمريكا بكل أعمال الحقول ، لأن الغرس الذى تغرسه المرأة يتضاعف محصوله ، وهذا الاعتقاد أيضا سر ظهور المرأة في بعض المجتمعات المتأخرة ونيلها جانبا عظيما من السلطة ، رغم الاعتقاد آنف الذكر بدنسها ، وهكذا لا نرى أن مكانة المرأة تتحسن في مجتمع لدعوة خلقية أو مثالية تعمه ، بل بمقدار ما يعتقد المجتمع فيها النفع . ومن أمثلة رقى مكانة المرأة بين البدائيين ما تتمتع به بين قبائل « الحاسي » في أنام من سلطة في الأسرة وفي المجتمع ، فتلك قبائل تزرع الارز وتحتفى كل الاحتفاء بانتشار الحصب وانعدام الجذب ، وهناك تعد الأم رئيسة الأسرة ، وهي التي تمتلك الأملاك وتورثها ، وهي التي تتولى أهم الشعائر الدينية ، والأرواح الخيرة والشريرة التي يعتقد بها أولئك القوم معظمها اناث ، وقد كانت الحضارات الكبيرة القديمة تقوم على أساس من الزراعة في وديان النيل ودجلة والفرات والستد والكنج ، وفي آسيا الصغرى وبلاد اليونان والرومان ، فكانت للمرأة في معظم هذه البلاد مكانة عالية اذا قيست بما كانت عليه في غيرها ، كانت كبيرة الالهات كما تقدم القول

الهة الخصوبة ، وكان يحتفل بها كل عام احتفالا تشارك النساء في الكثير من شعائره . وتبدى لنا قوانين حمورابي كما تبدى لنا نصائح الحكيمين المصريين « آي » و « بتاح حتب » أن مكانة المرأة في بابل ومصر كانت أعلى وحريتها كانت أوفر مما كانت عليه في كثير من العصور التالية .

فقد كانت المرأة في مصر القديمة – كما يتجلى في الآثار – سافرة تشارك في الأعمال ، وكانت هي المالكة للأموال في الأسرة ، حتى كانت الملكة تعد صاحبة أرض مصر ، ولا يعد الملك الا الأمير المتزوج من الملكة ، ومن هنا نشأت عادة تزوج الأخ أخته محافظة على أملاك الأسرة . وفي كلتا مصر وبابل كان الزوج بواحدة هو القاعدة ، وكانت المرأة البابلية مساوية للرجل في معظم الحقوق ، وكان لها أن تحترف الحمامة والقضاء ، وتكون في المحلفين والكتبة ، فكانت منزلتها أعلى من بعض الوجوه من منزلة المرأة الانجليزية أو الأمريكية في القرن الماضي ، مع أن حمورابي حكم في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد .

بيد أن من عجائب التاريخ أن البلد الذي سطعت فيه الحضارة القديمة أزهى ما سطعت ، وهو أثينا أو بلاد الاغريق عامة ، كانت مرتبة المرأة فيه شديدة الانحطاط ، تنحط في بعض الوجوه عنها بين البدائيين فإن الحضارة الاثينية كانت تقوم على استخدام العبيد ، فهؤلاء وفروا على المرأة العمل ، وقد رأينا أنه على قدر ما تعمل المرأة وتفيد المجتمع ترقى مكانتها ، ووفر العبيد العمل على الرجال أيضا ، فتوفر هؤلاء على أعمال الحرب من جهة ، وعلى البحث الفكري الذي شغف به الأثينيون ، ومن هذين العاملين حرمت المرأة ، فلا هي تجالد يوم القتال ولا تجادل يوم البحث والمناظرة .

انما كان المثل الأعلى للعقيلة التي يرضاها الاثيني العادي امرأة طيبة تقية غير متعلمة تحتجب في دارها ترعى أبناءهما ولا تبرز في المجتمعات ، وكان الاثيني يمقت المرأة التي تخب أن تبدى لنفسها شخصية متميزة ، أو تشارك في الأعمال العامة . وقد ذكر بركليس في خطبته الرثائية أن خير امرأة من لا يدور ذكرها بين الرجال بخير ولا شر ، وكان أهل أثينا لنزعتهم تلك الجامدة يتهمون بنساء اسبرطة ورجالها ، حيث كانت المرأة الاسبرطية تعد قرينة الرجل في كل شيء ، تمارس من الألعاب الرياضية مثل ما يمارس ، وتشارك في الأعمال العامة ، وتغشى المحافل والأسواق عارية أو نصف عارية ، تباهيا بكمال تكوينها ، وحشا لغيرها على احتذاء

مثالها ، اذ كانت اسبرطة أمة حربيين لا هم لهم الا انجاب نسل قوى صحيح الأبدان .

واذ كان الأثيني يكره أن تكون للمرأة شخصية يتحدث عنها . أحسنه من يوريبيدس توفره على دراسة الشخصيات النسوية في دراماته ، قال يوريبيدس على لسان احدى النساء فى رواياته : « نحن النساء أتعس الكائنات ذوات الحياة والحس ، علينا أن نشترى بالذهب زوجا هو فى الوقت نفسه – وا أسفاه – مالك نفوسنا ، وعلى خلقه ساء أو حسن يتوقف مستقبلنا ، لأن الطلاق يعد عارا على المرأة ، ولا تستطيع المرأة التبرؤ من بعلمها ، وحين تلقى نفسها وسط أخلاق وعادات جديدة غريبة عليها ، نعوزها ملكة التنبؤ – ان لم تكن قد لقنت فى دارها – لتعلم خير الطرق لمعاملة حليلها ، واذا أفلحنا فى استبقاء أمانة أزواجنا لنا فلم يفروا منا ، عددنا أنفسنا فى زمرة السعداء ، والا فليس هناك الا الموت ، والرجل اذا مل المقام بداره أمكنه أن يخرج ليرفه عن نفسه بين أصدقائه ومعارفه . أما نحن فليس لنا من نتوجه اليه سواه ، وهم يقولون لنا اننا نحيا حياة وادعة فى بيوتنا ، بينما يذهبون الى الحرب ، ولكن هذا هراء ، فانى أؤثر ان أخوض الوغى مرتين على أن أحمل طفلا مرة واحدة » .

وكانت منزلة المرأة الرومانية فى العصور الأولى منحة جدا حيث كانت تعد فى نظر القانون قاصرا ينولى رعايتها أبوها ثم زوجها ، وتعد فى نظر القانون اذا ما تزوجت ابنة لزوجها ، ولا تشارك فى الأعمال ولا تقبل منها شهادة ، ولكن تلك المنزلة ارتقت بتوالى الأيام ، واما عدل نص القانون الجائر واما تحويل عليه ، حتى نالت المرأة الرومانية تمام حريتها وحتى شاركت فى الأعمال والسياسة ، وكان لها أثر عظيم فى انشاء كبار رجال روما ، ويقدم التاريخ الرومانى حفلا حافلا من أسماء الفضليات من النساء ، على حين يخلو التاريخ الاغريقى من مثيلاتهن ، ومن أولئك كورنيليا أم ثلاثة من زعماء العامة فى صراعهم ضد الأشراف ، يعرف كل منهم باسم جراكوس ، قامت كورنيليا على تربيتهم حتى ترشحوا لتلك الزعامة ، ثم كانت هى الدافع لنشاطهم ، فلما قتلوا واحدا بعد واحد فى الأحداث الهوجاء التى كانت تتوالى ، اذ ذاك فى روما ، انحازت أمهم الى الريف وقد أسنت ، حيث توفرت على الأدب ، وغدا منزلها الريفى صالونا يؤمه الأدباء .

لقد كان تاريخ المرأة فى مجتمعات الحضارات القديمة اطرادا لحياتها فى البيئات البدائية ، قد هذب من حالها رقى الثقافة وانبساط

العمران ، وأدى ارتقاء الثقافة والحضارة الى ارتقاء النظرة اليها بعض الارتقاء ، ولكن الحضارة ذاتها تجلب مشاكل في حياة المرأة لا تعرفها المجتمعات الهمجية ، فبينما الديمقراطية تكاد تسود في المجتمع البدائي حيث تكاد تتساوى جميع النساء في المنزلة والأعمال ، تظهر الطبقات المتفاوتة في المجتمع المتحضر ، وتختلف النساء بين مرهقة بالعمل وبين مشرفة لا تعمل ، ويزداد الاغراق في التمييز بين عمل الرجل الخاص به وعمل المرأة الذي تتوفر عليه ، ويقل نصيب المرأة من العمل على العموم ، ويزداد نصيب الرجل ، اذ تنشط العلوم والفنون ويختص بها الرجل ، ويجد فيها شاغلا عن الحياة الزوجية ، وتظهر آفة لا تعرف على الاطلاق في كثير من المجتمعات البدائية ، هي آفة البغاء الذي تؤدي اليه الأحوال المعقدة في المجتمع المتحضر .

كان احتفاء الوثنيين القدماء - في كل من المجتمعات المتوحشة والمتحضرة - بخصب الأرض وازدهار النماء ، داعية ارتفاع لقدر المرأة كما تقدم القول ، اذا اتخذت رمزا لكل ما في الطبيعة من مظاهر الكثرة والوفرة ، فلما جاءت ديانات التوحيد المنزلة فقدت المرأة تلك الميزة وان كسبت غيرها : اذ أن ديانات الوحدانية قضت على كل ما كان قبلها من آلهة خرافية ومن عبادة لمظاهر الطبيعة ، كما أن الوحدانية خرجت من الصحراء فجاءت دياناتها داعية الى التقشف والاعتدال ، على حين كانت العبادات القديسة تنسم حفلاتها بالقصف والعريضة ، ولخروجها من الصحراء جاءت من جانب قوم لا يالفون الزراعة ولا يرون في المرأة رمزا لمخصب ، وانما يرونها عبثا في الحل والترحال .

لذلك كانت المرأة في بلاد اليهود ترسف في قيود شديدة الوطأة ، والتراث الأدبي اليهودي حافل بقصص كقصص شمشون تصنف خديعة المرأة ووجوب الحذر منها ، وأثرت عن حكماء اليهود أقوال في ذلك كقول سليمان الحكيم : « المتعلق بحبال امرأة كالقباض على حية » ، وفي التوراة والانجيل تشديد للنكير على المرأة التي انخدعت للشيطان وجرعت زوجها غصص خوبتها ، وكان آباء الكنيسة الأولون شديدي التقييد لحركة المرأة ، وللقديس بولس كتابات كثيرة في هذا الصدد ، قال من بعض رسائله : « أريد اذن أن يتحلى النساء بمحتشم الثياب في حياة واعتدال ، فلا تطريز ولا ذهب ولا لآلى ولا فاخر زينات ، انما يتحلين بصالح الأعمال التي هي جديرة بالنساء الصالحات ، وللمرأة أن تتعلم في خشوع وخضوع ، ولكنني لا أسمح لامرأة أن تتولى التعليم أو تستبد بالأمر دون الرجل ، انما عليها أن تلتزم السكينة ، لأن آدم خلق أولا ثم

خلقت حواء ، ولم يخدع آدم وانما خدعت المرأة فغوت ، على أنها ستكفر عن خطيئتها بقيامها بالنسل ، اذا هى تابعت سبيل الايمان والبر والصلاح والاعتدال » *

ومن ثم نرى فى أوروبا فى العصور الوسطى ان المرأة تزدرى ويرتاب فى شأنها ويحجر عليها ، ونرى الكنيسة تثبط الزواج وتدعو الى ترهب النساء فى الأديرة ، وعدل القانون الرومانى فمحييت الفروض التى كانت مفروضة على العزوبة ، وقام القانون الكنسى بجانبه يقيد الزواج بقيود ترمى الى الحد منه ، فحرم الطلاق لسبب من الأسباب ، وحرم التزاوج بين كثير من الأقرباء ، وجعلت كل امرأة فى حل من التخلي عن بعولتها وان كره زوجها ، لتلجأ الى الدير وتكون « زوجا للمسيح » ، وكانت الكثيرات يؤثرن اللجوء الى حياة الرهبنة تلك ، فرارا من عالم يعج بأسباب الشقاء للمرأة ، فقد كانت زوج الفارس أو الشريف المقيمة فى القصر تقضى حياتها سئمة من فراغها المطلق من كل عمل ، ومن جهل زوجها وأقربائها الذين لا عمل لهم ولا حديث الا الحرب وسفك الدماء . أما المرأة العامة فكانت مملوءة المخيلة بأشباح الشياطين التى أوقع رجال الدين فى نفسها أنها تعمل دائما على اغوائها ، كما كانت تتوجس دائما من خطيئتها الأبدية لكونها امرأة *

وقد لقيت المرأة العربية فى بعض القبائل بلاء كثيرا وعنتا فى عصر الجاهلية ، فكانت تعد عبئا وتكابد الوأد والسبى والابتذال ، فأصلح الاسلام من حالها ورفع من قدرها وعلت فى صدره مكانتها وظهرت المرأة فى عالمى السياسة والأدب . بيد أن الامعان فى الحروب والتمادى فى الفتوح والانهماك فى الترف كلها أعداء لمكانة المرأة ، والجهل والخرافة عدوان لدودان لها أيضا ، فلما فشلت بين العرب نتائج الحرب من ترف ورخاوة ، وانتشر التسرى والغزل بالذكور فى العصر العباسى وما بعده ، وران الجهل وتغلبت الأوهام والخرافات فى العهود المتأخرة ، اشتد النكير على المرأة وهبطت منزلتها هبوطا شديدا ، وأنهى عليها الشعراء وفيهم أبو العلاء بقوارض الكلم ، ولم يرتفع بالدفاع عنها والتنبيه الى سامى وظيفتها فى المجتمع الا صوت ابن رشد ، الذى قال ان ثلثى المجتمع الاسلامى معطل لكون المرأة تحيا عالة على الرجل ، وقال بجدارة المرأة بمعالجة شتى الأعمال التى يعدها الرجل وقفا عليه ، وما ذاك الا لاستيعاب ابن رشد لكتاب « الجمهورية » ، الذى يضع فيه أفلاطون المرأة على قدم المساواة التامة مع الرجل ، وقد كان أفلاطون فى ذلك كما كان فى وجوه أخرى سابقا لعصره . *

ولما بزغ فجر الحضارة الحديثة في القرن الخامس عشر ابتدأت المرأة الأوروبية تنقسم بعض الحرية وتتمتع ببعض الرعاية ، فشاركت في النشاط الفني الذي غمر أوروبا منذ ذلك العهد ، وظهرت في سماء السياسة أسماء نساء قديرات كاليزابث ملكة إنجلترا وكاترين قيصرية روسيا وكاترين دي مديشى في فرنسا ، وظهر أدب يتوخى رضا المرأة يتمثل في عصر النهضة في كتاب يوفوريوس ، للكاتب الانجليزي الاليزابثي ليلي (بكسر اللامين) ، وكتابات ستيل وأديسون بعد ذلك ، وكان تحسن مركز المرأة الاجتماعي مقرونا بظهور القصة الاجتماعية الحديثة ، وبها أولعت وفي مجالها برزت كثيرات من القصصيات ، وما زالت المرأة حتى مزقت كل الحجب التي أسدلتها عليها جهالات القرون الوسطى ، وبرزت الى المجتمع وشاركت في أعماله وضربت في التعلم والتعليم بسهم وافر .

بيد أن ذلك التقدم كان بطيئا جدا ، لأن عقائد العصور الأولى وأوهامها كانت شديدة الوطأة على العقول . وظلت المرأة في أرقى البلاد الأوروبية الى القرن الماضي تعد أحط من الرجل منزلة وتقام من حولها القيود والأسداد ، وظل كبار الكتاب على إعجابهم بأفراد هنا وهناك من نوابغ النساء ، يسيئون الظن بالمرأة ويدعون الى الحد من نشاطها . والآراء الماثورة عن جونسون وروسو مثلا في هذا الباب تردد صدى عقلية الانسان البدائي ، بل رددت ذلك الصدى كتابات كبيرات من نوابغ النساء أنفسهن ، كالكاتبة الانجليزية حنا جراي ، التي حملت على أنصار الحركة النسوية الناشئة ، ومدام ستايل التي قرظت كتابات روسو العائرة عن المرأة .

قال روسو فيما قال : « لقد خلق الرجل والمرأة أحدهما للآخر، ولكن اعتماد أحدهما على الآخر ليس من فوخ واحد ، فانما يعتمد الرجال على النساء لارضاء رغباتهم ، بينما يعتمد هؤلاء على الرجال بحكم رغباتهن وضرورتهن معا ، ففي امكاننا أن نحيا بدونهن فوق ما يمكنهن الحياة بدوننا . . . ومن ثم يجب أن يظل تعليم النساء دائما نسبيا دون تعليم الرجل ، فواجبات المرأة في كل العصور هي أن تنال رضاها ، وتكون نافعة لنا وتجعلنا نحبها ونقدرها ، وأن تعلمنا ونحن صغار وتعنى بنا كبارا وتمدنا بالنصح والسلوى وترد حياتنا مأنوسة محببة ، وهذا كله ما يجب أن تتعلمه في الصغر » .

وكان أول صوت ارتفع لتنفيذ أمثال هذه العقائد والمناداة بحقوق المرأة في الوقت الذي بدأت فيه المناداة بحقوق الانسان ، صوت الكاتبة

الانجليزية ماري ولستونكرافت في أواخر القرن الثامن عشر ، فقد كتبت في ذلك كتابا قالت منه معلقة على الصورة التي رسمها روسو للمرأة المثالية في رأيه : « مثل هذه المرأة يجب اما أن تكون ملاكا واما أن تكون أنانا ، فاني لا أرى أثرا للطبيعة الانسانية من عقل أو شعور ، في هذه الأجيال الكادحة في دارها ، المفقود وجودها في وجود طاغية متحكم » .

لقد قاست الانسانية بلاء كثيرا من جراء جهل الانسان وقصور عقليته في أزمنته الماضية ، فقاست الشعوب بغى الطغاة المستبدين ، وذوق الرقيق صنوف الهوان على أيدي مالكيه ، ولقيت المرأة الويل والشبور في المجتمعات المتأخرة والجاهلة ، وعانى الأطفال العنت والارهاق من آباءهم ومربيهم بحجة احسان تنشئتهم ، وشقى الفقير بالعنى والعامل بالمالك والضعيف بالقوى ، ولكن العلم هو الذى أنار سبيل الانسان خلال تلك الظلمات ، وهو الذى بصر بمكانه فى الكون ووظيفته وغرضه ، وخلصه من تحكم الوهم والخرافة ، وأراحه مما كان يكبل به نفسه من قيود ودواعى شقاء بلا مبرر ، فما ارتقى العلم فى العصر الحديث حتى كفت سيطرة المستبدين من الحكام ، وحرر الرقيق واستعمل الرفق فى معاملة الطفل والعامل والمسجون والمريض ، وأزيح عن كاهل المرأة أعباء موقرة من الارهاق والهوان والجهل والانحطاط .

على أن الخطوة الأخيرة فى كل هذه الأبواب لم تخط بعد ، وأسباب البؤس والشقاء ما تزال كثيرة مستفيضة ، ومنزلة المرأة ولاسيما بين الطبقات الفقيرة ما تزال فى حاجة الى اصلاح كبير ، ومسائل كثيرة مما يتعلق بالمرأة ما تزال قائمة لم تحل بعد ، ونظرة الكثيرين الى المرأة ما تزال مصطبغة بصبغة عصور الخرافة والوهم ، ومسائل الجنس ما تزال كما كانت عند الانسان الأول موضع تحريم أو تبو ، الخوض فيها جرأة على الآداب ، ويحمد تجنب بحثها ، وان كان فى ذلك الجهل بحقائقها ، وهذا النفاق فى أدب الجنس يسبب شقاء كثيرا لكلا الجنسين والأسرة ، ولن تتم السعادة الجنسية والانسجام الاجتماعى ، الا يوم يزاح عن الجنس كل أثر من آثار الألغاز والأسرار ، ويماط عن المرأة ما خلعت عليها عصور الجهالة من قيود ، ولا يكون بينها وبين الرجل من فرق الا الفروق التى أقامتها بينهما الطبيعة لغاية من غاياتها من تقسيم للعمل ، وتحسين للنسل وترقية للحياة .

الجناة يحاكمون الأبرياء

لقى أحرار الفكر والمصلحون والمجددون والعلماء والفلاسفة والأنبياء صنوف المحن وضروب الاضطهاد ، على أيدي أعداء ثلاثة رئيسيين : الدولة . رجال الدين على تكفير من تخشى بأسهم أو تأثير أفكارهم ، واستنجد منها على البطش بذوى النفوس الكريمة والأفكار النيرة ، فاستعانت الدولة برجال الدين على تكفير من تخشى بأسهم أو تأثير أفكارهم ، واستنجد رجال الدين بالدولة على الفتك بمن يناهض عقائدهم أو يعمل على اصلاح المفاسد التي يدخلونها فى العقائد والشرائع ، وعبثت الدولة ورجال الدين معا بالعمامة ، ينشرون بينهم الدعوة يستشيرون جهالتهم وتعصبهم وخبيث نزعاتهم ضد من يرمون إلى الايقاع به .

والتاريخ يعج عجيجا بحوادث الاضطهاد والتعذيب والمصادرة ، بالفتن والحروب التي مرجعها التعصب وشهوة الاضطهاد والبغى على الأبرياء ، ولكن الأم ضروب ذلك الظلم الذي يحفل به التاريخ ، ذلك الضرب الذي كان يجرى على صورة محاكمة ، لا يكتفى المضطهد بمجرد القبض على فريسته والفتك بها ، مجاهرا بالشر ، مصرحا بقبيح طويته ، وانما يعمد الى ستر تلك الطوية ، وتبرير عمله ، واظهار ظلمه فى صورة العدل الناصع ، لظروف تحمله على ذلك ، من بقية احترام للرأى العام ، أو رغبة خبيثة فى الامعان فى النكاية واطالة زمن العبث بالفريسة ، كما يلعب القط بالفأر برهة قبل تمزيقه وازدراده .

عرف الاغريق مثل ذلك العهد من الانتقال حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، حين اصطلحت الفلسفة الجديدة بالمعتقدات الوثنية القديمة ، وانجلى ذلك الصدام فيما انجلى عنه عن محاكمة سقراط ، وعرف ذلك العهد الانتقال لدى العرب فى العصر العباسى ، حين اصطلحت العلوم الاغريقية المنقولة بالآراء الدينية المتغلغلة ، فكانت بين المسلمين أزمات فكرية واضطهادات حول مسائل التقديرية وخلق القرآن ، والفلسفة عامة ، والتصوف ، وغير ذلك .

ونسب الكثيرون الى التزندق ، وحوكم الفيلسوف ابن رشد فى قرطبة ، وعرف الأوربيون المحدثون عصر الانتقال الفكرى هذا فى النهضة الكبرى حوالى القرن الخامس عشر ، وفى ذلك العصر والعصور التالية حوكم من رجال الفكر جون برونو وميخائيل سرفينس وجاليليو ، وعشرات غيرهم .

فالاغريق على رقيهم السياسى لم تكن لديهم طبقة خاصة من القضاة المحترفين المتوفرين على مهنتهم ، بل كان كل مواطن حراً بالغ صالحاً للجلوس مجلس القضاء ، وكانت المحكمة لديهم أشبه بدار نيابة فى كثرة عدد أعضائها ، فكانت أحكامها تتسم بما تتسم به أحكام الجماعة من اندفاع وراء العواطف وتقلب فى الأهواء ، وكانت التهم توجه فيها الى المتهمين فى لفظ موجز مجمل هو أدنى الى قرارات المجالس النيابة منه الى قرارات الاتهام المفصلة ، وكان النظام القضائى الرومانى تخالطه بعض هذه المثالب ، رغم رقى القانون الرومانى رقىا عظيما .

أما القانون فى الدول الاسلامية فكان دينيا مأخوذا من الكتاب والسنة ، اللذين توفر جلة العلماء والفقهاء على استخراج الأحكام منهما ، وكان القضاء بين الناس من أول ما اهتم به الخلفاء ، وظل بعضهم يجلس لرد المظالم الى أزمنة متأخرة ، وعرف القضاة المسلمون لا سيما فى الصدر الأول بشدة الورع والعدل والتحرج ، حتى كان كثير من العلماء يتجنبون مناصب القدمة اتقاء الخطأ فى التأويل والحكم ، على أن الطغاة الظالمين من الحكام لم يعدموا - لا سيما فى العصور المتأخرة - من يمالئهم من القضاة على أهوائهم ومظالمهم . ويروى لنا المقرئى أخبار بعض القضاة الذين لم يستنكفوا من تغيير حكمهم فى مسألة واحدة عدة مرات ، نزولا على ارادة بعض سلاطين مصر .

كانت المحاكمة فى أوربا فى العصور الوسطى وما بعدها الى القرن الثامن عشر تقوم على ما يشبه الاعتقاد مقدما بأن المتهم مذنب ، ويرمى التحقيق فى السجن وفى المحكمة الى ارغامه بكل الطرق على الاعتراف ، وكانت تتبع فى التحقيق تقاليد مقرررة اكتسبت بطويل المران : من الوعد والوعيد والمخادعة والتمليق ، وكان اعتقاد المحققين فى غالب الأحيان أن للمتهم شركاء ، فهم يبذلون الجهد لاستدراجه الى ذكر أسمائهم ، بل كان يتهم بمشاركة المتهم فى جريته من يتطوع للشهادة لمصلحته أو لمساعدته أو الدفاع عنه على أية صورة ، فكان الخوف من تلك العاقبة يحرم المتهم معونة من يستطيعون اثبات براءته .

تحت تلك النظم القضائية القاسية قدم أحسار الفكر للمحاكمة متهمين تارة بالزندقة ، وطورا بالسحر ، وتارة بالاباحية ، وأمام المحاكمة الكنسية حوكم برونو ، وحاكم جاليليو ، وحوكمت جان دارك ، وأسلم الأول والأخيرة بعد المحاكمة الى السلطات المدنية لتفرغ من شأنهما « بدون سفك دم » وهو التعبير المصطلح عليه اذ ذاك لاحتراق المحكوم عليه علنا في بعض الميادين أو الأسواق ردعا له وزجرا لغيره ، فاذا كان المحكوم عليه مفكرا ساقته الى ذلك الموقف كتبه التي احتوت على زائغ الآراء ، كالقول بالدورة الدموية في جسم الانسان ، أو بالدورة الأرضية في الفضاء ، احرقت مع جسمه كتبه ، وحرمت تداولها .

بقيت تلك الوسائل البربرية في القضاء الجنائي سائدة الى القرن الثامن عشر حتى هب علماء ذلك العصر المسمون بالفلاسفة من أمثال فولتير وروسو ينددون بتلك الشناعات ، التي لا نظير لها بين كثير من الجماعات الهمجية ، فبدأ اصلاح المساويء تدريجا ، بدأ من أواخر ذلك القرن وفي غضون القرن الماضي ، عملت على ذلك حقوق الانسان التي أعلنتها الثورة الفرنسية ، فقررت مثلا ألا يحاكم المرء على جريمة الا اذا كان هناك قانون قائم يعاقب عليها ، ثم ألغى التعذيب في التحقيق وأصلحت أحوال السجون ، وتغيرت النظرة الى المجرم والعقاب .

فلما انتشر الروح العلمي في القرنين الأخيرين وذاعت مبادئ الانسانية نظر الى المجرم نظرة رحمة وإخاء ، فان كان جرمه راجعا الى جنون أو اختلال ما ، كان أحق بالعلاج منه بالعقاب ، وان كان امرا صالحا كما تشهد القرائن قد سيق الى جرمه في ظروف تاعسة استعمل الرفق في أمره وأرجىء تنفيذ عقوبته رجاء استصلاحه ، ولم يدخر العقاب الصارم الا للمجرم المصر العائد الذي ثبت أنه لا يستصلح ولا يرجو ، وتحول الغرض من العقاب من الرغبة في الانتقام الى الرغبة في التربية .

على أن هذه المبادئ النبيلة التي انتهى اليها العصر الحديث ووضع بها حدا لبربريات العصور الوسطى كانت سائدة بدهية لدى المسلمين في عصورهم الزاهرة يشهد بها كتاب عمر بن الخطيب رضي الله عنه الى أبي موسى الأشعري ، والتعذيب الذي كان عند أرببي العصور الوسطى والنهضة وما بعدها قاعدة مقررة لا غبار عليها من قواعد التحقيق ، كان محرما ممقوتا لدى المسلمين لا يكاد يكون معروفا في القضاء ، فقد روى أن عمر بن عبد العزيز أتى برجل أقر بذنب بعد أن عزر وضرب ، فخلى سبيله وأبى مؤاخذته ، وجاء في كتاب الحراج لأبي يوسف : « ومن ظن به

أو توهم عليه سرقة أو غير ذلك فلا ينبغي أن يعزر بالضرب والتوعيد والتخويف فإن من أقر بسرقة أو بحد أو بقتل وقد فعل به ذلك فليس اقراره ذلك بشيء ولا يحل قطعه ولا أخذه بما أقر به .

قلنا ان المفكرين كانوا يتهمون امام انصار القديم بالكفر او الاباحية الخلقية أو السحر ، وبالأولين اتهم سقراط وهو أول مفكر عظيم ينهى الينا التاريخ استشهاده في سبيل تعاليمه .

وممن حوكموا على آرائهم ابن رشد في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي في زمن خلفاء الموحدين ، فانه لنبوغه في الفلسفة تنكر له رجال الدين وكادوا له عند الخليفة ، حتى تحول من العطف عليه الى الغضب منه ، ويقال ان من أسباب ذلك التغيير ان ابن رشد في تعليقه على كتاب الحيوان لأرسطو ذكر أنه رأى الزرافة « عند ملك البربر » وفاته أن يذكر الخليفة بالتعظيم والتفخيم ، فلما بلغت مودة الخليفة حدها أمر بابن رشد وتلاميذه فأحضروا في المسجد الجامع بقرطبة ، وقام فقيهان فخطبا يتهمانهم بالمروق ويستوجبان لعنتهم ، ولم يدافع ابن رشد عن نفسه ، وأمر الخليفة به وبأصحابه فنفوا الى ناحية قاصية ، وأحرقت كتبهم ، وصدر منشور يشرح ذنوبهم ويحذر الناس منهم ويؤلبهم عليهم .

وقال ابن رشد : « أعظم ما طرأ على في النكبة أني دخلت أنا وولدي عبد الله مسجدا بقرطبة وقد حانت صلاة العصر فثار لنا بعض سفلة العامة فأخرجونا منه » .

على أن النفي والاهانة لم يشفيا على ما يظهر نفوس أعدائه الذين لم يكن يروى غليل تعصبهم الا قتله وقتل أتباعه شأنهم في ذلك اللدنة شأن رجال الدين الملتفين بالأمراء في كل العصور .

وقد قاسى العالم الفلكى جاليليو طعم « مقام الحزى » هذا جزاء على أبحاثه في علم الهيئة وان لم يكن مبتكرا لما قال به ، ولم يكن الا مرددا - بعد استعمال منظاره المعظم - لما قال به كوبرنيق قبله بزهاء نصف قرن ، فقد أبطل كوبرنيق مذهب بطليموس القائل بثبات الأرض ودوران الأجرام السماوية حولها كما توهم به حركة تلك الأجرام اليومية ، وأثبت أن الشمس ثابتة وأن الأرض تدور حولها وتدور حول نفسها ، ولكن كوبرنيق لم يعذب على هذه الزندقة لأنه أثر العافية فلم ينشر كتابه في

حياته ولم ينشر الا عقب موته ، فلما أيد جاليليو نظريته في لفظ معمم متحفظ اقتيد الى المحكمة الكنسية في روما وهو شيخ سقيم وسجن واستجوب ولم ينجح من الاحراق الا اعترافه بجرمه وندمه على ما فرط منه واعلانه خطأ كوبرنيق وصواب بطليموس وتقريره توحيته عن اذاعة النظرية الجديدة .

وممن حوكم في الدولة الاسلامية متهما بالزندقة لغضب السلطان عليه القائد الأفشين : كان حديث عهد بالاسلام فلم يمنع ذلك المختصم ان يوليه القيادة على جند المسلمين ، فلما دبت عقارب السعاية بينهما اتهمه بالزندقة والردة والميل الى المجوسية ، وألف لمحاكمته محكمة كان من أعضائها الوزير محمد بن عبد الملك الزيات المعروف عنه تفننه في تعذيب خصومه واختراعه آلة لذلك ، وكيلت للأفشين بجانب الزندقة تهمة التآمر على سلامة الدولة أيضا ، وقد رد على كل تهمة وجهت اليه أسد رأي وأشدته اقناعا ، فلم يمنع ذلك أن يجوع في سجنه حتى يموت ثم يحرق مصلوبا .

وفي أوائل القرن الرابع عشر تتابعت في شتى أنحاء أوروبا محاكمات ظالمة ، كان قضائها متشابهين وضحاياها متماثلين وتهمهم جميعا متقاربة ، أولئك الضحايا هم فرسان المعبد ، وهم جماعة دينية تآلفت في عهد الحروب الصليبية لحماية الحجاج من قطاع الطريق ، وكان من مبادئها الصرامة والتقشف ، ولكن لم تنته الحروب الا وقد أثرت تلك الجماعة اثراء فاحشا ، وركن أعضاؤها الى الدعة وتثمين الأموال والضياع ، حتى طمع في أملاكهم فيليب الجميل ملك فرنسا ، ومهد له السبيل لاضطهادهم مشيره القدير المحامي ديبوا المشهور بمشروعه الرامي الى توحيد أوروبا تحت زعامة فرنسا ، كما ساعده في محاربتهم جماعة دينية أخرى ، هي جماعة الدومينيكان ، وطالما كان بعض الجماعات الدينية في أوروبا حربا على بعض ، كما مالا اليسوعيون لويس الرابع عشر مثلا على القسيساء على الجنسيتين .

أصدر فيليب الجميل أمره فجأة بالقبض على فرسان المعبد ، وقدموا للمحاكمة في شتى بقاع فرنسا بتهم الزندقة والاباحية والاتصال بالشيطان وعبادة الأوثان ، وكتب الملك الى ملوك أوروبا يستحثهم على حذو مثاله ، وبملاة البابا اياه - وكان اذ ذاك تحت نفوذ ملك فرنسا - استطاع فيليب أن يقيم المحاكم المدنية والكنسية على قدم وساق سنين عددا تنكل بفرسان المعبد في أنحاء أوروبا ، وكانت التهم الموجهة اليهم

فى بادىء الأمر مبهمة متخاذلة ، ولكنها بمضى الزمن والمران اتخذت أشكالا أشد تحديدا وتخصيصا ، وتم لفيليب ما أراد من استتصاف أموال الجماعة ، وأزاح من وجه الملكية التى كان يعمل على توطيدها فى فرنسا عدوا قويا دولى النظام دىنى الصفة •

وكانت هناك تهمة خطيرة تفشى وباؤها فى أوربا خاصة فى العصور الوسطى وعصر النهضة وما بعده ، تلك تهمة السحر ، وكانت تلك التهمة تكال أول الأمر لأعداء الكنيسة المتهمين بالبقاء على دين الوثنية ، إذ كان قيامهم بمراسيم الأعياد الوثنية يعد اتصالا بالشيطان ، ثم صارت التهمة توجه الى كل زائغ مخالف ، وانتشرت عدوى تلك التهمة فى عهد الإصلاح الدينى ، وبعده فى شمالى أوربا ، أى فى الأقطار البروتستنتية خاصة ، ولعل ذلك كان أثرا من آثار انكبابها على دراسة الكتاب المقدس ، وهو كثير التوكيد لشُرور الشيطان ووجوب الحذر منها •

انتشر الاعتقاد بالسحر فى أوربا ، وطما فى عصر احياء العلوم ذاته ، فكان من أعاجيب التاريخ ، فالعصور التى أنجبت لوثر وارزمس وشكسبير ودورر وغيرهم من المفكرين والفنانين ، كانت تؤمن بالسحر وتعتقد بقدرة ممارسيه وممارساته - وقد كانت المرأة خاصة متهمة بممالة الشيطان - على نفع بنى الانسان وضرهم وعلى الشفاء والامراض والقتل ، وعلى الاخبار بالغيب ، وفى روايات شكسبير كماكبث مثلا شواهد لذلك وفيرة ، وقد صور لنا مارلو ثم جوته صورا من اتصال الانسان بالشيطان فى روايتيهما عن فاوست •

وكانت جان دارك فتاة نقية لم تتجاوز السابعة عشرة ، عرفت فى قريتها بالصالح ، واشتهر عنها ايمانها الدينى العميق ، ولم تعد أن دافعت عن بلادها ضد الغاصب ، فكان من الصعب اختراع التهم لها ، فلم يكن غير السحر تفسيرا لقواها الخارقة واقدامها فى الحرب وتأثيرها فى الجند وارتدائها ثياب الرجال وما تدعيه من رؤى تراها وأصوات تهتف بها ، وعذبت الفتاة فى سجنها شهورا طوالا ، وأجرى التحقيق معها على النحو الوحشى السالف وصفه ، ومع ذلك وقفت فى المحكمة وقفة اباء نادر ، وأبت التراجع وتلقت حكم الاحراق بثبات وايمان •

ومن قضايا التعصب الدينى الحديثة التى كان لها أثر عميق فى الأذهان أدى الى اصلاح القضاء ونبد التعصب واثبات حقوق الانسان ،

قضية « كالاس » فى فرنسا التى كان بطلها فولتير ، فقد اتهم كالاس هذا من أهالى تولوز بأنه قتل ابنه لمنعه من اعتناق الكاثوليكية ، اذ كان اعتناقها اذ ذاك ضروريا لاحتراف المحاماة ، ومع أن كل القرائن كانت تدل على أن الابن انتحر لضيق نفسه ، عذب الشيخ الشاكل تعذيبا بربريا ، فأصر على براءته ومع ذلك أعدم ، فلما علم فولتير بالقضية وكان يمقت التعصب والقسوة كل المقت ، استأنف القضية أمام مجلس الملك وصرف عليها من جهده وماله الكثير ثلاث سنوات حتى صدر الحكم بتبرئة الشيخ وادانة برلمان تولوز .

أما المحاكمات التى يتجلى فيها ظلم الشعب وتحكم العامة فأروع أمثلتها فى حوادث الثورة الفرنسية ، ومنها محاكمة الملك لويس الحادى عشر والملكة ماري أنطوانيت والزعيم دانتون وأتباعه ، والعشرات أو المئات من الأشراف وغيرهم ، حيث كانت تكال التهم جزافا ولا يسمح للمتهم بالكلام طويلا أو الدفاع عن نفسه ، ويهدد أعضاء المحكمة ويؤثر فيهم بمختلف الوسائل ، فكان داخل تلك المحاكم مدانا محكوما عليه قبل أن تفتتح الجلسة ، ومن ثم كان كثير من الأشراف يرفض الكلام ويلزم الصمت ويسير الى المقصلة فى ثبات ، ومن أمثال تلك الفتن والمحاكمات ينبجلى أن رجل الشارع أشد بطشا واستبدادا فى بعض الأحيان من الطاغى المتوج *

تلك أمثلة من تعصب الانسان لرأيه ومذهبه وضيق ذرعه بمخالفيه وفتكه بالواقفين فى طريقه ومحاولته لباس ظلمه لباس العدل واظهار نوازه الشريرة فى مظهر الفضل والنبيل والغضب للحقيقة ، وأمثلة تلك المحاكمات المغرضة فياضة يجيش بها التاريخ ، تتجلى فيها ألوان الجور والتنكيل والقسوة والوحشية ، فلا غرو أن قال بعض الكتاب انه لو أقيم متحف يمثل تاريخ القضاء الجنائى ، يضم ما استعمل فى الماضى من آلات التعذيب ، وما تخلف من الوثائق والأسانيد ، وما كان هناك من طرق للعقاب والانتقام ، وما قاساء المسجونون فى غياهب السجون من بلاء ، لجاء ذلك المتحف حافلا بكل مفظع بشع ، ولتمثلت بين جوانبه صفحة من أظلم الصفحات فى تاريخ الانسان !!

أبو العلاء بين شعراء العربية

يم يمتاز المعري عن شعراء العرب ؟ وما هي الخصائص
الفكرية التي يتفرد بها والتي جعلته النضج ثمرة من ثمار
الادب العربي ؟ هذا ما يبحثه كاتب المقال .

ليس أبو العلاء أحد فحول شعراء العربية فقط ، يحل منهم في
الطبقة الأولى بجانب المتنبي وأبي تمام وابن الرومي ، وليس هو فقط أحد
أساطين كتابها ، يباري ابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان بصرا باللغة
وتكمننا من أساليبها واحاطة بتراثها . بل هو بين أدباء العربية شخصية
فذة فريدة : ينتشبه الآخرون في أشياء كثيرة حتى كأنهم أبناء عصر واحد ،
ويختلف عنهم جميعا في أشياء كثيرة كأنه ابن عصر وحده ، أو كأنه يمت
الى أدب غير أدبهم وتراث ثقافي غير تراثهم ، وهذا التميز اهم سمات
أبي العلاء .

فقد كانت نزعة المحافظة غالبية على الأدب العربي منذ عرف العرب
الحضارة والثقافة ، قد احتفظ أهلوه بتقاليد ورثوها عن فحول الجاهلية
وصدروا الاسلام ، وحرصوا على اتباعها ولم يحبوا أن يدخلوا عليها كبير
تبديل ، فقصروا الشعر والنثر على موضوعات خاصة لم تتجدد كثيرا .
وأما كان هم أكثرهم أن يخارى المتقدمين في طرقها . فالفخر والحماسة
والمدح والهجاء والنسيب الاستهلال في الشعر ، والرسائل الديوانية
والاخوانية في النثر ، والأسلوب المحلى بالمحسنات البديعية في هذا
وذاك . وقد طمع أكثر الشعراء في جوائز الملوك فقصروا أكبر جانب من
فصيدهم على المدح ، وطمع الكتاب الى الكتابة في دواوين الأمراء فتوفروا
على تحبير الرسائل الانشائية ، وعاش هؤلاء وأولئك في حياة صاخبة بين
دواكب الحاكمين ومحافلهم ، وبين مظاهر الترف المادى وأسباب اللذات
الحسية ، ومن ثم كان الأدب العربي والاسلامى أكثره أرسقراطى .

أما أبو العلاء المعري فسلك طريقا وحده امتاز بها عن أبى نواس
والبحتري والطائي ، كما امتاز بها عن عبد الحميد وابن العميد والصاحب

وغيرهم من الكتاب الوزراء ، فجاء أدبه أكمل من أدبهم ، وشخصيته مفترقة ممتازة عن شخصياتهم ، وكان تراثه الأدبي من شعر ونثر أعظم قدرا وأخلد أثرا وأشد امتاعا للأديب العصري من تراث من ذكروا ممن هم على شاكلتهم .

فأبو العلاء لم يتعلق بحبال الأمل ، ولم يقل في مدحهم الا القليل الذى أودعه ديوان «سقط الزند» ، على أنه لم ينظم ما نظم في ذلك الباب طلبا لنوالهم ولا استظلالا بجاههم ، ولكن نظمه مجاملة أو مودة أو رياضة للقصيد وتلهيا بمعارضة المتقدمين ، ولم يستغرق ذلك الا جانبا ضئيلا من شعره ، ولم يستأثر بمعظم ما نظم كما استأثر المدح والهجاء بمعظم ما نظم البحتري والطائي ومهيار وغيرهم .

انما التفت أبو العلاء الى التأمل المجرد والتفكير الحر المنزه ، على أنه لم يطرق الأبواب المعهودة المتوارثة فى الأدب العربى ، والتي كان يطرقها الشعراء حين يتحذرون من المدح والهجاء ، كالوعظ الذى شغل به أبو العتاهية وأمثاله ، والحكمة التى أولع بها الطائي والمتنبى وسواهما ، والتمدح بمكارم الأخلاق والتحدث عن الاخوانيات اللذين كلف بهما الشريف الرضى وغيره . كل هاتيك كانت موضوعات مألوفة تقليدية فى الأدب العربى ، تداولها الشعراء فى مختلف العصور ، وتشبهوا فى كثير منها. بالمتقدمين . أما أبو العلاء فانفرد بالتأمل فى أحوال الانسانية جمعاء : ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، فصرف ذهنه فى التاريخ وتدبر أحوال الغابرين ، وتساءل أين القبور من عهد عاد ، ورجح أن يكون قبل آدم أودام آخرون ، وتصور سائلا فى المستقبل يسأل عن مكة كما يستخبر المستخبرون عن جديس وطسم ، الى غير ذلك من نظرات الفكر الذى يروعه قلب العصور وتغير الأجيال والشعوب والبلدان ، ولا يقنع قناعة أكثر شعراء العربية بالنظر الى حاضره واغتنام عاجله ، عن التأمل فى الماضى والمستقبل وتقصى بعيد الآفاق .

ولم يقتصر أبو العلاء على النظر فى شئون الانسان ، بل وسع فكره وشمل اهتمامه عالم الحيوان واحتفى له احتفاءه ببني جنسه ، بل عد الانسان والحيوان متماثلين فى الصفات والطباع ، متماثلين فى رضوخهم لصروف الأقدار والبواميس الطبيعية ، وخضوعهم لتنازع البقاء وما يستتبع من سجايا كلها غدر ولؤم كما يقول ، وهو ينهى على الأحياء بغيتها بعضها على بعض ، ثم يرثى لها جميعا لأنها لا معسدى لها عن ذلك الصراع الدائب ، وتراه يتحدث فى شعره عن الضرغام والطبى والصقر

والحمامة والذئب والشاة والنحلة ، حديثه عن أناس يعنيه أمرهم ويحرص على أسعادهم ويود لو يستطيع اصلاح ذات بينهم .

وما هكذا العهد بذكر أدباء العربية الحيوان والطير في آثارهم : انما كانوا يذكرون الليث والذئب ليدعوا الفخر بالتغلب عليهما ، والطير والكلب للتفكه بذكر الطرد والقنص ، والحمام والبلايل تغنيا بجميل أصواتها ، ويستعيرون صفات هاتيك السباع والاطيار لما يتخيلون لأنفسهم أو لممدوحهم من القوة والهيبة ، ولعشوقاتهم من حور العيون وتلح الأحياء وسحر اللفتات ، أما الاحتفاء للحيوان ذاته والحدب عليه وطول التأمل في أحواله ، فميزة من الميزات العظيمة التي انفرد بها أبو العلاء .

ولم يقف فكره الجوال وتأمله الشامل عند الأحياء ، بل كان معنيا بشئون الجماد كذلك موكلا بالتفكير في الأكوان والكواكب والآباد ، يعبر عن كل ذلك في أساليب شعرية ممتعة : فيقول ان جبريل لو طار بقية عمره ما استطاع الخروج من الدهر لأنه أزل ، ويقول ان لنار المريخ من حدثان الدهر مطفىء وان علت في اتقاد ، وان مولد الشمس يعيى المرء تحديده ، وأن النور محدث والأزلى هو الزمان المظلم ، الى غير ذلك من نظرات تجمع بين النزعة العلمية والحلاوة الشعرية . وبدهى أن أحدا غيره من أدباء العربية لم يعن بالفلك بعض هذه العناية ، أو يكلف ذهنه في مجاهر الفكر بعض هذا العناء .

كان أبو العلاء في تأمله هذا في شئون الخلق متشائما ، يكره ما يرى من تصارع الأحياء وتنازعهم البقاء ، ويحزنه ما يشاهد من ضعف الانسان وقصور باعه وذهنه ، ويملؤه غما ما يرى في طباع الناس والأحياء كافة من الوؤم وآثرة وخديعة وعدوان . وهو تشاؤمه أيضا نسيج وحده في العربية ، فالتفاؤل هو السمة الغالبة على الأدب العربي ، وان كثرت فيه شكوى الزمان والاخوان والوعظ والتذكير بالموت والبلى ، والمتنبى مثلا على طول ما خاصم معاصريه ولاقى منهم ، ورغم خيبة مساعيه وضعية أمانيه ، ظل عمره حريصا على الحياة كما قال مستهما بها صبا .

وانما أفضى بأبى العلاء الى التشاؤم طول تفكيره في شئون الخلق والحياة ، كما تقدم ، وتوقله في قمم الفكر العالية الباردة ، بجانب ما رزى به من فقد البصر الذي كان فاتحة رزايا أخرى ، وما امتاز به من رهافة الحس ، هذا الى ما كان يعج به عصره من فساد واضطراب ، أما شعراء العربية الآخرون فنأى بهم عن التشاؤم انصرافهم - كما تقدم

القول - الى حاضرهم ، واقبالهم على دواعى الحياة العملية ، واعراضهم عن طول التأمل فى مظاهر الحياة والغازها ، فأبو العلاء هو ممثل التشاؤم فى العربية ، وهو فى هذا أيضا فذ متفرد .

ولأبى العلاء فلسفته الالهية ، وهى جانب كبير من فلسفته ، والدين من أهم المسائل التى شغلت لبه طول حياته ، وهو شاك رافض لمعظم ما كان يدين به معاصروه من عقائد ، متعجب لما يرى من خلاف بين أتباع اليهودية والمسيحية والاسلام . وليس ينفرد أبو العلاء بالشك والزيغ بين أدباء العربية ، ولكنه يمتاز عن سواء فى هذا الأمر امتيازاه عنه فى سواء : فان المتزندقين من أمثال بشار وحماد وأبى نواس كانوا قوما مستهترين متهاكلين على اللذات ، لا يكرههم أمر الدين الا ريشما يتهمون بالمؤمنين ، ويتحدون عقائدهم ويغيظونهم بفتكهم ، وكأنهم فرحون اذ خلعوا عذار الايمان وخلصوا من ربة الدين .

أما أبو العلاء فكان زاهدا لا مستهترا ، محرما على نفسه متع الدنيا لا متهاوتا عليها ، وما انتهى الى الشك اعتباطا ولا استهتارا ، ولا لسوء صعبة أو ضعة بيئة أفسدت خلقه ومعتقده ، وهو الناشئ فى بيت الثقى والفضل ، وانما انتهى فكره الناصب الى الشك بعد طول التأمل والنظر وبعد شديد العناء والجهد ، وبعد أن حاول ما وسعه أن يصل الى اليقين ويقتنع بما يقتنع به غيره دون طويل بحث ولا تساؤل ، وكم طلب اليقين من جهينة كما قال فلم تخبره جهينة سوى الظن ، ولو ارتاحت نفسه الى الايمان عن اقتناع كان أول المؤمنين وأحسنهم عقيدة .

وعلى سبحات فكره فى آفاق الزمان والمكان ، وعنايته بالماضى والمستقبل ، لم يهمل أبو العلاء حاضره القريب ، ولم يعيش بنجوة عن مجتمعه ، بل كان معنيا بأمره ، يأسى لسوء حال الرعية وجور الأمراء على مصالحها ، ويعد أولئك الأمراء أجراء لها عينتهم لينعهدوا مرافقها ويسوسوا أمرها ، وهى نظرية العقد الاجتماعى التى ناقشها فلاسفة أوربا المحدثون . وكان أبو العلاء يأسف لعدم تساوى الناس فى الثروة وتقاربهم فى الحظوظ ، فمنهم أمير متوج بالذهب وفقير معرى فى الشتاء ، ومجدود يرزق أقوات أمة ومنكود يحرم قوت يومه .

وهنا أيضا يمتاز أبو العلاء على غيره من أدباء العربية ميزة عظيمة : فقد كان أكثرهم صنائع للملوك يترجمون عن رغباتهم ويتمدحون بأعمالهم ويؤيدون دولتهم وان عتوا وان ظلموا ، قد انحازوا الى صف الحاكمين

وكل همهم أن يغموا مما يفيثون عليهم ، واعتزلوا المحكومين لا يابھون بحالهم سعدت أو شقيت ، ولا يترجمون لهم عن شكاة ولا يحاولون لهم أصلا .

وقد كان شعراء العربية وكتابها لاتصالهم بالأسراء وتوفرهم في مرحهم وانشاء رسالهم ومشاركتهم في حياتهم الرسمية والخاصة ، مشغولين عن التوفر على الادب الخاص والفن لذاته . ومن ثم نرى الشعراء العظام منهم كانوا شعراء فحسب ، لم يؤر منهم غير القصائد ، كالمثنبي والبحتري وغيرهما ، والكتاب كانوا كتاب رسائل فحسب ، فلم يؤثر عنهم فيما عدا ذلك شيء يعتد به ، كالصاحب وابن العميد ، ومن أجاد الشعر من الكتاب كالصاحب ، وحميد بن سعيد كان مقلا فيه ، ومن توفر على الشعر قلما تظفر له بنثر أو رأى يعتد به في النقد .

أما أبو العلاء فلاعتزاله حياة الأمراء الصاخبة ، وتوفره على الأدب والدرس توفر الناهن على كهانته ، كان أدبيا مكتملا متعدد نواحي الانتاج ، ضرب في الشعر بقدره على وفي النثر بسهم وافر ، فصاحب اللزوميات هو أيضا صاحب رسالة الغفران ، وناظم ذلك الشعر الفائق هو كاتب هذا النثر الممنع ، وهو في هذا وذاك لا يقتصر على باب من القول دون باب ، بل يجيل ذهنه في شتى شئون الحياة والموت والماضي والحاضر والدنيا والآخرة ، والأدب والنقد واللغة والفقه ، وهو التساغر العربي الكبير الوحيد الذي أثر عنه نقد وآراء معرفة مفصلة عن سابقه من الشعراء ، كالمثنبي والبحتري وحبيب الطائي .

وقد كان الأدب العربي في جملته عملي المقاصد قريب الأغراض ، تقل فيه آثار سبجات الخيال ، وتقل فيه الآثار الفنية المطولة ، فغاية ما بلغ فيه الخيال انشاء المقامة ، أو اختراع موقف الغزل ، أو نلفيق الأقصوصة القصيرة تنسب الى الجاهلية ويفسر بها خبر من الأخبار أو مثل من الأمثال السائرة ، أما القصة والملاحمة والرواية وما البها من آثار الخيال الواسع ، فان خلو الأدب العربي منها معروف واضح . ولكن أبا العلاء أبى الا أن يمتاز على سائر فحول العربية في هذا الفن أيضا ، فرسالة الغفران هي العمل الأدبي الكبير الوحيد في العربية ، الذي يقوم على الخيال المتصل ، ويحوى أروع الصور والأوصاف والقصص والفكاهات ، وتدور حوادثه في العالم الآخر ، مستمدة حقائقه مما جاء في القرآن الكريم ، كما استمد دانتى وملتون حقائق ملحمتيهما من أنباء الانجيل ، ورسالة المعري وان طابقت كل أنباء القرآن الكريم وأظهر صاحبها الاعتقاد بصحتها ، على

جرىء لم يقدم عليه غير أبى العلاء من قبل ، هو عمل جرىء من وجهة الفن والخيال ، وهكذا يمتاز أبو العلاء على غيره من أدباء العربية في ارساله عنان الخيال وكبحهم اياه ، وانه للكفيف المحجوب وانهم للمبصرون المطلقاء .

ذلك أدب أبى العلاء المعري ، هو فيه نسيج وحده بين أدباء العربية ، وما كان أدبه الا صورة من حياته ، حياة الزهد والاعتزال والدرس والأدب ، فهو لم يصدف عن حياة الأبهة في حاشية الأمراء فقط ، ولم يأب على نفسه ما كان يصبو اليه الشعراء والكتاب فحسب ، بل حرم على نفسه ما يتمتع به الفرد العادي : فأقام رهين محبسيه أو في ظلام الثلاثة من سجنونه كما قال : وترهب فلم يتخذ حليمة ، ورغب عن شهى المطاعم وحرم على نفسه لحم الحيوان ، وكان على اعتداده بقدره شأن كل عظيم متواضعا بعيدا عن الادعاء ، يعلم أنه هو وغيره من طالبى العلم والدرس جهال لا يقاس ما علموه من شئون الكون بما جهلوه ، هذا على حين كان هم الكثيرين من شعراء العربية وكتابها التفاخر والتناول على معاصريهم .

فأبو العلاء المعري في اعتزاله حياة البلاطات ، وتوفره على العلم والأدب وادمانه النظر في شئون الكون ، ودراسته للحياة دراسة تتجلى فيها النزعة العلمية ، وارساله عنان الخيال في رسالة غفرانه ، واحتفائه في نظراته الاجتماعية بشئون الرعية دون الحاكمين ، هو في كل ذاك مخالف لغيره من فحول العربية ممتاز عليهم ، وهو لكل ذلك أقرب الى أدباء الغرب الذين عاشوا في ظل الديمقراطية أحرار الفكر والنزعة ، معنيين بشئون الحياة والمجتمع لا بأمور الملوك والحكام .

وأبو العلاء لكل ذلك يمثل أنضج ثمرات الأدب العربى ، ولا غرو فقد عاش بين القرنين الرابع والخامس الهجريين في العصر الذى بلغت فيه الحضارة والثقافة العربيتان أوجهما وأشرفتا على الاضمحلال . ولولا فساد الأحوال السياسية والاجتماعية الذى أسرع بالحضارة والأدب الى التدهور ، لكانت هذه السنن الحميدة التى سننها أبو العلاء للأدباء ، مبدأ عصر جديد فى الأدب العربى يكون فيه أقرب الى الفن الرفيع ، ويكون الأدباء فيه أكثر توفرا على أدبهم ومغلاة بقدره ، وأشد كلفا بالتبصر فى بعيد آفاق الحياة . ولكن عوامل الانحلال كانت تتعاور المجتمع الاسلامى من داخله ومن خارجه ، فلم يقدر للأدب العربى طور احياء جديد ، بل سرعان ما دخل فى طور تدهوره الطويل ، الذى لم يبق منه الا فى العصر الحديث ، وكان أبو العلاء المعري آخر نجم لمع قبل هبوط ذلك الليل الحال .

تطور فكرة السلام العالمى

نشبت الحرب ، وتغلب شيطان الشر على ملاك الخير والسلام ، وفشل دعاة هذه الفكرة الانسانية العليا فى تنفيذها بين الأمم • فمتى نشأت هذه الفكرة ، ولماذا نشأت ، وكيف تطورت الى أن وصلت الى حالتها الراهنة - ذلك ما يعالجه كاتب هذا المقال •

لحاجة الانسان الى التعاون ورغبته فى حسم الفوضى والدفاع عن نفسه ، كون منذ أقدم عصوره مجتمعات ظلت تنمو حتى انتهت فى فجر التاريخ الى مرحلة الدولة التى تتراوح صغرا وكبرا ، ثم وقف عند هذه المرحلة لم يستطع أن يخطو الى المرحلة التالية لها والنهاية الطبيعية لترقية السياسى والاجتماعى ، وهى الدولة العالمية التى تجمع البشر جميعا وتقطع دابر الحروب وتوطد السلام الدائم ، وظلت فكرة السلام العالمى أمنية تجيش بها الصدور لم تخرج الى حيز التنفيذ بعد •

وانما تعذر تنفيذ الفكرة على جمالها ونفعها الواضح ونزوع أكثر الناس اليها لما يعترضها من صعاب ترجع تارة الى النفوس البشرية وما ركب فيها من حب الغلب والاستئثار بكل الخيرات ، وما طبعت عليه من الطمع والخوف والغيرة ، وترجع تارة الى الفوارق الجغرافية والجنسية واللغوية والدينية وبعد المسافات ، لذلك تلاشت أحلام المفكرين الذين طمحوا الى تشييد طوبى عالمية (١) ، وفشلت مجهودات السياسة والغزاة الفاتحين الذين هموا بتحقيق تلك الأحلام ، وتبين جليا أن تحقيق فكرة السلام العالمى تحتاج الى تربية طويلة للشعوب واعداد للأذهان •

(١) دولة فاضلة •

كانت الدول الشرقية الكبيرة التي قامت في العصر القديم كمصر و آشور وفارس شديدة الاعتداد بقوميتها ، شديدة الاحتقار لغيرها ، والبطش بجيرانها ، لم يفكر حاكموها قط في انشاء دولة عالمية على أساس من المساواة بين الناس وان عملوا دائما على تأسيس امبراطورية ذات حدود مترامية ، يكون لهم ولأممهم فيها السيادة والغنى ، وللمغلوبين الذل والغرم ، فكانت الحروب مستعرة والرق فاشيا والعلاقات الدبلوماسية السلمية بين الدول تكاد تكون منعدمة .

وكان للدين في تلك الدول المنزلة الأولى ، وعلى ألسن أنبيائها ومصليحيها الدينيين وفي تعاليمهم ظهرت أول دعوات السلام العالمى بغض النظر عن الجنسية والاخاء الانساني بلا تفرقة . ففي مصر نادى الملك اخناتون بآله واحد لا شريك له يدين له المصريون وغير المصريين جميعا ، لاعتباره الجميع أناسا متماثلين واخوانا متساوين ، وان كانت نزعته العالمية هذه قد أغضبت قومه حتى عفوا آثار مذهبه بعد مماته . وفي التوراة ترد فقرات تتحدث عن يوم منشود لا تشهر فيه أمة في وجه أمة سيفيا ، وتغدو مصر و آشور واسرائيل أخوات ثلاثا متحابات وان عجت التوراة في مواطن أخرى بتمجيد اسرائيل والتنبؤ باليوم الذى تدين فيه الأمم لأورشليم وهى صاغرة كما امتلأت ديانا كوفوشسيوس وزرادشت وبوذا بمبادئ الاخاء والسلام والمحبة وان لم يحل ذلك دون اشتعال الحروب بين أتباعهم وأممهم أجيالا .

أما اليونان فكانوا أشد في العصبية القومية ايغالا ، وفي الاستعلاء على الأمم امعانا ، كانوا يعدون غير الاغريق برابرة . ثم كانت كل مدينة اغريقية تستعلى على المدن الأخرى وتطمح كبرها الى اخضاع الأخريات ، وحبذ أرسطو في كتاباته ذلك الشقاق ، ورضى عن الرق الذى كان أساس المجتمع الاغريقى ، ولم يناد بوقف الحروب بل عدها سنة طبيعية ، ومجد الموت في سبيل الوطن ، وكذلك فعل أفلاطون الذى أنشأ فى مدينته الفاضلة طبقة من المقاتلة ، ولم يخطر بباله أن السلم العالمى شئ يمكن توطيده .

وما زالت هذه العصبية المحتدمة والنزعة العسكرية المغرقة حتى دفعنا ببلاد الاغريق الى حرب البلوبونيز المدمرة التى دامت ثلاثين عاما ، خرجت منها البلاد منهوكة القوى ، فوقعت فى يد الاسكندر المقدونى الذى رأى الهلينيين جميعا فى حاجة الى يد حازمة تنشر بينهم النظام والسلام ، بل طمح الى ضم الفرع الآسيوى من الجنس الآرى ، وتوحيد الفرس

والاغريق معا في دولة عالمية تضم ما بينهما وما حوتهما من الشعوب المتمدنية ، فعمل على نشر الثقافة اليونانية ، وانشأ المدن والطرق في أنحاء امبراطوريته ، وشجع التزاوج بين الفرس والاغريق ، واتخذ هو نفسه الملابس الفارسية ، بيد أن دولته ما لبثت أن تفككت بمسوته الباكر ، ولو عاش طويلا لكان لها شأن آخر .

ولم تزل الحروب الطاحنة منذ القدم تزهده الناس في القتال لما تعقب من الوبال ، فتنشط على أثرها الحركات السلمية ، فنشطت هذه الحركات في بلاد اليونان عقب حرب البلوبونيز وغيرها ، وكان أرفع المنادين بالسلم صوتا « زينون » القبرصي المولد معاصر الاسكندر ومؤسس المذهب الرواقي ، وقد انتشر هذا المذهب في روما الناهضة ، واعتنقه بعض أباطرة الدولة الرومانية ، ومنهم مارك أوريل ، فكان لتعاليم الرواقيين السلمية أثر في خطة روما تجاه الأمم الأخرى .

لم ينزع الرومانيون الى انشاء دولة عالمية كالتى نصورها الرواقيون ، بل كانوا يرون الحرب علاقة طبيعية بين الشعوب ، فاذا تم لهم الغلب على أمة ربطوها بروما برابط من السيادة يختلف تواتها من اقليم الى آخر ، ومنحوا أبناءها حقوقا بجانب واجباتهم ، وقد نشرت الدولة الرومانية السلام في ربوعها المترامية أحقابا ، وان لم تكف عن القتال دفاعا عن حدودها وذودا للبرابرة عن أطرافها ، وكثيرا ما أدخلت هؤلاء في نطاقها وكسبتهم الى جانب السلم والمدنية .

بيد أن الحروب الداخلية والثورات وظلم الطبقات لم تمنح من ربوع الدولة ، وكان من جراء هذه المفاسد أن تهيأت الأذهان لقبول الديانة المسيحية التى اقترن ظهورها بقيام الامبراطورية ، واقترن انتشارها باضمحلال الامبراطورية تدريجا . وقد نادى المسيحية بالسلم العالمى والاخاء التام بين الناس بلا فارق والمحبة المساواة ، ثم اقترن انتصارها وصيرورتها الدين الرسمى بانقسام الامبراطورية الى شرقية وغربية ، وباتحاد الديانة والدولة ، فقدت المسيحية كثيرا من نقائها الأول ، اذ صارت لها سلطة كسلطة الأباطرة ، وارتدت تضطهد مخالفيها ، وصار أتباعها لا يأنفون من امتشاق الحسام من أجل الدولة ، ومن ثم لم توفق الكنيسة الى نشر السلام العالمى الذى كان أول تعاليم السيد المسيح .

وبسقوط الدولة الرومانية الغربية فى أيدي البرابرة الشماليين ، بدأت العصور الوسطى ، وعاشت فكرة الدولة الرومانية فى غرب أوربا

بعد سقوط روما ، وظلت الأذهان متشبثة بفكرة الدولة العالمية ، وأدى ذلك أولا الى ارتفاع كنيسة روما الى مقام عال وظهور البابوية ، ثم أدى ثانيا الى احياء الدولة العالمية على صورة جديدة هي الدولة الرومانية المقدسة التي كانت حاضرتها في فرنسا تارة ثم في ألمانيا ثم في النمسا ، ولكن لا البابوية ولا الدولة الرومانية المقدسة تمكنت من نشر السلام والاخاء ، بل ظلت أوروبا طوال العصور الوسطى تعج عجيجا بالحروب بين الأشراف والأمراء والملوك ، بل احتدم الصراع بين البابوية والامبراطورية نفسيهما .

وفي الوقت نفسه استقلت الدولة الرومانية الشرقية في عاصمتها القسطنطينية استقلالا سياسيا ودينيا ، وسادت بين أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية طوال العصور الوسطى قطيعة سحيقة ألهمته ، وظهر الاسلام في تلك العصور واقتنص العرب أملاك الامبراطورية الشرقية في آسيا وأفريقيا ، لأن الاسلام على دعوته الى السلام والتآخي كان يحض على الجهاد في سبيله ونشر دعوته ، وساد العداء طوال العصور الوسطى بين هذه القوى الثلاث المتميزة كل منها بديانته : أوروبا الغربية التابعة للكنيسة الرومانية ، وأوروبا الشرقية التي تدين لكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية والشرق الأدنى الذي يسوده الاسلام ، وتجلى ذلك العداء في أجلى صورته في الحروب الصليبية التي ختمت تلك العصور .

كان الدين متحدا والدولة في العصور الوسطى : فالخليفة في بلاد المسلمين يتقلد السلطتين الدينية والزمنية ، والبابا في أوروبا الغربية ينتحل لنفسه سلطة فوق سلطة الأباطرة والملوك ، وكذلك الشأن في الدولة البيزنطية ، وكان أتباع كل دين أو مذهب يكفرون الآخرين أو يستحلون قتالهم حتى يدينوا لهم ، فكما كان المسلمون يجاهدون في سبيل دينهم بقتال الروم غربا والترك والصفد شرقا ، كان أتباع البابوية ملوكا وأشرافا يخدمونها بقتال العرب أو الساسانيين كما يسمونهم ، أو محاربة برايرة السلاف الوثنيين .

الدين والدعوة للسلام

لم يكن الناس في العصور الوسطى يرون في الدين داعية سلام كما هو في حقيقته ، وجل ما يظهرون به تمسكهم بأهداف الدين مقاتلة غير معتنقيه . وفي نفس الوقت كانت ربوع كل دولة من تلك الدول الثلاث

نجيش بالانشقاقات الدينية والحروب الأهلية ، فكان الأمراء الاقطاعيون في فرنسا وانجلترا وألمانيا وغيرها لا ينقطعون عن التفاني ، ولا يكادون يصيخون الى دعوات البابا ، وكانت الدولة الإسلامية نهب المنافسات بين العلويين والأمويين والعباسيين ، ونهب المذاهب المشتجرة والفتن المستعمرة كفتن الزنج والقرامطة ، وجملة القول أن الدين الذي انما غايته الأولى نشر السلام ، كان من أكبر دواعي الشحنة والخصام .

بلغ الصراع الديني غايته كما تقدم القول في الحروب الصليبية ، وبعدها تغيرت رقعة العالم المتمدنين ونالته ، فتلاشى العنصر العربي نهائيا من عالم الحكم والسياسة ، وتلاشت الدولة الرومانية الشرقية ، ورث الترك ملك الاثنيين ، وافاقت أوروبا الغربية من دياجير العصور الوسطى ومن عمايات التعصب الديني ، فنشطت الآداب والعلوم وقام الإصلاح الديني وهجرت الفكرة الصليبية ، وتقلص سلطان البابا وتوطدت الملكيات في فرنسا وأسبانيا وانجلترا وغيرها . وبالجملة كان عصر النهضة العظيمة ، وعندها نظر الناس الى مسألة السلام نظرة جديدة .

شعر الأوروبيون الغربيون بما بينهم من صلات وثيقة في الجنس والدين والفكر والعلم والأدب ؛ فهم جميعا وارثو حضارة الاغريق والرومان ، وهم جميعا مسيحيون ، والحركات العلمية والأدبية والفنية التي كانت تنتشر في أمة كانت سرعان ما تعم سواها ، كالطرازين القوطي والرومانتيكي في عالم العمارة مثلا ، واللغة اللاتينية كانت لغة عالمية بينها . فرأى المفكرون منهم وجوب توثيق الصلات بين أمم غرب أوروبا جميعا حتى يسود بينها السلام ، وتنتفي الحروب التي كانت مستعرة . تمزق أنحائها وتعرقل مساعيها في سبيل التقدم .

وأشهر من طرخوا هذا الموضوع في أعجاز العصور الوسطى ومستهل النهضة ثلاثة : أحدهم أديب عظيم هو « دانتى » الايطالي ، والآخر سياسي هو الفرنسي « بيير دوبوا » مشير فيليب الجميل ، والثالث مصلح ديني انجليزى هو « ويكليف » ، وكان هؤلاء وغيرهم يحسون أن عهد الدولة العالمية ممثلة في البابوية أو الدولة الرومانية المقدسة قد غير ، وأن بين الشعوب من الفوارق في الشخصيات ما تستحيل معه الدولة العالمية الموحدة السلطة والقوانين ، فدعوا الى اتحاد الدول والامارات في اتحاد عام مع احتفاظ كل منها باستقلالها ، ونادوا بمنع الحرب الا في النهاية القصوى .

بيد أن أولئك المفكرين حتى حين معالجتهم هذه الغاية الانسانية العليسا ، لم يكونوا يستطيعون التخلص من عصبيتهم الدينية ونعرتهم القومية ، فدانتى ودوبوا فى المشروع الذى رسمه كل منهما للاتحاد الأوروبى المنشود قصرا الأمر على مسيحى غرب أوربا ، أما الترك فى شرقها وغيرهم من الأمم غير المسيحية فكان حلالا بل واجبا قتالها ، ومن جهة أخرى يجعل دانتى للايطاليين فى اتحاد الدولى المكانة العليا ، ويجعل عاصمته روما المدينة الخالدة ، على حين يجعل دوبوا النفوذ الأكبر فى اتحادهم للفرنسيين ، لأنهم فى نظره أصلح الشعوب للحكم لانقيادهم لداعى العقل ، وتنكبهم سبل الشهوات والعواطف الجامحة ، وكذلك فعلى « توماس مور » الانجليزى من رجال النهضة فى يوتوبيا ، فبينما يسخر من مطامع ملوك فرنسا فى ايطاليا ، يبيح لابناء جزيرته الخيالية التى ليست الا صورة لانجلترا استعمار بقاع أمريكا واخضاع أهلها .

وانما امتاز بالتسامح وسعة الفكر من رجال النهضة كبيرهم ارزمنس الهولندى ، فانه وان دعا الى اتحاد مسيحى ، حمل على الحرب حملة شعواء ، ولم يستبح مقاتلة الترك الا دفاعا فى النهاية القصوى بعد أن تفشل كل المساعي السلمية ، فاذا وقعت الحرب لزم تجنب سفك الدماء ما أمكن ، ومن أقواله فى هذا الصدد : « اذا كان غرضنا الحقيقى أن نوسع أطراف دولتنا ، وكانت ثروة تركيا هى مطعمنا ، فلم نكسو جشعنا الدنىء باسم المسيح ؟ » وهو يرى أن الحرب لاثمر خيرا لأحد ، وأن التحكيم بين كل متنازعين واجب ، والوصول الى حل مرض ممكن لتوافر الرجال ذوى الحكمة والكفاءة ، والمجالس والبرلمانات ذوات المقدرة والنفع ، ويقول ان الحرب ليست جميلة الا فى عين من لم يرها .

مشروع سولى للسلام

ظلت الفروق الدينية سببا للجفوة لا بين مسيحى أوربا وبين الترك والشرقيين عامة فقط ، بل بين الأوربيين أنفسهم وبين أبناء الوطن الواحد حتى بعد عهد النهضة ، فقد أدى الاصلاح الدينى الى حروب أهلية ودولية عنيفة فى ألمانيا وفرنسا وغيرهما ، ولم تخمد نار الحروب الأهلية الدينية فى فرنسا الا على يد هنرى الرابع فى أواخر القرن السادس عشر ، وقد اتعظ وزيره العظيم « سولى » بما شاهد من آثار الحروب فى فرنسا والخارج ، فاتجه ذهنه الى توطيد السلم بنشر العدل والمساواة والتسامح بين شعوب أوربا ، فوضع لذلك « مشروعه العظيم » .

يرى سولي أن تتحد دول أوروبا في جماعة تفضى المنازعات وتحفظ السلام ، ويرى أن تكون الدول متناسبة القوة ليتوسط بينها التوازن ، وهو لذلك يقترح على هنري أن يساعد الامارات العديدة الخاضعة لآل هابسبرج على التحرر الذي تطمح اليه ، لينقص سلطان الامبراطور الهسائيل الذي يسيطر على أكثر بقاع أوروبا ، ولكنه يشترط على ملك فرنسا ألا يحتفظ لنفسه بشبر من الأرض التي يحررها ، ويقترح عليه أن يعطى المثل للأمم الأخرى فيعلن أن ليس لفرنسا مطامع في الخارج ، وأنه مستعد لقبول التحكيم في كل مطالبه ومشاكله الدولية ، وهو يحذر ملوك فرنسا عامة من الاندفاع الى الحروب ، لأن فرنسا لم تكسب من الحروب الخارجية والأهلية فيما مضى نفعا ، ولن تكسب من ورائها في المستقبل الا عدااء الأمم وضغينتها في الخارج ، وارهاق الأهليين بالضرائب في الداخل .

وبينما سولي يبذل الجهد في اقناع الملك بمشروعه العظيم لسلام أوروبا الغربية الدائم ، اغتيل الملك وقبر المشروع ، واندلعت نيران الحرب في أوروبا وأشدّها هولاء حرب الثلاثين سنة في ألمانيا ، واندفع ملوك فرنسا من بعد ولا سيما لويس الرابع عشر الى الحروب التي كسبت فرنسا من ورائها عدااء الأمم وفداحة الضرائب ، وانما خلف سولي على تعهد فكرة السلام الدولي مفكر هولندي عظيم هو « جروتياس » مؤسس القانون الدولي الذي قام بسفارات كثيرة في فرنسا وانجلترا ، وهالته فظائع حرب الثلاثين ودفعته الى الكتابة في العلاقات الدولية قال : « لقد لاحظت في سائر بقاع المسيحية اباحية يخجل منها المتوحشون ، اذ يستل الناس السلاح لأتفه الأعذار ، وحالما تعلن الحرب لا ترعى حرمة لقانون الهى أو بشرى ، ولا يكون هناك الا غضب أعمى جائح ، كالما قد أطلقت أيدي الجميع في ارتكاب كل أنواع الجريمة » ويرى جروتياس انه كما أن استتباب القوانين في دولة من الدول لا يكون حتى ينظر الناس الى أبعد من مصالحهم الشخصية ، فكذلك الحال في العلاقات بين الدول ، ويقترح عقد مؤتمرات دولية من حين الى آخر لحسم النزاع .

كتب جروتياس مؤلفاته في أوائل القرن السابع عشر والحرب الثلاثينية في عنفوانها ، وفي أواخر ذلك القرن ، وقد انتهت تلك الحروب بصلح وستفاليا الدولي وتأهب لويس الرابع عشر لحروبه الطويلة ، تناول موضوع السلام الدولي الكاتب السياسى الانجليزى « ويليام بن » الذى أسس مقاطعة بنسلفانيا بأمريكا وعرفت باسمه ومارس فيها مبادئه السلمية ، وقد اقترح في كتاباته انشاء مجمع أو برلمان أو اتحاد بين الدول يقوم بالحكم في منازعاتها ، ويكون ذا سلطة تمكنه من تنفيذ قراراته .

روسو واتحاد الدول الأوروبية

وفي القرن الثامن عشر كان أكبر المنادين بالسلام العالمي « روسو » الذي كان مربيًا عظيمًا يرى أن الغرض من التربية أعداد الفرد للعيش في المجتمع ، ويرى ذلك الأعداد أول واجبات الدولة ، كان روسو وطنيًا يمجّد الوطن ، ولكنه يطمح إلى ما وراء ذلك ، يطمح إلى الدولة العالمية التي تنفي الحروب وتبسط السلام ، لأن خروج الأفراد من الحال الطبيعية إلى تأسيس المجتمعات هو تطور نهايته المنطقية تأسيس المجتمع العالمي ، والوقوف عند مرحلة الدولة شر من الحال الطبيعية الأولى ، لأن اجتماعنا في الدولة بعدد محدود من البشر يجعلنا أعداء لسائر البشر ، ولأن التطاحن بين الدول أشدّ هولاً من الفوضى بين الأفراد .

لذلك كان روسو ينادي بإنشاء اتحاد للدول الأوروبية أشدّ توثقاً من التحالف وأقلّ توثقاً من الاتحاد الفيدرالي ، وكان يرى أن اتحادات كثيرة قد نجحت في أوروبا كالاتحاد الألماني والاتحاد الهولندي والاتحاد السويسري ، بل كان يرى الأمم الأوروبية جميعاً مجتمعاً متحداً من شتى وجوه فكرية لموقعها الجغرافي المتقارب ، وماضيها المشترك ، وتوشج علاقاتها التجارية ، وتعاون أدبائها وعلمائها وفنانيها في ترقية الثقافة والمعرفة الإنسانية . فكان مما يؤسّس له أن تظل تلك الأمم الشقيقة في تفان مستمر لجشع ملوكها الذين لا يربحون مع ذلك شيئاً لأن الحرب لا تفيد أحداً .

ظهر معظم دعاة السلام في أوروبا من أواخر العصور الوسطى إلى النهضة إلى القرن الثامن عشر في فرنسا وهولندا وإنجلترا ، لأنها كانت أسبق من غيرها إلى التوحد السياسي والرفاهية المادية . فكان في فرنسا دوبوا وسولي وروسو وغيرهم ، وظهر في هولندا أرزمس كبير النهضة ، وجروتياس مؤسس القانون الدولي ، وإبراهام ويكفورت أول مؤلف في الدبلوماسية ، وفي إنجلترا نادى ويكليف ووليام بن وبيرك بالسلام ، أما إسبانيا فإن قتالها ضد المسلمين أحقاباً وامتداد سلطانها في الأمريكتين في مستهل النهضة ، وامتداد ملكها في أوروبا تحت ملوك الهابسبرج ، كل ذلك بث الروح الحربية في أبنائها وجعلها تتوجس من كل حركة سلمية قد تؤدي إلى انتقاص أملاكها كما كان يرمى مشروع سولي العظيم . وأما إيطاليا فكانت متطاحنة منشقة نهب الغارات الأجنبية ، فظهر فيها ميكافيلي داعية حرب لا سلام ، مجد الحرب وعدّها أكبر وسائل الأمير ،

وأعطاه من الوسائل ما هو أشد هولا ، كل ذلك لشدة شعور ميكيا فيلي
بحاجة إيطاليا الى أمير قادر ينهضها ويوحدها بأي ثمن .

وكذلك كانت ألمانيا منشقة على نفسها متفككة تطحنها الحروب
الدينية ومنازعات الأمراء ، فظلت في مؤخرة الأمم الى القرن الثامن عشر ،
وحتى مصلحتها الديني الكبير لوثر وافق على الحروب وعدّها وسائل طبيعية
لمقاب الظالمين والمخطئين ، وكذلك كانت روسيا لتعرضها لغارات البرابرة
الآسيويين متأخرة حتى كان أكثر المفكرين السياسيين ينفونها من حظيرة
المجتمع الأوربي الذي يشيدونه في مشروعاتهم السلمية .

دعاة السلم في العصور الأخيرة

فلما كان القرن الثامن عشر ، ضمت ألمانيا صوتها الى أصوات دعاة
السلم ، ونادى به من فلاسفتها « كانت » ، ومن أدبائها « جوته » ، وكان
« كانت » يرى أن نفس الرغبة في منع الفوضى التي دفعت الأفراد الى تكوين
الدولة ، ستدفع الدول الى تكوين مجتمع دولي ، وأن شرور الحرب هي
التي ستعلم الناس بالتجارب المرة ما كانوا جديرين أن يعرفوه بغير ثمر .
فادح ، وكان لا ينادى بالمجتمع العالمي والسلم فرارا من أهوال الحرب
فحسب ، ولكن لعلمه بأن ملكات الانسان العالية لن تزدهر حتى يتوطد
السلم ، وأما جوته فقد عرف بحبه للأمم جميعا وهيامه بالآداب الشرقية
ومحبته للفرنسيين حتى ابان الصراع بينهم وبين بلاده حتى اتهم بنقص
عاطفة الوطنية .

وفي القرن التاسع عشر بعد حروب نابليون أصبحت دعوة السلام
عامة ، وسمع فيها صوت روسيا من جانب ، وأمريكا من جانب آخر ،
فكان تولستوى من أكبر مبشرى السلم ، بل من جانب روسيا جاء أول
مشروع رسمي للسلم يعده ملك كبير ، فقد كانت مشاريع السلم الى
ذلك الجهد أحلاما في رؤوس الكتاب وبعض السواس ، والملوك لا يصغون
الى شيء من ذلك ولا يتبعون الا داعي الجشع ، وان كان الكثير منهم قد
ندم بعد فوات الوقت على تهوره في الحروب ، منهم لويس الرابع عشر
الذي أوصى ولي عهده باجتناّب الحروب ، وبمثل ذلك أوصى نابليون ابنه
فيما كتب في منفاه ، وقد وصف فردريك الأكبر بلاده بعهد حرب
تسع السنوات وصفا مؤسسا .

كان قيصر روسيا أول ملك دعا الدول الى الاتحاد لنشر السلام،
 وفض المنازعات ، وسمى مشروعه بالحلف المقدس ، ولم ينجح تمام النجاح
 لعدم تهيؤ سياسة الدول الأخرى للفكرة . وفى خلال القرن التاسع عشر
 عقدت مؤتمرات دولية كثيرة ساعدت على حل مشاكل كثيرة وان لم تقطع
 دابر الحروب ، وعقدت مؤتمرات أخرى لتقنين التسليح ، وأنشئت محكمة
 لاهائ الدولية ، وما زال سياسة الولايات المتحدة من القرن الماضى الى
 الحاضر يفودون خطى الدول الأوروبية الى السلام والتعاون ، ويضربون لها
 فى ذلك المثل بعقد المؤتمرات وإبرام المواثيق ، وبنزعهم التخصيمات على
 طول الحدود بينهم وبين كندا ، وبفضل ساستها أنشئت جمعية الأمم
 الحالية على ما بها من مواطن الضعف ، وقد صار حلم الأوروبيين اليوم أن
 يفوزوا عما قريب بولايات أوروبية متحدة ، كالولايات الأمريكية المتحدة .

المثل الأعلى للدولة الحديثة

بدهى أن الدولة إنما وجدت لتوفير السعادة للفرد ، إذ
مال الإنسان بطبعه الى التعاون مع بنى جنسه لتحقيق
مطالبه ودفع الغوائل عن نفسه ، وخير الدول هي تلك
التي تحقق للفرد ذلك الغرض ، وفي المقال التالي يعرض
الكاتب شروط الدولة الصالحة ويبسط جوهر الديمقراطية
الحديثة .

قاسى الانسان بلاء كثيرا فى العصور الماضية من جراء نقص النظم
السياسية التي اختارها لنفسه أو التي قادته اليها المصادفات والظروف
الجغرافية ، وما اختلط بها من جهل الحاكمين والمحكومين ومن طمع أرباب
السلطة وجشع الأقوياء . فشهدت العصور السالفة ملكيات مستبدة
قامت لتوفير سعادة الأفراد فارتدت حربا على الأفراد ، وشهدت طبقات
استأثرت بالسلطة والثروة دون غيرها وأذاقتها النكال ، وشهدت ألوانا
تقشعر لها الأبدان من اهراق الدماء واهدار الحقوق ومصادرة الحريات
، وخنق الأفكار واضطهاد الآراء والعقائد .

فى أرض يونان

عرف اليونان نظم المدن الحكومية المستقلة بعضها عن بعض .
وكانت الديمقراطية تسود فى كثير منها ، ولكنها كانت ديمقراطية يداخلها
فساد كثير ويصحبها الرق وتشتعل فى ظلها الحروب بين هاتيك المدن
المتنافسة ، حتى جاء نظام الملكية المستبدة على يد الاسكندر المقدونى يقضى
على تلك الفوضى المختلطة وينشر النظام . ولكن نظام الملكية المطلقة فى
بلاد الاغريق وغيرها من بلاد الشرق والغرب قد عرف له مثالبه ، عرف

بالتجربة أن السلطة المطلقة التي لا يؤاخذها مؤاخذ سرعان ما تعتقد في أحكامها العصمة والتنزه عن الخطأ ، وسرعان ما تعد بقاء الأمر في يدها ضروريا لسلامة الدولة ، وترى مصالحها فوق مصالح المحكومين ، ويدب الترف والفساد في قصورها ، وتندفع تدريجيا الى توسيع نفوذها ومصادرة كل حرية للرأى واخماد كل نقد أو اعتراض .

وعرف اليونان في بعض أطوار تاريخهم وعرف الرومان وغيرهم نظام الأرستقراطية حيث تنفرد طبقة دون طبقة بالثروة والعلم والسلطة . وذلك نظام له مميزات ولكن مثالبه كثيرة والفساد سريع اليه ، اذ يندفع أبناء تلك الطبقة الممتازة مثل اندفاع الملكية المطلقة الى الاستبداد بعامة الشعب وتقديم مصالحهم على غيرها وتوسيع مدى امتيازهم وتحكمهم يوما بعد يوم . ويكون امتيازهم بامتلاك الثروة مساعدا لهم على استرقاق من لا يملكونها . ثم عرف الرومان نظام الامبراطورية المترامية الأطراف فلم يكن تاريخها الا صراعا مؤلما مستمرا للاحتفاظ بكيانها دون عاديات الفناء التي تتعاورها من الداخل والخارج ، ناسية في أثناء ذلك كل النسيان الغرض الأول لقيام الدول ، وهو سعادة الفرد .

وفي ظل هاتيك النظم جميعا قاست المجتمعات صنوفا من المساوى والبلايا من تحكم القوى في الضعيف والغنى في الفقير والسيد في العبد ، ومن سطوة الدولة على آراء الناس ومعتقداتهم ولا سيما الدينى منها . وأروع أمثلة ذلك اضطهاد أباطرة الرومان للمسيحيين في أول انتشار تلك الديانة ، ثم اضطهاد أخلافهم للوثنيين بعد ذلك حتى هاجر من هاجر من علماء الوثنية الى فارس وغيرها من بلاد المشرق ، ثم الحروب الدينية الأهلية التي استعرت في فرنسا واسبانيا وألمانيا على عهد النهضة الحديثة .

دروس وعبر للانسان الحديث

ما زالت تلك الدروس الغالية الثمن تعظ الانسان حتى انتهى الى النظام الحديث للدولة الذى يمتاز على سالف الأنظمة بما استفاده الانسان من تلك التجارب . وما زالت مع ذلك تخالطه نقائص وعيوب هي من أثر الماضى وتراثه الوخيم ، لم يتلقن الانسان بعد دروسها ولم يع موعظها ، ولم يبلغ تملله من مغباتها حد الثورة عليها والاقلاع عن عقائده

وتقاليد الخاطئة التي تفرض عليه تلك النظم فرضا ، ولم يتنبه الا خيرة المفكرين والباحثين فى السياسة الى تلك المشالب ، فهم ينادون باصلاحها فتلقى دعوتهم من الاعراض أو الاستنكار ما تقابل به كل دعوة جديدة ، والزمن كفيل بتحقيق كل الدعوات واطراد ذلك الرقى .

عرف الانسان حديثنا أن خير الدول تلك التي تقوم على أساس من وحدة جغرافية تصحبها وحدات فى القومية والشعور والمصالح ، ويتولى الحكم فيها لا فرد مستبد ولا طبقة ممتازة بل الشعب بأكمله ، ويتساوى الناس فيها أمام القانون فى حقوقهم وواجباتهم ، وتسود فيها الحركة يشتمل ضروبها - من حرية الفكر والاجتماع والمهنة والمساكن والحرية الشخصية وحرية العقيدة الدينية والسياسية - وتتقيد فيها الحكومة بشتمل القيود التي تكف غائلتها عن حقوق الأفراد وتصرف وجهتها دائما الى استصلاح أحوالهم . وبالجمل غدا الناس اليوم أشد شعورا بالفرض من الدولة وأشد مطالبة للدولة القائمة بتحقيق الغرض من قيامها وأسرع الى مؤاخذتها وردها ان حادت عن أداء مهمتها . ولم يعد الحكم حقا مكتسبا ولا موروثا لفرد أو فئة كما كان فى سالف الدهر .

غدا الشعب فى العصور الحديثة لا يؤله حاكميه كما فعل القدماء ، ولا ينصاع فى صمت لما يأمر به ، ولا يرى السلطة حقا لفريق منه دون فريق . انما صارت الحكومة لدى الشعوب الراقية هيئة من الهيئات العامة الكثيرة التي تقوم على التعاون وترمى الى مصلحة المجموع كالشركات والجمعيات الاقتصادية والصناعية وغيرها ، يراقب الشعب أعمالها ويشترك فيها وينقدها ويقومها ويحدد سلطتها ما استطاع ، لا يسمح لها بالتدخل فى شؤونه الا فى الضرورة القصوى .

فالدولة وسيلة لا غاية فى نفسها ، وسيلة لتحقيق السعادة للفرد وتهيئة التعاون بين الأفراد . وسعادة الفرد فى تمتعه بكل حرياته التي تهبه اياها الطبيعة وحقوقه التي تولد معه . ولكن اجتماعه بغيره وتعاونه معه يدعو الى تنظيم علاقاته بالآخرين حتى لا تصطدم حريات فرد بحريات غيره ، ولا تطغى حقوق هذا على حقوق ذاك . وهذا التنظيم يستدعى حدا من حريات الفرد وحقوقه ، ويستدعى تحميله بعض الواجبات فى نظير ما يتمتع به فى المجتمع من مزايا . وواجب الدولة تنظيم هذه العلاقات وتنسيق هذه الحقوق والواجبات دون أن تحد من الحريات حدا لا توجبها الضرورة القصوى ودون أن يستفيد القائمون بالحكم فائدة خاصة .

شروط الدولة الصالحة

فاول شروط الدولة الصالحة أن تدع للأفراد أوفر قسط ممكن من الحرية ، لأن الانسان بطبعه يعشق الحرية ، ولأن الحرية لازمة لنشاطه الفكرى ونجاحه المادى . ثم ان حرية الفكر والاجتماع لازمة لاطراد رقى المجتمع وتوثق العلاقة بين الشعب والحكومة وتوفر الحكومة على أداء واجبها نحو الشعب ، لأن الحكومة التى تريد مخلصه خدمة مصالح الشعب وتحقيق رغباته لابد لها أن تعرف ما تلك المصالح والرغبات . ولا سبيل الى معرفتها الا بالأصغاء الى صوت الشعب ممثلا فى كلامه وخطابته وكتبه وصحافته واجتماعاته . ويمكن تقدير مدى اخلاص الحكومة فى خدمة شعبها بمقدار الحرية التى تتركها له فى نقدها . ولن تقيده حرية الفكر فى دولة الا أن تكون هناك مساوىء يراد حمايتها ، وامتيازات جائرة يخشى عليها صوت العدل .

ولن تتوطد الحرية فى دولة حتى تتوطد معها المساواة : لأنه اذا كانت هناك طبقة ممتازة على غيرها بامتلاك الثروة والحق فى الحكم فانها ستتوفر على مصالحها الخاصة ونعمل جهدها لغبن الطبقة المحرومة ، ومن ثم تجب المساواة بين جميع الطبقات والأفراد فى حق الملكية والعمل والاشتراك فى الحكم . والمساواة السياسية والاقتصادية والاجتماعية تسير عادة جنباً الى جنب ، فان الطبقة الفقيرة المعذمة لن يقام لرأيها وزن فى الحكم ، كما أن الطبقة المزوية عن الاشتراك فى التشريع والتنفيذ ستهمل مصالحها الاقتصادية والاجتماعية عند وضع القوانين وتنفيذها .

ان المساواة بين الناس فى الحقوق أمر بدهى تقضى به طبيعة الأشياء ، اذ كان الناس جميعاً منذ يولدون متشابهين طباعاً وغرائز ورغبة فى التمتع بالحياة . فواجب أن تمنح لهم جميعاً الفرص اللازمة لذلك التمتع كل قدر استطاعته على ألا يجور على غيره . على أنهم مختلفون ذكاء واقتداراً . وهذا الاختلاف الطبيعى وحده هو الذى يجب أن يعين الفرق بينهم لا القوانين التعسفية التى تضعها الدولة تحابى بها طبقة أو طائفة أو عنصراً أو جنساً أو اتباع مذهب خاص . وقد كان عدم المساواة فى شتى عصور التاريخ من أكبر أسباب الثورات .

فاذا تحققت هذه المساواة بين الأفراد فى الحقوق السياسية والاجتماعية كانت الديمقراطية . فالديمقراطية قرينة الحرية والمساواة ، وكلها من ميزات الدولة الحديثة ومن شروط تأدية الدولة الغرض الذى

قامت من أجله منذ أقدم العصور وهو اسعاد الفرد . والحكم الديمقراطي هو الحكم الطبيعي الذي أفسدته على الانسان شتى العوامل التاريخية في قديم العصور ، حتى هدته اليه تجارب القرون ودروس الماضي – أى بعد أن بلا ما بلا من تحكم الفرد وتعسف الطبقات .

تعريف الديمقراطية

الديمقراطية هي أن يشترك الشعب كله فى تدبير شؤونه . وبهذا وحده يضمن أن تدار تلك الشؤون على ما يريد . وهذا يتأتى فى العصور الجديشة بوسائل تزداد توطدا : منها أن للشعب كله الحق فى انتخاب حاكميه واعادة انتخابهم فى فترات متقاربة حتى لا تطغيهم السلطة ولا تأخذهم العزة ولا يعودوا فى نظر أنفسهم غاية فى أنفسهم ولا يبعد بهم غرور السلطة عن مشاعر المحكومين ورغباتهم ، ومن تلك الوسائل ابداء الآراء فى المجتمعات وعلى صفحات الكتب والصحف . ومنها اللامركزية فى الحكومة – وهى سنة تزداد توطدا فى الأمم الراقية .

فانه لما كان الغرض من الحكومة تدبير شؤن الافراد ، وكان الافراد فى جهة من جهات الدولة أدرى الناس بشؤونهم ورغباتهم ، كان بدهيا أن يترك لهم تدبير كل ما يخصهم ولا يتعداهم الى غيرهم ، فان قيامهم هم بأنفسهم بذلك ضمان لتحقيق رغباتهم على الوجه الأكمل ، ومشاركتهم فى وضع النظم والقوانين يجعلهم أحرص على تنفيذها واطاعتها ، واضطلاعهم بأعباء الحكم يكسبهم خبرة سياسية تجعل منهم مواطنين صالحين . والقوانين المفروضة من سلطة مركزية بعيدة هيات أن تتوخى من حاجات الاقليم ما تتوخى القوانين المحلية ، ومهما قصد منها النفع فان القوانين التى يضعها أبناء المقاطعة بأنفسهم أنفع .

ومبدأ اللامركزية هذا لا يتبع فى الدول الراقية فى شأن المقاطعات المختلفة فحسب بل فى شأن الهيئات والفئات المختلفة أيضا ، كالمؤسسات الدينية والعلمية والنقابات الصناعية والتجارية واتحادات أرباب المهن المختلفة . كل هذه تترك لها الحكومة استقلالاً داخلياً كبيراً ، تنظم شؤونها وتتحرى مصالح أفرادها ، ولا تتدخل الحكومة الا بقدر ما يلزم لرعاية المصلحة العامة ، ولا تحتفظ الحكومة المركزية بعد هذا الاستقلال الكبير الذى تحظى به الحكومات المحلية والهيئات الا بالعام من السلطات والتشريعات التى تمس البلاد بأجمعها .

والدولة الحديثة على هذا النحو تجمع بين محاسن النظام الملكي الذي عرف في الشرق القديم حيث تتجمع السلطة في يد مركزية تنشر النظام والوحدة ، وبين نظام المدن الحكومية الاغريقية حيث ينظر أبناء المدينة او الاقليم في شئونهم بأنفسهم . تجمع الدولة الحديثة القائمة من جهة على اساس القومية ، ومن جهة على اساس اللامركزية الحكومية ، بين محاسن دينك النظامين وتتجنب مساوئهما .

الشعب في الدولة الحديثة

والشعب في الدولة الحديثة رغم مشاركته الى ذلك المدى البعيد في ادارة الحكومة لا يمنحها ثقته المطلقة ولا يستنيم الى ترك حرياته في يدها ، انما يقيم عليها الارصاد والعيون ، ويحف سلطتها بشتى القيود . ومن وسائله في ذلك الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ، فقد أثبتت تجارب الماضي أن الحكومة التنفيذية لا تحسن القيام على التشريع ولم تتناول وضع القوانين وتطبيقها يوما الا نتجت عن ذلك مساويء ومضى موظفوها في سهل التعسف والتخيف للشعب والتزبد من السلطة . ثم من وسائل الحد من سلطة الحكومة فصل القضاء عنها وضمان استقلاله . والقضاء في الأمم السكسونية مفزع الشعب من الهيئة التنفيذية ، ان بغت على حقوقه كانت الهيئة القضائية حكما بينهما .

فالمثل الأعلى للدولة الحديثة هو أن يتولى الشعب نفسه حكم نفسه بمشاركته في الحكومة الى أقصى مدى ممكن ، وبرقائبه عليها ، وتبام حريته في انتقادها ، وبتعاونه واياها على اصلاح المساويء واستنباط خير أساليب الحكم والاجتماع . والدولة التي هذه حالها لابد أن تكون ديمقراطية تسود فيها الحرية والمساواة وتنعدم فيها الفوارق في الامتيازات والحقوق . وآية الدول المتقدمة التي اقتربت كثيرا من ذلك المثل الأعلى تصاغر تلك الفروق بين الأفراد والطبقات ، على حين تبدو تلك الفروق بين علية القوم وسفلتهم ضخمة هائلة في الدول التي ما تزال أقرب الى طراز العصور القديمة منها الى المثل الأعلى الحديث .

العلم دعامة الحرية

وليشترك الشعب في حكم نفسه على هذا النحو لابد من شرط أساسي هو حسن تعليمه . فالجاهل لا يقدر قيمة الحرية ان أعطيت له ، ولا يعرف كيف يجاهد من أجلها ان هو سلبها ، ومهما كانت حرياته وحقوقه

السياسية فانه ما بقى على جهله سيفقدوها شيئا فشيئا حتى يرتد عبدا لمن هم أعلم منه واقدر . ومن ثم كان نشر التعليم من أول واجبات الدولة الحديثة ، وكان التعليم الإلزامي من خصائص هذه الدولة . ولا ريب في أن إلزام الفرد بالتعلم حد من حريته يُضاف الى الحدود الأخرى ، ولكنه حد له ما يبرره .

ولكى يثمر التعليم ويؤدي الى اخراج مواطنين صالحين يجب أن تكون حرية الفكر والتسامح لا ضيق الذهن والتعصب رائد القائمين به . يجب ألا يثبت في ذهن الناشئ أن أمته خير الأمم ، وأن تاريخها لا يحتوى إلا على مفاخر ، وانها لم تخطئ يوما ، وان أنظمتها كاملة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فان أمثال هذه التعاليم تخرج ذهننا مغلقا لا يطمح الى اصلاح ولا يوافق على تغيير .

ان التسامح قرين الحرية ، واتساع الذهن شرط أساسى للترقى . فالمرء لن يستحق الحرية ولن يعرف قيمتها حتى يسمح لغيره بها . ولن يتلافى عيوبه وأخطائه حتى يدركها ويعترف بها . ومن ثم وجب أن ينشأ الناشئ على سعة الذهن والتسامح . وكلما توطدت الحرية واتسع نطاق التعليم في الدولة بطل الحجر على حرية الفكر والثورة على آثار بعض الكتاب أو الشعراء أو المصورين أو العلماء بحجة منافاة آثارهم للتقاليد أو الديانات . ولم يعد الشعب يفرق من كل ما يخالف عقائده ، أو يندفع الى محاربة من يخالفها ، بل يتقبل جديد الأفكار بصدر رحب ، فان كانت حقا قبلها واستفاد منها ، أو باطلا أعرض عنها في غير جلبة ، فقد أثبتت تجارب الماضي أن ما يعد اليوم هرطقة أو اباحة يصبح في الغد أحيانا عقيدة راسخة أو حقيقة عادية .

وليس ما يتعلمه الفرد في صغره هو كل ما يوجه فكره في مستقبل حياته ، بل قد جدت في الدولة الحديثة عوامل شديدة الأثر ، منها الصحافة ، ومنها الراديو . هذان يوجهان الرأي العام بما ينشران من الحقائق التي يميلها الاخلاص أو الأكاذيب التي توحى بها الدعاية . وكلما تنورت حكومة دولة وانتشرت الحرية في الشعب وتشرب الديمقراطية الصحيحة تغلبت الحقائق على الأباطيل في تكوين الرأي العام فيه . وكل جهد في حسن توجيه الرأي العام وتغذيته بالحقائق وتحذيره من الأباطيل جهد غير ضائع ، لأن الرأي العام كما يتضح مما تقدم هو الذى يحكم في الدولة الحديثة ، وأيما كانت النظم السائدة في دولة فان الرأي العام مرجع الحكم فيها . ولن تدوم الحرية والمساواة والديمقراطية في

الدولة الا اذا واصل الرأى العام سهره عليها وأبدى استعدادده للدفاع عنها .

هذه الدولة المثالية - التى تقرب منها الدول الحديثة وتبعد كل على حسب حظها من الرقى السياسى والاجتماعى - التى تسود فيها الحرية والديمقراطية والمساواة ، ويقوم فيها الشعب على شئون نفسه ، وتعمرها حرية الفكر والتسامح . . هذه الدولة خطوة أكيدة شعر أهلها أو لم يشعروا نحو الدولة العالمية المرجوة . وفى هذه الدولة يثور الرأى العام على الحرب وينفر من فكرة استعباد الشعوب الأخرى ويميل برغبة انسانية أكيدة الى مصافاة تلك الشعوب والتفاهم معها والتعاون وإياها . فكل خطوة تخطوها الدولة نحو الحرية والمساواة والديمقراطية يخطوها العالم نحو الدولة العالمية . وفى تلك الدولة العالمية تحتفظ كل دولة بمشخصاتها الحالية احتفاظ كل مقاطعة فيها بحكومتها اللامركزية . .

الديمقراطية : ضمان الرقى الانسانى

يعتد الينا بهذا المقال المرحوم فخرى أبو السعود قبل وفاته.
بقليل . وهو مقارنة قيمة بين الديمقراطية والديكتاتورية .

لم يظهر الحكم الديمقراطى فى الدول القديمة الا نادرا ، فعرفته مدن الاغريق وروما فى بعض عهودها ، ولم يظهر فى العصور الحديثة الا أخيرا ، اذ تشابتت الحركات الوطنية فى بلاد أوروبا والعالم المتمددين جميعا مطالبة بالدستور مصرى على حكم نفسها بنفسها مقتبسة النظام البرلمانى الانجليزى . وهذه الندرة وهذا التأخر فى ظهور النظم الديمقراطية دليلان على انها نبت عزيز لا يزكو فى كل البقاع والظروف ولا بد لنموه من توفر صفات خاصة فى الشعب ووصوله الى حد معلوم من الرقى والتنوير والنضج . فالشعب الحائز لهذه الصفات هو الذى يصير على حكم نفسه بنفسه ويستطيع القيام بذلك . أما الشعب الذى لم يسر التنوير والنضج السياسى بين أفرادده فيستسلم للحكم المطلق .

الديمقراطية وخصومها

على أن الديمقراطية لم تعدم خصوما منذ القديم ، لا من الطغاة المستبدين الراغبين فى استعباد الشعوب وحدهم ، بل من كبار المفكرين أحرار الفكر الذين يسوؤهم ما يرون فى الديمقراطية من مكانة للعامة وحفاوة بالدهماء لا يستحقونها ، فيدفعهم حبهم للتسامى عن كل ما هو سوقى ومبتذل وطموحهم الى المثل الأعلى الى النقمة على الديمقراطية والمناداة بالأرستقراطية الذهنية أو الى تفضيل المستبد العادل ظالمين الديمقراطية فى ذلك وأخذها بغير جريرتها ، وحاكمين عليها بشرارها ، وانما يجب أن يحكم على الديمقراطية بالمبدأ الجليل الذى تقوم عليه ، وهو أن يحكم الشعب نفسه . وليس الشعب كله سوقة جهالا . والديمقراطية هى نظام الحكم الوحيد الذى ينتهى الى تحسين حال أولئك العامة وتنويرها ورفع مستواهم حتى يعودوا مواطنين صالحين كغيرهم .

فقد صور أفلاطون الديمقراطية صورة زرية : فلا نظام هناك ولا مسئولية ، وكل فرد يهمل عمله ويتدخل في شئون غيره ، والمهرجون يستثيرون العامة فيكثر اللفظ ولا ينفذ عمل . وفي العصر الحديث سدد سهام النقد الى الديمقراطية مفكران عظيمان مجددان ينتميان الى مهد الديمقراطية الحديثة ويعدان فيها من رواد الحرية وطلائع الاشتراكية ، وهما برنارد شو ، وولز ، فالأول يرى أن البرلمانات تتكلم بدل أن تعمل ، والوزراء يضربون وقتهم في الرد على السفسطة بدل أن يحكموا ولا يتساءلون حين يقدمون على عمل : « هل هذا ما يتطلبه الموقف ؟ هل هذا صواب ؟ » وانما يسألون أنفسهم : « هل هذا يحوز الرضى ؟ هل هذا يثير معارضة ؟ » ، وتغدو صفات البراعة الجدلية والمقدرة الخطابية أهم لديهم من صفات الحكمة والحزم والنظر البعيد ، وتحرم البلاد خدمات السياسة الذين يترفعون عن تمليق العامة فيزهدون في الحكم .

ويرى شو كذلك أن الفرد العادى لا رغبة له في الاشتراك في الحكم ، ولا يحب أن يفكر في وسائله . وانما يؤثر أن يتولى ذلك عنه أمر يأمره فيأتمر ويلقنه فيعتقد، وأن نزعة الانقياد هذه الكائنة في نفس الفرد العادى هى التى جعلت الكنيسة والجيش في مختلف العصور أحب الأنظمة الى نفسه وأعلاها مكانة لديه . ويرى شو أن الفرق بين الديمقراطية والدكتاتورية أن الدكتاتور يحكم بأمره دون تردد ، بينما الحاكم الديمقراطى يتملق الشعب ويخادعه ليفهمه أنه انما ينفذ مشيئته ويحكم على هواه ، وفي كتابه « يوتوبيا حديثة » دعا شو الى حكومة من المفكرين الخبراء .

أجل من المفكرين الخبراء : فمن الآراء الشائعة اليوم أن الخبراء رقى الاقتصاد خاصة هم وحدهم الذين يستطيعون أن يحكموا الدولة الحديثة بعد ما عظم حجم هذه الدولة وتشعبت شئونها وتعقدت مصالحها ، وبعد أن ارتدت العوامل الاقتصادية التى تسود العالم الآن هائلة معقدة مترامية التأثير من جراء التقدم العلمى والصناعى الحديث ، ومن جراء رقى وسائل المواصلات الذى رد العالم أجمع وحدة اقتصادية يتأثر قاصيه بدانيه ، فى مثل هذا العالم لم تعد الديمقراطية فى نظر أولئك المفكرين نظاما للحكم صالحا ، لم يعد رجل الشارع مرجعا يهتدى برأيه فى تسيير أمور الدولة ، وانما مرجع ذلك الخبير العالم .

فهذا عيب من عيوب النظام الديمقراطي في نظر خصومه • وهو
جهل الفرد العادى الذى هو مرجع قيام الحكومات وتعيين سياستها بشئون
العالم الحديث المعقدة •

والعيب الثانى ببطء النظام الديمقراطى وتعثّر خطواته فى عصر
السرعة المندفعة ، ولا سيما فى أوقات الأزمات والحروب • ثم هناك عيوب
أخرى فى نظر ناقدى الديمقراطية ، منها أن النظام الحزبى بطبيعته مفسد
للسياسة معرقل لأعمال الحكومة ، فالمعارضة تعارض لمجرد الرغبة فى
النقد والتجريح • وإذا ما تولت الحكم بعد خصومها نكثت فتلهم وعفت
على أعمالهم وبدلت سياسة بسياسة • وبذلك تحرم البلاد الاستقرار
والإطراد اللازمين لكل رقى ونجاح •

يرى نقاد الديمقراطية أن هذه العيوب تجعل الديمقراطية شكلا
للحكم غير صالح للعصر الحديث ويرون أن هذا سبب تقلصها من كثير
من الدول حيث حل الحكم المطلق محلها فجارى عصر السرعة والتقدم
العلمى والتوسع الاقتصادى وقام بجلائل الأعمال •

ان التطور العلمى الآلى الحديث ، هو الذى أدخل الاضطراب فى
حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية ، حتى تبرم منهم من تبرم بالنظم
السياسية القائمة لتخلفها عن مسايرة هذا التطور وقصورها عن حل
مشكلات القوم وتوفير مطالبهم • وهذا جعلهم يقبلون فى بعض الدول
النظام المطلق المستبد ، اذ استغل الدكتاتوريون هذه الظروف المقلقة
واستغلوا أثم استغلال وسائل الدعاية التى وفرها العلم الحديث كالراديو
وغيره ، وساعدهم ذلك الاستغلال على الوصول الى الحكم ثم ساعدهم على
الاحتفاظ به والبطش بمعارضيههم ، ولكن الاستعاضة عن الديمقراطية
بالدكتاتورية ليس هو الحل المعقول لمشكلات الدولة الحديثة ، انما الحل
المعقول تعديل بعض نظم الديمقراطية ووسائلها لكى تساير التطور وتعالج
الأحوال الجديدة •

الدكتاتورية نظام شاذ

ان الدكتاتورية أو الحكم المطلق بطبيعته نظام شاذ ، اذ يستبد فرد
بالسيطرة على مصائر أمة فلا يقوم هذا النظام الا فى شعب لم يبلغ بعد
حد النضج السياسى والثقة بنفسه ، أو شعب فقد تلك الثقة بعد أن

كان حائزا لها وأسلم مقاليدته الى فرد ارتقى الى قمة الحكم فى أعقاب انقلاب • ولشذوذ الدكتاتورية فى منشئها تظل دائما أبدا شاذة فى وسائلها : يرتقى الدكتاتور الى الحكم للتغلب على أزمة أو حالة طارئة ، ولكنه بعد انحسار تلك الأزمة يابى التخلي عن الحكم ، اما استمراره له أو مخافة انتقام معارضييه • ولشعوره بوجود أولئك المعارضين يلجأ الى وسائل الارهاق والمصادرة وخنق الحريات • وقد عرف من قديم أن ليس شئ يفسد الخلق الانسانى مثل حيازة السلطة المطلقة ، ومن ثم فإن الدكتاتور الذى يستولى على الحكم وملء نفسه رغبة الاصلاح كثيرا ما يرتد شريرا ويمعن فى الفساد •

وحتى حين يظل الحاكم المطلق خيرا طيب النوايا تجاه شعبه ، كثيرا ما يشقى به وبحكمه الشعب ، لأن الحاكم يشرع للشعب ولا يخضع لتشريعاته تلك ولا يستطيع أن يضع نفسه موضع شعبه ، وواجب ألا يسن القانون الا من يخضع له ويحس بأثره ، وقد رأينا أن الدكتاتورية لا تنجح فوق نجاح الديمقراطية فى معالجة شؤون الاقتصاد وعوامله الهائلة التى يخبط فيها العالم ، وانما الدكتاتورية لتخفى حيويتها وتخدم المعارضة وتبرر وجودها وتدعو الشعب الى معاضدتها والوقوف بجانبها ، ما تزال تعنى بالمظاهرات والاستعراضات واقامة الحفلات والأعياد القومية ، وتغالى فى تمجيد القوة الحربية والاشادة بالأمانى القومية والدعوة الى التآمر والتغلب والاعلان انها تحكم لتدفع خطرا أو تحمى الدولة أو تفتح امبراطورية أو تحمى المدنية ، وما تزال فى خطبها الرنانة وحماستها المفتعلة حتى تنساق الى الحرب رغبة أو مكرهة •

فالحكم الدكتاتورى لا ينجح كما يتبجح به فى السيطرة على العوامل الاقتصادية العالمية التى تتأبى على السيطرة ، وهى تشغل الشعب عن سوء حالته بسفساف الأمور وتهيج فيه غرائز وعواطف ليست هى بخير ما فى البشرية من غرائز وعواطف وقد تسوقه هذه الانفعالات الى الحرب ثم ان الدكتاتورية فوق هذا وذاك تخدم النشاط الفكرى فى بلادها أيضا اخماد ، فهى لا تطبق النقد ولا تقوى على احتمال المعارضة وهى لذلك نشرد كل ذى رأى وتسجن أو تعدم كل معارض ، وهى تحل الجماعات والنقابات الحرة وتستغنى عنها بالجماعات الرسمية التى تشرف عليها الحكومة وهى تحجر على الصحافة والأدب والفن والعلم لا تنطق هذه كلها الا بما تشاء الدكتاتورية وان جانف الحقيقة ، وهى تستأثر بوسائل الدعاية من كتابة وخطابة وصحافة وراديو وسينما وتقيم للدعاية وزارة خاصة تحاول السيطرة على عقول الناس وهى بعد ذلك تسيطر على التعليم وتوجهه •

تتحكم الدكتاتورية في مناهج التعليم وكتبه وأغراضه ، فلا يلقي
النشء الا ما تريد أن يلقيوه ، وينشأون على تمجيدها والايمان بها .
لا تحاول تنمية عقولهم بل تنمية استعدادهم لقبول ما يلقيون من آراء
الآخرين . ولا تعمل على إبراز شخصياتهم مختلفة متباينة ، بل تسعى
لضيقهم في قالب واحد معلوم ، وإخراجهم متمثلين فكرة واتجاهها وعقيدة ،
ليكونوا لها جندا منصاعين . فالدكتاتورية تضيق ذرعا بالفردية
والشخصية المتميزة ، والعلاقة بين الدولة والشعب في هذا الصدد
متبادلة : كلما تماثل أفراد الشعب واتحدت عقلياتهم ، ساعدوا على
قيام الدكتاتورية وتوطدها ، وكلما بقيت الدكتاتورية وتوطدت عملت على
توحيد العليات ومحو التميز والاختلاف .

ان الحكم الدكتاتوري يقف تقدم الانسانية ويرجع بها الى الوراء
لأنه مضاد للحرية والحرية أساس كل نشاط انساني ، محارب للحقيقة
وبغيرها لا يكون تقدم ولا هداية ، مخمد للنقد وهو سبيل كل اصلاح ،
مقيد للعقل وهو أساس الحضارة . فالفرق بين مجتمع متحضر ومجتمع
متوحش أن الأول يسود فيه العقل والثاني تنحكم فيه الغريزة والعاطفة
والخرافة والوهم ، ومن ثم تنتكس القيم في الأمة المبتلاة بحكم الفرد
المستبد ، ومن ثم تضمحل العلوم والفنون في ظل الحكم المطلق على حين
تزدهر في كنف الديمقراطية . فقد ازدهرت العلوم والفنون في بلاد
اليونان الديمقراطية ولم ينبغ فرد واحد في علم ولا فن في بلاد مقدونيا
الملكية المطلقة ، وظهر الشعراء والخطباء في روما الجمهورية وانحدرت
الخطابة والشعر والفنون عامة في ظل الامبراطورية .

وازن حالة الارهاب وخنق الحريات واضطهاد الآراء في ظل الحكم
المطلق ، بما يسود في ظل الديمقراطية من تسامح وحرية ورحابة صدر
بالنقد وترحيب بالجديد من الأفكار وحرص على توخي الحقيقة : قال
الفايكاونت مورلي : « ان من يعبت بالحقيقة لأي غرض كان يعبت بالقوة
الحيوية الدافعة للرقى الانساني » ، وقال جون ستيورات مل : « لا يجوز
للشخص أن يحدوا من حرية فرد منهم في العمل الا لغرض واحد هو حماية
أنفسهم » ، وقال أيضا : « لو كان البشر أجمعون الا واحدا على رأي ورجل
واحد على نقيضه لما جاز للشخص مجتمعين أن يسكتوا ذلك الفرد ، أكثر
ما يجوز له هو لو أوتى القوة أن يسكت البشر » ، وما ذلك الا لايقان
أولئك المفكرين أن توخي الحقيقة هو سبيل الهداية والرقى وأن التسامح
الفكري والتعاون العقلي لازمان للاهتمام الى الحقيقة .

ليس الحكم المطلق اذن هو وسيلة علاج ما يعانيه المجتمع من متاعب ، وليس نجاح ذلك الحكم في توطيد أقدامه في بعض الدول دليلا على صلاحيته وأفضليته على النظام الديمقراطي ، بل هو ثمرة حالة قلاقل اجتماعية واقتصادية أدى إليها التطور الصناعي وزادتها الحرب الماضية . اتفاقا ، واستغلها الدكتاتوريون الذين لا تخلو منهم حقبة . وليس النزوع عن الديمقراطية الى حكم الفرد الاستبدادي تقدما للمجتمع البشرى بل هو نكسة الى عهود الجهل والخمول ، ولن ينجح الحكم المطلق في معالجة متاعب المجتمع بل سيزيدها بلاء بشدوذ أساليبه وافتعال وسائله ومجانبته للحق والحرية .

انما وسيلة خلاص العالم من متاعبه الاقتصادية وسبيل رقيه المطرد في حاضره ومستقبله أن يتشبهت بالديمقراطية لا يبغى عنها حولا ويدافع عن الحرية التي نالها بجهد طويل في متتالي العصور فان الحرية لا تكسب مرة واحدة ينال بعدها صاحبها ملء جفنيه ، بل يجب أن يثقل حياته يدافع عنها . قال جون ستيورات مل : « ان ثمن استبقاء الحرية هو اليقظة الدائمة » ، وقال دانييل وبستر : « ان الله لا يمنح الحرية الا أولئك الذين يحبونها والذين هم على استعداد دائم للدفاع عنها » ، ولن تأمن الحرية يوما ما سطوات المغيرين عليها ، وأكبر أعدائها دوام تطور المجتمع البشرى الذي يستدعى تعديل نظم الحكم من آن الى آن ، فاذا قصرت الديمقراطية في مفاشة العصر على هذا النحو كانت النتيجة اضطرابات اجتماعية واقتصادية يستغلها المتطلعون الى الاستبداد .

وواجب أبناء الديمقراطيات لذلك تعديل بعض النظم القديمة التي ثبت بطؤها وتخلفها عن حركة العصر ، ومن الآراء القيمة في هذا الباب أن يرجع البرلمان الى وظيفته الأولى التي كان مقتصرا عليها في أول أمره : وهي وظيفة الاشراف على شؤون الحكومة وأمور الشعب اشرافا عاما متخليا عن وظيفة التشريع لهيئة خاصة تنهض بذلك ، ثم ان على الديمقراطية أن تنشط في تنظيم الحالة الاقتصادية أكثر مما نشطت الى الآن ، وفي موازنتها وتخفيف آثار مضاعفتها عن الشعب العاجز عن السيطرة على عواملها المترامية ، فانه ما دامت الحالة الاقتصادية مضطربة فستظل الحالة السياسية كذلك وسيظل الباب مفتوحا للمذاهب المتطرفة وللمغامرين من ذوي المطامح .

ان الديمقراطية هي شكل الحكم الطبيعي المعقول المحالف للعلم والرقى بينما الحكم المطلق يتعسف ويتحدى العلم والتاريخ ويسسائر

الغريزة والعاطفة العمياء فتغتندي الدولة في ظل الدكتاتورية غاية في ذاتها ويعتقد الطغاة أن الفرد خلق لخدمة الدولة ولم تخلق الدولة كما يدل المنطق ويشهد التاريخ لخدمة الفرد ، ومتى كانت الدولة غاية في نفسها في نظرهم كان بدهيا أنها خالدة ، وان كان التاريخ يشهد بأنها حلقة في سلسلة رقى تنقل فيها المجتمع الانساني من الأسرة الى القبيلة الى الدولة ، وكان المعقول أن يطرد ذلك الرقى فتألف الدول جميعا مكونة الدولة العالمية وقد صار تحقق الدولة العالمية بعد أن تقاربت الأمم وتوثقت علاقاتها وغدت وحدة اقتصادية أمرا ضروريا لا محيص عنه اذا قدر للمدنية البقاء .

والديمقراطية هي التي تمهد السبيل لتحقيق الدولة العالمية ، بما تنشره بين الناس من مبادئ الحرية والاخاء والمساواة ، وبازدهار العلم في ظلها ازدهارا ينشر النزعة العالمية بين المثقفين شيئا فشيئا ، ويشعرهم بوحدتهم في الانسانية وبغرور أسباب التعصب والتنابد . فاذا قدر للدولة العالمية التحقق يوما فلن يكون تحققها على أيدي الغزاة الفاتحين . أمثال الاسكندر وقيصر ونابليون وأضرابهم من المحدثين ، إنما ستحقق بالوسائل السلمية ، بانتشار النظرة الانسانية الشاملة وتضاؤل التعصب القومي كما تضاءل التعصب الديني الذي لقيت منه الانسانية صنوف البلاء في سالف العصور . وفي سبيل هذه النزعة السلمية العالمية قد خطت الديمقراطية الى اليوم خطوات واسعة .

ثالثا : مقالات

عن فخرى أبو السعود.

« هتفت فى نفسى حين رأيت هذه الارادة العاقلة ثابتة كأنها الطود الراسخ :
والله انه لرجل والرجال فينا قليل ! ٠٠٠ ولم يكن عجيبا أن أقرأ بعد
ذلك بأعوام لهذه النفس المجادة الحازمة صرخة توجهها الى « بنى مصر » :

الام تغيب الشمس عنا وتطلع ونلعب فى ظل الحياة ونرتع
نهيم بهزل لا نهيم بغيره ونهرب من جد الحياة ونفزع
ونحجم عن أخطارها وصعابها وتنهبنا لذاتها والتمتع
وان نبتغ العليا ترانا كأنما نساق اليها كارهين وندفع
نسير على رسل وللعصر حولنا مواكب فى طرق العلا تتدفع

ذلكم هو المرحوم فخرى أبو السعود كما أبصرته أول مرة .

ولكن حبل الصداقة لم يكن قد ألف بعد بين قلوبنا ، والصداقة
« الصحيحة » تدنو من القلوب خطوة خطوة ، ويساقط نداها فى الأفتدة
قطرة قطرة ، فلما انقضى على ذلك الحادث أعوام ثلاثة ، وقفت فى إحدى
المكتبات أقلب ما أخرجته المطابع من كتب ، فرأيت كتابا عن عرابى زعيم
الثورة المصرية قد أخرجته للناس فخرى أبو السعود ، أخرجته ذلك الطالب
الذى ثار يوما على زملائه الطلاب ، وانه لمصيب وانهم لمخطئون ، وتقرأ
الكتاب ، فاذا بالشباب الثائر ينفث على صفحات كتابه شواظا من نار ،
فأدناه ذلك من نفسى لما أدركت بين نفسيينا من أواصر القربى ، والله كم
طربت حين قرأت له بعدئذ هذه القصيدة الشماء ، التى أنشدها لقومه
يذكروهم بموقعة التل الكبير ، ومنها :

ولم أر يوم التل عابا وسببة ولم أره الا أغر وأمجدا
أنخجل ان قمنا ندود عن الحمى ويسحب أذيال الفخار من اعتدى ؟
سلام على قيل تولى زمامها أعف الورى قصدا وأنقاها يدا
ستذكره مصر الفتية ما ابتغت لدى الحق عهدا أو لدى المجد موعدا
عسى ذكرنا - رغم الهزيمة - أحمدا سيبعث فينا للغنيمة أحمدا

وانطوت أعوام دراسته ، وكان من الناجحين فى طليعتهم ، ولكنه
لم يجد له فى وزارة المعارف مرتزقا ، فاشتغل فى إحدى المدارس الحرة
عاما ، ثم أراد الله فى ختام العام أن يلهم جوهره من جديد ، فأجريت
مسابقة فى اللغة الانجليزية لبيعث بالمتفوقين الى انجلترا ، فكان فخرى من
هؤلاء المبعوثين الى جامعة اكستر ، حيث استزاد من اللغة الانجليزية ليقوم
بعد عودته بتدريسها .

وهل نتوقع لهذه النفس الشاعرة أن تقيم في أرض السحر
والجمال ، فلا تثور فيها الشاعرية أنا بعد أن ؟ لقد بعث إلينا أثناء مقامه
هنالك غر القصائد ، يتلو بعضها بعضا .

قال يصف الجو في انجلترا ، من قصيدة طويلة :

يارب يوم شروء جاء مذهيا	بشمسه ، ونسيم لين عطر
تلاه آخر رواها وأثرها	بوابل مستمر الوكف منهمر
فجاء صبح حديد البرد قارسه	يكوى الوجوه بوخز منه كالابر
فجاء من بعد صبح أبيض يقق	كاس بثلج كزغب الطير منتشر
فجاء صبح يلف الأرض في سدف	من الضباب كثيف اللون معتكر
يكاد يفتقد الانسان راحته	إذا تعرض بين الراح والبصر

وقال يصف السحاب في كمبردج :

مزجى الشتاء بخيله وبرجله	والمنذر الدنيا بوشك اياه
تسعى جنود البرد تحت جناحه	والريح والاعصار حول ركابه
فاذا سرى برد القلال مخالطا	أجزائه وانسل في أعصابه
أوهى عراه وفت في أوصاله	فانصب ملء السهل في تسكابه

وقال يصف الأرض وقد أخذت زخرفها في الربيع في اكستر :

من غازل الروض حتى افتر جذلانا	وكان منقبضا بالأمس غضبانا ؟
وأخرج الزهر من أقصى منابته	فرصع العشب أشكالا وألوانا
وصاح بالرياح حتى قر ثائرها	الا نسيمًا يعرف الزهر ملأنا
وكفكف الغيث فانجابت عوارضه	وكان لا يأتي هطلا وتهانا
وقشع السمح عن أفق السما فبدا	طلقا وأطلع وجه الشمس ضحيانا

ولم يلبث الشاعر الفرح بما حوله من مباهج الطبيعة أن فجع في
أدب ، فبعث في رثائها صرخات باكيات ، فقال :

يا ليتني قد كنت حاضر يومها	وسعدت قبل رحيلها بتزود
وشهدت انتهاء بلين مهدها	ورأيت سكتتها بجافى المرقد

فخرى أبو السعود

للاستاذ أحمد فتحى مرسى

قضى الأستاذ الشاعر فخرى أبو السعود - طيب الله ثراه وخلده
ذكراه - فأنطوى بموته صديق يعز على الأصدقاء فقده ، وأديب يشق
على الأدب رزؤه فيه ، وعالم لن ينساه العلم وإن نسي الكثير غيره ، فمن
حقه على أن أكتب ، ومن حقه على الرسالة أن يتسع صدرها لما أكتبه عن
أديب طالما طلعت علينا بالكثير من آياته وغرره .

قال البعض انه مات منتحرا برصاص مسدسه فى لحظة ضيق بعد
أن خط هذا البيت على رقعة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثلاثين حولا - لا أبالك - يسام

وقيل انه فقد ولده فى باخرة ترحيل الأطفال الانجليزية التى اغرقها
الألمان ، وقيل انه انقطع اتصاله بأسرته فى إنجلترا ، وقيل ان فى الأمر
جريمة قتل ٠٠٠ الى غير ذلك مما يذيعه الناس فى مثل هذه المناسبات ،
إذا عمى عليهم الأمر ووقعوا فى الحيرة ، فذهبوا يتقصصون الآثار ،
وينتحلون العلل ، ويضربون فى الأوهام ٠٠٠ ثم انبرت أسرته تكذب
كل ذلك وتقول انه مات برصاصة طائشة من رصاص مسدسه أثناء
اصلاحه ٠٠٠ كل ذلك لا شأن لنا به فلقد مات الرجل - يرحمه الله -
وانقضى الأمر ، الا أن ما عرفته فى فخرى طول صحبتى له من صموده
للحياة ، وثقته بالله وعدم تطيره من الحوادث ، يجعلنى كثير الشك فيما
قيل عن الانتحار ٠٠٠ فقد كنت معه مرة فى معرض الحديث عن مقال
فى الانتحار لأديب كبير ، ثم تطرق بنا الحديث الى ذكر فلان من أدباء
الشباب - وكان فخرى يعجب بأدبه ولا يعرفه - وأنه قد حاول الانتحار
فى ذلك الحين ، فسخر فخرى منه ، فلما عرضت على فخرى أن أعرفه
به ابتسم قائلا : « اننى لا أود أن أعرفه » .

★ ★ ★

عرفت فخرى أول ما عرفته فى أول عهده بالتدريس فى المدرسة
العباسية الشالوية ، وكان ناظرها فى ذلك العهد الأستاذ عبد الرحمن

شكرى . قدمنى اليه صديق ، فخلت باديء ذي بدء ، أنه أخذ الطلبة ، فقد كان - رحمه الله - ضئيل الجسم ، قصير القامة ، قليل الكلام ، شديد الخجل ، لا تبدو عليه سنه ، فلما قدمه الصديق الى ، خلت أنه هازل لا جاد ، أو أنه ربما اشتبه عليه الاسم - فكثيرا ما تتشابه الأسماء - ، وساعد على ذلك أن الصورة التي كنت رسمتها لفخري في ذهني - من المطالعة - تتباين مع ما أراه جد التباين ، فسلمت عليه في فتور ووناء ، ثم انه كان قليل الكلام - كما قدمت - فتوهمت أن ذلك قلة مبالاة ، فقابلته بالمثل ، فكانت مقابلة جافية أسرها لي فخري ، وعتب على بعد ذلك بزمن .

ثم مضت الأيام فذهبت اليه في بعض الشأن ، وكنت قد نشرت قصيدة بجريدة الأهرام بعنوان « الصباح » فقابلني مقابلة طيبة ، وجلسنا نتحدث عن القصيدة ، ثم عن الشعر في مصر ، ثم قرأ لي قصيدة عنوانها « نجوم السينما » كان يعدها للرسالة ، وأهدى الى كتابه عن الثورة العراقية ، . . . ثم تكررت المقابلات بعد ذلك ، واتصلت بيننا أسباب المودة ، فكنا نلتقي في أكثر الأيام .

نقل فخري بعد ذلك الى الرمل الثانوية ، وتركت أنا الاسكندرية ، ثم عدنا فالتقينا في الاسكندرية بعد ذلك بعام ، وكنت قد اتصلت بالرسالة ، وكان قد بدأ يكتب فيها سلسلة مقالاته عن المقارنة بين الأدبين العربى والانجليزى ، فأثارت اهتمام كثير من الأدباء ، وقد أبدى لى الأستاذ الزيات إعجابه بها أكثر من مرة ، وكتب الى فخري يقول في ختام خطاب له - أطلعنى عليه فخري - : « فاستزيدك ، ثم أستزيدك ، ثم أستزيدك » . وكان في نية الأستاذ الزيات طبع هذه المقالات بعد اتمامها ، ولكن فخري لم يتمها .

ظهرت بعد ذلك مجلة الرواية ، وبعد ظهورها بنحو عام وقعت جفوة بين فخري وبين الزيات أدت الى قطع هذه المقالات ، وانقطاع فخري عن الرسالة . . . قابلته بعد ذلك بحين فشكا لى شيئا من ركود الذهن بعد انقطاعه عن الرسالة ، وقال لى انه شديد الخجل لأن الأستاذ الزيات ما زال يرسل اليه مجلتى « الرسالة » و « الرواية » فى حين أنه لا يؤدي له أية خدمة نظير ذلك . . .

وظهرت فى ذلك الحين مسابقة وزارة المعارف فى التأليف ، فعرض على بعض ما كتبه . وكان - رحمه الله عليه - كثير الشك فى الفوز ،

فطمأنته ورجوته أن يتم ما بدأ ، فآتمه - وأظنه فاز بجائزتين - ، ثم انقطع حيناً عن الكتابة وانصرف إلى القراءة ، وكنت ألقاه في ذلك الوقت كل يوم تقريباً ، فنمضى سيرا على الأقدام في طريق « الكورنيش » ، ويمتد بنا الحديث في الأدب والجدل أحياناً حتى نجد أنفسنا في جهة لم تكن نقصدها ، وكثيراً ما كان يشغلنا الحديث حتى نقطع في السير مسافات بعيدة دون أن ننتبه ، فقد كان رحمه الله يؤثر السير على الجالوس ، وكان شديد النفور من المجتمعات ولا أذكر أنني رأيته مرة في مقهى أو منتدى ، ولعل ذلك هو السبب ، في سعة اطلاعه ، ووفرة إنتاجه ، فكان يقسم فراغه بين التريض والقراءة ، والكتابة . والظاهر أن ذلك يرجع إلى طبيعته الهادئة ، فقد كان يكره الضجة ، ويتجنب الناس . وكان منزله في بقعة هادئة من رمل الاسكندرية ، وحتى طفله يبدو لي أنه ورث عنه هذه الميزة ، فكان ينفر من الغريب ، ويبتعد عن الناس ، أذكر أنه تركه معي مرة وذهب لبعض شأنه ، فجعل الطفل يصرخ ويبكي ويتملص مني ليجري ، وعشنا حاولت تهدئته ولكنه لم يهدأ حتى عاد والده فسار إلى جانبه مبتعداً عني .

ولا أود أن أختم هذه اللمامة قبل أن أشير إلى دراسة فخرى واتجاهه في الأدب ، فقد تخرج في المعلمين العليا واشتغل بعض عام بالصحافة . ثم اختارته وزارة المعارف في بعثة لها فتخرج في جامعة اكسترا في انجلترا - وهناك تزوج من زميلة انجليزية له في الدراسة - فلما عاد اشتغل بالتدريس في المدرسة العباسية الثانوية بالاسكندرية . وكان فخرى - رحمه الله - كما علمت منه مكبا على القراءة من صغره ، ولا سيما قراءة القديم ، حتى أوشك أن يستظهر كتباً بأكملها ، ويظهر ذلك جلياً في أسلوبه ، فتمتاز كتابته بقوة الأسلوب وجزالة الألفاظ . كذلك تبدو في شعره محاولة تقليد القدماء ، وقد تأثر في هذا بالبارودي ، وكان يحفظ جل ديوانه ومختاراته . وكان يؤثر من الشعراء القدماء أبا تمام وبعض شعراء الجاهلية لا سيما طرفة بن العبد . كل هذه الدراسات القديمة كان لها أثر واضح في شعره لا يخفى على قارئه ، وكان يختار منها أكثر شواهد في مقارنته بين الأدبين العربي ، والانجليزي . وكان يؤثر العقاد على شوقي وحافظ ، وكثيراً ما قام بيننا جدال طويل في ذلك . وكان رحمه الله ينظم الشعر في سيره فتراه يغمغم في سيره بكلام لا تستبينه لانخفاض صوته ، حتى إذا جلس كتب ما قال ، ولا يزال كذلك حتى يتم القصيدة .

وهناك ناحية تجب الإشارة إليها هنا وهي ضيق صدره بالنقد ،
وان كان سلم منه في الصحف ، وكثيرا ما كنت آخذ عليه ذلك . حدث
مرة أن عثرت له على بعض أخطاء في نسبة الشواهد ، وعلى هنة لغوية
في قصيدة له ، وكان في ذلك العهد يقضى الصيف بانجلترا ، فانتظرت
حتى عاد فنبهته لذلك فغضب مني ، ودعاني في اليوم التالي وقد
جمع لي بعض ما كتبت في الرسالة وجعل ينتقد لي بعض المعاني حتى
يرد على بالمثل .

وقد نشر فخري القسط الأكبر من كتابته بمجلة الرسالة ، واتصل
في أواخر أيامه بمجلة الثقافة وجعل يكتب بها حتى توفاه الله وفيما عدا
ذلك له متفرقات بجريدة الأهرام والهلل وغيرهما من الصحف : هذا غير
كتابه (الثورة العربية) وقصة (تيس) .

رحمك الله يا فخري ، وأجمل هزاء الأدب فيك ، ولطف بأصدقائك
وعارفيك . فقد كنت نعم الأديب ونعم الصديق . . .

هذا بعض حقلك على ، أرجو أن تجد لي العذر ان كنت قد قصرت
فيه أو أخطأت ، فان الحزن يغالب خاطري وذاكرتي كلما أمسكت القلم
لأكتب عنك ، أو أنا كما يقول شوقي :

رئيسك لا مالكا خاطري من الحزن الا قليلا خطر
سبقتك الدموع فان لم يدمن كعادتهن سقاك المطر

شعر التصوير والعاطفة

عند فخرى أبو السعود

بقلم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

كان للمرحوم فخرى أبو السعود شعر لا شك أن قراء الهلال والمقتطف والرسالة والثقافة قرءوه ، واستمتعوا بما فيه من لذة وجمال . فهو شعر سائح المعنى ، سائح العبارة ، وكل سائح من المعاني والألفاظ يختلب اليه الألباب ، ويجذب اليه القراء .

ولا شك أن (فخرى) قال الشعر وهو طالب بمدرسة المعلمين العالية . ولا شك أن هذا الشعر كان ككل محاولة يتصدى لها من كشف فى قرارة نفسه عن موهبة شاعرية أودعها الله فيه .

فلم يكن شعره أول الأمر قويا ، ولا أخادا ، ولم يكن حافلا بالمعاني التى تتكاثر بالقراءة ، وتنزاحم بالمطالعة ، وتزيد بها التجارب فى الحياة والاختلاط بالناس ، والاندماج فى البيئات المختلفة والأوساط المتباينة .

ولكن الشاعر يولد ومعه مغزفه . فهو يعالجه بالنغم ، ويرأوحوه ويفاديه من حين الى حين بالمحاولة حتى تتم له الأداة ، وتستوفى له العدة ، فيدهش الناس بالمطرب من الأنغام والعلوى من الإلهام ، والقدسى من الترجيع ، والمبدع من التوقيع .

وهكذا كان فخرى أبو السعود - رحمه الله - فقد رزق المعزف ، ووهب الناي ، وأعطى القيثارة الخالدة لينقر عليها الفعال نفسه ، ورقة حسه ، وينقل على أوتارها تموجات مما يجيش فى صدره ويعتلج فى نفسه ، ويطلع عليها مرأى لحظه ، ومشاهد بصره ، فينقلها فى أمانة ودقة ، واحكام وضبط ، حتى لا تكاد تفلت من مرأى شاردة ولا واردة .

وسبيل الشاعر الى اجادة الشعر ، واتقان التصوير هو احساسه وعينه ، ولقد كان حظ فخرى منهما عظيما ، ونصيبه وافيا ، وقد شاهدت ذلك منه رأى العين ونحن فى واد ضسيق من وديان انجلترا الجنوبية الغربية ، تنبسط على جانبيه سهول فيها النجد وفيها الغور ، وفيها

السهل وفيها الحزن(*) ، وتلونها شيات شتى من ألوان أبدع الله تصويرها ،
وأجمل تقديرها .

وفى هذه البقاع الجميلة كل الجمال ، الفاتنة كل الفتون
كان يستريح فخرى من عناء الدرس ليسلم نفسه الى الطبيعة
المرحة حيناً ، العابسة أحياناً ، لينتزع منها سرها ، ويستوحىها خبيثة
نفسها ، ومستكن فؤادها . .

وهو لا يكتفى الى ما يراه بالنظرة العاجلة ، أو الرؤية الخاطفة ،
ولو كان كذلك ما رأينا فى شعره النظر العميق ، والفكرة البعيدة ،
والمعاني الذاهبة الى أعماق بعيدة الغور .

وهو حين يصور الطبيعة أو يصف منظراً من مناظرها يوفى الوصف
حقه ، ويعطى الصورة ثوبها الحقيقي ، فيخيل اليك وأنت تقرأ شعره
أنك تنظر الى لوحة من صنع رسام ماهر ، ويخيل اليك - فى غير مبالغة -
أنك تسمع الشجر اذا حف ، والأقحوان اذا رف . . . والندى اذا تقاطر ،
والطير اذا تهامس ، والبحر اذا تلاطم ، والركام اذا تصادم . . . ويخيل
اليك أنك تشم العطر اذا تارج ، والياسمين اذا تنفس .

وهل هناك صورة للياسمين أصدق من الصورة التى حلاه فيها
فخرى بقلمه الجميل :

ندى المحيا اذا الصبح لاح	وقد طل ليلاً وقد نضرا
كان أزاهره بسـمـمات	يلاقى بها العين مستبشرا
ونعم السـمـير اذا الليل جن	ولاحت بعيداً فجـوم السرى
اذا بث فى الليل أنفاسه	وعطر فى الجو ما عطرا
دعاني أن أقضى الليل طرا	ثواء لديه وأن أسهرا

★★★

(هلا الهزل) (بفتح هـ) : ما لم يلم من الأوس والجمع : الحزوم .

ثم يصف رقة الياسمين ، ووشك ذهابه ، وسرعة انفراطه ، فيقول :

وشيك الذهب اذا نظمه تكامل أوشك أن ينشرا
أعد ضحاياهم في كل يوم وتوسعوا هوامد فوق الثرى

فأى صورة أرق من صورة الياسمين وهو متناثر على الأرض ، مبعثر
العقد ، بعد أن كان يزين الجدار في عقد منتظم وشمل ما تشتم ؟



وله في الجبال أبيات سستظل خالدة في الشعر التصويرى العربى ،
لأن قليلا هم الذين صوروا الجبال ، واحتفوا بأن يقفوا أمامها لحظات
ـ طالت أم قصرت ـ ليستشعروا ضآلتهم بالنسبة الى عظمتها ، ويحسوا
أنهم أقزام بالنسبة الى جسمها المارد ، وعلوها الباسق ، ويلتمسوا فى
قنتها المرتفعة ، وقممها المتقلدة من وشاح النجوم ، ارتفاع النفس عن
صغائر الدنيا وسفاسف الحياة . . . ويحاولوا أن يستلبوا منها سر
الوجود ، واكتناه المصير الذى أعيا عليها ، فمضت السنون وهى بكم
لا تبين ، وصم لا تسمع .

اسمعه يقول فى الجبال الشواهد :

قامت سوامق فى الفضاء وفوقها من يانع الأدواح سهام سهامق
وتفردت فى وحدة فكأنها لما تلاقت فى الخلاه أصادق
وكأنهن من الأنيس نوافر أو من ضجيج الحاضرات أوابق

ويصف الروابى المتسامية ، وقد حجبت الأفق ، وأشرفت على
الكواكب :

قليل تسامت فى الجواء وحجبت أفق السماء الى الكواكب تومى
أنى رفعت الطرف قصر شأوه أشراف مرفوع السيموت جسيم
وكان خطوى فى دروب وعورها نمسل يلب على سرة أديم

ثم يصف وحدته فى تلك الروابى واستيحاشها منه ، وانكارها
هبيته :

وكأنما أنكرت ظاهر هيئتي وكأنما قد راعهن قدومي
 وأنا أغمغم بينها بقصيدة عربية الألفاظ والتنظيم
 ويخلص من ذلك الى حنينه الى حرارة وطنه ، ووهج شمسبه في
 أبيات رقيقة .



ولقد زار الشاعر مرة حديقة الحيوان ، فاوحت اليه بقصيدة رائعة،
 أحسن فيها التصوير ، وأحسن الفلسفة ، وكشف فيها عن معاني الرحمة
 والحب التي كانت تفيض وتضرب بين أحناء نفسه . أما حسن تصويره
 فلأنه أخرج لنا في القصيدة لوحة جامعة لحديقة الحيوان ، لا يستطيع
 أى رسام أن يأتي لنا بها مجموعة فى لوحة واحدة ، فهنا عرين الأسد ،
 وأسراب الطير الملونة ، وأوكار الشعابن الرقش ، وجماعات الطباء ،
 قد تجاوزت فى غير عداوة ، وألفت بينها مرارة السجن ووحشة الغربة :
 تجاوزت الأعداء لا حرب بينها وكف أذى ناب وشرة مخلب
 وفل شبا ثاراتها وحقوقها على رغم طبع فى النفوس مركب
 حوتها جميعا غربة لا ترى لها اياها اذا ما آب كل مغرب

ثم يتفلسف بعد هذا وينتهى الى قوله :

وكم من ضعيف آمن السرب وادع دهته دواهي الراصد المترقب
 وكم من رضيع ليس بالدافع الأذى يفرق من أم حنون ومن أب
 شرائع سنتها الحياة لأهلها ومن عف عن تلك المآكل يسغب



وله قصيدة عنوانها السفينة ، أجاد فيها الوصف ، وأحكم الصورة .
 وكان رقيقا جدا حين صور وقفة الوداع والرحيل فى قوله :

يودعها بالشسط حرى جوانح ويرقبها فى البعد أفئدة جندي
 فمن راحل بالشسط غادر أهله الى راكب قد يمم الصحب والأهلا
 ولما قضوا حق العناق وكفكفوا غوارب دمع أو أذالوه فأنهلا
 وأرسل بالقبيلات فى الجو مرسل ولوح بالمنديل آخر مخضلا
 تهادت بأهلها تشق طريقها من اليم لم تنكل ولا استثقلت ثقلها

ثم يصف النار التي تدفعها وعقل الربان الذي يدبرها بقوله :

يخوض بها فى بارد الماء جاحم من النار تصاي منه أحشاؤها مهلا
يدبرها فى رأس جؤجؤها امرؤ خبير بأوضاع الطريق فما ضلا

★★★

ومن صورته الفكهة الصادقة صورة فتى أعمى ينغم فى القرآن ،
ويرجع الأنفاس به ، وهو يدير يديه على عارضيه ، وكلما زاده
السامعون استحسانا زادهم من حركاته ونغماته ، ورفع صوته . يقول .
فيها :

ففى حلقومه ناي وخيم تخف النفس من طرب اليه .
إذا ما رجح الأنفاس فيه وقد دارت يدها بعارضيه
سما بك صوته صعدا وألقى اليه الحفل طرا مسمعيه !
إذا زادوه مدحا زاد زهوا وهز من التخاليل منكبيه .
ومال ترنحنا يمنى ويسرى وصعر فى التنغم أخدميه . .

★★★

لقد كان فخرى أبو السعود شاعرا حسن التصوير ، زاهى
الالوان . وصف الطبيعة ووقف قلمه عليها ، فأبدع الأداء وأحسن
الوصف . ومن الغريب أنك لا تعثر فى شعره المبعثر هنا وهناك الا على
القليل جدا من الشعر الغزلى ، أما المديح فقد حاوله مرة أو مرتين فى
جريدة الأهرام ، ولكنه سكت عنه سكوتا تاما ، كما يسكت اليوم سكتته .
الأبدية . . .

ملحق بأسماء وتواريخ وأماكن نشر المقالات

مقالات في الأدب المقارن لمجلة الرسالة

في العدد (٤١) ١٩٣٤

الأدب العربي والأدب الغربي

في العدد (٤٤) ١٩٣٤

التصور في الشعر العربي

في العدد (٤٩) ١٩٣٤

الأثر اليوناني في الأدب العربي

في العدد (٥٢) ١٩٣٤

القصة في الأدب العربي

في العدد (٨٠) ١٩٣٥

ظواهر متماثلة في تاريخ الأدبين العربي والانجليزي

في العدد (٨٣) ١٩٣٥

النزعة العملية في الأدبين العربي والانجليزي

في العدد (١٦٨) ١٩٣٦

الأثر الأجنبي في الأدبين العربي والانجليزي

في العدد (١٦٩) ١٩٣٦

طور الثقافة في الأدبين العربي والانجليزي

في العدد (١٧٠) ١٩٣٦

الفكاهة في الأدبين العربي والانجليزي

فى العدد (١٧١) ١٩٣٦

أسباب النباهة والخمول فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٢) ١٩٣٦

الطبيعة فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٣) ١٩٣٦

أثر الدين فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٣) ١٩٣٦

أثر الدين فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٤) ١٩٣٦

الخرافة فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٥) ١٩٣٦

أثر الفنون فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٦) ١٩٣٦

شخصيات الأدباء فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٧) ١٩٣٦

أثر البيئة فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٨) ١٩٣٦

النقد فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٩) ١٩٣٦

أثر نظام الحكم فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٨١) ١٩٣٦

عرض الأدب فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٨٢) ١٩٣٦

أثر الترف فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٨) ١٩٣٧

القصص في الأدبين العربي والانجليزى

العدد (١٩٩) ١٩٣٧

أثر المجتمع في الأدبين العربي والانجليزى

العدد (٢٠٠) ١٩٣٧

الوصف في الأدبين العربي والانجليزى

العدد (٢٠١) ١٩٣٧

الخيال في الأدبين العربي والانجليزى

العدد (٢٠٢) ١٩٣٧

التاريخ في الأدبين العربي والانجليزى

العدد (٢٠٣) ١٩٣٧

بيئات الأدباء في الأدبين العربي والانجليزى

العدد (٢٠٤) ١٩٣٧

المعنى والأسلوب في الأدبين العربي والانجليزى

العدد (٢٠٥) ١٩٣٧

أثر الأخلاق في الأدبين العربي والانجليزى

العدد (٢٠٦) ١٩٣٧

أثر المرأة في الأدبين العربي والانجليزى

العدد (٢٠٧) ١٩٣٧

الحكمة في الأدبين العربي والانجليزى

العدد (٢٠٨) ١٩٣٧

التشابه والاختلاف في الأدبين العربي والانجليزى

مقالة في يناير ١٩٣٧

أشكال الأدب في الأدبين العربي والانجليزى

العدد (١٨٦) ١٩٣٧

الأدب العامى فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٨٧) ١٩٣٧

الانسان فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٨٨) ١٩٣٧

التفاؤل والتشاؤم فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٨٩) ١٩٣٧

البطولة فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩١) ١٩٣٧

موضوعات الأدب فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٢) ١٩٣٧

الرومانسية والكلاسيكية فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٣) ١٩٣٧

الحرب فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٤) ١٩٣٧

الطير والحيوان فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٥) ١٩٣٧

الذاتى والموضوعى فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٦) ١٩٣٧

الشعر والنثر فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٧) ١٩٣٧

الطور القتنى فى الأدبين العربى والانجليزى

مقالات مجلة الثقافة

العدد (٣٠) ١٩٣٩

تشترتون زعيم الرجعية فى عصر التطور

العدد (٦٢) ١٩٣٩

الفن يعيد نفسه

العدد (٦٨) ١٩٣٩

السياسة في الأدب العربي

العدد (٧٨) ١٩٤٠

فن الحياة

العدد (٨١) ١٩٤٠

الأجناس والقوميات بين العواطف الوطنية والحقائق العلمية

العدد (٩١) ١٩٤٠

علم السياسة عند العرب

العدد (٩٥) ١٩٤٠

المرأة في المجتمع

العدد (٩٩) ١٩٤٠

الجنة يحاكمون الأبرياء

مقالات مجلة الهلال

العدد لشهر يونية ١٩٣٨

أبو العلاء بين شعراء العربية

العدد لشهر ابريل ١٩٤٠

تطور فكرة السلام العالمى

العدد لشهر يونية ١٩٤٠

المثل الأعلى للدولة الحديثة

العدد لشهر ابريل ١٩٤١

الديمقراطية ضمان الرقى الانسانى

مقالات عن فخري أبو السعود

عدد ٢٩ أكتوبر ١٩٤٠

مجلة الثقافة

مقالة زكي نجيب محمود

(أديب مات)

عدد نوفمبر ١٩٤٠

مجلة الرسالة

مقالة أحمد فتحي مرسى

(فخري أبو السعود)

عدد نوفمبر ١٩٤٠

مجلة الثقافة

مقالة عبد الغني حسن

(شعر التصوير والعاطفة عند فخري أبو السعود)

اقرأ في هذه السلسلة

جوزيف داموم
سبع معارك فاصلة في العصور
الوسطى

• لينواير تشامبريرايت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية أزاء مصر

• جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في
السنة

بيير البير
الصحافة

• غبريال وجبة
الكويتية الألهية لداقتي
في الفن التشكيلي

• رمسيس موسى
لأدب الروسي قبل الثورة
الاشيكية وبعدها

• محمد نعمان جلال
بكرة عدم الانحياز في عالم
متغير

• فرانكلين ل. باومر
الفكر الأوربي الحديث ع ج

• شوكيت الربيعي
الفن التشكيلي المعاصر في
الوطن العربي

• محي الدين أحمد حسين
التشكيلات الأسرية والأبناء الصغار

• دانيال اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

• جوزيف كونراد
مخاضات من الأدب القصص

• جومان دوريشتر
لعباة في الكون كيف نشأت
وأيّن توجد

• نامة من العلماء الأمريكيين
مباشرة الدفاع الاستراتيجي
حرب الفضاء

• السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية

• مصطفى غسانى
الميكروكمبيوتر

• مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء
والحديثين

• مختارات من الأدب الياباني
الشعر - الدراما - الحكاية -
القصة القصيرة

بيل شول وادبنيث
القوة النفسية للأهرام

• صفاء خلوصى
فن الترجمة

• رالف ثي مانلو
تولستوى

• فيكتور بروربير
مستدال

• فيكتور هوجر
رسائل واحاديث من الملفى

• فيرنر هيرلبرج
لجزء والكل - محاورات في مضمير
الفيزياء الذرية

• سبلى مول
التراث الفاضل - ماركس
والماركسيون

• ع. ادينكوف
من الأدب الروائي عند تولستوى

• هادى نعمان البيتى
ادب الأطفال - فلسفته - فنونه
وسايقه

• نعمة رحيم المزوى
أحمد حسن الزيات كاتباً وثاقداً

• فاضل أحمد الطائى
اعلام العرب في الكيمياء

• جلال العشرى
فكرة المسرح

• هنرى باربوس
الجحيم

• السيد عايوة
صانع القرار السياسى في
مؤسسات الادارة العامة

• جاكوب برولوفسكى
التطور الحضارى للإنسان

• روجر ستروچان
لن تستطيع تعليم الأخلاق
للأطفال

• كاتى ثير
تربية النواجن

• سبنسر
الموتى وعالمهم في مصر
القديمة

• ناعوم بيتروفيتش
النمل والطب

• برتراند رسل
أحلام الاعلام وقصص اخرى
• رادر نكايارم جابوتسكى
الالكترونيات والحياة الحديثة

• آلس مكسلى
نقطة مقابل نقطة

• ت. و. فريمان
الجغرافيا في مائة عام

• رايموند ويلامز
الاشياء والمجتمع

• ج. فريديس و. ج. ميكستر مور
تاريخ العلم والتكنولوجيا
ج ٢

• ليسترديل راي
الأرض للثامنة

• والتر كن
الرواية الانجليزية

• لويس مارچاس
المشهد الذى فى المسرح

• فرانسوا دوماس
آلهة مصر

• قدرى حلفى وآخرون
الإنسان المصرى على الشاشه

• اولج فولكف
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة

• ماشم النحاس
الهوية القومية في السينما

• ديفيد وليام ملكنوال
مجموعات القواعد - صيانتها
تصنيفها - عرضها

• عزيز الشوان
الموسيقى تغيير لغوى ومثلى

• د. محسن جاسم الموسوى
مصر الرواية

• ديالان توماس
مجموعة مقالات نقدية

• جون لويس
الإنسان تلك الكائن الفريد

• جول ويست
الرواية الحديثة - الانجليزية
والفرنسية

• عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر

أصله وبنائه

• انور المعداوى
على محمود طه للشاعر والإنسان

ب. كومان
الاساطير الاغريقية والرومانية
د. توماس ا. هاريس
التوافق النفسي - تحليل
المعاملات الانسانية
لجنة الترجمة
المجلس الاعلى للثقافة
الدليل البيولوجيا في
روائع الادب العالمية ج ١
روى ارمز
لغة الصورة في السينما المعاصرة
ناجى متشير
الثورة الصناعية في اليابان
بول هاريسون
العالم الثالث غدا
ميكايل المي وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير
ادامز فيليب
دليل لتعليم المتاحف
ليكتور مورجان
تاريخ الفنون
محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الاوركسترا
ابو القاسم الفردوسى
الشاهزادة ٢ ج
بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ ج
جاك كرابس جونيور
كتابة التاريخ في مصر القرن
التاسع عشر
محمد فزاد كوبرلى
قيام الدولة العثمانية
توني بار
التمثيل للسينما والتلفزيون
تاجور شينين نج وآخرون
مخططات من الادب الاسيوية
ناصر خسرو على
سفرنامه
نادين حورديم وجريس اوجو
وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى
احمد محمد الشترالى
كتب غيرت الفكر الانساني
٧ ج
جان لويس بورى وآخرون
في النقد السينمائي الفرنسي
العثمانيون في اوربا
بول كراز

روى دوبرتسون
الهيروين والايدز واثرها في
المجتمع
دور تاس ماكلينول
صور افريقية - نظرة على
حيوانات افريقيا
هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشة
د. محمود سري طه
الكوميديوت في مجالات الحياة
بيتر لورى
المخدرات خلقا في نفسيه
بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
وقلائب الاعضاء في الالف
اليسام
ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع
سيفيد النرقون
تربية اسماك الزينة
احمد محمد الشترالى
كتب غيرت الفكر الانساني
جون ر. بورر ونيلتون جولدنيجر
الفلسفة وقضايا العصر ٢ ج
انولد توينيس
الفكر التاريخي عند الاغريق
د. صالح رضا
ملاحق وقضايا في الفن
التشكيلي المعاصر
م. م. كنج وآخرون
القضية في البلدان النامية
جورج جاموف
بداية بلا نهاية
د. السيد طه السيد ابو سديره
الحرف والصناعات في مصر
الاسلامية منذ الفتح العربي
حتى نهاية العصر الفاطمي
جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين
المكون ٣ ج
اريك موريس والان
الارهاب
سيرل الدريد
اختلافات
ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود
اليوم

جايريل بايد
تاريخ ملكية الاراضي في مصر
الحديثة
اسطونى دى كرسبى وكينيث هينرى
اعلام الفلسفة السياسية
المعاصرة
دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكى ف. س
الزمن وقياسه (من جزء من
البليون جزء من الثانية وحتى
مليارات السنين)
مهندس ابراهيم القرضاوى
اجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى
الخدمة الاجتماعية والانضباط
الاجتماعى
جوزيف دامرس
سبعة مؤرخين في العصور
الوسطى
م. م. بورا
التجربة اليونانية
د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة في مصر
الاسلامية
يونانك د. سمبسون ونورمان د.
الدرسون
للعلم والطلاب والمدارس
د. انور عبد الملك
للشوارع المصري والفكر
ولت وتيمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية
فرد س. هيس
تبسيط الكيمياء
جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية
من الامثال الشعبية في عهد
محمد على
الان كاسبيار
التذوق السينمائي
سامى عبد المعطى
الخطوط السياحية في مصر
بين النظرية والتطبيق
م. م. مريل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية
حسنين حلمى المهندس
هراما الشاشة (بين النظرية
والتطبيق) للسينما والتلفزيون
٢ ج

كريستيان ساليه
السيناريو في السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الأمريكي

جورج ستاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى
٢ ج

يانكو لافرين
الرومانتيكية والواقعية
حمود سامى عطا الله
الفيلم التسجيلي

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستاللى جيه سولومود
النوع الفيلم الأمريكى

مارى بى ناش
الحمر والبيض والسود

جوزيف م. يوجز
من الفرقة على الأفلام

كريستيان ديروش نويلكوه
المرأة الفرعونية

جوزيف بندهام
مجز تاريخ العلم والحضارة
فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ج. ه. جيم
مختار القراءة

رونولف فون هابسبرج
رحلة الأمير رنولف الى الشرق
٣ ج

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم مارسدن
رحلة ماركو بولو ٣ ج

هرى بيرين
تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى

ديفيد شليس
نظرية الادب المعاصر وقراءة الشعب

اسحق عطيموف
العلم وفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
حكمة الجنون والحماقة

كارل بوبر
حقا عن عالم افضل

ميرمان كلارك
لاقتصاد السياساتى للعلم
والاقتصادى

د. بيارد بودج
لغز فى الف عام

ستيفن زانسيما
الحملات الصليبية

ه. ج. ولز
عالم تاريخ الانسان
٤ ج

جوستاف جرونبيروم
حضارة الاسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشبيخ
حلة بيروت الى مصر والحجاز
٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ارنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة
٢ ج

بندى اونيمود
افريقيا - الطريق الاجز

محمد زينهم
فن الزواج

ميسلاو مالىنوفسكى
السحر والعلم والدين

اسم متر
الحضارة الاسلامية

فاس بكارد
انهم يصنعون البشر

عبد الرحمن عبد الله الشبيخ
مبات رحلة فاسكو داجاما

ابى شاموس
كونا المتعد

سومدار
الفلسفة الجوهرية

مارش فان كريبك
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجير
الاعلام التطبيقى

عبد مباح
لبحرية المصرية من محمد علي
للسادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

بوماس ليههارت
من المايك والبايترمي.

ادوارد دوبرو
التفكير المتجدد

ويليام ه. مانير
ما هي الجيواوجيا

موريس بير برليد
صناع الخلود

زيجمونت ميز
جماليات فن الاخراج

جوناثان ريلى سميث
الحملة الصليبية الاولى وفكرة
الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنايس القبطية القديمة
مصر ٢ ج

ريتشارد شاخست
رواد الفلسفة الحديثة

نرايم زرادشت
من كتاب الانسنا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارثيما

مورث ثيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكوللز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
الفلسفة السينمائية الامر

نفتالى لويس
مصر الرومانية

سيفر. ورمست

التاريخ من شمس جوليه ٣ ج

بوسى سراج واخرون
السينما العربية من الخليج الى
المحيط

فاس بكار
لهم يصنعون البشر

سليم محمد الجبر
مستويخت

برار كريم اس
من هم القطار

ج. س. فريزر
الكاتب الحديث وعالمه
٢ ج

موريل عبد الله
حديث الذهب
من روائع الاداب الهندية

لوريتو تود
سجل الى علم اللغة

اسحق عطيموف
الشموس المتفجرة
اسرار السوير لونها

مارجريت رور
ما بعد الحداثة

روبرت سكولز واحدا
الحاق ادب الخيال العلمي
د. من ديكر
المفهوم الحديث للمكان والزمان
د. هارولد
اشهر الرحلات الى بحرية الفيلسوف
د. هارولد
تاريخ الشرق في اسيا الوسطى
فلاور د. هارولد
تاريخ اوروبا الشرقية
د. هارولد هارولد
العلم في الملاحة
د. هارولد
الطبيخ
مستطفي محمود سليمان
الزلازل
د. هارولد
شمس المهنس
د. هارولد
المبليون
د. هارولد
لنظامات السامية
د. هارولد
تاريخ الشعوب العربية
محمود هارولد
الكتب العربية المكتوب بالفرنسية

وفريد هولز
 ثلاث ملكة على مصر
 خمس هنري برنارد
 تاريخ مصر
 بول هامبر
 الدقائق الثلاث الأخيرة
 مورف وهاري هامبر
 دينامية الفيلم
 ج. كورنبرج
 الحصار الفيلق
 ارنست هامبر
 في المعرفة التاريخية
 ايس. ايس.
 رمسيس الثاني
 جان بول سارتر واسرون
 مختارات من المسرح العالم
 روزالت. وجيك. هامبر
 الظل المصري القديم
 ميكلان ماير
 شارلوك هولز
 ميجيل دي ليجو
 الطران
 جوميهي دي لونا
 موسوليني
 الزير جراهام
 موتسارت
 علي عبد الرزاق النمر
 م. ت. من الشعر الاسلامي

السيد محمد الدين السيد
 اطلالات على الزمن الاتي
 مسرح عطية
 البرنامج النووي الاسرائيلي
 والامن القومي العربي
 ل. ابراهيم
 الحبيب
 ايفور ايفانس
 مجمل تاريخ الادب الانجليزي
 ميربرت ريد
 التربية عن طريق الفن
 وليام بيير
 معجم التكنولوجيا الحيوية
 الدين تولار
 تحول السلطة ٢ ج
 يوسف شرارة
 مشكلات القرن الحادي والعشرين
 والعلاقات الدولية
 رولاند جاكسون
 الكيمياء في خدمة الانسان
 ش. ج. جيمر
 الحياة ايام الفراشة
 جورج كاشمار
 لماذا نشب الحروب ٢ ج
 حسام الدين زكريا
 الطون بروكلر
 ارفاف هوجل
 المعجزة اليابانية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٧/٩٦٦٧

ISBN — 977 — 01 — 5409 — 1

كانت حياته كالشهاب الخاطف، لم يكد يومض حتى انطفأ ولفه
الظلام... ولم تكد مخايل نبوغه تلمع مبشرة بطلوع نجم فى فلك الأدب
والنقد حتى احتضر الموت عوده وهو فى نضارة الشباب.

وإذا أخذنا بمنطق المدرسة الأمريكية القائلة بإنسانية الأدب
وعالميته - بمفهوم إنسانى حقيقى لا على النحو الذى طرحه رينيه
ويلك - فإن دراسة فخرى أبو السعود تكتسب مشروعية كاملة فى
انتمائها إلى الأدب المقارن، والطريف فى الأمر أن كاتبنا المصرى كان
على وعى كامل بهذا المفهوم قبل أن يبلغ العقد الثالث من عمره وقبل
أن ينادى ويلك بنظريته بأكثر من عشرين سنة، وذلك حينما اتخذ
عنوانا شاملا لمقالاته هو «الأدب المقارن».

وإننا إذ نقدم هذه الباقية من مقالات فخرى أبو السعود بين دفتى
كتاب واحد فإنما نستحيى بذلك أثرا رائعا من تراث أدبنا النقدى
استطاع صاحبه أن يتبوأ منزلة الريادة فى ميدان جديد من ميادين
الدرس الأدبى وهو لم يناهز بعد الثلاثين من عمره.